الموسوعة الشامية في تاريخ أهل الدولة والصليبيين

مداخل التاريخ الموصلين المغرب والأندلس والبحر المتوسط

تأليف وتحقيق وترجمة

الاستاذ الدكتور سليم زكار

دمشق

الجزء الثاني

1415 هـ - 1995 م
منهل الى تاريخ الحروب الصلبية

(۲ - المغرب والاندلس والبحر المتوسط)
بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

أقيم فيما يلي الجزء الثاني من كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، وذلك أخذًا بالخطوة الموضوعة، وقد عالجت في هذا الجزء أوجه العلاقات فيما بين أحداث تاريخ الغرب الإسلامي وأوروبا الغربية، والحدود الشرقية، ليس بإسهام بل يكفي مقاصد التاريخ للحروب الصليبية، وكان الباعث على كتابة هذا الجزء ليس وحدة المواجهة الإسلامية مع أوروبا الصليبية شرقًا وغربًا. فحسب، بل للبرهة على أن الأمة العربية تمتلك تاريحا واحدا تفاعلات أحداثه - وما زالت - وتدخلا في الشرق والمغرب، وأنه من المطال تقديم بحث تاريخي مقبول علمياً انطلاقاً من القاعدة الإقليمية.

واهتممت بشكل خاص بقيام دولة المرابطين، وشخصية يوسف ابن تاشفين وإعماله في الأندلس بالنسبة لحركة الزلاقة ومن ثم إزالتها لدول الطوارف، وآثرت خلال البحث عدة مسائل جديدة توصلت إلى إجابات فيها أيضا بعض الجدة، ومكنتني من رسوم الأفق القومي وسلامته وخلوته من الشواذ، مع تتوفر ما يحتاجه البحث من مصادر مخطوطة ومطبوعة ومراجع حديثة، ففي أثناء إعدادتي للتدريس في فاس بدأت خلال ثلاث سنوات كل جهد ممكن ليس لتمييز معمار في تاريخ الغرب الإسلامي وإنما لاقتنا مصادر هذا التاريخ، وعلى سبيل المثال في مكتبتين الآن ثلاثة نسخ من كتاب روض القرطاس واحدة مطبوعة واثنتان مخطوطة، ذلك ان عبد الوهاب بن منصور تلABB بعض هذا الكتاب حين حاول إضافة بعض الخدشة عليه، وأصحح اني أسهمت في تحقيق كتاب الحلال الموسيقية، إنما امتلك نسخة خطية جديدة منه، ولم استخدمها أثناء
التحقيق، ثم إنني إهتمت مع من أهتمدي إلى معرفة مؤلف الكتاب يضاف إلى هذا أن صلاتي باقطر المغرب العربي متميزة، والحمد لله، وهذا ما مكتملي ومالعل عن الحصول على جديد من كتب التراث والدراسات الحديثة، خاصة مطبوعات دار الفرب الإسلامي، حيث تربطني بصاحب الدار صداقة قوية العري.

ولقد أوليتي البحر المتوسط والصراعات للسيطرة عليه وعلى جزره عنانيتي، ثم الحقت بهذا الجزء ملاحقة مفيدة فيها تسوقي وتوضيح وتبني.

الله جل وعلا يهدي إلى سواء السبيل، له تبارك وتعالى الشكر، والحمد، ومن كرهه وفضله وقدرته استمد العون واستجدي التوفيق، واستلهم الصواب، واطلب الباكرة والمثفية، وصلى الله على سيدنا ونبينا المثل الأعلى بين البشر ولكل البشر، محمد بن عبد الله وعلى الله وصحبه وسلم.

دمشق، 11/12/1993

سهييل زكار
الفصل الأول
المغرب والأندلس من الفتح حتى العصر المرازيغي

كان لفتح بلاد الشام على يد العرب المسلمين ثم اتخاذ هذه البلاد مقراً للخلافة الأموية أبعد الأثار على حركة انتشار الإسلام عالياً. فالسيرة الأموية كانت تعزف بلاد الشام من قبل، وتدرك أهمية سواحلها المتوسطية وموقعها البري الفريد الذي مكنتها من الاتصال بأوروبا الشرقية عبر آسيا الصغرى وبافرورية عبر مصر والهضبة الإيرانية وخراسان. ولبلد المستنقع الأقصى عبر العراق وبابل وبخارى وآذربجان وعالم البحر الخزر وكذلك البحر الأسود مع أجزاء من أوروبا الشرقية عبر الجزيرة.

وكان سكان سواحل الشام لعصور ما قبل الإسلام قد وصلوا عبر المتوسط إلى حيث وصلت الفتوحات فيما بعد، كما ان النساطرة والسريان كانوا قد وصلوا شرقاً إلى حيث وصلت الفتوحات العربية أيضاً فيما بعد، وكانوا باهل الشام الأول النبلة قد قاموا بحكم تواصل حلقات أحداث التاريخ بالتمهيد لنجاح حركة الفتوحات العربية، في تقبل سكان البلاد الفتوحية لدعوة الشروح الجديدة، فالفارق الأساسي بين حركة الفتوحات العربية وغيرها من أعمال التوسع العسكري لختلف الشعوب عبر العصور، هو في تحول سكان البلاد التي عرفها أهل الشام قبل الإسلام إلى الإسلام (1).

ولتعنينا الآن مسألة الفتوحات العربية في أسية بل الذي يهمنا هو المواجهة العربية الأوروبية، وبالتحديد المواجهة مع الأجزاء الغربية من أوروبا، فذلك سي.reverse لننا الحديث في الجزء الأول من كتاب المدخل عن العلاقات مع أوروبا الشرقية ممثلة بالأمبراطورية البيزنطية قبل قيام ما يعرف باسم الحروب الإسلامية، وسترد.
إشارات كثيرة إلى استمرار هذه العلاقات في الجزء الشمالي القليل، كما أن مختلف النصوص فيها موجهة نحو هذا الموضوع مع إشارات مفيدة للعلاقات مع الكرخ (جورجيا) حيث والجورب الصليبية مشتعلة في الشعب الشام كان الصراع الصليبي مع الكرخ على اشتهي حاملاً الألوان نفسها والسماط، وكان له انعكاساته المؤدية على ساحات بلاد الشام، فهذا الصراع كان وراء قيام الحكم العثماني في بلاد الشام.

وتمت المواجهات بين العرب وأوروبا الغربية في الأراضي المطلة على حوض البحر المتوسط وعلى مياه هذا البحر وفي سبيل التحكم به والسيطرة عليه وعلى جزره، وما يلفت الانتباه هو أن معاونية ابن أبي سفيان اهتم بالبحر المتوسط ونشط فيه منذ أن كان والياً إيا حكم الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (2)، كما أن المتفحص بعمق لحركة الفتوحات في العصور الأموي يرى بكل وضوح وجود خطى استهدفت السيطرة بشكل كامل على هذا البحر، فهو كالمال فتح المغرب تم فتح الأندلس والسيطرة الكاملة على واحد من منفذي البحر المتوسط، وأعقب هذا محاولة فتح القسطنطينية والسيطرة على المنفذ الثاني.

وأنجز العرب فتح بلاد المغرب العربي بعمليات بحرية استهدفت أولاً وقبل كل شيء السيطرة على سواحل المتوسط، ولهاذا شبابها بعض المناوشات والمعارك البحرية، وتفصيل البحرية جسارات الجيوش المسلمة إلى الأندلس، وهكذا لم يكتف العرب بتساقط بلاد أوروبا الغربية، بل غزوها فافتحوها شبه الجزيرة الأيبيرية، ومن ثم جذبوا في سبيل فتح فرنسا وسواها، وظل النشاط العسكري العربي في أوروبا كبيراً جداً حتى ما بعد انتهاء القرن العشرين للميلاد، حيث تغيرت الأحوال في القرن الحادي عشر بظهور النورمان وتمزق الأندلس واشتتاد حركة الاستقلال الصليبية فيها، ومع نهاية هذا القرن تحرك الحشود الهائلة من سكان أوروبا الغربية تزيد بلاد الشام، وهوساً عرف باسم الحروب.
الصليبية، لهذا هناك حاجة لدراسة ما شهدته ساحات المغرب والأندلس وجزر المتوسط من مواجهات، فكما أن أوروبا اجتمعت تحت راية الصليب لتحقيق غاية واحدة متفق عليها، فان الذي لم بالوطن العربي، لم يه شرقا وغربا، فالوطن العربي وطنه واحد، قطنه شعب واحد تفاعلت أحداثه وشؤونه بشكل دائم.

وهكذا كما درسنا في الجزء المتقدم أوضاع المشرق العربي مع عمقه الإسلامي في القرن الخامس الهـ الحادي عشر علينا. حتى تستكمل الصورة، أن ننولي بالدراسة أوضاع المغرب والأندلس وجزر المتوسط في هذه الفترة عينها، إنما هذا أشعر بوجود الحاجة التصوير روضح موجز لفتح المغرب والأندلس، ثم تاريخ الأندلس حتى عصر دول الأطوار، فبدون هذا العرض يصعب فهم العديد من القضايا، لاسيما أن الوطن العربي في المغرب لم يمتلك انذاك عمقيا إسلاميا كما الحال في المشرق.
فتح المغرب

طلق العرب على البلاد الواقعة إلى الغرب من مصر اسم المغرب، وهي البلاد التي تتضمن الدول العربية في الشمال الأفريقي: ليبيا، وتونس، الجزائر، والمغرب وموريتانيا، وتبعد لوادي المصادر العربية احتواه العرب بعد قيام الإسلام، بهذه البلاد بعد سنة 22 هـ، وقبل 6 هـ (642 - 647 م)، وعرف العرب سكان المغرب قبل الفتح باسم البربر، وجعلهم حين عرفوه بهذا الاسم قد ورشوا النسبية الرومانية، وانتصروا على جميع الشعوب ذات الأنظمة القبلية والحياة البدوية.

وحاول الكتاب العرب تفسير هذه التسمية الشاذة على قاعدة علم الإنساب، مع أن البربر انفسهم لم يسموا انفسهم هكذا بل الأحرار، وتعرف بقاءهم الآن باسم `الشلوج`، وهم بشكل عام عند العرب الأوائل كانوا ينسللون من كتلة بشريتين رئيستين هما: البربر والبربر، وقد ضمت كل كتلة منهم عدد كبير من القبائل النفطانية الأحجام والأدوار، ومن المرجح أن قبائل البربر جميعها قد تكونت عبر فترة التاريخ من العرب الذين هاجروا إلى الشمال الأفريقي بحرا من سواحل الشام مثل الفينيقيين وسواهم، وأهم من هذين من موجات المهاجرين عبر مصر، فقد قبل إن `المور` هم من بقايا الهكسوس، والهة من مصر إلى بلاد الشمال الأفريقي لم تنتهي، ولذلك عندما قام الفتح العربي للمغرب وجد العرب قبائل البربر تشتبههم في عادات وأنماط العيش والطائبات والأشكال، وبناء عليه عدت حركة فتوحات المغرب حركة تحرير مثل تحرير بلاد الشام والعراق ومصر.

ووجد العرب الحياة المدنية في المناطق الساحلية، أما الداخل
فسادتها الحياة البدوية، وفي هذا المقام يلاحظ أن جل مدن المغرب الداخلية تأسست بعد انتشار الإسلام هناك، ومن المقرر أن غالبية المدن الساحلية كانت قد تأسست على أيدي الفينيقين.

وعانى العرب كثيرا أثناء فتح بلدان المغرب، وبنغلوا جهودا كبيرة في تحريرها ثم في تعميرها بشكل نهائي. ويمكن تقسيم تاريخ المغرب في الإسلام إلى فترتين واحدة سبقت قيام الهجرة السماوية والهلالية، وأخرى جاءت بعدها، فهذه الهجرة كانت حدثاً فيضلا في تاريخ المغرب الكبير وصيفته نهائيا بالصيغة العربية.

وجاءت المؤثرات اللغوية والحضارية والثقافية إلى بلدان المغرب من مصر والشرق العربي، ومع هذا جاءت بعض المؤثرات من روما ثم روما الشرقية، إنما كانت ضعيفة وسلطوية فقط. ومع أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تدين بالمسيحية، فإنها لم تصل إلى المغرب بوساطتها وكانت الكلدان في المغرب عمليا لكونهما القسطنطينيون ولكنها روما، وحين طرق العروبة أبواب الشمال الأفريقي كانت المناطق الساحلية خاصّة بحليكم بيزنطة، وهناك انتشرت المسيحية، وعلى العموم شاهد المغرب المشرق من حيث المواريث الدينية، فقد كانت هناك مؤثرات مسائية مع المؤثرات الكتابية وكانت هناك ثقافة طاغية ومنتشرة في مناطق الداخل، وكما في المغرب ارتبطت الوثنية في المغرب بالبداوة كنقطة حياة.

ومن المفيد الإشارة إلى أنه نظرًا لأن بلدان الشمال الأفريقي ارتبطت بشكل مباشر بالفترة الأفريقيا السوداء، فقد وجد فيها عناصر سوداء ذاتها في جسم المجتمعات المغربية، وأثرت آثار الإسلامية ودولها التأثير الكبير على سكان القارة الأفريقيا، وبعد قيام الإسلام وانتشرت في المغرب منه انتقل إلى شعوب القارة الأفريقيا، وساعد قرب سواحل المغرب من سواحل شبه الجزيرة العربية في قيام هجرات بشرية إحيانا كهجرة الوندال، كما أن الواجهة الغربية من سواحل إجزاء هامة من غربي أوروبا خصوصاً إيطاليا غارت...
بعض المهاجرين الأوروبيين بالقدم إلى بلاد المغرب، لكن لم يتجمَّع
عن هذا تغييرات عرقية أو اجتماعية عميقة.

وبعد هذه المقدمات العامة إذا ما انتقلنا إلى الحدثين عن فتح
الغرب: نجد أنه بعدما فتح غمرق عمرو بن العاص سنة 22هـ - 643م
ففتح الإسكندرية زحف نحو ليبيا فافتتح طرابلس وليلدا وصيراته، وانتزعهم من أبدي البيزنطيين. ثم أخذ
وجه سراياه في غزوات استطلاعية لفتح الاستراتيجي، وهكذا
امتك العرب ما احتاجوا من معلومات عن اوضاع تونس التي
دعاها باسم إفريقية، وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب
باستثناء في الزحف نحو إفريقية، لكن الخليفة رفض خشيته التغرير
وقال: "لا إن إفريقية غادرة مغدور بها"(3).

ويستفيد من هذا النص وسواء أن العرب قد توقفت لديهم
معلومات كافية عن أرض إفريقية مع السكان، وأنهم وضعا
خططهم لفتحها لكنهم تربوا لجمع ما يكفي من قوات وتأمين قاعدة
الجذب والزحف العسكري، اتخذو طرابلس قاعدة، لكن كان لها
خطرًا مأثرة لوقوعها على الساحل المتوسطي، فقد كانت ببراطسها ماء
تزال تلك قدرات بحرية كبيرة، ونجى على العوام أنه إذا كان فتح
مصر وليبيا أشبه بجزء عسكري، فإن فتح بقية أجزاء المغرب كان
من أقصى المهام وأكثرها عنفا.

وكان بعدما توفي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب استخلف عثمان
ابن عفان، وتبعت هذه التغييرات التغييرًا آخرًا في جهار الدولة في
مصر: فقد قام عثمان بﲈزل عمرو باب العاص عن ولاية
الفسطاط، وأقدر ولاية مصر مع ولاية المغرب إلى عبد الله بن سعد
ابن أبي سرح، وكان قبل ذلك شريكًا لهم باب العاص في
الولاية، لكن حين أبى عمرو أن يقبل كماسك البقرة بقردتها وأخرى
بحلها، عزله عثمان، وذكر خليفة بن خياط أن عزل عمرو جاء
سنة 27هـ - 648م، وأوضح ابن عبد الحكيم أن ابن أبي سرح
اخذ بعد تسليمه منصب، بعد المسلمين في جرائم الخيل كما كانوا

- 10 -
يفتون في أيام عمرو فيصبيون من أطراف إفريقيا. وعندما اكتملت القوات العربية إعمال استطلاعها تقرر القيام بالعمل الاستراتيجي، فبعث ابن أبي سرح إلى عثمان يستأنف في غزو إفريقيا ويعمل. وكانت إفريقيا تحكم من قبل البيزنطيين، وكان على رأس السلطة فيها قائد اسمه جرجير، وتبعاً للمصادر العربية كان جرجير هذا قد شارك في الامبراطور البيزنطي وأعلن استقلاله، واتخذ من مدينة سبيبلة مقراً للحكم، وبعدت سبيبلة هذه قربة السبعين ميلاً عن قروان المستقبل وكانت على درجة عالية من القوة والحصانة.

وأولى الخليفة عمران الجيش الذي أمده ابن أبي سرح عنة كبيرة، فجعله يحوي مشاهير رجال العرب وأشرافهم مع عدد من الصحابة وكبار أبناء مشاهير الصحابة مثل العبادلة عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وذلك بالإضافة إلى مروان بن الحكم، ومعبد بن العباس ابن عبد الملك، وعبد الرحمن بن أبي بكر وغيرهم كثير.

وعندما التقى الجيش العربي بجيش جرجير، وجد العرب أنفسهم أمام جيش أكثر عداً وأحسن تسليحًا وعبداً، وقامت مناوشات بين الطرفين لعدة أيام، ثم قام ابن أبي سرح بوضع خطة محكمة للالتحام بأن قسم قواته إلى قسمين: قسم شارك في الالتحام بينما كمن القسم الآخر. ومن ثم عمرو النجاحيين خرج الكمين العربي، فأوقع هزيمة ساحقة باليزنطيين، وسقط جرجير بين القتلى، ففي المشرق عندما هزم العرب جيشًا بيزنطيًا في الشام، وجيش الفرس في العراق، وإيران خلصت لهم البلاد، ودان لحكمهم السكان المحيون، لكن هنا في المغرب اختفت الوضاع، فبعد أراذل العرب فتح البلاد ساحلاً وداخلًا، وأخليهم البيزنطيين سبطرًا على السواحل، وباقي عليهم خوض معارك مربكة لسيطرة على المناطق الداخلية التي لم يكن لبيزنطة سيطرة عليها، ووادت كل بقعة منها لزعماء قبلي محلي.
هذا ولم يتمكن ابن أبي سرح من استغلال نصره المبين بالتوغل داخل الأراضي الغربية، وسُبب هذا ما واجهه من قلاقل داخل صعوبات غيابه، فقد روي أنه حصل على غنائم عظيمة، وفاء توبيغ هذه الغنائم بشكل غير عادٍ، مما أثار حفظه الجند، وكان بالتالي بمثابة شرارة أولى أدت بعد تطورها إلى المساهمة في الثورة على عثمان وقيام احداث الفتنة الكبرى، ومن المرجح على هذا ان النصر على جرجر كان آخر معركة كبيرة خاضها العرب في المغرب في العصر الراشدي، وبما أن الغنائم كانت توسع بعد الفتنة مباشرة، فإن القلاقل الناجمة أزالت ابن أبي سرح على عدم متابعة جرجر واستغلال نصره، حيث تصالح مع قبائيم البيزنطيين على تراثة قنطار من الذهب، على أن يكف عنهم ويخرج منها بسلام، (2).

وتنجزت أحداث الفتنة الكبرى التي أودت بحياة الخليفة عثمان ابن عفان، وفي اثناء خلافة الأئمة علي بن أبي طالب، تقلب على ولاية مصر عدد من الولاة، لم تخلص الولاة لواحد منهم، وعندما ات الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان أعطى ولاية مصر إلى عمرو ابن العاص، وفق بنود تفاهمهما قبيل الحرب في صفين، وعندما عمرو بن العاص إلى الفسطاط يدها النشاط العسكري العربي واستثنا حركة الفتنة، في سنة 41 هـ (عام الجماعة) ولي عمرو بن العاص، وهو على مصر، عقبة بن نافع الفهري وهو ابن خاله عمرو - إفريقية - وقام عقبة بعدة غارات في داخل إفريقية، وفعل الشيء نفسه في العام التالي، ثم في العام الذي تلاه، وهو العام الذي توفي فيه عمرو بن العاص (3).

ويرجح أنه في سنة 45 هـ ـ 665 مل، أصدر الخليفة معاوية بن أبي سفيان لسمية معاوية بن حجيج شؤون إفريقية، وهذا فصل عن ولاية مصر وأفردها، وجاء هذا نتيجة لعدة عوامل كان منها - كما يبدو - قيام واحد من قادة جرجر واسمه جناديوس بالقبض على ناصبة الأموي هناك بعده، وظل وفياً لوعود الذي قطع للعرب من قبل
بقيادة ابن أبي سرح، إنما في أثناء انشغال العرب بالحروب الأهلية، حاولت يزيد بن معاذ إعادة نفوذها إلي إفريقية، فبعثت بواخر من قادتها إلى هذا لكنه اخفق بعدما التقى مع جناديوس في معركة ومن ثم اضطر إلى مغادرة الشمال الأفريقي والعودة إلي حيث أتى، على أنه ما لبث جناديوس نفسه أن وجه تحركا داخليا لم يستطع التغلب عليه، لأن ذلك غادر إفريقية واتجه نحو معاوية بن أبي سفيان، فكان إن ارسل معاوية جيشا بقيادة ابن حذيفة قبل بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل، ومضم بين صفوفه عدد من مشاهير العرب كان منهم عبد الملك بن مروان، وزحف جيش ابن حذيفة بعد ما وصل إلى مصر من الاستكراد إليها برقعة وطرابلس، وتولى هذا الجيش حتى المنطقة التي استقام فيها مدينة القيروان، وهناك علم بنزول حملة بيزنطية في منطقة غابات الزيتون بين سفاس وسوسة، فارسل ضدها وحدة من قواته طردها، ومحتل ابن حذيفة عدة مواقع وأقام مدة سنة تقريبا يبث سراياه ويعمل الفارا داخلا إفريقية، وإثر هذا عاد إلى مصر، ولا ندري ما الذي حل بجناديوس الذي كان يحققه، وكل الذي يعرفه أن ابن حذيفة عاد إلى مصر دون أن يبرم عهدا أو اتفاقية مع طرف من الأطراف ذات السلطة في إفريقية، وعلى الرغم من عودة ابن حذيفة إلى مصر يرجع أن بعض القوات العربية بقيت معسكرة في طرابلس، ومن هناك كانت تقوم بـالغارات الاستطلاعية.

هذا ويمكن عد ماتم حتى الآن من أعمال عسكرية في الشمال الأفريقي مجرد أعمال تمهيدية للفتح الدائم ونشر الإسلام وتعريب البلاد، وكان هذا العمل الحاسم قد بدأ مع سنة 50 هـ - 670 م، وربط باسم عقبة بن نافع الفهري، ففي هذه السنة، وجه معاوية عقبة بن نافع إلى إفريقية ففطر القيروان، ومن ثم ثلاث سنين، ومع أن عقبة لم يكن قائد الجيش الوحيد الذي عمل في هذه السنة في الأراضي المغربية، حيث أن مساعدة بني مخالب واليمن ببعث معاوية بن حذيفة على رأس جيش توغل داخل الأراضي المغربية، فإن الذي حققه عقبة بن نافع كان بعيد الأثر، وعلى
رأس ما حققه كان إقامة مدينة القيروان، التي اقيمت بعيدا عن الساحل في موقع استراتيجي داخل البحرический فتلت قاعدة عربية متقدمة للفتوح عسكريا وثقافيا ودينيا واقتصادياً، المركز الأول الذي حمل مسؤوليات اعمار الشمال الإفريقي وتحرير الأرض والسكان بشكل دائم وثابت.

وهذا يحيط العرب أخيرا بناء القيروان بهالة خاصية وقديسية قاتلة. فقد كان مع عقبة بن نافع في عسكره خمسة وعشرون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه حينما وقع اختياره على موقع القيروان أقبل يدعو لها ويقول في دعائه: اللهم اصرفوا عنا وفتحا وأعمراً بالمطيعين والمآذين واجعلها عدا لديك وذل من كفر بك، وأعز بها الإسلام وامتعها من جبارية الأرض، وبعد هذا وقف على واديها فقال: «يا أهل الوادي اطعمنوا فإننا نازلون، وإننا من وجدناه قتلتاه» ونظر الناس يعد ذلك إلى أمر معجب من أن السبعات تخرج من الشعر تحمل أشبالها والنهب يحمل جروحة والحياة تحمل أولادها، وهنا نادي عقبة في الناس «كفوا عنهم حتى يرحلوا عننا».

يبدو أن هذا ما كان الاستعراضي ما قام به عقبة حين شرع في اتخاذ مساره حيث أنه أمر كما يبدو بطرح النار في البقعة التي اختارها لتنظيف ما كان بها من أشجار وأعشاش وغير ذلك، وتطور هذا المسار في مدينة حملت اسم القيروان، وهي لفظة عربية مثلها مثل لفظة فسطاط تعني معسكر الجيش أو القافلة أو معظم الجيش.

وظل عقبة في منصبه حتى سنة 55 هـ - 766م، ففي هذه السنة أو قبلها وضع الخليفة معاوية بن أبي سفيان ولاية إفريقية تحت لواء والي مصر مسلمة بن مخلد، فقام بعزل عقبة وأرسل جيشاً إلى إفريقية جعل على رأسه خالد بن ثابت الفهمي، وأمره ان يستخلفا الـ«المهاجر ديناراً» وكان الوالي الجدد مـ...
الانصار، وكان مؤلي لسلسلة بن مخلد، ويدو أنه اسأء معاملة عقبة عندما تسلم أعماله منه
(٧).
ولا نملك تفاصيل كثيرة عن أعمال أبي المهاجر، سوى أنه لم يقم في قيروان عقبة، واتخذ لنفسه مскорبا خاصا على ميلين منهما، معروف باسم تيكرمان، وظل أبو المهاجر في منصبه حتى ما بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان، وقيل غير هذَا، لكن يرجح أن معاوية أشترك معه غيره في الولاية في سنة ٥٧ / ١٨٧٧، ووجه معاوية بن أبي سفيان خسارة بن العثمان الفساني إلى إفريقية، فصالحه من يلده من البربر، ووضع عليها الخرار، فلم يزل عليها حتى ممات معاوية(٨).
وبعدما عزل عقبة من منصبه، توجه نحو بلاد الشام حيث لقي معاوية بن أبي سفيان فقته عليه عزله، فطاب معاوية نفسه ومناه، ومكث عقبة في دمشق حتى ما بعد وفاة معاوية واستبناهما الأمور لا يشبه، حيث قام بإعداده إلى ولاية إفريقية، وربما ثم هذا سنة ٦٦ هـ - ١٨٨١ م، وفي ولاية عقبة هذه وصلت الفتوحات العربية إلى أقصى المغرب، وفي ذروة النجاح هذا أصيب العرب بنكسة كبيرة كانت تحققها كلما حصلوا عليها في السنين المقبلة.
خرج عقبة من الشام مسرعا نحو مصر، وكان يصحبه بعض القوات الشامية، وعندما مر ببصر اعتذر له مسلمة بن مخلد من فعل أبي المهاجر، فقبل عقبة منه ومن سرعنا لحلفا على أبي المهاجر حتى قدم إفريقية، فأوقع أبا المهاجر بالحديد، وقرر بخراب مدينته، ورد الناس إلى القيروان.
ثم عزم بعد هذا على الغزو، وعندما تحرك شرك في القيروان جندا استخلف عليهم زهير بن قيس البليوي، وتحرك عقبة فاجتاحت في تحرك المغرب الأوسط فهزم من تمتصدي له من بقايا القوات البيزنطية والقبائل البربرية، ودخل المغرب الإثني فهرمز كل من اعتراض سبيله، ودخل طنجية، فلقعه رجل من الروم يقتل له اليان، وبعدما حصل عقبة على بعض المعلومات توجه نحو السوس.
الأدنى فهزم من قاويمه من البربر، ومضى كذلك حتى دخل السوس الأقصى فاجتمع به البربر في عدد لا يحصى فقاطتهم فتالا شديداً ما سمع أهل المغرب بمعته، وقتل منهم خلقاً عظيماً وأصاب منهم ذسعاً لم ير الناس في الدنيا مثلهن.

وكان هدف عقبة الأساسي في حملاته دعوة الناس إلى الإسلام، ويرجع أن كثيراً من قبائل البربر أعطت إسلامهم، وحين قالت المؤرخون العرب إن عقبة قد وصل إلى السوس الأقصى، وهناك اقتحم المحيط ببرشه حتى وصل الماء إلى تلابيبه وقال: يارب لولا هذا البحر لضيت في البلاد مجاهدا في سبيك، هذا يعني أنه كان يرثى ببضهر نحو أوربة، ولم يفكر قط في التوغل داخل أفريقيا السوداء، أضاف إلى هذا أن المقصود بالسوس الأقصى هنا مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي.

ولقد كانت الانجازات التي حققها عقبة عظيمة جداً، وكانت الغنائم كبيرة، وعندما فكر عقبة في العودة نحو القروان أرسل الكسداء الأكبر من قواته مع العيال والغنائم، وأبقى لنفسه قوة صغيرة، وكان معه أحد زعماء البربر وأسسه كسيلة، وقد استطاع كسيلة هذا أن يهرب، ومن ثم قام بحدود رجال قبائله، وبالوقت نفسه تحالف مع بقايا بوز القاومة البرتغالية، وقبل أن يصل عقبة إلى منطقة القيروان سمع لا الاستياء على مدينة تدعي تهود، ووبيد أن حصاره لهذه المدينة اتاح الفرصة أمام كسيلة للتحرك وقطع الطريق على عقبة، وعلى مقربة من تهودة، وعلى حين غرة وجد عقبة نفسه أمساك جمع كسيلة، فلم يتردد في الاشتباك مع هذه الجموع في معركة إنتشارية سقط فيها هو وجميع من كان في صحبته ولهذا كان سنة 384 م، وفُن عقبة حيث استشهد، وبعد فترة غلب اسمه على الاسم القديم للمدينة فأصبحت تُعرف بسيدي عقبة، وقيل عقبة له مكانة عالية في ذوق أهل المغرب العربي الكبير، و بصورة عقبة هناك صورة المثل الأعلى للبطل العربي المسلم، وعقب مصرع عقبة زحف كسيلة بجموه نحوه.
القيروان، فخرجت العرب منها ولم يكن لهم بقتلاله طاقة لتعظيم ما
اجتماعهم معه من البربر والروم، والمساومة الفيزير، وبقي بها
اصلاب الأردن والأندلس، فأرسلوا إلى كمال ماساندين أكبر
فانهم وأجابهم، واقام كمانتة حتى نزل القيروان، وأقام أميرا
على إفريقية، وقد بقي من بقي من المسلمين تحت يده، فمازال
على ذلك إلى أن ولي عبد الملك بن مروان، (3)

ولقد توافق مصرع عقبة مع الفترة التي تمضحت عن وفاة يزيد بن
معاوية والحروب الأهلية في الشام والعراق والجزيرة العربية، لكن
ما إن استقرت الأمور وخلقت الخلافة لعبد الملك بن مروان حتى
بادر بإبعاد إلى زهير بن قيس البلوي نائب عقبة في القيروان;
والذي كان قد أسس منه وراجم في بحرة يبعث إليه بأمره
بالخروج على اتعت الخيل إلى إفريقية ليستنقق القيروان ومن فيها
من المسلمين. وكتب له زهير بن قيس يعرف بكثرته من اجتماع إلى
كمانة من البربر والروم يبستهم الرجال والأموال، واستجاب
عبد الملك لطلبها فانزع إلى أخيه عبد العزيز بن مروان، وعلي مصر
بتوجيه الإمدادات إلى زهير وقام هو قدوره فتوجه إليه وجهاً أهل
الشام، وعثى إليه الأموال، وكان هذا سنة 18 هـ / 638 م
ورافح زهير باتجاه القيروان، وعندما دنا منها أنسحبت كمانتة من
قربها إلى مكان يدعى مسيا على مسيرة يوم واحد من القيروان.
وكمانتة كمانتة أكبر من حملت زهير، والذي دعا إلى
الانسحاب خشيته أن يخرج عليه أهل القيروان، وفمعدانيا فيه
بين فكي الهمس، والتقى الجيشان في مصما، والتحموا في القتال.
ونزل الصبر، وكان القتال في الفريقين حتى بين الناس من الحياة.
فلما ركزا كذلك حتى انتحم كمانتة وقتل، وقمت قوات زهير
بملاحظة فلول جيش كمانتة، وإعادة السيطرة العربية على المغرب
واستمر هذا حتى سنة 30 هـ / 650 م حيث رحل زهير قابلاً إلى
الشرق، وكان السبب في عودته ما بلغه من أخبار عن قيام بيزنتية
بإنزال قوات أغارت على برقة وغيرها من المناطق مستقلة غياب
زهير، وأصاب البيزنطيون سبيا، وأموالاً للمسلمين كثيرة، وعندما
شروع زهير بالعودة. أمر العسكر أن يمضوا على الطريق، وأخذ على ساحل البحر في عدة من أشراف الناس مجددين مبادرين رجاء أن يدرك سبي المسلمين، فأشرف على الروم، هما في خلق عظيم، فلم يقدر على الرجوع، واستفاق به المسلمون وصاغوا، والروم يدخلونهم المراكب، فنادى بِما يصادبهم، النزول رحمكم الله، فنزلوا، وكانوا رؤساء الصحابين وأشراف العرب. فنزل إليهم الروم فتلقواهم بعدد عظيم، والتحم القتال وأعانوا بعضهم بعضًا، وكلاً علىهم الروم فقتلوه زهيراً ومن مه وهم المسلمون جميعًا فما أقبلت منهم رجل.

ووصلت أنباء مصرع زهير وصيده إلى الشام إلى عبد الملك، فعظم ذلك عليه، وبلغ منه لفظته ودينه، وكانت مصيصة مثل مصيبة عقبة، وكانت جهود عبد الملك مصورة أذن كلياً للقضاء على أبين الزبير، لذلك كان لابد من الانتظار لاعداد حملة جديدة، وستأتي هذه الحملة مع استناد أمور الدولة الأموية في المركز، مما سيمكن من صرف الجهود لثبات السلطة العربية ولنشر الإسلام بين سكان المغرب.

وبعدما توطدت الأمور لعبد الملك، وثم له القضاء على أبي الزبير، انتهى نحو قضية المغرب، فجهز جيشاً كبيراً، عهد بقيادته إلى حسن بن النعمان الفضائي، ويدعو أن هذا كان سنه 22 هـ/642 م، وبعدما وصل إلى مصر غادرها إلى طرابلس وفرماً قرر التوجه نحو قرطاج طبقاً لخطية جيدة ووضحة، فقد أراد أولاً القضاء نهائياً على الوجود البيزنطي في المغرب، وكان هذا القضاء يرتج من الوحدة القوى العسكرية الأجنبية النظامية، وظل حسن يظن أنه إذا نجح بذلك سهل عليه ما بقي، وهو القوى البربرية للقبائل المتمردة.

وفعلاً نجح حسن في فتح قرطاج، وذلك بعد جهود كبيرة، بد أنه ماكداح بخيل إليه أن المغرب قد دان له حتى عرف بقيام تحالف بين قبائل الأوراس تحت زعامة أميرة أفرغت بالكافنة والتقى.
بقواتها في معركة عنيفة انتزعت فيها حسان بعدما فقد عدداً كبيراً من أفراد قواته. وقام بالانسحاب نحو طرابلس. وهكذا تخلت العرب مرة أخرى عن إفريقية. وقام حسان في طرابلس بما يقرب من خمس سنوات حتى وصلته إعدادات كبيرة من الشام. فعاد أخذ طريق إفريقية، واتجه مع قوات الكاهنة استطاع أن يوقع فيها الهزيمة ويدخل الكاهنة نفسها. ولقي حسان في صراع مع الكاهنة مساندة بعض البربر وغيرهم من السكان المحليين. وذكى أن الكاهنة عمدت إلى سياسة تدميرية مريعة للعمران في إفريقية. فقد فاتل لابتعابها. "إن العرب إذا يطمون من إفريقية الدنيا والذهب والفضة، ونحن إذا نطلب منها المزارع والمراحي، فما نرى إلا خراب إفريقية حتى يسياسوا منها، ويقل طعمهم فيها".

وبعد القضاء على الكاهنة خلس المغرب للعرب، ودخلت أعداد كبيرة من سكانه في الإسلام، ونعمت البلاد ب십시오 وافر من الاستقرار. وبدأ العرب ينظمون أحوال البلاد ويقومون إدارة خاصة بها. وكان حسان بعد هزيمته الكبيرة قد تخلى عن مدينة قرطاج- العاصمة القديمة لإفريقية. وبعد هذا قام ببناء مدينة جديدة على مقرها منها، جعلها مركزاً جديداً لإفريقية، وداراً لصناعة المراكيح، وعرفت هذه المدينة باسم تونس، واستمرت هذا الاسم من قرية كانت قريبة منها عرفت باللاتينية بتنس.

ويبدو أن نجاحات حسان وإنجازاته بالغرب قد ضايفته عبد العزيز بن مروان. أخذ الخليفة وولي عهده وحاكم مصر، فقام عبد العزيز بعزل حسان وولي مكانه موسى بن نصر، ولهذا كان سنة ٨٤ هـ (١٠٣ م). ٩٧

وإن عد حسان بن النعمان الفاتح الذي أوجد شخصية المغرب العربي، فإن موسى بن نصير ثبت ملامح هذه الشخصية ووضحها. هذا وتختلف المصادر حول تحديده سنة استلام موسى بن نصير لولاية المغرب، فبعضها يذكر أنه استلمها أيام عبد الملك بن مروان، أي قبل وفاة عبد العزيز بن مروان، وكان عبد العزيز قد توفي سنة
وجاء حكم موسى المغرب حديثاً حاسماً في تاريخه، فقد نشط هذا الوالي المجري نشاطاً عسكرياً كبيراً إلى أقصى المغرب، إلى حيث وصل عقبة من قبل. وتمكن هكذا مسح الحصور على طاعة جميع قبائل المغرب وإعلان قبولها للإسلام، كما أنه استطاع تصفية جميع ما تبقى من جيوش المقاومة في الدن والقلاعة والحصون، ولم يقتصر نشاط موسى على البر فقط، بل قامت بعض قواته بغارات على سواحل مغربية وشبه الجزيرة الأيبيرية، وبدعها دان المغرب جميعه لموسى. وبعدما تجمعت لدى موسى الإمكانيات البشرية والمادية، وبعدما غدا بإمكانه تجديد بعض القوات من البحرين الذين دخلوا في الإسلام، شرع في تنفيذ خطط جديدة تتواءم مع أهداف الخلافة بالسيطرة على البحر المتوسط، وتماشياً مع ما تفرضه الجغرافية على التاريخ، فما من قوة وحدت المغرب إلا وحاولت السيطرة على شبه الجزيرة الأيبيرية، هذا من جانب ومن جانب آخر، عندما كانت قوى شبه الجزيرة هذه تخفق في التوسع داخل القارة الأوروبية، تنطف نحو الشمال الإفريقي (12) .
فتح الأندلس والتوسع في أوربة

من المقرر أن فتح الأندلس قد جاء مثل غيره من الفتوحات العربية تنفيذا لخطط الفتح التي اعتمدت في أيام الوليد، واستهدفت فيما استهدفت السيطرة على حوض البحر المتوسط وعلى منفذيه مضيق جبل طارق والبوسفور، ومع ذلك إن هذا الفتح يختلف بعض الشيء عن الفتوحات الأخرى، ولذا السبب نحن بحاجة للبحث فيه ضمن أطر خاصة ومسارات ذاتية، ذلك أنه إذا كانت الفتوحات في اسبانيا وأفريقيا أعمال توسع للدولة العربية ونقلاً للإسلام إلى أراضي متاخمة للأراضي الإسلامية ومتصلة بها وممتلاة معها، فإن ما تم هنا هو الانتقال من قارة إلى قارة، ويواجها هنا سؤال هو: لماذا قصر العرب فتوحاتهم على الشريط الجغرافي المتقلب بسكان بضعة بشرة، وليما لم يتوسّعوا في وادي النيل للوصول إلى الحبشة، ثم لم يتوسّعوا داخل أفريقيا السوداء بعد اكتشاف سيطرتهم على الشمال الأفريقي؟

وقبل أن نقدم الإجابات المعطنة لهذا السؤال من المفيد الإشارة إلى أن هناك من ذهب في أيامنا إلى القول إن العرب لم يفتحوا بلاد الأندلس، ولم يكن هناك أعمال عسكرية بقيادة طارق أو موسى، بل الذي حدث هو توسع حضاري وثقافي، والجحش القديمة هنا فيها شفرات كبيرة وأغفال لها قلقية أن فتح الأندلس لمثل غيره من الفتوحات ما كان لينجح ويكتب له الاستمرار والعطاء بدون الإسلام عقائدياً وحضارياً وثقافياً ونظماً.

واجه انتكاس عملية الفتح في كتاب حمل عنوان، العرب لم يغزوا الأندلس رؤية تاريخية مختلفة، وهذا الكتاب ترجمة مصوحة لكتاب ألف بالاسبانية وصدر عام 1974 لباحث اسباني اسمه اندرياس اواغي، وتولى الترجمة بتصريف الاختصار اسمه الأمين

- 21 -
الواضح أن الترجم يمتلك معلومات فقيرة جدا عن التاريخ العربي بشكل عام والتاريخ الأندلسي بشكل خاص، ولهذا عجز عن ضبط جيل الأسماء العربية، واستهدف الترويج عن طريق الأثارة على قاعدة مخالفة المألوف، وليس من أجل خدمة الحقيقة العلمية، ثم إنه ليس لديه خبرة بعلم التأريخ عند العصر في المغرب شم الأندلس، مع جهل بما حدث خلال العصور الوسطى الإسلامية.

وإذا ما عدننا للإجابة على السؤال نجد ابن خلدون يروي في تاريخه أن البربر ارتدوا أثنتي عشرة سنة من طرابلس إلى طنجة، ولم يستقر إسلامهم حتى أجل طارق قومه بن نصير إلى الأندلس، بعد أن دخل العرب، وأجاز معه كثير من رجال البربر وأمرائهم برسم الجهاد، فاستقروا هناك من لدن الفتح، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وانع الإبريق لحكمه، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتساعوا الربة.

هذا وفي الوقت الذي جاء فيه ابن خلدون فتح الأندلس حسنا لشراكي المغرب نجد قبيله البربر يجعلي هذا الفتح يقوم لمحماية المغرب من مخاطر هجوم يأتى عن طريق الأندلس، فجاءه في هكذا حملة المسلمين على الأندلس بمثابة هجوم وقائي، وليس توسعا مثل بقية الفتوحات.

إن في كل من هذه التعليقات الكثير من الصواب، إنما يمكن أن يضاف إليها تماسات أخرى يجلبها المؤرخ الخلاص ويسخرج أدلة من سياق الحوادث، فإن بالإضافة لسياسة العرب تجاه البحرين المتوسط لاحظ أن التوسع في الشمال الأفريقي كان حركة تحرير للجزء الأفريقي من الوطن العربي، الذي تمت بجهود وجوده في أعماق التاريخ، وتتحدث معاه وترسخت بفضل الإسلام، وتعمل هذه الظاهرة مرتبط بانتشار العالم الإسلامي إلى شترين: عربي وآخرين، ثم إن العرب لم يتوسعوا داخل أفريقيا السوداء لأسباب اقتصادية واجتماعية بشرية حضارية، ثم هناك مشكلة التصور الجغرافي والمعرفة بأقاليم الأمم الأخرى وبلدانها، فلقد كانت
افريقيا السوداء عالما مجهولا بالنسبة للعرب، كما أنه كان عالما في غاية الفقر، مراحه قليلة. يحتاج نشر الإسلام بين شعوبه الوثنية إلى وقت طويل ووجهات متواصلة. بضافه إلى أنه فتحه كان سيكون على درجة عظيمة من الصعوبة بالنسبة للعرب الذين اعتدوا على الأرض المكشوفة والأقاليم المحتلة، فهناك من يقول: يعيش العربي حيث يعيش الجمل وحيث ينبت الزيتون، هذا وكان للعرب تجارب مريرة غير مشجعة حينما حاولوا التوسع في أراضي النووية والتتوغل في وادي النيل، وبالنسبة لانتشار الإسلام في أفريقيا بفضل قوة وفعالية معتقده العقائدية والحضارية مع نẫمه، وللذى جامع هذا الانتشار بدون تغريب، لكن الذي حدث بالأندلس كان تعريبا كاملا لقرن طويل.

وفي الوقت الذي جهل فيه العرب إلى حد كبير أفريقيا السوداء كانت لديهم معلومات جيدة عن أوروبا وخاصة عن الأندلس وصقلية وبعض جزر المتوسط، فقد أن فرغ العرب من بناء قوتهما البحرية في عهد عثمان بن عفان أخذت أساطيلهم تجوب البحر المتوسط وتتم الدفارات وتتخوض المعارك ضد أساطيل بيزنطية وغيرها، ولهذا كانوا لديهم معلومات عن الأحوال السياسية والاجتماعية والبشرية والاقتصادية والدينية لشبه الجزيرة الإيبيرية وصقلية، والواقع أن هذه الأوضاع هي التي دعتهم إلى العبور إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، وهي التي سببت لهم النجاح، وهنا نجد أنفسنا بحاجة للقيام باستعراض لأحوال شبه الجزيرة الإيبيرية وتاريخها قبل قيام الفتاح الإسلامي وأيام حدوت الفتح.

كانت شبه الجزيرة الإيبيرية تحت حكم القوط الغربيين الذين كانوا قد دخلواها في سنة ١٤٠م، وذلك بعد هجرة الفنادل إليها. وقد تملكوا المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد، ثم مدوا نفوذهم عليها جميعا وتسبوا في هجرة الفنادل إلى الشمال الأفريقي، ومن الفنادل نالت الأندلس تسميتها ( فنادسيا) وكان القوط مسلم غالبية القبائل ذات الأصول الجرمانية، يؤمنون
بالنسبة إلى إنشاء عقيدة إسلامية، تعتبر الطبيعة السيدة المسيحية وERVERE، هذا في حين كان
الآباء الذين ((السوسسورية)) يؤثرون بالكاثوليكية، لذا كان
الوفاق منهما وبينه وبين الفيزقوط، ولم يكن في شيء الجزيرة
الإيبرية، وحيدة وطنية أو اجتماعية، وفي عام 895 اعتنق ملك
الفيزقوط الكاثوليكية، وهكذا امتنع بعد ذلك قيام دولة موحدة
تسيطر على جميع شبه الجزيرة الإيبيرية، أي أسبانيا اليوم على
جزء من جنوب فرنسا الحالي.

في هذه البلاد كان هناك طبقة من النبلاء العليا احتككت لنفسها
السلطة المتعددة مع الكنيسة، وكانت الدولة نوبة الكرملية، لكن
المؤسسات الملكية فيها كانت ضعيفة، لأن الملك كان ينتخب من بين
رجالات الطبقة النبلاء وبساطتهم، وهذا ما لم يكن هناك قانون ثابت
للملكة، ولا بدًا موطرًا لراوة العرش، وقد جرت بعض المحاولات
من قبل عدد من الملوك لتأمين العرش لأبنائهم بعد موته ومعة
إشرافهم في الحكم أيام حياتهم أو بالتنازل عن العرش، ولم تمر هذه
المحاولات دون معارضة شديدة من قبل النبلاء أصحاب المطاعم
والنزاعات السلبية والاستقلالية، مما كان يسبب الاضطرابات
الدورية والقيلقات المستمرة، وكان هناك مؤامرات مستمرة لتحلي
الحكم بعد وفاة الملك.

يضيف إلى هذا أن ملوك فيزقوط كانوا يعانون من الضغط
بسبب طبيعة جيوشهما وأحوالها، فقد كان - من ناحية - على كل حك
قادر على حمل السلاح القيام بخدمة الملك، لكن بسبب تركيبة طبقة
النبلاء وعائلاتهم بالعرش وأسباب أخرى نجدهم مسقين
الفيزقوط، بعيدًا - فعليًا - من القرن السابع من الصعب جدا
جميع جيش قاد.

والإلى جانب النبلاء، تشكل شعب شبه الجزيرة من الآنار الذين
انحدروا من أصل إسباني - روماني، أي كانوا نتائج الاستعمار
الرومانية في أسبانيا أيام الإمبراطورية الرومانية، وبالإضافة إلى

- 24 -
العاصمة ، وكان هناك ظالم اجتماعي واستغلال وبالتالي كانت هناك شكوك مع تدمر دائم ، ولا شك أن هذا سهل عملية الفتح العربي حيث نظر الناس إلى المسلمين كمحررين ونجح أن أخبار ما أحدثه الإسلام في الشمال الأفريقي مع مؤثرات اسلامية قوية قد وصلت إلى شبه الجزيرة العربية قبل وصول الفتحين ، ولذلك ساعد بعض الأساسي العبد ، وقيل إنهم عمتا ولم يقاموا ، كما كانت الكنيسة الإسبانية مستبديت تتميز بالطغيان والجهل وبسادة التمصب ، وكانت المدن الإسبانية أيام الفيزقوط تعيش في أحوال متردية ، إذ أن هؤلاء المسلمين كانوا قوما بدائيين همهم للتجارة والصناعة والثقافة ، بل لكل ما هو متصال بالحضارة ، وكان في المدن الإسبانية جاليات كبيرة من اليهود ، ولم تست выход الإسبانية مع الكنيسة معاكسة اليهود ، ونظرت اليهود نظرة سوء وأصدرت عدة قوانين وقرارات لتصدير اليهود ، وهكذا جعلتهم في أوضاع أصبح فيها من المستحيل عليهم متابعة ممارسة العمل بالتجارة وغيرها من صناعات المال ، وقال: جعل هذا يهود إسبانيا يتأثرون مع يهود شمال أفريقيا ضد الحكم الفيزقوطي ، لكن لم يكن لهؤلاء اليهود أي سلطان أو نفوذ من أي نوع على السلطات العربية في المغرب ، إنما يلاحظ أن يهود إسبانيا قدموا للعرب ما احتاجوا إليه من معلومات عن إسبانيا ، وبعدما نزل العرب إلى الأندلس وقروا الفيزقوط قدم اليهود لهم بعض المساعدات المفيدة وعملوا بمثابة أعداء لجيوشهم.

وكогда نستعرض أخبار العرش الإسباني قبل الفتح نجد حسب المواريث الجرمانية ابا وأبينا يحكمان شبه الجزيرة الإيبيرية منذ عام 787 م ، وقد أراد الابن واسمه ويتزا إن خلافه احا أولاده واسمه اختلافاً فقام بتعيينه دوما على القسم الشمالي الشرقي من المملكة ، وعندما مات ويتزا في عام 741 م رفض فريق من النبلاء الاعتراف بأختياراً ، وقيل إنهم انتخبو رودريك (عند العرب لرهب) ملكاً ، ومع هذا احتفظ أختياراً بعدونه حتى أنه ضرب تقوله.
الخاصة، واعترف رودريك مغتصباً، وسعى إلى خلعه عن العرش، واعتلاه هو بنفسه.

بخصوص رودريك ضد أخيل أكثر من معركة، وعندما نزل المسلمون في شبه الجزيرة الإيبيرية كان رودريك متشغلاً في الحرب بالشمال، وعندما تحدث المصادر العربية عن فتح الأندلس نرى بعضها يذكّر أن أخيل، أو واحداً من أخوائه، اتصل بطريق بن زيد الذي كان معسكرًا في طنجة مع قوة مؤلفة من أنثى عشر ألف مقاتل، وقال له: "أن أبي مات وثوب على مملكتنا بطريق (أي نبيل). يقال له نذر، وبلغوني أمركم فجئت اليكم أدعوكم إليها (اسبانيا). وأكون دليلك عليه، ولاكت هذه الدعاة أثنا صاحبة من طريق وقوت عزمته على غزو الأندلس، واستنفر البربر.... وجعل بحمل البربر في مراكب الججار التي تختلف إلى الأندلس، ولا يشعر بهم أهل الأندلس، ولا يظلون إلا أنها تختلف مثلما كانت تختلف بهم من منافعهم ومعايشههم ومتاجرهم، فجعل ينقلهم فوجاً فوجاً إلى ساحل الأندلس.... فلا لم بيق إلا فوج واحد ركب طرق ومن بقي معه فجاز إلى أصحابه، فنزل بهم جبلاً من جبال الأندلس حريراً منيعاً، فسمع ذلك الجبل من روماً جبل طرق، فلا يعلم إلا به، ومسمى بن نصير بالقرطبة لا يعلم شيئاً من هذا، وتنكر روافد أخرى أكثر عداً أن الذي اتصل بالعرب هو حاكم سبته البيزنطي، واسمه البولان (بوليان). وانه هو الذي حضر المسلمين على غزو شبه الجزيرة الإيبيرية لأسباب شخصية، حيث فقد أراد أن ينتمق من رودريك لأنه كان قد أوعى فيه بالله إبنته، فعادى رودريك عليها ودنس شرفها، فعادت إلى أبيها فشكت عليه ما بلغته به، وما أن بوليان كان في وضع لا يملك فيه من القوة ما يكفي لينتمق من رودريك، فقد حضر العرب على حربه، وأمهم بما أرادوه من معلومات عن الأندلس، ثم اعترفوا بإياها إلى شاطئ الأندلس.

وتتكرّن مشكلة هذه الرواية في طابعها الخيالي، فبوليان كان
بيزنطيا، إن تبع لبلدان فلسطين القسطنطينية، وهكذا هو لم يتبع بلاد رودريك ان وجد لديه بلاد وكان من غير المعقول لبيزنطي في الشمال الأفريقي أن يرسل ابنائسه إلى الفيزيجوتوت البدائيين، ويتترك القسطنطينية البلد الحضاري المقدم، وليتذكر أن سببة مدينة ساحلية مغربية، وأن أرض المغرب بأكملها دانت بالطاقة للعرب، وعلى هذا أن وجد يوليان فقد أصبح من اتباع الدولة العربية، يضاف الى ذلك أن العرب ملكوا قوة بحرية خاصة بهم منذ قرابة سبعية عقود من الزمن، وخاضوا بهذه القوة عدد كبيرا من المعارك وهاجموا صقلية وقبرص وغيرها من جزائر المتوسط، هذا البحر الذي بدأ يتحول الى بحر شامي اسلامي.

وقد شك بعض المؤرخين الحديثين في أن تكون شخصية يوليان شخصية تاريخية، هذا وحين ترجع الى الأدوار إلى عقبة بن نافع نسمع باسم شخصية بيزنطية اسمها اليان، اتصلت به قرب طنجة وامتدت بمعلومات عن بحر الأندلس، بأنه محفوظ لا يرام، كما امتدت ببعض المعلومات عن برير السوس الأدنى.

وحن إذا ما عدنا الى القصة الأولى يصحب علينا أن نصيد قيام طارق بالعبر الى شبه الجزيرة الإيبيرية دون الرجوع الى رأي موسى بن نصير وأوامرهم، ثم أيضا يصحب علينا أن نتصور أن يقدم موسى على الغامرة بجزء شبه الجزيرة الإيبيرية دون اخذ موافقة الخليفة في دمشق، لعل الذي حدث هو أنه تجمع عن العرب معلومات جديدة عن احوال الأندلس، كما تلقوا دعوات وعود بالعون من قبل التجار اليهود وسواهم، كما شجعوا الوضع المتردي في شبه الجزيرة الإيبيرية سياسيا واجتماعيا ودينيا، وكانت هناك عمليات توج على جميع الجبهات وفق خطط سبب وضعها.

وقيل عن موسى بن نصير حبه الشديد للفنانين، وشهوة طاقية للشهرة واكتساب المجد، لذلك حين وجد نفسه وقصدان له المغرب، ووجد في صفوف قواته عدد كبير من البربر، أراد أن يقوم
بمغامرة مربكة، فكان أن أخذ موافقة دمشق، ثم قام عام 91 هـ - 510 م بارسال أحد قادته واسمه طريف بن مالك على رأس قوة تتالف من اربعمئة مقاتل للقيام بغارة استطاعية على شواطئ جنوب اسبانيا، ونجحت غارة طريف التي وقعت في مكان مازال يحمل اسم طريف، وعاد طريف بحمل الغنائم والمعلومات، وشجعت المعلومات موسى على القدام، ومع ذلك لم يترك موسى جانب الجنرال، فقام في عام 92 هـ - 511 م بارسال طريق بن زيدان، وكان قائدًا بربرياً ابخله موسى في قواته، فقام بارساله على رأس سبعة آلاف مقاتل ثم أمده بخمسة آلاف مقاتل أخرين من البربر لغزو شبه الجزيرة الأيبيرية، ولم يرسل موسى جندياً عرباً مع طريق، لأنه أراد أن لا يخصبحه بعربيه، وإن ينتظر فإن كان النصر، استطله لصالحه وصالح جندته العرب، وهذا ما كان.

في هذه المقوله وصم موسى بالانتهارية واللامسؤولية، وقصر النظر لأن إرسال الجنود البربر لوحدهم والتفرير بهم يدل على انعدام الشعور بالمسؤولية، وأن هؤلاء إذا ما أخفقوا وقتلوا سيثور عليهم وقبائلهم وموسى الذي كان شيخًا مجيدًا ما كان له يقدم على مثل هذا العمل، ثم ابن أمراء جبهة وأعوانه من التسببين المسلمين الانقراض، ولهذا إن تناجاه رقابة إدارة دمشق وصراحتها ؟! وهكذا نقرنا في مخطط مجهول المؤلف حمل عنوان: ذكر البلد الاندليس لما أنههى ملك البلدان إلى لذريق القوطية، وانتهت خلافة المسلمين إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان الوليد حازماً فاضلاً مواطناً للجهاد ناظراً في ضبط شؤونه ومصالح رعيته، فلما ولي واستقام له الأمر أمر قواده بغزو الروم في البر والبحر، ووكل على إفريقية موسى بن نصير اللخمي، فخرج موسى غازياً من إفريقية إلى طنجه، فلما وصل إلى بلاد طنجه فرقت قُبائل البربر أمامه إلى المغرب والسوس الأقصى خوفاً منه، فسار في أنهم يفتح البلاد وحسن ويومن من آمن ويتقل من كفر حتى فتح جميع بلاد السوس الأقصى، ثم رجع إلى إفريقية وقد استقام له أمر المغرب.
وترك وعاليا على طنجة مولاه طارق بن زياد وبصحبته ... من العرب 
وبعثي عشر ألف من البربر وكانوا قد اسلموا وحسن الإسلامهم ، 
وترك معه جماعة من القراء والفقهاء يعلمن البربر القرآن وشرائع 
الإسلام، فأقام طارق بن زياد بطنجة ففتح الأندلس، وكان طارق 
من البربر من قبيل جنده، وكان محببا في الجهاد، فعزم على غزو 
الأندلس، فدعا برجل اسمه طريف وكتب نبرة زرعة، فتقد له على 
اربعمئة رجل ومائة فارس، وجوزهم إلى الأندلس في أربع سنين 
برسم الجهاد والتطلع على أحوال الأندلس ومن بها، فجاز أبو 
زروة، ونزل بطرف، وله عرفت طريق إلى اليوم، فلم يزل 
بطرق أغار على الخضراء، ففجأ وقعت ورجل أتى إلى طنجة 
فأخبر طرقة بعيش البلاد وكثره نعمها وخيراتها، فأنشأ طرقة في 
إنشاء السفن والاستعداد إلى الجسر إلى الأندلس - يعني 
الأندلس - برسم غزوه، فجاز إليها في شهر رمضان المعتظم ممن 
سنة اثنين وتسعة للهجرة في جيش من أثني عشر ألف مقاتل: 
عشرة آلاف من البربر والفين من العرب وسبعمائة من السودان ... 
وقيم إنما كان يوم طرق وجوه المسلمين تزولوا في أصل جبل طارق ، 
وهو جبل الفتح، ثم صعد إلى الجبل فبنى بكمته حصناً عظماً ، 
ففتحو به هو ومن معه من المسلمين ».

على هذا لم تكن العملية مغامرة فيها تغريء، بل تمت وفقاً لتحضير 
طويل، ففي طنجة تعلم الجند البربر وحسن الإسلامهم، وجادوا 
إلى الأندلس ومعهم الفين من العرب وسبعمائة من السودان، وذكر 
السودان له دلالات التي قد تفيد أنهم قد جدروا من أطراف السوس 
الأقصى أو غير ذلك من الأطراف، وأنه سوف لدى المسلمين محا 
احترامًا إليه من وسائل العبور. 

هذا وفي بعض مصادرنا العربية المتاخرة، خاصة دفع الطب المقر
ر أن طرقا عبر مع جنده على سفن قدمها له يونان، وبعد العبور قامت 
طرقا بجرب السفن أو بخرقاها، ثم وقف بجنده خطابية عبرية على 
درجة عالية من الوضوح والفصاحة، وكان مما قاله: « البحر ممن
وراءكم وال العدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر.

وشكوك الباحثون في أيامنا في صحة هذه القصة وقَالُوا إنها مصنوعة، ولعل صانعها استعارها من قصة مشابهة وردت في الأغاني في أثاث الحديث عن غزو الأحباش لليمن، هذا وإن كنا نشتكك بصحة حرق السفن أو خرقها لأن تستبعد قيام طارق بالخطبة في جنده لأجمنجوش الإسلام كأن المن عادتها ووجد الذكرى فيها، فهي هما، وقيام الخطباء ببعض الجنود وتشجيعهم وصحبهم من وقوعهم في سراح الملك للطرطشي، وهو مؤلف أندس، صنف كتابه في مصر في القرن الخامس هـ/الحادي عشر للميلاد. ومن أثر طارق مولى موسى بن نصر إلى بلاد الأندلس ليفتحها، ومنسوبي ذلك بإفريقيا، خرجوا في الجزيرة الخضراء وتحملوا في الجبل العظيم، فطمطعت الروم فيهم، ولقيهم طارق، وعلى خيله مغزد الرومي مولى الوليم بن عبد الملك، فاقتتلا ثلاثة أيام أشد قتالاً، وفرات طارق ما الناس فيه من الشدة، فقام، فحصصهم على الصبر ورجعوا في الشهادة، وسبط في آمالهم ثم قال: إن المفر للبحر عن وراءكم وال العدو أمامكم، فلايس إلا الصبر منكم، والنصر من ربك، وانها فاعل شيءًا فافعلوا كفعلاه، فالله لأقدص طاباً، فامنا أن أقتله وما أن أقتل دونه، فاستوى طارق من خياله، وعرف حلية ذروته وجهيه، وحمل عليه حملة رجل واحد، فقتل الله ذروته بعد قتال ذريع في العدو، وحمل الله المسلمين، فلم يقتل منهم كثر شئ، وانهزم الروم.

ومهما يكن من أمر لقد نزل طارق في جنوب الأندلس في نيسان، أو مايس من سنة 711 م، وكان الموقيت قد اختير بشكل يدقق، فقد كان روبرت أيزاً من العلماء وجاهزه، وقد خلف وراءه بعض الحراسة على الشاطئ، يقول ابن الكرديوس في نص فريد: وهو بعد بعض الروم ووقفاً في موضوع وطأء كان قد عزم على النزول فيه إلى البر، فمنعوه منه، فعدل عنه ليلاً إلى موضوع وعر
فوطاه بالمجاذف وبرانع الدواب، ونزل منه في البر وهم لايطلمون، فشلن غارة عليهم ووقع بهم غنمهم ورحل نحو قرطبة.

وهران تمكن طارق وجنده من تأسيس قاعدة لهم في مدينة الجزيرة الجنوبية، وشرعت القوات المسلحة في أعمال الاستطلاع البعيدة والابغرة على المناطق الداخلية، وниذقت اخبارهم في ارجاء شبه الجزيرة كله، وحين سمع رودريك بخبر طارق اسرع نحو الجنوب فالتحم مع المسلمين في معركة في 19 تموز، أي بعد انقضاء قرابة الثلاثة أشهر على جوازهم، وهي فترة لاشك أنهما كانت كافية بالنسبة لهم لأكمال خططهم ومشاريعهم وجلب النجادات والمؤن والمعدات وشراء الأعوان أو العملاء.

وأستمر القتال بين رودريك والمسلمين قرابة الأسبوع، وتعرف المعركة باسم معركة وادي لكة - أي وادي البحيرة - وقيل أن قسمًا من جنده تخلى عنه أيام القتال، وكانت المعركة معركة حامية اقتنع فيها الطرفان قتالًا شديدًا، فوقع الصفر حتى يبدأ الناس على الفناء، وتساقطوا باللأيدي، وضرب الله عز وجل وجموع اعدائه، فانهزموا، وادرك لذويه فقتل بوادي المدين وركبت أثارهم، وكان الجبل وعرا، فكان الباربر اسرع منهم على اقدامهم، ووضعوا فيهم السيف، لعدة أيام فانادوهم.

لقد قضى طارق في هذه المعركة على القوة العسكرية الرئيسية للفرقة، كما دمر نظامهم وأجبر على جهاد مؤسسة الحكم في شبه الجزيرة الإيبيرية، ولاشك أنه لاحظ أن الانكسار أصبحت بلدا مفتوحة أمامه، فلم يحمل به، وبين تلتهما قوة لهاء أثر بتكرر، فانهزم أولا نحو مدينة قرطبة فأخذها، ثم قرر الاندفاع نحو طليطلة عاصمة البلاد، واهتم المراكز الاستراتيجية فيها، ونتاؤ في تلك الأثناء بعض المساعدات المحلية، كما واجه بعض المقاومة، وأحتل طليطلة دون مقاومة كبيرة، وبعد ذلك أرسل بعضين استطلاعية نحو سرقسطة.

وكان موسى بن نصير يتابع أخبار طارق، وقد اتخذ استعداداته.
للتدخل، وهكذا عندما بلغنا ما تحقيق لطارق من انتصارات تتحرك هو
بدوره من إفريقية نحو طنجه، ثم عبر على رأس قوة عربية قوامها
ثمانية عشر ألف من الرجال، وكان ذلك في تموز سنة 712م، وهنا
لم نسمع بهوink مشكلا تعلشت بوسائل العبء من سفن وسوعى
ذلك.
واندفع موسى نحو مدينة إشبيلية فافتتحها بعد مقاومة. ثم افتتح
منا أخرى صغيرة، وبعد ذلك اتبع شمالا ضد بقبة من القوط
كانت قوية تجمعت بعد انسحابها في ماردة، حيث تحقنت وظلت
تقاوم الحصـصـار الأسلامي حتى يوم الفـطـر
لسنة 94 هـ - 30 حزيران لسنة 713م.
وبعد ما اتبع موسى نحو ماردة يرجح أنه التقى بطارق، ولعل
هذا اللقاء وقع في جهات طنجة، وتعطي مصادارة هذا اللقاء لينا
درامتيكيًا خاصًا، حيث تذكر غالبيتها أن موسى عاتب طارقا
ورحبه، لابد عاقبه بضربه، ويبعد أن شنبًا من هذا القبيل لم
بحصل، وكل الذي كان لم يتجاوز عتاب لطارق على توجيه دون
الوقوف عند اوراره، فتره ضاء طارق بقوله، إنما هذا الفتح لانما
انا مولاكم، فأقبل موسى منه، وسار بعد ذلك الاثنين إلى طليطلة
حيث أمضيما شتاء 713م - 714م، وفي هذا الوقت بالذات بدات
أولى الأعمال التنظيمية للبلاد المفتوحة، وضرب موسى أول النقود
 الإسلامية في أوروبا.

ومن طليطلة أرسل موسى التابع علي بن رباح مع مولى الخلافة
مغفي الرومي إلى دمشق ليخبر الخليفة الوليد بن عبد الملك بـ نتائج
الفتح، وفي السنة التالية سار موسى ومعه طارق شمالا فافتتحا
سرقة، ومن المحتمل إنهما أرسلوا من هناك حملة استكشافية
وصلت حتى أربونة، لأن المملكة الفينيقية كان من ضمنها أراضي
من جنوب شرقي فرنسا، بما في ذلك أماكن واقعة على البحر
المتوسط.

ويبعد أن موسى ارتأى هنا أن مشاكل المناطق الغربية يشـبهه

- 32 -
الجزيرة الإيبيرية كانت أكثر الحاجة وأهمية، ولذا تحرك نحو هذه المناطق فتغول في منطقة استئناف الساحلية، وكان في تلك الأثناء قد قام طارق باحتلال ليون واستئنافاً كما تقدمه ارغون، وتشير بعض المصادر إلى أن موسى أخذ بعد العدة للفيجل في داخل أوروبا، وذهب بعض العناصر إلى القول أنه كان في رأسه خطة الوصول إلى القسطنطينية وخصوصاً وجماعتها وساراً، فتحجها، يقول المؤرخ الفرنسي رينو في كتابه عن غزوات العرب وفتوحاتهم في فرنسا وإيطاليا وسويتسا: "ان خطة موسى بن نصير كانت تقضي بأن يعود هو وجيشه إلى دمشق عن طريق المانيا وميضق القسطنطينية وأسيا الصغرى بحيث يحيط بالبحر الأبيض من كل جانب ويجعل بحيرة إسلامية تتوفر طريق المواصلات بين مختلف الولايات الإسلامية".

وهناك من يرى أن هذا القول ضرب من الخيال يشير بالبنان إلى جهل القاثرين فيه بجغرافيا أوروبا، ولاشك أن موسى كان يعرف مالديه من قوات، وكان لابحث ما وراء البيروني من أراضي وشعوب، ولايدرك مدى قواتها.

ومع قوة هذه الحجة، علينا أن نذكر أنه بعد موسى بعدة قرون تمكنت جهتاح الصليبيين من العبور من أوروبا الغربية ووصلت إلى فلسطين على الرغم مما لاقتته من مقاومة، أضيف إلى هذا أنه إثر وفاة الوالي بن عبد الملك ارسل أخوه وخليلته سليمان حملة برية وبحرية لحصار مدينة القسطنطينية، مما لاشك فيه أن قطع الاستول الذي اشترك في هذه الحملة مع المعدات ورما القوات جرى اعدادها منذ أيام الوالي، ففكرة الفتح هذه كانت موجودة، ثم ان امتلاك المسلمين للمعلومات الكافية عن أوضاع أوروبا أمر لابد فيه، لهذا يمكننا ترجيح امكانية تفكير موسى بمشاركة الفتح، ويقول رينو: "من المؤكد أن المسيحي قد واجهت أعظم الخطر، في ذلك الوقت، وإن المرء ليترك عندما يفكر فيه، كان يمكن أن يحدث لو لم يقع الشقاق في وقت مبكر بين المنتصرين".
وقصد رينو هنا بمسألة الشقاق، ماروى عن حدوث خلافات بين
موسى وممارض ثم المشاكل التي وقعت فيما بعد في بداية عصر
الولاها. وذكر المصادر العربية أن موسى بعدما انتهى إلى أربونة
اراد لقاء ملك أرفيئة، فأخذ حسن الصنعاني - وكان من كبار
المتابعين - بلجاه وقال سمعته أليها الأمير تقول حين فتحت
طنبجة: لم يكن لعقيلة ولا لأبي المهاجر من ينصمها، حتى انتبت
انصحب اليوم، فارفع فقد نزلت بال笈سنين. 

ولنشك أن رينو ارتفع تعصبا، مع أن عم فتح أوروبا حرمها
من عشمة نور التوحيد والحضارة والقيم الإسلامية وأبقاها تعيش في
ظلام العصور الوسطى لقرن مديدة، أضاف إلى هذا أن جل
أوروبا لم يكن مسيحيا بعد بل كان وثنيا.

والذي حدث أنه في نهاية صيف 714 م تم استدعاء طارق وموسى
إلى دمشق، ونحن لا نملك معلومات مؤكدة عن استدعاء هاذا
الاستدعاء، ويرجع أن الوالي بن عبد الملك أراد أن يعرف من موسى
أخبار ما فتح الله على المسلمين، وبدرس معه خطط
المستقبل، ولهذا اراد أيضا أن يحاسبه على ما حصلت من غنائم وما
انتقه، يضاف إلى هذا أعل الوالي، خشي من النزاعات الاستقلالية
لدى موسى. خاصة بعد ما راجع عين ولده عبد الله على افريقيا، ولله
عبد الملك على المغرب، ثم ولده عبد العزيز على إسبانيا ليحكم شبه
الجزيرة الإيبيرية منها، وبعد ما سمع عن تصرفات موسى التي
تشابه تصرفات الملوك ومن أنفيها كميات كبيرة من الأموال، مثلكن
في هذا المقام أن موسى كان زبيري
الهوى، شارك في معركة مركز راهط ضد مروان بن الحكم.

خلاصة القول سار موسى مع مولاه طارق من شبه الجزيرة
الإيبيرية في خريف 714 م، وكان بصحبه فقيلة كبيرة افرط
الكتاب العرب في وصف ما حويته من أموال وتحف وجواهر وجوار
حسن وزعمه بربر وقوط واسبان.

وتتحدث المصادر غير الشامبة أنه بعد ما جاوز موسى مصر وكان

- 34 -
«بالعيش جاهه كتاب الوليد يستعجله ، وجاهه كتاب سليمان يأمره بالتربيص ، وكان سليمان ولي عهده ، وكان الوليد مريضًا بدير من غوطا دمشق ، فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان ، ودفع الأموال إلى الوليد ... فلا رأي ذلك طارق دخل على الوليد وهو مريض ... وأخبره أن موسى تعبد في أمثال المستسلمين وانفعله ... فصدقه الوليد ... وكتب موسى وامرأ بحبسه ... ولم يلبث الوليد إلا ثلاثة أيام حتى مات ...

وبوقع لسليمان بن عبد الملك بالخلافة حين توفي الوليد ، فسخط على موسى ، وقال له : يا يهودي كتبست اللك فلم تنظفي في كتابي ، هل مائة اف ، قال : يأمر المؤمنين قد أخذتم جميع ما في يدي ، فمن اني لي بمانه انف ، قال : لا بد من مائتي الاف دينار ، فأعتذر إليه ، فقال : لا بد من ثمانمائة الاف ، وأمر بتدعيبه ، وعزم على قتله ، فلما موسى بن نصير إلى يزيد بن الحب فاستجار به ، وكانت ليزيد ناحية أن سليمان فاستوهبه دمه ، فقال : يؤدي ما عده».

والنفقات في هذه الرواية عديبة ، فمحورها من حيث المبدأ مسألة الخلاف بين طارق وموسى ، ومحاولات طارق للانسجام من موسى باتهامه بالتحرش بالأموال وغير ذلك ، ثم كيف لنا أن نصدم توقعات سليمان بن عبد الملك وفاة الوليد الذي كان دون الخمسين من عمره ، إلا إذا اعتقدنا بأنه تأمر على حياته ، وهذا ما لم يرد ذكره ، اضف إلى هذا أن سليمان بن عبد الملك الذي كان يعيش في فلسطين بعيدا عن دمشق لم يمتلك جهازا إداريا ولم يمتتح ببابة صلاحيات حتى يرأس إل الولاة والقادة، ويتدخل بشؤون الخلافة ، واكثر ثقة من هذه الرواية ما أوردته ابن عساكر في تاريخه في ترجمته الموسعة لموسى ، فله أكثر ثقة لأن موسي قضى السنوات الأخيرة من حياته في دمشق ، والموارد الشامية لهذا مرجعية على غيرها ، وفي رواية ابن عساكر ليس لطريق بين زياد سوء إشارة عرضية ، ولم يعرف رواة ابن عساكر على كثرتهم وقدمهم شيئا عن خلاف بين طارق وموسى ، أو عن كتابة سليمان لوسى وغير...
ذلك، فهناك اجماع على أن موسى سار متوجها إلى الشام حتى قدم على الوليد وتحين يوم الجمعة، فلم يجلس الوليد على المنبر. أما موسى بن نصير فقد ألقى ثلاثين رجلاً تجاتها على كل رجل منهم شجاج وثياب ملك ذلك الشجاع. ثم دخلوا المسجد في هيئة الملك، و أمر الملوك الجزارين أكابر الروم فهيزوا وابناء ملوك البربر وملوك الإسبان، وأقبل موسى بن نصير بالثلاثين الذين أطلقهما التيجان حتى دخل بهم مسجد دمشق والوليد يخطب، فلما رأهم نهض اليهود، فاقبل حتى سلم على الوليد، ووقف الثلاثين على يمين المنبر وشمالاً بالتيجان، فأخذ الوليد في حمد الله والثناء عليه والشكر بما أبدوه وفتح عليه نصره، فاطفال حتى فات وقت الجمعة، فصلى وانصرف، وأجاز موسى بجائزة عظيمة، وأقام موسى بدمشق حتى مات الوليد.

ويرجح أن وصول موسى إلى دمشق قد كان يعد اكتسال بناء الجام الأموي، هذا ولم يتجرم ابن عساكر لطارق بن زياد، غير أنه ذكر أن سليمان بن عبد الملك طالب موسى ابن نصير ببعض الأموال، وعندما حج سليمان سنة سبع وسبعين، حسج معاه موسى، فمات موسى بالدينة في هذه السنة، وقيل توفي بوادي القرى، وهو ابن ثمان وسبعين سنة، وذلك أن توليد موسى تسع عشرة.

هكذا كانت نهاية موسى، ولاندري بشكل متفاهم، بطرق، ولاشك أن الزمن قد طار، بعدما طوي موسى لكن ما كان للتاريخ أن يطوي أخبار جليل ما حققه من فتوح (14).

عصر الولاة:

دعنا العرب البلاد الجديدة التي اجتاحاها باسم الأندلس، وكما سلف بي التقول، يعتقد أن ماذا الإستعمار سستدر عن كلمة Vandalia نسبة إلى الغزاة من قبائل الفندال، وقد استخدم هذا ليشمل ما فتحه العرب وحكموه من شبه
الجزيرة الإيبيرية، وهو يطلق الآن على الجزء الجنوبي الشرقي من إسبانيا حيث عاش بقية العرب في الفترة ما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر.

وبدائل بعض الذين يجحدو في تاريخ الأندلس وقالوا إن العرب لم يتركوا الأندلس بعدما فتحوها، الأمر الذي تخيله البعض الذين يحتفظون بها ويرفضون صومعها، واكتشاف هذه المسألة فيهما مغالطة وتشويه فالعرب ذهبوا إلى الأندلس فاستقعوا مجاهدين في سبيل الله ولم يذهبوا كمرتزقة، وليس في تاريخهم ما يشير إلى أنهم تقبلوا فكرة الارتداد، والذي أشرف على فتح الأندلس هو الخليفة الأموي الذي كانت أعظم دولة في عصرها واكتشافها وتنظيمها وثقافة، لهذا تحولت الأراضي المفتوحة في شبه الجزيرة الإيبيرية لتشكل جزءًا من ولاية دار الإسلام، وقاعدة لمزيد من الفتوح في أوروبا الغربية وجزائر المتوسط، والولاية التي غدت الأندلس جزءًا منها هي ولاية إفريقية أو الغرب، وشملت الأن الشمال الأفريقي مع شبه جزيرة إيبيريا، وكانت الدولة العربية دولة تمتد من حدود الأصين إلى شروط البحر، ومن شواطئ المتوسط في بلاد الشام حتى جنوب فرنسا، وكانت هذه الدولة الشاسعة التي جمعت لأول مرة في التاريخ أراضي وسواحل من القارات الثلاث للعالم القديم تحت لواء أسرة واحدة وعهد واحد يتوحد واصحة الإسلام، والمسلم وغذامة مقدسة فيها حضرة وإخوة للغة غير محدودة، محضة بذلك للمرة الأولى الأمريكية العقدية.

ومعرف أن هذه الدولة قد أبدلت من قبل خليفة كان مقربًا الرسمي مدينة دمشق، لكن على الرغم من ذلك، ولاستباب عديدة، كان بلاط هذا الخليفة متحركاً، وكان النظام الأدبي لهذه الدولة يرتكز على مدار الدور، لكن ب🦋فاء عالية وحجم وسُدود، وكان كل شيء في هذة الدولة الشاسعة متعلقًا بالخليفة، وتميز الخلفاء من بني أمية بشكل عام بـالرجولة، وبالقدرات الإدارية والسياستية المشمورة وكان لكل منهم جهاز
استشารى واسع الخبرة والفهم، ومع هذا تتأثر أشراف الخليفة
على الإدارة والسلطات في الولايات بلطبية العصر، بما تولد عن
أحوال الموانئ وعن حال العلاقات بين الخليفة وبين القوى
العامة التي احاطت بعشرة، أو كان لهما زاوية سياسية
وعسكرية، وعندى هذا القبائل العربية وأشراها، ولم يسند
الثواب بين هذه القبائل وعاشت دوماً في صراعات أطلق عليها اسم
العصبية القبلية.

وعين الخلفاء عدا من الأعوان لمارسه بعض الوظائف المختلفة
بالدولة، وكان أهم هذه الوظائف وظيفة أمراء الجند، وكان قائد
كل جيش يتحول بعد انتهاء عملية من عمليات الفتوح قام بها، إلى
حامي مدني يعاونه جهاز إداري يتولى أمور المال والقضاء وغير ذلك
من الوظائف، وكانت الخلافة تعين أحياناً الجبالة والقضاء، أو
تنرك أمر تعينهم إلى القادة، وكان كل واحد من هؤلاء القادة
يعرف بالعامل أو الوالي ويحمل لقب أمير، ونظراً لطبيعة الدولة
والعصر كان كل واحد من الدولة حاكم مستقل إلى أبعد الحدود.

وفي الدولة الإسلامية منح حق المواطنة للمسلمين، وعرفت
الجماعات غير المسندة باسم الدمة، وكان للدمة اوضاع خاصة
واصلة، فرحت الشرطة الداخلية لكل طائفة من
طوابق النمة من قبل رئيس الطائفة، الذي غالبًا ما كان رجل
ذين، وكان على كل فرد من أهل النمة دفع ضريبة محددة عن النفس
والأملاك مقابل حماية الدولة له ورعايته من جميع الجوانب.

وشكل العرب نواة المسلمين في كل ولاية جديدة، وكان هؤلاء
العرب بالوقت نفسه نتمهم الجند، وعلى هذا غالبًا ما انتصر حج
الوطنية في كل ولاية جديدة بالعرب، والمستعرض لتأريخ الولايات
المشرقية وغيرها من هم هو حجم المشاكل التي قد تولد بعد دخول
أعداد من السكان المحليين في الإسلام ومطالبتهم بحقوق المواطنة
الكاملة.

وكان لكل واحد من الجنود وعياً خاصًا كان هو الأعلى في
العالم في حينه وذلك مع نصيب محدد شرعياً في الفنادم، كما كان يحق للحاكم مجنح أو أقطع بعض الأراضي ذات الوضع الخاص للمسلمين، وعلى هذا شكل العرب منذ البداية شريحة كبيرة في السلم الاجتماعي في كل ولاية واستمروا كذلك حتى بعد توقف حركة الفتوحات، حيث حازوا ملكيات الكثير من الأراضي الفنية، وتحول الأشراف منهم إلى ملك كبار، وحتى صار قادة الجند مع بعض الجند - ملوكاً أصلفوا عن التفرغ لخدمة مهنتهم الأولى، وغدا العطاء بالنسبة لهم ليس بذي بال أو كبير اعتبار، وبات كل واحد منهم يعمل جاهدا في سبيل زيادة رقعة إملاكه على حساب أملاك غيره، وخلق هذا تنافساً أو صراعاً داخلياً صرف الطاقات نحو الداخلي وحولها عن الخارج.

وجعل ما ناله الجند وما تمتعوا به رجالات هذه الفئة لا يشجعون سكان البلاد المفتوحة على الدخول في الإسلام، بل وجدت حالات جبل فيها دون الدخول بالإسلام، وقد دفع تملك الأراضي الجند إلى سكيني اليد، ونظراً لاستمرار الحاجة إلى جيش وقوات مقاتلة فقد قام مبدأ قبول تجديد غير العرب في الجيش إما على أساس قاعدة الولاء، فقد بات على غير العربي أن ينال النسب العربي بعد دخوله بالإسلام على أساس عرف في اسمه الوالد وكان الوالد موجوداً قبل الإسلام، ثم تطور بعد تطوره خاصاً ومنح الوالد والإسلام الموهى حق المواطنة إما بدرجة أدنى من درجة المسلمين العرقي الصريح، ونشد الموالي رفع درجتهم وطالباً بالمساواة، وكانت هناك حركات وثورات سعت نحو هذا الهدف.

وإذا كانت هذه الحالة العسانامة في جميع ولايات الدولة الأموية، فإن الحالة في الأندلس قد اختفت بعض الشيء، ذلك أن كل من موسى وطارق بن زياد كان من الموالي والجيوش التي تولت فتح الأندلس كانت عربية وبربرية وهكذا كان الفتح الإسلامي صرفاً، فالمزيد الذين تحملوا أعباء الفتح الأولي كانوا ممّن البربر، وجاءت أكثرية العرب فيما بعد لتشاكل في فتح
التشار، وهكذا اضطر العرب منذ البداية لمشاركة البربر، وعلى
مسارات أسر الصراعات الأولى ليس صراعاً عربياً على
قاعدة العصبانية، بل صراعاً عربياً بربريًا، ثم تراشق هذا بصراع
عربي عربي على قاعدة العصبانية، وكان لهذا دور المقرر لصحراء
الوجود الإسلامي في أوروبا، يضاف اليه هذا إذ إن أوضاع بلاد
الأندلس الخاصة وما أحاط بها من قوى فرضت على العرب أطماع
بعض التنافس حتى وإن خالف ذلك الرأي من أصحاب الإسلام
وقواعده، فبُعد ما نزل العرب في شبه الجزيرة الأيبيرية، تعرَّض عليهم
في البداية فتح مدينة المرسية التي وصف صاحبها آنذاك باسم
تدمير demir، وقام تدمير العرب ورفض
الدخول بالإسلام، كما رفض دفع الجزية وقبل حكم السيف، وبعد
ما هزمهم العرب لم يعندوا معاملة المقهور بل عقدوا معه معاوضة
سنة 1123 م تعود المسلمين بها بالمحافظة له على نفسه وحوله مع
نفسه، وآوامه ومع
نفسه، وأمواله مع السماح بممارسة الجريمة في العقيدة
والعبادات.

وكان سليمان بن عبد الملك قد عزل ولادة الوالي بن عبد الملك
وأعسبباه بولاية جيد وهكذا غزل موسي بن نصير وعين مكانه محمد
ابن يزيد مولى قريش والياً على أفريقية، ويرى أنه بعدما تسلم
ابن يزيد منهب كتب سليمان البند، أن يأخذ ال بوس بن نصير وكل
من التحسينات حتى يوفوا ثلاثمائة الف دينار، ولا يرفع العذاب
عنهم، فقبض على عبد الله بن موسي فحبسه في السجن، ثم قتله
بناء على تعاليم أخرى وردت الله من الخليفة.

وكان عبد العزيز بن موسي بحكم الأندلس منذ رحيل أبيه، وقد
اتخذ عبد العزيز اسبانيا قاعدة لحكمه متخلياً بذلك عن طبقة
العاصمة القوطية للبلاد، وذات أفضل موقع متوسط متروك
شبه الجزيرة الأيبيرية، وقام عبد العزيز بكمال أعمال أبيه
المرتبطة في الأندلس، كما أكمل تنظيمات الوزارة الإدارية، وذكروا
مصادرنا أنه تزوج بأمراء فيزقوطية اختلقوا في تحديد اسمها
الحقيقي ، واتفقوا على أنها عرفت باسم أم عاصم ، وذهب بعضهم إلى القول إنها كانت أرملة رودريك الملك الفيزيقوقطي المقتول ، وقال بعضهم الآخر إنها كانت أرملة ، ومهمها كان وضع هذه المرأة ومنزلتها الاجتماعية ، إن زواج عبد العزيز منها له عدة دلائل أولاً أن العرب الذين عبروا إلى الأندلس فاتحين لم يجدوا معهم أهليهم أو زوجاتهم ، أي أن الفتح هذا تميز عن سواه في أنه لم يأخذ شكلاً هجرة بشرية ، وعلى هذا تزوج الجنده العرب من نساء الأندلس المحيطات ، وسيكون لهذا إثراء واضح على حوادث مستقبل الأندلس والتكوين الاجتماعي هناك.

وقيل ، بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل ببابه واحله ببيته ، خذ عشاعة بني مروان وخانلحالفهم ، فسارسل إليه سليمان يتهدها ، فلم يرجع إلى الطاعة ، وهنا راسل سليمان ووجه العرب في الأندلس وطلب منهم قتله ، فاغتاله أحدهم وهو يؤدي صلاة الصبح ، وكان ذلك في سنة 97 هـ - 716 م.

وانتهى استقلال عبد العزيز بن موسى مرحلة الفتح من تاريخ الأندلس ، وابتدأ المرحلة الجديدة عرفت باسم عمر الدولة ، وقد دام هذا العصر أكثر من اربعين سنة تحول خلالها قربة العشرين من الدولة ، حكم بعضهم أكثر من مرة ، وfell ثلاثة منهم حكم كل واحد منهم لمدة زادت على خمس سنوات ، وكانت ولاية بعضهم قصرة جداً وموقتة حيث غالباً ما تسلموا مناصبه بعد مصرع أحد الدولة المعنيين في حرب خارجية جهادية أو في فتن اهلية ، وقد تبع هذه الدولة الفاروقين وارتبطوا به ، لكن ظواهراً لبعضها شبه مستقلين ، لكن هذا الاستقلال لم ينتج ولايتيهم من انفصاله ما كان يجري في الشمال الأفريقي بشكل خاص وفي دار الخلافة بشكل عام ، ومع أن الفتح الإسلامي للأندلس قد ربط هذا الجزء الأوروبي بعالم المشرق الإسلامي إلا أنه استمر يتأثر من جميع الجهان بما كان يجري في الغرب وتأثير فيه ، وبعدما اغتيل عبد العزيز بن موسى لم يكن قد تم للمسلمين إخضاع جميع أجزاءشبه الجزيرة.
الإيبيريا، ففي الشمال الغربي من البلاد بقيت مساحات واسعة لم يدخلها العرب، كما أن بعض أطراف البلاد كان الحكم الجديد فيها غير رأسي القواعد وحاجة إلى تدعيم.

هذا ولهما كان الفتح الإسلامي في الأندلس لم يمر دون إحداث أصداء واسعة في الغرب مع رذات فعل عنفية، فقد كان على ولادة الأندلس بعد عبد العزيز أن يكملوا السيطرة على أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية. وأن يدعموا الحكم الإسلامي حيثما كان ضعيفاً وكان عليهم تمثيل الوشائج ووسائل التعاون مع الشمال الأفريقي وشبه الجزيرة الأيبيرية. ولكن فإن استدامة العالم الإسلامي بشرية واقتصادياً وديمغرافياً سالفة الدورة الأولي، فإن إمكانات العالم الإسلامي وحدها هي التي كانت كافية لمواجهة إمكانات أوروبا الغربية. فقد شجع على مسلمي الأندلس متابعة أعمال التفوق المنظمة الهادفة أو على الأقل التصص في البرامج الوقائية لردع فعل أوروبا الغربية التي كانت قد شرعت منذ بعض الوقت في اكتشاف نفسها والتحول من بلاد محور الحياة فيها حوض البحر المتوسط إلى بلاد تتجه نحو الشمال و نحو شعوب الشمال ذات الامكانيات القتالية الهائلة. وضمن هذا كلما كان على حكام الأندلس مواجهة مشاكل إنشاء مجتمع إسلامي جديد في جزء من أوروبا الغربية. (50).

وسترى أن ولادة الأندلس قد عجزوا عن إكمال الفتح، كما أنها لم تستطعوا تحقيق النجاح في التوغل داخل أوروبا، فكان ذلك من مقدمات الخسائر وفقدان الأمل.

وبعدها اغتيّل عبد العزيز بن الناصر بن الناصر، قدموه ليؤمهم في الصلاة وديار أمرهم ريثما يصلهم عام معين بصورة رسمية من قبل والي إفريقية، وهي اليوم في منصبه بضغعة أظهر إلى أن وصل الحرم بن عبد الرحمن النفقى في ذي الحجة من سنة 6/97 هـ- 716 م. ولعل أهل ما حدث أيام أيوب هو تحويل مركز إدارة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة، و حين فعل العرب ذلك كانوا كمن يحدد مصيره في أي بقعة من الأرض سيكون.
وشغل الحر بن عبد الرحمن الثقفي منصبه حتى رمضان سنة 100 هـ - نيسان 719 م، وبعد أن ما من شيء له أهميته قد وقع في عصره، وقد جاءت نهاية ولايته في موكب التغيرات التي التحقت بالدولة الأموية بعد وفاة سليمان بن عبد الملك وتسليم عمر بن عبد العزيز ملوك الخلافة، وقام عمر بن عبد العزيز بفصل الأندلس عن ولاية إفريقيا حيث جعلها ولاية تتبع دار الخلافة مباشرة، وعين عليها السمح بن مالك الخولاني وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق، وأن يخمد مالغبي عليه من أرضها وعقارها، ويدبط إليه بصفة الأندلس وأنهارها، وكان رأيه نقل المسلمين منها وإخراجهم عنها لاقتطاعهم عن المسلمين، واتصالهم بأعداء الله الكفار، فقيل له إن الناس قد كشروا بهما وانتشروا في أقطارها فأضرب عن ذلك.

وما أن تسهم السمح منصبه حتى أخذ يعمل على توطيد أركان الولاية الجديدة، والعناية بمدينة قرطبة التي صارت حاضرة لهما، ولعل أهم عمل قام به في قرطبة بناء جسر على نهرها، على أنه يبدو من مصادرنا أن السمح قد أوقف معظم جهوده في سبيل إكمال الفتح العربي لشبه الجزيرة العربية، وقد تقدم بنا القول إن المملكة القوطية كانت تشمل رقعة كبيرة من جنوب فرنسا، وبعدما سقطت هذه المملكة أصبح الجنوب الفرنسي فارغًا في منطقة واسعة حملت اسم غوثيا نسبة إلى القوط أو البندبانان، واتصال بما يعرف اليوم بـالريفيرا الإيطالية، وكانت مدينة أربونة (نروبيا) حاضرة ها، ومن المرجح أن السمح قد استولى على هذه المدينة سنة 719 م، وقيل قد فتحها من قبل العرب قبل السمح، ومن أربونة زحف السمح سنة 102 هـ - 721 م ضد مدينة طولوشة (تولوز) عاصمة أكورتين وحاصرة شهر وضربها بالجيوشات، وظلت هذه المدينة تتراوح تراوح الدوق أود الحرمي حاكم المقاطعة لنجدتها، ووقعت معركة حربية عنيفة كان السمح خلالها يشذ من أزر جنده بتأويله قوله تعالى: "إن نصركم الله فلا غالب لكم"، وكان الرهبان ورجال الدين النصارى يثيرون...
حماس اتباعهم بتعاوذ وتنامي باركها البابا، وأصيب السمح أثناء القتال بعنفة أودت بحياته، ففدت ذلك من عضد الجنود المسلمين فترجعوا مرتدين إلى أربونة.

ولم توقف هذه الاختلاسات المسلمين عن العمل في سبيل فتح الأجزاء الجنوبية من فرنسا (الأرض الكبيرة) وتابعوا نشاطاتهم من أربونة في عدة محاور، واندفعوا في وادي الرون، واستهدفوا بالدرجة الأولى الأديرة، وروى أنهم وصلوا إلى مقربة سانت جايل (سيكون كونت سانت جايل صنجل من أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى) قرب آرل.

ومن فجأ أن نذكر أنه بعدما نال السمح بن ماك الشهادة اختار الجنرال عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أميراً مؤقتاً يدير شؤونهم، حتى يتمتع أمير رسمي، وبقي عبد الرحمن في منصبه المؤقت، من كانون الثاني لسنة 721 م حتى شهر نيسان من العام نفسه ومرت إثراً، هذا عشرة أعوام تقلب فيها على ولاية الأندلس سبعة ولاية كان بينهم عبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية، وكان هؤلاء الولاة هم:

1 - عنبسة بن سحيم الكلبي:
من صفر 123 إلى شعبان 107 هـ - آب 721 - كانون ثاني
726 م

2 - عذرة بن عبد الله الفهرى:
من شعبان 107 إلى شعبان 107 هـ - كانون ثاني 726 - آذار 726 م

3 - يحيى بن سلمة الكلبي:
من شعبان 107 إلى ربيع الأول 110 هـ - آذار 728 شباط
728 م

4 - حفيدة بن الأحوص:
من ربيع الأول 110 إلى شعبان 110 هـ - شباط 728 - تشرين
ثاني 728 م
6 - الهيثم بن عبيد الكتاني:
من شعبان 110 إلى محرم 111 هـ - شعبان ثاني 728 هـ

7 - محمد بن عبد الله الإشععي:
من ذي القعدة 111 إلى صفر 112 هـ - شعبان 729 هـ

8 - عبد الرحمن بن عبد الله الفاقه:
من صفر 112 إلى رمضان 114 هـ - شعبان 729 هـ

وفي أيام عبسة استناد العرب نشاطهم بشدة وحماس أكثر من ذي قبل وأرسلوا كتابهم في مختلف الجهات، وتميز العرب بالبراعة والحنكة، وانتهت المصادر المسيحية على ذكر عدد كبير من الأديرة التي استولى عليها العرب أيام عبسة وبعد، تهمني الأشارة إليها إلى اسمين هما أسقفية بوريا في كليمونت، ومن كليمونت دعا البابا أوربان الثاني إلى الحرب الصليبية، وقد اتفق عليه اسمه أسقف بوريا في مراقبة جيوش الحملة الأولى والباشر عليها.

وعلى الرغم من وفرة أخبار النشاطات العربية في الأراضي الكبيرة، فإنهم لم يصرفوا طاقاتهم كلها في سبيلها، حيث بلحظ أنه في فترة السنوات العشر التي اشرتنا إليها أعلاه عاشت الأندلس في ظل بدايات الصراع الدموي بين العرب من جهة وليبر من جهة أخرى، ثم الصراع بين المجموعات القبلية العربية، وقد مطرف المستشرق نوزي في بحث جوانب هذا الصراع حتى جعل منه محسوراً ادار عليه جميع حوادث تاريخ الأندلس وفسرها، وقد ستطو نوزي أن مساعيه
ياود العصبية القبلية ما كان صراعا بين قبائل لاختلاف أسلافها، بل كان صراعا بين مجموعات من الناس رافقت الفتح واستقرت كل واحدة منها في مكان أو بقعة محددة وادعت لنفسها نسبها جامعاً يمثّل إلى حدة القبائل العربية المعروفة، ولقد قام صراع بين المجموعات المتشاورة بالوطن المتباعد المصالح من أجل ملكية الأرض ومن أجل السلطة في ولاية الأندلس وفي سبيل المزيد من المرابط.

وفي الفترة ما بين ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى والثانية دافعاءود عن نفسه وعن أراضيه مستغلًا احياناً النزاعات بين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم ومسمها فيها أحياناً أخرى، وخلال ذلك الوقت صنع زواجاً، دبلوماسياً، مع عثمان بن أبي نسأة حيث زوجه ابنه، وعقد معاهدة سلم ومهادنة أمن بها من غارات العرب ولكن إلى حين.

وبعدما نسلم عبد الرحمن الغافقي لنصره في الأندلس قام بالطوف على جميع مقاطعات الولاية حيث نظم شؤونها، وكان عبد الرحمن صاحب كفاءات عالية، وقد تمت بسمعة عالية وشبعبية واسعة بين صفوف الأندلسين لشجاعته ورهيه وكرمته، واما ادرك عبد الرحمن استقرار أحوال ولايته، رأى أن يقوم من جديد باستشاف حركة الفتوحات وأعمالها، وذلك انطلاقاً مع خطط الخلافة آنذاك التي ظهرت بشكل خاص على جبهته، الخزر والأندلس.

وقرر عبد الرحمن الغافقي أن يوجه طاقاته ضد أود، وبدأ تحركه بان بعث إلى عثمان ابن أبي نسأة، وكان قائدًا لمنطقة الحدود مع اراضيه كونه كونه أود، بعد اليه بأن يشغّل العدو بالغارات الي ان يكون هو قد أطل بمعظم الجيوش، ويرى أن هذه الأمر قد يقع من عثمان موضع الكراهية الشديدة حسباً لعبد الرحمن وضنناً بحمدنا، والزوجة الحسانة التي كان يحبها حتى ماهو دوجة الههام، وعندما وصل أمر عبد الرحمن إلى عثمان، وقع في حرص بيعص، راجع الأمير عبد الرحمن قاتلاً له إنه لا يقدر أن يخفّر.
جواهر ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء اجله، وغضب عبد الرحمن من مراجعة عثمان له ولم يرضه التلك الذي بدأ منه، فأرسل اليه يشيد عليه بتنفيذ اوامرها، وهذا لما قتل عثمان أمه من منع عبد الرحمن عن اشعال الغارة في بلاد أود أرسل إلى خديوية بحماه وقع حتى بأخذ حذرها، ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان، فأرسل جيشا إلى مقر عثمان بقيادة واحد من أوتاق رجاءه فأمره أن ياتيه بعثمان حيا كان أم لا، وغنت الجيش مقر عثمان فهرب في الجبال ومعه بعض اعوانه وزوجه، واستطاع الجيش ملاحكته وقتله، واخذ زوجته الحسنة إلى عبد الرحمن، فكان ان بعث بها إلى دمشق.

واما وصل خبر مصرع عثمان إلى كوننت أود أيقن أن الحرب واقعة لأمالة، فتأهب للدفاع، واندفع عبد الرحمن بقوه جيوشه من جبال البيرانية، فاحتل عددا من المواقع وحصل على كميات من الغنائم. والآدTRS غيره، والمستند إلى رملي، وهنا اتفق عبد الرحمن أحوال جيشه، وقد بدأ بعدا جدا عن قواعد، فرأى هذا الجيش متغلبا بالغنائم والأدتها وأن الحفاظ على الغنائم هو الشغل الشاغل للجيش، وادرك في هذا مخاطره لحاسوة، ولهام بما عاطفه الأهر الجند بتبليغ الغنائم الشاقة وراءهم، لكنه خشي الفتنة، ولعدم امتلاكه لقاعة ثابتة، ولا يثابه الحفاظ على جميع قواته أثر الغاهرة، فتابع الغرف، وعندما أ آه في إمتداد بقواته مدينة تور عسكر على مقربة منها، وفيما بين تور وبياتيه ناجز عبد الرحمن بقواته شارل مارتل وقواته، واستمرت المعركة عدة أيام تخلخل فيها وضع الجند العربي، لأن قوات شارل مارتل كانت أكثر عددا، مرتحلة تقاتل في أراضيها، وفي اليوم الأخير للقتال، دب الخلل وسط الجيش العربي، وحاول الفرقة مهاجمة مؤخرة هذا...
الجيش، وهنا القى عبد الرحمن بنفسه في وسط المعمّة، فتناول
الشهادة، ومع حلول الظلام توقف القتال، وعندما حل صباح اليوم
التالي فوجئ الفرنجة بمعسكر العرب قائماً كما كان، لكنه خالياً
من الجنود، فاعتقدوا أن في الأمر خديعة، ثم عرفوا فيما بعد أن
العرب انسحبوا تحت جنح الظلام، فاكتفوا بذلك ولم يجرموا
ملحاتهم. هذا واقت اخبار هذه المعركة عناية كبيرة من مؤرخين
العصر الحديث في أوروبا وعودها أحدث معارك التنازيل العالمي
الفاحصة، وقالوا إنها أبقت نصرانية أوربية وحالت دون انتشار
الإسلام فيها. وفي هذا الكثير من التطرف والشحط، ذلك أن الفتح
العربي كان في كثير من الحالات شملاً وانتشار الإسلام شملاً
آخر، فقد حكم العرب، وبدعهم بعض القوى المسلمة اقليم كثيرة
لفترات طويلة دون أن يؤدي ذلك إلى انتشار العقيدة الإسلامية
والأخذ بها.

إن الذي ربحته فرنسا وأوروبا هو الحفاظ على حالة التخلف
الحضاري والاجتماعي، وكسبت التخصص واستبداد الكنيسة
الكاثوليكية بشؤونها ثم صراعها مع الساسة والملوك والحكام،
ونما نظام الاقطاع وتحويل الناس إلى أفغان.

إضافة إلى هذا ان هذه المعركة لم تغلق بوابات فرنسا في وجه
العرب، فقد تابع العرب غزواتهم داخل فرنسا وتوغلوا فيها، كما
أنهم وصلوا إلى ما بعد بحيرة جنيف في سويسرا، انها كانت
العمليات العبرية منذ الآن، على مستوى صغير، وب участات
متنامية، غير معروفة من حكومات أو دول قوية كافية المواد، وله
من بين دروس هذه المعركة الفاسية أنه من الصعب الحصول على
غناهم من فرنسا، وهنا ينبغي أن نقف قليلاً عند مسألة
الغناهم، التي غالي الأوربيون في رفع شأن تأثيرها، لنبن قائمين
إن فرنسا القرن الثامن لم تكون بلداً غنية أو ناية يمكن للمغير عليه
أن يعمس — منه على غناهم شقيقة، ولم تمثل الكنيسة والأديرة
ثراء واسعة، فعبادة الأيقونات لم تنكن قد قامت بعد، ولم يكن
هناك ثورات أو ذهب وفضحة وموجهرات، لقد توفرت امكانيات جمع الأرزاء للبيع والاستخدام، هذا وما كان عرب القرن الثامن، وقد قدرت حميات الجهاد في أنفسهم بعض الشيء، ليفاقموا داخل فرنسا ويتخلووا الشهداء والمعاناة دونما مقاتلة وأرساح كبيرة مضمنة، ولقد أدرك العرب أن نفقات أعمال الفتح داخل فرنسا اقتصاد كثيرة من المرتفعات، لهذا ركزوا اهتماماتهم على بعض تلك المؤسسات الساحلية، ثم إن العرب لم يعجبهم مناخ فرنسا البارد، واتحدوا يوما في المناخ المتوسطي، إضافة إلى كل ما تقدم، وعلي أهمية عاث العرب في الأندلس وأفريقيا الشمالي والمشرق، بعد معركة بويه من مشاكل كثيرة مزقت صفوهم وشقتهن قواتهم، وانتشرت الفتن بينهم، لذلك لم يحاولوا التفاوض، في معركة بلاط الشهداء وظروا على مساندهم على المشاكل والانقسامات والمعركة الداخلية حتى قامت الشورة العباسية، فنجهم عن ذلك تغيير كبير مهم بنشوء السلطة في الأندلس، وانعكس على علاقاتها مع أوروبا.

لقد كانت معركة بويه، أو بلاط الشهداء نهاية لثياب المد العربي الفاتحة في فرنسا، وبعد أن تحول اتجاه التغيير، ولم تكن الغزوات التي توغلت بعيدا داخل فرنسا وذلك سبب لا إمءاته شاردة، ذهبت قواها، وانهدرت محاصراتها حيث وصلت دون أن تترك أثرا دائما، والمقابل استمر مع الأيام تيار الجزء المعركة حتى غطى الأندلس بقعة بقعة (١٦).

ولما وصل خبر مصر عبد الرحمن الفخافي إلى مساحات والي أفريقية اتفق عبد الملك بن قسطن الفهري واليا جددًا على الأندلس، وأنفذه وعده قوة من خيل ورغيد ويعملو، ويبدو أن عبد الملك أخفق في إشارة همم الناس ورفعهم إلى الغزو من جديد، وهذا عزل من منصبه وكأن هذا في سنة ١٣٢ هـ / ٧٣٩ م، وعين مكانه عدة بذع من الحجاج السلوقي، وتم هذا التعيين من قبل والي أفريقية عبد الله بن الحجاج.  

- ۴۹ -
وكانت جموع كبيرة جداً من بربر المغرب قد دخلت الإسلام، غير أن ابن الح基数اب أساء معاملة البربر، فقد كان فظًا في الضرائب، شديد التحصيل. وفي الوقت نفسه انتشرت أفكار الدعاة الخارجية بين صفوف قبائل من البربر، وجاء هذا الاستشمار لاسيما بعد ما من وحد منه كانوا مخاطبين نزعات استقلالية، وكان ما أن تنهى الفرص حتى نثر خوارج البربر سنة 22 هـ. 440 م بزعامة أحمد الهـ وعرف باسم ميسرة المغري، بفضل عبد الله الغابة جمهوه للقضاء على هذه الفتاة واستنجد بوالي الأندلس، ومع ذلك لاقت جهوده الاحتراف، وقام بعض خوارج البربر باغتيال زعمهم ميسرة المغري واتخذوا زعيمهم جدًا اسمه خالد بن حميد الزناني، واستطاع خالد هذا الحلفاء زعيمهم بالقوات العبرية التي كانت متراكبة بالمغرب، وهكذا زالت السيطرة العبرية عن معظم أجزاء المغرب، واضطر ابن الح基数اب إلى مغادرة المغرب إلى دمشق، حيث أخبر الخليفة هشام بن عبد الملك بالتحية، وقطع طرقه، فتفعل وتتأثر كثيراً حتى قال: "والله لا أضيق ضيبة لهـ عربية ولا بعثني اليوم جيشًا أوله عنهم واخره عندي."

وكانت لثورة البربر في المغرب انعكاسات مباشرة على اوضاع الأندلس، حيث تأثر بربر الأندلس وقابوا بثورة بدورهم، وكان من مسوخات الثورة أنهم تحلووا بالبربر الأكبر في فتح الأندلس، لكن على الرغم من هذا كان متقنوه منهم شمرات الفتح أدنى بكثير مما ناله العرب، ذلك أنه عندما وفرت أراضي الأندلس على الفتحين أعطي البربر أراضي جبلية مع بعض الأراضي الواقعة في مناطق الحدود، هذا في حين نال العرب أحسن الأراضي الأندلسية وأكثرها خصبة، وكانت الأحوال السينية التي عاشها البربر الأندلسية - مقارنة مع أحوال العرب- وراء تحركهم وقيامهم بالثورة.

وكان عقبة بن الحجاج قد قام عند تسلمه ولاية الأندلس بابداع سلفه وليبيا المحزول عبد الملك بن قطن مع أهله ومؤيديه السجن، وقد مثّل عبد الملك حزب أهالي المدينة المنورة في
الأندلس، وحين اخفق حاكم المغرب في القضياء على شورة البربر، وبعدها أعلن بربر الأندلس ثورتهم ضرفاً موقعاً عقبة بن الحجاج، وأصبح عام 142 هـ م بمرض شديد حتى ارجل الناس بموته، وهنا قامت جماعة الحزب المدني فصاغتهم على استخلاف عبد الملك بن قطن، وهكذا والمرة الثانية تسلم ابن قطن منصب ولاية الأندلس مما بوجب ارادة قوي اندلسية، وليس تبعاً لارادة وأي إفريقيا أو الخليفة الأموي، وستنمو هذه الظاهرة في المستقبل القريب إلى حد قيادة الأندلس إلى الانفصال السياسي عن جسم الخلافة.

ومع تسلم عبد الملك لولاية الأندلس استمرت ثورة البربر وكان الخليفة هشام بن عبد الملك قد بعث جيشاً كبيراً على رأسه كاشوم ابن عياش القشيري، وعهد إليه باقتسام الفضائح، وأمره أن يعمل على القضاء على الأعداء المتواجد فيهم، ورحب كاشوم نحو المغرب وجعل على مقدمة جيشه وعلى الفرسان ابن أخيه بعل بن بشر، وكان في بلج رعدية ومحصنة وعصب من قيس، وقد نجح عن تصرفاته وسلوكه ووقوع خلافات بين صفوف العرب من قوات كاشوم وقوات العرب التي بقيت مرتبطة في أفريقية، لذلك عندما انتقدت القوات العربية بقوات الثورة البربرية حلت الهزيمة بالعرب، وفر بلج مع ما يقارب من عشرة آلاف مقاتل من جنده نحو سبته، وهناك اتخذ موقف الدفاع، وتحت الحصار ضعفت المحال بلج وجنته، وحينئذ طلب بلج من عبد الملك أن يعينه على القود إلى الأندلس، ولم يكن يميل لتنقله مثابة هذا، وقد تواصلا استقرار عطفه عليه، بما كان يذكره في رسائله من إلهو رفاهه يعتون جوعاً في سبته، وأنهم قبل كل شيء عرب مثله، فلم يلبي بعدهم قلب ذلك الشهيد المدني العجوز، أعني عبد الملك الذي رحبًا حمد الله تعالى أن أتاح له، وهو في التسعين من عمره، فرضة تنويز لهذا الانتقام بمشاهدة أبناء الجفاة القتلة، وهم يشربون على الموت جوعاً، أو ليسوا هم الذين قتلوهم في وقعة الحرة رفقاء وإباء عشيرته، والذين اوشكو أن يذيقهم هم نفسه الموت.
بسبيفهم، والذين نهبو المدينة المنورة واستباحوها ودنسوا حزيمة
فبر النبي صلى الله عليه وسلم وسلم ومسجده، أفيظ ومع أنك أولئك
العذاء الرعاء أن يرق لهم عبد الملك، واهل لروح الاتفاق أن تسوت
عند ذلك المدنه، واهل يمكن لام الشامي أن تتحرك شفقة من عاش
بيناظر يوم التاره، وهكذا لم يكن عبد الملك سوى هم واحد ورغبته
فريدة، وشغال وحيد، هو الحيلولة بين من هم دونه كراهية
لأهل الشام وبين مدعهم بالبركة أو أي نوع من المساعدات، وعلى
الرغم مما اتخذه من الاحتياطات، استطاع شريف رؤوف من قبيلة
لخم أن يفتد من رقابته، فان برسى في مبناه سبته معركين
مشحونين بالحنطة، فلم يكبت الضرب خير ذلك إلى عبد الملك حتى
قحب على اللحم الكريم وجلده سبعمائة جلدة، ثم أمر بسمل
عينيه وقطله متهما إياه بتصرب الجند عليه، ورفعت جثته على
سارية وقد صبوا إلى يمينها كلما يغـالا في النكبة بـه
والشامتة، وهنا خيل للشاميين أنه قد حكم عليهـم بـمالاوت
جوعا، غير أنه جد فجأة أعد لم يكن في الحسبان، أرغـ عبد الملك
على تفجير مسلكه.

فقد استشهدت شرارة البربر في الأندلس، وزاد بربر الأندلس
حماسته صعوبة وضع العرب في المغرب بعد الانتصارات التي حققتها
البربر هناك، واتحرج موقف عرب الأندلس إذ ذلك، وأصبح حالفهم
ينذر بالخطر، وأوشك ملكهم على الزوال حتى وجد عبد الملك نفسه
على الرغم مما يجيش في جوفه - مضطرا للاستنساع معونة أهل
الشام المحاصرون في سبته، أهل الشام ذئم الذين تزركهم حتى
هذه الساعة يكابدون مصيرهم التعب دون أن تأخذهم شفقة أو
رحمه، إلا أنه اتخذ لنفسه الحيلة، فوعدهم أن ينفذ إليهم مراكب
تقلهم على شرفة أن يقطعوا الدهر على أنفسهم بمساراة الأندلس
حالا يتم القضاء على الأثرة، وإن نسلمه كل فريق منهم عشرة، من
شيوخهم يضعهم في إحدى الجزر رهائن تكون رؤوسهم ضمـانا
لصدق تنفيذ الاتفاق، واشتراط الشاميين من جانبهم على عبد الملك
أن ينقلهم جملة إلى افريقية وإن ينزلهم على ساحل ليس للبربر فيه
سلطان.

وأقر الجانبان الاتفاق. وهكذا ابحر أهل الشام من سبتة ودخلوا
الأندلس، عترا لا يواريهن إلا دوابهم. وقد بلغهم الجهد غابتهم،
وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام، فلم يدخلوا كمساهم عرب
الأندلس، وبعدما استقر بهم المقام في الأندلس وتفقوا زحفوا ضد
البربر فهزموه في أكثر من معركة، ومنهم غنائم كثيرة. وفي
تلك الأثناء تعرف عرب الشام على الأندلس، فاعجبتهم البلاد،
واعجبهم غناها، وأدركوا مدى قوتهم وقوة عبد الملك بن قطن.

وما أن تلاشت ثورة البربر في الأندلس وقضى عليها، حتى طلب
عبد الملك من بلج وصحبه تنفيذ الاتفاق ومغادرة الأندلس والعودة
نحو إفريقية، وهنا اختلق بلج اسبابا للبقاء والخلاف مع عبد الملك,
وتمكن من الاستيلاء على مقاليد الأمور في قرطبة، وأوقع عبد الملك
السجن، وأثناء هذا حدث أن مات بعض رهائن الشاميين، فأثار جند
بلج، وأخرجوا عبد الملك من السجن، كان فرح نعمة من الكبير،
وهم ينادونه: أغلط من سيفنا يوم الحرة، فطلبنا بثنا في كل
الدواب والجلود ثم أدركوا خراجنا إلى القتل، ثم قتلوا وصلعبوا,
وصليبو خنزيرنا عن يمينه وكلب عن شماله.

ولم يمض حادث استيلاء بلج على السلطة وقتله لعبد الملك دونما
جسرات، فقد انسحب عرب الأندلس إلى قسنطين،
متصرفين: شاميين وبلديين قدماء، وقامت معارك بين
الطرفين، ولقي بلج مصرعه في الحرب، ولكن أصحابه حققوا
لأنفسهم النصر، فاستمرموا مسلمين لمقاليد الأمور، وخلف بلج
ثعلبه بن سلامة العاملي، وكان هذا سنة 424هـ، 724م، وجاء
اختيار ثعلبة بسبب "أن هشام بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولى
أمر الجيش، إذ جهزه من الشام كشوف، فإن أصيب فإن ابن اخيه
بلج، فإن أصيب فثعلبة".

- 547 -
وأستمرت الحرب الأهلية أيام ثغيلة، وكانت ساعة صراعا بين العرب والبربر، وأخرى بين العرب انفصالهم شاميين وبلديين، وباقي النصر حليفا للشاميين، ووقع أثناء هذه الحروب في أديهم عدد كبير من الأسرى كما أقدم ثغيلة على اقتراب إمرة لم يعهد العرب في تاريخهم إلا وهو سبي نساء المهاجرين واسترقاق أطفالهم، وكان ذلك حدثًا لا استنكره له وللهذا جاء في منتهى الغضابة والقصوة.

وأخف تدهور أوضاع الأندلس عقبة المسلمين من شاميين وبلديين والتصويا مخترعا نحن، فتوجهوا بأصبارهم نحو المغرب، وكانت الأوضاع قد أعادت إلى الاستقرار النبي، بعدما وجه إليها الخليفة هشام بن عبد الملك حنظلة بن صقوق واليه على مصر، وحدث ذلك بعد ما بلغه مصاير الله جيش كلامور بفن عباد، والما اتصل عقبة أهل الأندلس بحثه وسلالة من يندب الله واليا يكون قادرا على إعادة النظام والأمن والطمأنينة إلى الأندلس، فاستجاب ضلهم واستعمل أبو الخطر الكبل حسام بن ضرار ووصل أبو الخطر إلى قرطبة على حين غرة فالفئ ثغيلة بن سلامة وهو بيبس النسي بالنداء، ويبع ويياب، فكان بيبع الشيوخ والأشراف ممن ينقص لامن يزيد.

وتسلم أبو الخطر ولاية الأندلس دونا معارضة، وقام بمعالجة مشاكل ولايته بأن أنهي الحرب الأهلية، فنفى عدا من شخصيات القوى المتصارعة وكان من حملة المذنبين ثغيلة بن سلامة، وعاد النظر في توزيع أراضي الأندلس على العرب، فاعط طاعة بلج الشامية أملًا أن يندسه خصمه، فصار رجال هذه الطالفة من أهل الأندلس وسكانها الدائمين.

وتجزأ أبو الخطر في أدارته قسم سكان الأندلس من العرب حوله، وكتب طاعتهم، لكنه لم يمنع نفسه بذلك طولًا، حيث ما لبث أن تخلو عن مصصبه وزانته وتصعب للهيمانية ضد الجماعات الفيسبية ولهذا أعاد الأندلس ممن جدد في السفوف عرب
الأندلس، وتزعم الجماعات القبـسـية الصـمـيل بـن حـسام
الكلابي، وكان حفيدًا لشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي
في كربلاء، وكان أعرابياً عنده عنجهية البداوة وصلفها، ولم يكن
صاحب ثقافة أو حتى معرفة بالإسلام، كما كان لايحسن القراءة
والكتابة، ويرى أنه (مر بمؤدب يقرى ولدا له القرآن فسمع منه
الآية: *وَتَلَقَّىَ الْأُمَّةَ بَيْنَ النَّاسِ فَوَقَفَ الصَّمِيمَ وَقَالَ لِلْمُؤِدِِّ يَدْ بَيْنَ النَّاسِ، فَقَالَ لِهِ: إِنَّا، فَقَالَ الصَّمِيمَ وَهَٰكَذَا نُزْلَتْ الْآيَاتُ: قَالَ لَهُ: نَعْمَ، هَٰكَذَا
نزلت، فقال الصميم: وَاهْسُنِي ارْتُ هَذَا الْأَمْرُ سُيِّرْ كَا فِيهِ
العبيد والسفال والأرائل).

وجمع الصميم أعوانه من قبائل قيس، ووثب بابي الخطر
فانتزع منه ولاية الأندلس، وبعد شيء من الفوضى والصراع عن
الصميل يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري، وكان من أحفاد
عقبة بن نافع، عينه وألاه على الأندلس، ولم يلق اتباع الحزب
اليمني الأسلحة فخاضوا بزعامة أبي الخطر عدة معارك ضد
القيسيين، كان أشهرها واحدة وقعت سنة 163 هـ / 747 هـ بمكان
عرف بشقندل، وكان على مقربة من قرطبة، وقد تلاقى رجال
الفريقان المتصارعان، حين صلوا الصبح، فتفتتوا على الخيل
حتى تقصفت الرماح، وثبتت الخيل وحميت الشمس، ثم تداعوا
إلى البراز ففتنازوا بالسيف حتى تقطعت، ثم تقاتلوا بالآيدي
والشعر، ولم يكن في الإسلام صبر مثله، وعندما اصيب الطرفان
بالانهاء، أسرع الصميل نحو قرطبة، فاستدعي به سوق المدينة من
عمال وجزائر وسواهم، وحسم هؤلاء بحضورهم المعركة لصالح
الصميل وصحبه، واعقب المعركة تعقيدًا دمويًا لمجاليات الحزب
اليمني.

وحين وقعت هذه الأحداث كانت الخلافة الأموية في المشرق تمر
بدور الحشرية النهائية، لذلك سارط الأمر في الأندلس دون أن
تكون للخلافة أو والي إفريقية أي دور في إيقاف المناصب Atlantis
وقعت، وأزدادت أحوال الأندلس سوءًا، في حمص، سنة 131 هـ / 748 م وسنة 136 هـ / 753 م. فضح شديد ومجاعة دفعت بالعديد من سكان الأندلس من العرب إلى هجرة الأندلس والعودة إلى المغرب. وكان ذلك فرضية هائلة رجاء المقاومة الإسبانية، فبدأ حرب الاستقلال التي سئستمر أجيالًا طويلة، وانتهى بسقوط الأندلس وطرد العرب منها.

لقد تهافت الظروف للعرب منذ ولاية عبد الملك بن قطن للاندماج لفاجعة بلاط الشهداء واستناداً حركة الفتوحات. لعدها أسباب كان منها توفر عناصر كثيرة في بروفتان وسواها تعاونوا مع العرب لكرائهم لشارل مارتر، ولاشتيغال شارع مارتر نفسه في نشر سلطاته في أماكن أخرى، لكن حالة التمرق التي سادت بين صفوف العرب والمسلمين في الأندلس وعدم توفر قوى بحرية كافية لدى العرب، وأخيراً الفوضى التي حلت بالشام والشرق منذ استيلاء يزيد الناقد على الخلافة، وبعد هذا أحداث الثورة العباسية حملت العرب من فضائهم، ومعروف أنه كان من بين نتائج قيام الدولة العباسية توقف الحركة الهجومية للفتح وشرع المسلمين باعتماد خطط الدفاع.

وبالفعل جرى تجميع بعض المواقع الإسلامية في جنوب فرنسا ومقاطعة بروفتان ومع هذا نجح الفرنسا والإسبان بالاستيلاء على بعض المواقع الإسلامية مثل أفينيون "Avenión"، لكنهم لم يتمكنوا من اجتذابه، حتى شارل مارتر نفسه أخفق في الاستيلاء عليها مع أنه حاصرها لبعض الوقت (17).

وكان لسقوط الدولة الأموية في المشرق وحلول الخلافة العباسية محلها أوسع الآثار وأثراً حسبًا بالنسبة الأندلس، فتاريخياً أنهن الانتصار العباسي العصر الذي كانت فيه الأندلس ولاية وسبب قيام عصر جديد، غدت فيه بلاد الأندلس أول قطر إسلامي يخرج عن الاتحاد الإسلامي بالطاعة لخليفة واحد، واضطرت مكة الأندلس للأعتماد على طاقاتها الذاتية لمواجهة طاقات القسمة.
الأوروبية، مضاف إلى هذا أحيانا دسائس ومؤامرات حيكت في دار الإسلام، لذلك يعجب أن ترابق وصول الأندلس إلى ذروة القوة مع الانهيار السريع.
عصر الإمارة الأندلسية

بعد معركة شققنة خُلصت ولاية الأندلس إلى يوسف بن عبد الرحمن. لكن ذلك ظاهر فقط. ذلك أن يوسف لم يكن له من منصب ولاية الأندلس إلا لقب الأمير الأسمي فقط لاستثمار الصميل بين حاتم بالسلطة الفعلية، ومع مرور الأيام تجرم يوسف وأظهر انزعاجه للكاتبه الثانية، ففكر في التخلص من الصميل، واستطاع ذلك بأن ابتداء عن قرطبة إلى سرقسطة في الشمال، ووصل الصميل إلى هذه المدينة سنة 133 هـ/ 750 م، وكانت غالبية سكان سرقسطة من العرب من جماعات الحزب اليماني.

ولم يلق الصميل وقت وصوله إلى سرقسطة معارضة تذكر، وبعد سبب ذلك إلى أن وصوله تنام مع احتدام القتال والمجاعة. هناك وعمل الصميل طوال فترة المجاعة على تقديم العون من الطعام والكساء وما إلى جميع المحتجزين دونما تمييز. وهكذا مضت حقبة من الزمن ساد فيها الهدوء والتقاليم والتعليم الشغب والنزاعات بين القيسية واليزانية. لكن ما أن زال الجفاف وعاد الخصب، وزال الجووع حتى تحركت النفوس بأحذائها مسان جديد، وعاقت عدة تحالفات ضد الصميل ومؤيديه من قبض، وما لبثت الثورة أن تفجرت ضد الصميل في منطقة سرقسطة، وبالوقت نفسه واجه يوسف ابن عبد الرحمن تحركات مضادة له في قرطبة وما جاورها، وحين وقع الصميل في الضيق، اتخذ موقف الدفاع، ثم اعورتها الحاجة إلى التماس العون من يوسف فطلب منه انضمامه، ولم يكن يوسف في حالة تمكنه من تلبية طلب الصميل، كما أنه لم تكن لديه الرغبة في تلبية هذا الطلب، ذلك أنه كان يرغب فعلاً في التخلص من الصميل ومن ذفنه.

وضاقت الحصار على الصميل واضر به حتى ينض من الحياة وهم
بالإلقاء بيده، وعندما لم يلق من يوسف الاستجابة، كتب إلى زعماء قيس، فتحرك هؤلاء الزعماء بفعل الروابط القبلية وتفاصل عوامل جديدة دخلت في مسرح أحداث الأندلس، وتجهيز قوة من قبائل قيس، ومن جماعة عرفت مواليا بنتي امية، وانطلقوا نحو سرقسطة، وكان برفقة هذه القوة رجل طريق الأندلس حديثاً، عرف ببدرمولي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك.

وتحلل الصميل من الحصار، وتوجه مع القوة التي جاءت لنجده نحو قرطبة، وفي سرقسطة قام بدر بالانتصال بالصميل، وأخبره أنه رسول مولاه إليه، وعرض عليه أن يعاون ابن معاوية على تسلم الحكم في الأندلس، وأحياء الملك الأموي بعد انقطاعه في المشرق، واستجاب الصميل في البداية، وافق مع الأمويين على نصرة ابن معاوية وأن يزوجه من ابنته، ثم رجع في قوله، وقال: "تأملت الأمر فوجدته صعب المرام، وهنا انقطع رجاء بدر من قبائل قيس وزعيمها الصميل.

وتحول بدر نحو عناصر القبائل اليمانية التي كانت تعاني من القهر والتحكم القسري فوجدهم، قوما قد وغرفت صدورهم، يثرون سبيلا لطلب ثارهم، وأعدت العدة ورتبت الأمور لدخول ابن معاوية إلى الأندلس، وعاد بدر إلى مولاه ومعه خمسة من بني يزكية، وتبعته الرجال مع مركب خاص لعبير، ومضيق جبل طارق.

وانتظرت الفرصة المناسبة لتنفيذ العبور، وجاءت هذه الفرصة سنة 138 هـ - 755 م عندما تلقي يوسف بن عبد الرحمن ومعه الصميل وقوات الولاية، عندما تفجروا على قرطبة حيث نوجهوا إلى طليطلة ل إضعاف البعوث ضد البشكنس وسواهم، وفي أول ربيع الأول سنة 138 هـ - 755 م، نزل عبد الرحمن بمن معاه في ميناء المنكب بين المرية وصالقة، وعلى الفور اتخذ لنفسه مقرًا في قرية قريبة دعت بُطْرُس، ومن هناك بدأ نشاطه، وهذا لاحق لنا قبل متابعة الحديث فيما ألت عليه أمير عبد الرحمن مع أمور الأندلس بعد نزوله فيها من الوقوف قليلا كي نعود إلى الوراء.
لتعتبر إلى شخصية عبد الرحمن مع الأسباب التي حملته على ترك المشرق والقدوم إلى الأندلس.
عبد الرحمن الداخل

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، يرجح أنه ولد في منطقة دمشق سنة 113 هـ / 731 م ، وكانت أمه ببرية من سبي المغرب تسمى راحا أو رواحا . وقد توفي أبوه عبد الرحمن ما يزال طفلا صغيرا ، فعذب به جده هشام عنابة خاصة ، وفي مصادرنا كان سبب ذلك أن عبد الرحمن ذهب مرة إلى قصر هشام بن عبد الملك ومعه أخوته الأطفال ، وعندما كانوا بالباب ، جاء عم أبيه مسلمة بن عبد الملك يلقى القصر ، وعند دخوله سال عن الأطفال ، فأخبر بناهم إيطام معاوية بن هشام ، فنظر اليهم متفقعا واستعرضهم واحدا واحدا ، وعندما أمر به عبد الرحمن احتضنه وضم إليه صدره بحنان ، وصادف أن خرج ساعدته الخايفة هشام فراح يفعل ذلك بحنان فسأله : من هذا يا أبا سعيد ؟ فأجابه مسلمة: ولد لمعاوية ابنك ، ثم من على أبي واسر إليه بصوت سمعه عبد الرحمن ، وكان مما قاله : انا الوليد ، وهذا هو ، فسأله هشام : أهؤله ؟ فأجابه مسؤوله : يا والله وقد عرفت العلامات والئيسات يوجهه وعنيقه .

والقبول بهذه الرواية يعني أن هشام بن عبد الملك كان لا يعرف أحفظه ، وهذا أمر من الصعب تصديقه ، وتفسير الرواية: إن بني أمية كانوا يعرفون عن طريق الشيوخ أن ملكهم أبلى إلى الزوار في الشرق لكنه سبعت في المغرب على يد رجل صاحب صفات معينة ، وكان مسلمة بن عبد الملك أكثر أهله معرفة بما سيحل بملك بني أمية وبدأ ستكون عليه الأحوال فيما بعد .

وبعدها لهذه الرواية لقي عبد الرحمن عنابة جده ، وعندما زال الملك بني أمية ، وقامت الدولة العباسيي تذكر ، فتوجه إلى المغرب ليعمل على إحياء الحكم الأموي ، ونجح في ذلك

لا شك أن طابع الصنعاء والتزوير واضح على هذه القصة التي
استهدفت اضفاء الشرعية التابعة على الأرادة الألهية على نجاح أعمال عبد الرحمن، ولا ريب أن مثل هذه الأقاصيص كانت تلقى بعض القبول في المجتمع الإسلامي. وقد وجد من روج لها، ففي عصر الإسلام المبكرة كثرت النبوءات وتعددت إلى حد عجيب غريب، وكان هناك من أمين بحثية الإعداد وتأسس مسيرة محكوم عليها قدر لا يغير ولا يبدل، ولو صحت مثل هذه النبوءات لاختفى موقف بني أمية من الحركة العباسية وثورتها حين اندلعت.

لكن يقال هنا: يُؤيد هذا النبوءة توجه عبد الرحمن نحو المغرب فالأندلس، والإجابة هنا: ليس عبد الرحمن وحده من بني أمية الذي توجه نحو المغرب، ولو كان هناك نبوءة خصّصت بها لما قضى - كمسير - فترة طويلة بالمغرب قبل أن يجرب حظه في الأندلس.

لقد فر عبد الرحمن إلى المغرب لأنه لم يعد سبيلاً آخر، وكان عبد الرحمن وقت تفجير الثورة العباسية قد تحقق في إحدى القرى القريبة من الفرات، والذي دفعه إلى النسر هو البطش العباسي وعمليات الإيابة الشاملة التي مارستها العباسيون ضد جميع أفراد الأسرة الأموية، وأقام عبد الرحمن قرب القمر بسبي إقامة هشام عبد الملك ابنا خلافته في رصافة الرقة، وحدث أنه في أحد الأيام فوجئ عبد الرحمن بثمة من الجند العباسي تقتتح القرية التي كان فيها، فهرب من وجهها مع أغله وألقى بنفسه في الفرس فاقتاحه سباحة، في حين لم يستطع أخوه متابعة السباحة فوقع في يد الجند العباسي أخذوه على الفور، ومن هناك هرب عبد الرحمن نجواً فلسطين، ولهذا تحقق عند أحد أنصار بني أمية أو موايلهم، وفي فلسطين لحق به مولاه بدر مع سليم مولى أخته أم الأغص، وهناك زوداه مالاً ومجوهرات بعدها بهم إليه أخته، ومن فلسطين توجه إلى مصر فاقتتحاها إلى المغرب.

وكان المغرب لم يدخل بعد تحت السلطة العباسية، وكانت أموره بين عبد الرحمن بن حبيب الفهري من أحفاد عقبة بن نافع، وكان
عبد الرحمن بن حبيب هذا قد استولى على أمور المغرب واستبد بالسلطة هناك استيلاءًا لا تقوضًا، فقد كان بالأصل من أهل الأندلس، هرب منها إلى المغرب، ثم تدبر أمره فحدث أنتقلاة استولى فيه على حكم المغرب كله.

وشجع بعد المغرب ووضعه السياسي أفرادًا من البيت الأموي على اللجوء إليه، ويبدو أن عبد الرحمن رحب في البداية بالعناصر الأموية التي وصلت إلى المغرب، وقدم لها المساعدة، ولعل عبد الرحمن بن معاوية كان أحد هؤلاء الأمويين الذين وصلوا إلى المغرب ولقوا مساعدته ابن حبيب، لكن ابن حبيب ما لبث أن غير سياسته تجاه الأمويين، وذلك أنه كان في قدم على من الأمويين ولدًا للوليد بن عبد الملك، يقال لأحدما القاضي والآخر المؤمن… فأنزل لهما عبد الرحمن بن دادار، وكانت معهما عجوز في الدار، فداس إليها عبد الرحمن بن حبيب أن توصله إلى موضع تسمع منه كلامهما، فقالت: إن البيت الذي هما فيه، في سقفه غرفة فإن شئت فأنا أوصلك ليلا إلى ظهر البيت حتى تطلع عليهما ولا يعلمان، فقال أفعلي، فلما كان في الليل أطلع عليهما وهم على نبيذ لهما، ومولاهما يسبقهما، إذ قال القاضي ما اغفل عبد الرحمن، أيظن أنه يعتني معاً ولاية ونحنن أولاد الخليفة، وبعدما سمع عبد الرحمن هذا الكلام بطلق بالامير الأمويين، وأخذ بملحقة بقية الأمويين، فبادروا إلى القرار والتجا بعضهم إلى القبائل البربرية، وكان من فكر ذلك عبد الرحمن بن معاوية.

قد تكون قصة التصين هذه مختزرة وهي مجرد صدى لتغيير ابن حبيب لسياسته تجاه من لجأ إليه من بني أمية بسبب خشيته من مطامح بعضهم مع رغبته في التقرب إلى العباسيين، الذي يعنيه هنا هو أن عبد الرحمن بن معاوية مضى ينقل من قبيلة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، وفرز إفريقية الشمالية من أدناها إلى أقصاها، فاختفى حينا في برقة، ولذا حينا آخر بلبلة بني رستم.
ملك تاهرت (من المغرب الأوسط) كما ذهب إلى قبيلة مكناسة البربرية، ولجأ إليها مستغلاً بحمسيتها، وثكراً انقطعت خمس سنوات - وهي فترة غير قصيرة - دون أن يخطر بالله الرحمن أن يحب حظه في إسبانيا، بل كانت إفريقية هي شغل هذا الشاب الباهي الطلعة، الملتهق، العديم الأصدقاء، وداه على اصطناع كل وسيلة للحصول على أنصار له، فطرده مكناسة من ارضاها فتركها إلى قبيلة نفذه البربرية التي منها أمه، وكانت تسكن قرب سبسطة.

ومن هناك تعرض عبد الرحمن إلى أحذال الأندلس، وكان طموحاً، لانقضه روح الفضاعة، فأرسل مولاه بدر إليه، فاتصل بدر هناك بجماعة كانت من موالى الأسرة الأموية، وكان هؤلاء الموالي زهاء اربعمائة أو خمسمائة شخص، ونجحت جهود بدر، وأعنت عده لجواز عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، وكان أبرز الزعماء الذين تعاونوا مع بدر يدعى عبد الله بن عثمان.

وتلفت شخصية بدر الانتباه، ويبدو أن نشاطه في الأندلس والاستعدادات التي عملت من أجل عبور عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس لم يكن سراً لبته، والذي كان سراً هو وقت العبّور وموضعه، ذلك أنه بعدما نزل عبد الرحمن ساحل الأندلس ووصل خبر ذلك إلى قرطبة، كتب زوجة يوسف بن عبد الرحمن إليه تقول: "ابن معاوية قد دخل ونزل بوجيز عند الفاسق، عبد الله بن عثمان، وأصفه بعذب أمه، وإن خليفت على إبله زحف إليه، بمن خف من أهل الطاعة ليخرجه، فهم وضرب أصحابه.

وشاع الخبر بين صفوف جند يوسف فانغض أكثرهم عنه، وعاد بعضهم إلى موانته وانضم بعضهم الآخر إلى عبد الرحمن بن معاوية، وأرسل يوسف غاية جهده لمجمع قوة مناسبة تسير معه ضد عبد الرحمن، وكان الوقت موانئا لذلك، فأخفق علمنه من بذله المال والوعود، وأكل يوسف إلى قرطبة وحيل الشاهات، فصار من الصعب عليه القيام بأي تحرك عسكري، ولقد ساعد عبد الرحمن بن معاوية بضعف يوسف وبال星级يات السياسية في الأندلس، ولم...
يضيع الفرصة التي واتاه بها حول الشتاء، فزاد حزنه نشاطه، وصار يبيت في المناطق الجبلية ويتحرك بسرعة غير مفتوحة لفرصة من الفرص، وهكذا ازداد عدد أعيانه، ويدب أن حركته قد أخذت بعض السمات الاجتماعية، ولعلها بذلت الكثير من الوعود الاصلاحية، فلا تخلو بابنامه من الفقراء والظلمين من عرب وبربر، وتستخلص هذه الصورة من نص رسالة وجهها يوسف إلى عبد الرحمن جاء فيها: «أما بعد فقد أتىني إنيا نزالك بساحل الذكوب، وتابوش من تشابش إليك ونزع من السراق وأهل الخطر والغدر، ونقض اليمان المؤكدة التي كنتا بالله فيها وكدونا، ونه جيل وعلنا نستعين عليهم، ولقد كانا معنا في ذرى كنف وفواهية عيش حتى غمضوا ذلك واستبدوا بالأمن خوفا، وجذدوا إلى النقص، والله من ورائهم محيط، فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فإننا أولى بك من لجات إليه، اكتفوا وأصل رحمك وإنزلك معي إن أردت، أو بحث تزيد، ثم لك عهد الله وذمته إلا اغدر بك، ولا أمكن منك ابنا عمي صاحب إفريقيا ولا غيره.»

وعرض يوسف على عبد الرحمن أن يزوجه ابنته، ولا شك أن عروض يوسف هذه ابتغت تضليل عبد الرحمن والتغريبة، ولكن عبد الرحمن كان أكثر نباهة وحذرا، فرفض طلب يوسف، وهمل عروضه، وطلب منه التنازل عن حكم الأندلس، وخربه بين ذلك وبين المحاكمة إلى السيف.

وبعد الأيام ازداد اتباع عبد الرحمن، فأخذت العدة للزحف على قرطبة، وعندما تحرك نحوها حاول يوسف إيقافه فاضلح، وفي مشارف قرطبة، التقى جيش عبد الرحمن، وبخصر وصميل، فاستطاع عبد الرحمن إيقاف هزيمة ماحقة بهما، وقبتهما، وأجبرهما على الفرار، وهكذا تمكن عبد الرحمن من دخول قرطبة، وكان ذلك صباح يوم عيد الأضحى لسنة 138 هـ 14 إبريل 756 م.

وقام جند عبد الرحمن اليمنيون بنهب قرطبة، وعندما حاول...
إيقافهم عن النهب ومنعهم من القيام بعمليات الانتقام من خصومهم القبسيين غضبوا غضبا شديدا، دفعهم إلى التآمر على عبد الرحمن ومحاولة التخلص منه. ولحسن حظ عبد الرحمن أعلم بخبر المؤامرة عليه، فاحذرته لنفسه ودير حمايتها، مما دفع المتامرين للتخلي عن خططهم.

وبعدها صار عبد الرحمن سيد قرطبة، ألقيت الخطة بمسامع يوم الجمعة، ولم يتم الدعاء في هذه الخطة للخليفة، ذلك ان الخليفة كان ابناً هو أبو جعفر المنصور وكان المنصور عدوا للأسرة الأموية، لذلك كان من غير المنطقي أن تنتم الخطة باسمه ويعترف بخلافته.، خلق هذا حالة جديد ذاك أن عبد الرحمن احتفظ لنفسه بلقب أمير، فكان بذلك مثلاً من سباقه في حكم الأندلس، ولم يعلن عبد الرحمن نفسه خليفة، لذلك أنه لم يكن في وضع يمكنه من فعل ذلك، مع أن عبد الرحمن لم يكن أول حاكم في تاريخ الأندلس يستولي على السلطة استيلاء أولاً ثم يتم تعيينه من قبل السلطات الإسلامية الشرعية، إلا أنه كان أول أمير للأندلس يقوم بفصل هذه الولاية عن جسم الدولة الإسلامية فصلاً سياسياً كاملاً، ويسعى إلى تأسيس حكم أسرة وراثية مستقلة فيها، والجديد الجديد في هذا الأمر هو الجانب التشريعي أكثر من الجانب العملي، فعليها كانت الأندلس دائماً مستقلة، يربطها خيطة واضح بالسلطات الشرعية لأفريقية أو دمشق. فقام عبد الرحمن بقطع هذى الخيط، فانهار ذلك خياماً في تاريخ الأندلس، وخط سابقة خطيرة في تاريخ الإسلام ووحدة أراضيه السياسية، ورسم بداية الهيمنة للوجود العربي في شبه الجزيرة الإيبيرية، لأن المواجهة الآن بين قارة وحدها الصليب وبين فئة صغيرة دانت بالتوجيه، لكن نادراً ما تزمن بوحدة الصف. وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة واجب العديد من المسائل الفائقة الأهمية، فقد كان عليه أن يكمل سيطرته على أجزاء الأندلس وأن يقوم بمعالجة قضايا الخلاف بين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم من قياسية ومماثلة، كما كان عليه أن يقوم بمعالجة المشاكل الاجتماعية والزراعية لولايته، فللأسف...
وافق تسلم عبد الرحمن لحكم الأندلس بداية حدوث تحولات كبيرة في المجتمع الأندلسي، وخاصة بين صفوف السكان الأصليين، أن أعداء أباد ببعض هؤلاء بدأوا بالتحول إلى الإسلام، وكانت أسباب التحول هذه أسباباً نجمت عن قناعات خاصة حركتها المطامح والملال والسياسة مع هزيمة الكنيسة الإسبانية وإفلاسها أمام الدعوة الإسلامية والحضارة العربية الناشئة المتفقة بالحياة والتجديد، ودعي هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام باسم المولدء، وشكلوا جماعة خاصة تميزت بعض الشيء عن جماعات الموالي في الشرق كما شبهتها في بعض الوجه.

وهبت قوة العرب، وحيوية لغتهم، وجوانب الإبداع في تطاقاتهم وحضارتهم معظم بقية السكان الأصليين للأندلس، فخلى هؤلاء عن تراثهم ولغتهم ومماثلهم لما قبل الفتح الإسلامي وتبنا كل ما كان للعرب إلا دينهم، وعرف هؤلاء باسم المستعربين.

لقد ضمت كل فئة من فئات سكان الأندلس جماعات راضية وجماعات ساخطة، لذلك واجب عبد الرحمن خلق فئاتن من الثورات، ولذا عبد الرحمن إلى اعتماد وسيلة العنف للقضاء على مناوى، وسعى في البداية لابقاء على نوع من التنظيم بين القيسيين والليبيين في الوقت نفسه، احترم في عداد جيشه من المرتزقة والعبيد، وفقاً لما يسمى نظام الخدمة العسكرية السلافية، كما أن تجنبه لجيش خاص يختلف عن متقدمية من حكام الأندلس، إذ استغنى عن الاعتماد على واحد من الحسباني العربيين، وبدلاً من أن كانت القلمية هي الرابط الذي يشد قوى الحكم والتعاوض، صارت الآن شخصية الأمير هي محور العمل السياسي في الأندلس والرابط الذي يجمع القوى، واستدعى هذا إنشاء بلاط، وإضفاء صفات خاصة على الأمير.

وكان لانشأ البلاط واقامة الجيشه المحترف نتائج سياسية وحضارية كبيرة، كما أن ذلك كان يحتاج إلى نفقات كبيرة مما دعا إلى العنانية بموارد البلاد الاقتصادية وإلى تنوع الضرائب وزيادتها.
وكل هذا لم يكتب له أن يقوم دون ردات فعل، ومشاكل مستجدّة معقدة.

وبسبب أن عبد الرحمن كان قد استولى على قرطبة بفضل مؤيديه من رجالات الحزب اليماني فقد وجد أن عليه أولاً أن يعالج مشكلة الحزب القبلي، وذلك أنه بعدما دخل قرطبة، سيطر على عاصمة الأندلس، لكن ليس على جميع أجزاء البلاد، فقد هرب يوسف سيد الأندلس إلى طليطلة ومضى الضمي إلى عشيرته في جندبائن، وأخذ يدعو الفئة لجولة ثانية في عبد الرحمن، وقام عبد الرحمن بدوره بالاستعداد، وسار أولاً ضد يوسف، وبعد استيابات عدة كسبها عبد الرحمن استطاع عبد الرحمن أن يجبر خصمه على الاستسلام له، وجلبهما معه إلى قرطبة، حيث عاملهما بعفولة كريمة وكان يشبولا وهميًا ويستعين بخبرتهما، وعندما تمكن عبد الرحمن من خصمه يوسف والصميل صار سيد الأندلس بدون منازع، ولم كان ذلك لفترة من الزمن، ولم يستطع يوسف تحميل إقامته الجبرية في قرطبة فهرب سنة 1410 هـ - 788 م منها، وأخفق جند عبد الرحمن في تعقبه وألقاه القبض عليه، وقام عبد الرحمن باعتقال الصميل وحمله وزاد يوسف والقائه في السجن مع وادي يوسف، ولقى الصميل حتفه في السجن بصورة اختلفت اختلافًا، وتمكن يوسف من جمع جيش كبير قدر بعشرين الف من عرب وبربر، ورحب فعزل عنه، وكان أن اصدام أولاً بالشمال، وهناك هزم وارتفع قبض عليه قبل طليطلة وهناك قتل، وانهت بذلك الجهود عبد الرحمن على أبي زيد بن يوسف وابقى الولد الآخر حياً في السجن.

وكان هذا الولد يعرف بابي الأسود، وقد ظاهر بفقدانه بصمة فانطلي ذلك على سياسته، وهياً له الفرصة للهرب، وقد أثار هربه بعض المتاعب لعبد الرحمن، وهذا ما ستعادي على ذكره فيما بعد، ولم يمنع عبد الرحمن بالاستراحات طويلاً إزالة هربه من مشاكل الحزب القومي فقد إنجر بحبو معاليته مشاكل الحزب...
اليمني، فقد ساعد رجالات هذا الحزب عبد الرحمن لا حباً بـ، بل سعيًا وراء الاستنمام من الحزب القبسي وحباً لنيل السلطة، وكان من حسن حظ عبدالرحمان وجود تنافس بين زعماء الحزب اليمني حال دون اتفاقهم، وكان عبد الرحمن يدرك أن ذويه اليمنيين، إلا أنه كان مضطراً للتعاون معهم، ولذا نجد يلجا إلى سياسة التسوية فلم يحاول إبادة الحزب القبسي، وكانت غالبية العناصر اليمنية تسكن في الجنوب الغربي من أراضي الأندلس وخاصة في منطقة سرقسطة.
وواجه عبد الرحمن عدة ثورات يمانية أخذها واحدة تلو الأخرى.
ولعل أخطر الثورات التي واجهها عبد الرحمن وأهمها تلك التي قادها العلاء بن مغيث الجذامي سنة 146 هـ - 762 م بتحضير من الخليفة أبي جعفر المنصور وتأييده منه. وكانت هذه الثورة أن تلقى على جهود عبد الرحمن وتعيد الأندلس وثيقة من ولايات الخلافة، لكن حزم عبد الرحمن وشجاعة مكانته من تحقيق النصر على أصحاب الرايات العباسيه السود، فقتل العلاء كما قتل اعداد كبيرة من الثوار ويثبت بعد من رؤوس القتلى فربما بسحور القروان، وقال أنه بعث بعض المؤسسات إلى مكة، وكان المنصور حااجاً ابذاك فرميت قرية من خيمته، فلم راهًا ورفِّ رأس العلاء بينها أصابه الدعر وقال: "إنا لله، عرضنا بهذا المسكون للقتل. الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان.
وفي سنة 149 هـ - 772 م واجه عبد الرحمن ثورة يمانية أخرى بقيادة عبد الرحمن بن عبد الرحمن الثاني المطيبي، الذي فسر عبد الرحمن الثاني المطيبي، وأعطاه الانتفاضة بشيء وقعت له، وفي السنة نفسها قتله عبد الرحمن زعيماً ماماً أخه هو أبو الصاوي بن بخي البحصبي. وفي سنة 156 هـ - 774 م واجه عبد الرحمن ثورة يمانية أخرى في منطقة إشبيلية بقيادة عبد الغافر البحصبي، فقضى عليها أيضاً وقتل العديد من الثوار.
وقد تورط في الثورات التي واجهها عبد الرحمن الكثير من البربر، كما خرج البربر في ثورات متفردة قضى عليها عبد الرحمن جميعاً، وقد دفع الحقد على عبد الرحمن بعض العناصر المتنافرة لأ.
إلى التحالف ضده فقط بل حتى إلى طلب العون الخارجي واستعداد قوى غير عربية وغير مسلمة، فقد تحالف سليمان بن يقطان العربي الكبیر حاكم برشلونة مع عبد الرحمن بن جبير الفهري صهر يوسف الذي عرف باسم الصقلي « لأنه كان طويلًا، أسمر، أزرق، وأبي الأسود بن يوسف الذي تظاهر بالعمي وهرب من سجن عبد الرحمن، وقام الثلاثة بالسفر إلى بلاط شارل من وكان ذلك سنة 100 هـ ـ 717 م. فاتفقوا معه ووضعوا معه خطة محكمة تمكن شارل من أخذ سرقسطة كما تمكنهم من اشغال عبد الرحمن في مناطق أخرى من البلاد حتى تتنام هزيمته والقضاء على حكمه.

وبعث شارل جبال البرانس بقواته وفق الخطة الموضوعية.

ومنذ أن دخل الأندلس عرف بأن الصقلي قد لاقى حتفه، وأن أبا الأسود لا حول له ولا طول، ومع هذا سار نحو سرقسطة التي كان سليمان بن يقطان قد استولي عليها، يريد أخذها منه حسب الاتفاق المعقد.

وحين علم عرب سرقسطة بخطط سليمان بن يقطان وقفوا ضدًه واستعدوا للدفاع عن مدينتهم، وفر سليمان بن يقطان إلى شارل ووضع نفسه تحت تصرفه، وبينما كان شارل يتسبب للشروع في حصار سرقسطة تسلم خبرًا قويًا بالاتفاق على جميع خططه ودفعه نحو العودة مسرعاً إلى مملكته، فقد عاود السكسون الثورة ضد مغتمين فرضه غيابه.

لكن كيف تمكن شارل من الوصول إلى سرقسطة مباشرة؟ لقد تمكن من ذلك بسبب أن العرب كانوا قد فتحوا سبتمانيا وخصوصاً حصنهم المنيع في أورينو، فقد توفي شارل مارتن سنة 747 م. فخلفه ابنه بيي، وقد اعترف البابا بيي بنكًا شرعًا الأمر الذي لم يحظ به شارل مارتن نفسه. وسعى بيي في السنين الأولى من حكمه للسيطرة على اكباتانية وانتزاع حكمها من ابناء اود، وهيا هذا النزاع فرضة ثمينة أمام العرب، غير أن ما شهدته
ساحت الأندلس من الصراعات الأهلية لم تحل فقط دون اغتنام الفرصة بل دفع نحو توريث حاميات الثغور في الصراعات. وعندما خلت المنطقة اهتيل الفرصة بقابا القوط واخذوا بسسون للاستقلال، وانتزع الفرنجة عدة مواقع هامة من العرب ثم حاصرت إربوة، وعجزت تجادة أرسلها عبد الرحمن الداخل عن التفتيج عنها، وقامت سنة 147 هـ - 759 م استسلمت هذه المدينة لجيوش بيبين، وبذلك لم يعد للعرب وجود في سبتانيا وغيرهما من أجزاء المملكة الفرنجية.

واخذت قوة مملكة الفرنجة تزداد مع مرور الأيام، وغرقت سياساتها تجاه العرب الأندلس من الدفاع إلى الهجوم، وزاد الطين بلة أن بعض زعماء العرب وضعا أنفسهم تحت تصرف الفرنجة واستدعيا شارلذان ليستولوا على سرقتهم وسواها، واعترفوا حملة شارلذان واضطر إلى الانسحاب.

وفي طريق العودة أثناء عبر شارلذان وقواته للممر الجبلي الوعر في جبال البراونس انقض رجال البشكنسة ومعهم بعض العرب على مؤخرة قواته حيث تؤمن الجيش ونهضها، وعانت قواتها情緒温柔ه وган بها حصارها، وعندما وقعت بأكملها كبيرة بجيش شارلذان، وكان بين القتلى عد من النبلاء من بينهم رولاند الذي قيل أنه كان ابن اخت شارلذان نفسه وحاكما لمنطقة الثغور.

وعبر عدة قرون ظل الأجيال الأوربية تتناقل إخبار الكارثة التي حلت بجيش شارلذان محضة ذلك بهレーション أثر على الفكر الأوروبي للعصور الوسطى ودفعها نحو كتابة واحدة من أشهر ملامح العصور الوسطى، وهي اللمحة المروية باسم «نشيد رولاند»، وكان للحوز الفضل الأكبر في حماية عرس عبد الرحمن هذه المرة، وكانت حملة شارلذان آخر حرب تطرأ في سنة 172 هـ - 30 أيول 788 م عن عمر قارب الستين، وذلك بعدما قضى حوالي ثلاث قرون يعمل على تأسيس ملك لبني أمية في
المغرب بعدما انقطع في الشرق ، وقد جلب نجاحه اعجاب معاصره به فدعاه النصور بصفر قريش ، كما أثار هذا النجاح اعجاب الكتـاب والمورخين الذين وجدوا وما زالوا يجدون في حياته الكثير مما يمـكن الكتابة عنه (18).
هشام الرضا

وبعدما توفي عبد الرحمن تولى حكم الأندلس وله هشام، ويرحبا
هشام هذا عادة بلقب الرضا، ذلك أنه يوصف بالتقوى ويعمل الثقافة
ودعوته بالرضا، لا شك أنها كانت متصلاً بثبات وثبات الربيع الأخير
للقرن الثاني السياسي والديني من النشوبات وتطلعات الأمة
الإسلامية. فالفترة هذه بالذات هي الفترة التي ظهر فيها الأمم
الرضا بين الشيعة الأثنا عشرية، والذين عينهم الأمون ولياً لعهده
فترة من الزمن.

فهشام أراد أن يقطع شار ما مستطبه والده، ويتم عمله في
احلال رابطة الأمير مخل رابطة العصبية، وجعل شخصية الأمير
محور الأمر في الأندلس تدور حوله وليس حول سواه، ولقد كان من
الضروري أن يستلم خليفة عبد الرحمن بالذين والقوى ومحبة
السلم وكراهية البطش، فالأندلس كانت بحاجة إلى إلهام والأمن
بعدما فقدت تلك فترة مديدة.

ويشتبه هشام الرضا بابن عبد العزيز، وهما قد نال بقتواء
شهرة كبيرة وصلت إلى المشرق، حتى تعباه بعض المشاركين أن يكون
إمامهم بدلاً من الإمام العباسي، فهذا الملك ابن إسح يقول: «ودعت أن
الله زين موسمنا – أي موسم الحج – هه».

وشهد عبد هشام الذي امتد حتى سنة 180 هـ 796 م الكثير
من التطورات في المجتمع الأندلسي أعطت جوانب عدة دينية وحضارية
وسائسي، فهو قد نجح في الدولة في المقابل على مناصفة أخواته له
وعدهم لنبيل الملك وتنزاعه منه كما رأى أن قواته تمكنت من
استرداد مدينة أربونة، واستفادة النشاط داخل في فرنسا
وسوءسة واحتم هشام بقرطبة فأمكن ما كان والده قد شرع فيه من
بناء جامع قرطبة، كما شيد قنطرة على نهر قرطبة ورمي أسوار

- 73 -
المدينة، ولعل من أهم الحوادث التي حصلت في عصرها واحدة كانت تتعلق بانتشار الذهب المالكي في الأندلس وحلول محل مذهب الأوزاعي وغيره، وكان للأخذ بهذا الذهب نتائج كبيرة على مستقبل الأندلس والمغرب معا، كما أنه يمكن أن يقوم ضمن اطار السياسة الدينية لهشام، والسياسات الدينية للدول التي عاصرت هشام، فمعظم الدول التي كان للأندلس بها علاقة ما، مثل الإمبراطورية الكارولنجية، والإمبراطورية البيزنطية، وآخيرة الخلافة العباسية، اتجه حكامها نحو تبني مذهب ديني واحد تجتمع عليه الأمة سواء أكان ذلك قسرا أو قصرا، وأما الذي يثير الانتباه أن السياسة الدينية لهشام نالت حظا أكبر من النجاح، مما نالته محاولات أباطرة بيزنطة بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وابتدأ صيغة مقبوله لدى الجميع حول عبادة الأيقونات وغيرها من المسائل، ونالتها أيضا سياسة المانحين العباسيين بتبنيه للأعمال والإعلان عن القوانين المخلوق، وسعى لإجبار الناس للأخذ بهذا الرأي.

وجلس توفي هشام كان ما يزال في مقتبب الشباب، كان لطوه قد جاور سن الآربعين، فهو كان قد بلغ سنة 139 هـ 756 م، وكانت أمه أم ولد تدعي جمال، ومن ينظر في تاريخ الأسرة الأموية في الأندلس يجد أن غالبية أفرادها انحدروا من إمامة، وهذة الظاهرة كانت إحدى سمات مجتمع الأندلس بشكل عام، فالعرب الذين دخلوا الأندلس دخلوها رجلا بسنان، وحين تزوجوا كانت زوجاتهم في غالب الأحيان من شقراءات أوربة تم الحصول عليها من أسواق النخاسة ولم يؤثر هذا على تصور وإنجاز الأندلسيين فحسب، بل كانت له أثار خطيرة على بنية البيت الأندلسي، وعلى مجتمع الأندلس وعاداته أفراده في اللبس والمطعم وحتى في طرق التفكير وتقدير الأمور وتقويمها.
الحكم الرفيض

قبلما يتوقف هشام الرضا أوصى بالحكم من بعدها لابنه الثاني الحكم ولم يوص به لابنار أبن الملك ويعرف الحكم عادة بلقب الرفيض، نسبة إلى ربيح قرطبة حيث واجه ثورة عارمة فيه سنت يحدث عنها، وقضى عليها وباطش بعناصرها وسفك دماءهم، ولعل اسم عبد الحكم حماسة الدم الذي اقترنت وكثرة الثورات التي وقعت، وقد قاد بعض هذه الثورات شعب الحكم الذان كانا قد ثارا على أبيه واجبراء بعد إخفاقهم على مغادرة الأندلس إلى المغرب.

ففجأمة بلغ خبر وفاة هشام إلى المغرب عاد أخووه عبد الله وسلام إلى الأندلس ودخل عبد الله أولا حيث توجه نحو سرقسطة ومن هناك رحل نحو بلاط شارلمان يستنجد ويستدعوه وكان هذا سنة 181 هـ/797 م، وفي سنة 182 هـ/798 م عاد سليمان (وبعضهم يقول عاد قبل ذلك) واعلن الثورة ضد الحكم، وخاض ضد قوات الحكم عدا من المعارك هزم فيها، وكان آخر المعارك سنة 184 هـ/800 م، حيث اسر فأتى به إلى الحكم فقتله، وفي السنة التي قتل فيها سليمان وعده عبد الله من بلاد شارلمان فاعلن الثورة في منطقة سرقسطة، فلم يصب النجاح، ومع ذلك تابع نشاطه ضد ابن أخيه حتى سنة 187 هـ/803 م حيث تم عقد تسوية بينه وبين الحكم ووقفت نشاطه وانهية.

وأهم من هذه الثورات ما حدث في كل من طليطلة وربيح قرطبة، وكانت طليطلة عاصمة الأندلس قبل الفتح الإسلامي، كما أنها تميزت بخصوصها وسهولة الدفاع عنها، وجعلها هذا ما مدى لنوي الأمواء والمطامع، وأوجد فيها الاستعداد للثورة بشكل متواتر وبرواد أن ثورة أعلنت فيها سنة 181 هـ 797 م بزعامة رجل عرف بعبد بن حميد، وقام الحكم برسل جيش بقيادة قائد عرف
بعمرو بن يوسف، واخفق عمرو في الاستيلاء على طليطلة بالقوة، وهنا لجأ إلى الخدعة، فاستطاع تدبير اغتيال عبد وتخلي أهل طليطلة عنه، واستطاع بعد هذا أن يقطع أهل المدينة بفتح باب المدينة له ودخلتها إليها، وتذكر المصادر الأندلسية أنه بي قصرا عند مدخل طليطلة، وعند ما قدم الناس لتهنئته أعد أشرافهم ورجالاتهم، وبلغ عبد الذين أعدهم ما بين ٧٠٠ إلى ٦٣٠، وجمام الدم هذا ضمن طاعة طليطلة واستقرار الحكم الأموي فيها.

وأهم ما ثورة طليطلة وأكثر شهرة ثورة بريض قرطبة، والبريض هو الضاحية التي تقوم قرب المدينة، فمدينة قرطبة كانت محدودة المساحة ذلك أنها كانت مدينة مسورة، وبعد صارت عاصمة الأندلس وفدت إليها عناصر كثيرة من السكان لتنتمي بها، وعادت الهجرة الداخلية إلى الدن المركزية أمر مأول، ويبعد أن غالبية العناصر التي هاجرت إلى قرطبة أضطرت إلى السكنى خارج الأسوار، وكجنت مع الأيام ما يشبه أن يكون مدينة جديدة عرفت بريض قرطبة، وتمييزت المدينة الجديدة بعناصرها ومجتمعها عن قرطبة.

وحين تقوم بالبحث في ثورة البريض لا بد لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار شخصية الحكم وطبيعة عصره، فقد تسلم الحكم مقاليد الأموي وهو في ربعين الشباب، في السادسة والعشرين من عمره، وكان عشبة الناس بجد عبد الرحمن بن جعفرية بأنه، وصاحب بmeld الدين، ولم يكن أقله في تقات وتمسكه بأمور الدين من حيث الباطن والظاهر، ومن اللاحظ أن أن مجتمع الأندلس كان قد اخذ في أيام هشام الرضا بالتحول نحو الأخذ بأسباب الدين، ولفد رأينا كم نال هشام من التوفيق والشهرة بسبب تقات وتمسكه بالإسلام، ووصف ابن عزاري الحكم بأنه كان شديد الحزم، مضي العزم، إذا صولة تلقى، وكانت له ألف فرس مرتبطية بباب قصره على جانب النهر، على عشرة من العرفاء، تحت ريد كل عريف مكان فرس، فإذا بلغه عن ثائر في أطرافه أمر، عاجله قبل استحكان أمر، فلا يشعر حتى يحاط به.
وأكمل الحكم عملية تطوير أسس الحكم في الأندلس مع ربط الوحدة بشخصية الأمير، كما استخدم العنف للاحتفاظ بسلطنته، وبدأت التحركات ضد الحكم في الريش منذ فترة مبكرة في سنة 189 هـ.ومة سنة 805 م، كشف مؤامرة استهدفت الأطاحة به، وربما، بعد أقربائه. وقد قام هذا الغرب بإفشاء سر المؤامرة ودل الحكم على المتآمرين، فاتهم القبض عليهم، وكان عددهم اثنان وسبعون رجلا، وأعدمهم جميعاً جملة واحدة، ثم أقنع سور قرطبة، وحفر خندقها.

وجلب هذا الإعدام السكينة والهدوء ولكن إلى حين، فقد لجأت عناصر الثورة إلى المقاومة السلبية، وكان فقهاء قرطبة ورضبوا على رأس هذه العناصر ذلك أنهم «أنكروا عليه الشيء رابتهم فأرادوا خلعه»، وأخذت هؤلاء الفقهاء، أنشدت أشجار الزهدر والحضع على قيام الليل في الصواعق، أغني صواعق المساجد ورأوا أن يمليطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به مثل أن يقولوا: «اهياء السرف المتمادي في طغيانه، مصر على كبرى المهاون بأمر ربه افق من سكرته ونبن من غفلته».

ولم يستطيع الحكم تحمل هذا التعريض، وله احتصار في ايجاد سبيل لاذقته، فلقد كان من الصعب التدخل في شؤون العملات ومنى الناس من التعبد، ويبَدَّد أنه قفَى القبض على بعض المحررين مما أدى إلى شحن الأجواء وتوترها.

وفي سنة 202 هـ - 817 م، تفجرت الثورة في الريش ضد الحكم وكانت ثورة عارمة، ولنكن من الصعب الحديث عن مؤثرات خارجية حرضت عليها، فمن السهل وصف نتائجها على مناطق خارج الأندلس. وحاول شوارب الأندلس قطع الجسر الواسع بين الريش وقرطبة، وبعد جهد طويل مضني استطاعت قوات الحكم دفعهم عن الجسر، ثم تمكنت بعض هذه القوات من الانتشار حول الثورات، فهاجموا مساكنهم وأهلهم، وبلغ خبر ذلك الثورات فتفتقت عناصرهم عادة نحو بويعتها للفداء عنها، وهنا اطباق قوات الحكم.
على الريض وطوقته، وجرى حمام دم هائل، فقتل فيه آلاف من
العشرين ألف الذين كانوا يسكنون الريض حسب بعض التقديرات،
وجملما تم اطفاء النار، فرق الحكم ما بقي من عنصر الثورة على
إقليم الأندلس، كما سمع للقسم الأكبر مغادرة الأندلس إلى
المغرب حيث استعمروا في تأسيس مدينة فاس والغرب لم يستطع
جميع هؤلاء العشبو طويلًا، فتوجه قسم منهم نحو الأسكندرية
فتملكوها وذلك في أول ولاية الرشيد، وسطوا بأهلها سطوة مكركة
، وقامت الدولة العباسية بتجربة واحده من كبار قادتها إلى مصر
منهم من الاستيلاء على مصر وحصرهم في الأسكندرية، وتضاوض
معهم بعد ذلك على ترك الأسكندرية على أن يزودهم بالсыر والماء،
والسلاح ويدعوهم بذبحهم حيث شاءوا، وغادروا الأسكندرية،
وتوجهوا نحو جزيرة كريت فاستولوا عليها، وأقاموا فيها حكماً
عربياً استمر قرابة القرن والنصف حيث قام في السنة 1250
هـ ـ 961 م الامبراطور البيزنطي نيقفور فوقيس بمهاجمة
كريت وانتزاعها من العرب.

فقد تم الاستيلاء على كريت سنة 1212 هـ ـ 827 م وكان
الحكم قد توفي منذ عدة سنوات، أي في سنة 1206 هـ ـ 822 م،
ثم كانت ثورة أهل الريض آخر ما واجههم من مخاـطر داخلية، وبعد
وفاتها خلفه ابنه عبد الرحمن.

وسلطت الإشارة إلى التجار عبد الله عم الحكم إلى بلاط شارلمان
والإيقاف، لكن هذا الحدث لم يكن خاتمة المطاف في العلاقات مع
الفرانْجية وحكام جليفييا، فقد قام الملك الفونسو (ألفونسو) ملك
جليفييا بملأ بدررة لأسر جماعة من المسلمين، وفي سنة
800 م، السنة التي كان شارلمان يستعد فيها في روما لانقل تأجير
الإمبراطورية عالماً لويس بن شارلمان عن نيته في انتزاع برشلونة
عاصمة كاتالونيا في شمال أسبانيا من المسلمين، وبالفعل حوضت
هذه المدينة وقطعها المناذر إليها لمنع الت💎دة من الوصول إليها،
وبعد حصار طويل ودفاع مستمر استسلمت برشلونة سنة 801 م
بعدما بقيت بأيدي العرب تسعين سنة، وعلى الفور حولت مساجد المدينة إلى كنائس حسب قاعدة حرب الاستغلال وأرسل لويس إلى أبيه ببعض الغنائم والأسرى، والمثير للانتباه أن المصدر غير العربي تذكر أنه في السنة التي استولى فيها الفرنجة على برشلونة استقبل شارل سفارة من هارون الرشيد، الخليفة العباسي الشهير، وتحدثت المصادر عن تحالف فرنجي – عباسي ضد الحكم الأموي في الأندلس، قابلته تحالف أندلسي بيزنطي ضد العباسيين والفرنجة معا. ومفيد أن ذكر أنه مع قيام الحكم الأموي بالأندلس انشأ عبد الرحمن الداخل عدة دور لصناعة السفن، وما لبثت الأندلس أن امتلكت أسطولا قويا للدفاع عن سواحلها. وانهاجم الأسطول الأندلسي جزيرة كورسيكا سنة 1268 هـ/1858 م، هاجم سواحل بروفانس وجزيرة كورسيكا (20) .
عبد الرحمن الثاني

وكان عبد الرحمن الثاني هذا في الثلاثين من عمره، وعندما تسلم الحكم، ألقى الملك قدومته ووُجد فخلا بلاده وانفراد بعد مقتضياته، فكان كداخل الجنابة التي جمع فيها ما تستهيه الأنفس وتلذ الأعين.

لقد قطع عبد الرحمن ثمار نتائج التحول الخاضع الذي بدأ في عهد أسلافه، فنعم بالاستقرار وتهيئة الأندلس بسلاسة كبيرة من الأنس والازدهار، وفي الواقع باشر عبد الرحمن الحكم في الأندلس في أيام أبيه الأخيرة التي قضىها بحرينيًا، وكان نسبًا مستحراً، ورجلًا لينًا طيب الأخلاق مرنا، كما كان عالٍ الثقافة، يجيد قرض الشعر، ويمكن القول أنه قد تم في عصره التحول السياسي الذي بدأ مع عبد الرحمن الأول، وابن النصيء على العصبية القبلية واقامة الوحدة حول شخصية الأمير.

ولم بخلع عبد الرحمن الثاني من بعض الثورات، إنما لم تكن أي من هذه الثورات بدرجة ما حدد ثابياً أبيه، وعليه ابترر لدلاً على الأندلس والازدهار في عصره قيم حركة عمرانية كبيرة في الأندلس في قرطبة وغيرها.

ولزمن عبد الرحمن الثاني استقرت حدود الأندلس، وبدأت ما قبل دفاعية على هذه الحدود، وأهتم عبد الرحمن بتخصيص شروط الأندلس، لأن عصره كان عصر نشاط شعوب الشمال (الفايكنغ)، كما اهتم ببناء اسطول خاص بالأندلس.

وقام عبد الرحمن بإعادة بناء الهيكل الإداري للدولة، فقاعد مناصب الوزراء وجعل لكل وزير وظيفته الخاصة ويومنهما المحدد الذي يقابل به الأمير، وعشت عبد الرحمن الثاني انتفاخًا من القوة بمكن سمع له بالتدخل في شؤون المغرب.

وفي زمن عبد الرحمن شهدت الأندلس نشاطًا فكريًا كبيرا خاصًا
في مجالات الفلسفة والدين وعلم الكلام، ولعل من أبرز الشواهد على نقي بلطلة قربة وشهرته أن زيابي مغني الأشياء، ترك بغداد إثر مقتل الأمين، ووفد على أمير قرطبة، الذي استقبله بحفاوة بالغة واكرمه خير أكرام.

وكان الإمبراطور شارلان قد توفي سنة 814م، وخلفه ابنه لويس الثاني، الذي افتقر إلى مؤهلات أبيه وحزمه، لهذا فان عري الأمبراطورية التي شيدتها شارلان بعد جهود مضيئة شرعت بالتفكك.

وكان لهذا اثره بالنسبة للضغوط الفرنجية على الأندلس والقابضة.

فقد بدأ المسيحيون من سكان الشمال الإسباني يشككون من تمسك التسلط الفرنسي فثاروا وقفا النابض من قربة، وبالرغم من حاول لويس الانتقام فانتهت قيام ثورة ماردة فارس إلى سكانها بقانون باسم الرب واسم نورنا المسيح، إذن لويس بحاجة إلى伸びا الإمبراطورية إلى القسطسية وإلى شعب مقدّدات تحتية باسم موالانا المسيح.

بلغتنا من خمنكم وما تحتمل هو على عبد الرحمن الذي لم ينفك عن اضطهادكم وعن الطمع في نرواكم، إنه يصنع مثلما كان يصنع مصهم أبوه (ابو البرخوي) الذي كان يريد أن يرغمكم على نفم مبالغ غير مستحقة من المال، والذي جعل من اصدقاءه أعداء ومن الطائينين ثوارا، إنه يريد أن يحركم من حريكم ويرفعكم بالضربات من مختلف الأنواع ويبينكم جميع الطرق، ولكنكم لحسن الحظ قتمتم برذّة ظلم ملككم ودعوانكم بشرعاعة، ولقد قامتم بمحالة وحشيتهم وجعلهم، وهذا الخبر وصل إلينا من مختلف المصادر، ونتيجة لذلك اعتقدنا أن من الواجب كتابة هذه الرسالة لواصلكم، وأحتمل عن مكان لجنيكم، وبالنظر إلى أن هذا الملك المشروع دونه يقدر ما هو عدوكم، فإننا نقترح عليكم التعاون والتنسيق لمحاربة ظلمه، ونحن نتمنى أن نرسل في الصيف القادم بعض من بعض جيشا ليعبر.
جبال البرينيز وتضعه تحت تصرفكم، وإذا وجه عبد الرحمن جيشه إليكم، وحاول هذا الجيش الزحف عليكم فإن جيشنا سيبقى بتحركات واسعة لصرفه عنكم، ونحن نصرح أنكم إذا خلعت طأعته وأعلنت طاعتنا فسوف نرد إليكم حرتكم التي كنتمتمطعون بها من قبل دون أن تمس، وإننا لن نفرض عليكم أقل ضربة، ولكن أن نختاروا القانون الذي تودون العيش في ظله، وسنعتبركم إسفاح. يزيدون أن يشاركونا في الدفاع عن امبراطوريتنا، ندعو الربر أن يحفظكم في صحة وعافية.

والملفت للانتباه أنه على الرغم من توجه لويس بالخطاب إلى رجل الدين المسيحي في ماردة لم يكن في مقدوره توجيه تهيئة للتخصص ورفع الحريات الدينية إلى المسلمين، فعلى أن الفرنجة كانت هذه سياستهم والاسبان في حروب الاستقلال، وأمضى أهل ماردة ثلاث سنوات في الثورة على فرطية، وكانوا يأملون في وصول النجاحات التي وجدتم بملك الفرنجة، وعندما لم يصل منه أي قوة استسلموا وفتحوا أبوابهم لجيوش فرطية.

وتزداد الأوضاع في امبراطورية لويس المتقي وتهدأت الفرس من المسلمين لاستعادان ما فقدوه، لكن طاقات الأندلس لم تكون لتسامع وحدها بذلك، ولا سيما إذا ما ذكرنا استمرار العلاقات التعاونية بين الفرنجة والاسبابين، وقد ساعد على تسهيل هذه العلاقات قيام حكم الإغالبة في إفريقية (تونس) منذ أيام الرشيد.

وتحدثت المصادر الفرنجة عن علاقات تجارية ما بين مصر وسوريا من جهة ومصر وإقليم الفرنجة من جهة ثانية، وإذا وصل في سنة 116 هـ/ 831 م سفارة مكونة من ثلاثة أعضاء، أرسلهم الخليفة الأمون إلى فرطية، وقد حمل هؤلاء الرسل هدايا إلى امبراطور الفرنجة كان من بينها أقمشة حريرية وعطور.

لقد قام المسلمون أيام عبد الرحمن الثاني بعدة غزوات بحرية لاراضي مقاطعة بروفانس واستولوا لبعض الوقت على طريق البحر على مرسيليا، غير أن غزواتهم لم تكن منتظمة وشاملة، بل عبيرة.
وكان من بين أسباب ذلك ما تعرضت إليه الأندلس من مشاكل بعد وفاة عبد الرحمن الثاني.
ففي سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م توفي عبد الرحمن الثاني، وكان عمره اثنتان وستون عامًا وفقد خلفه ابنه النور خمسسة وأربعين ومن الأئمة ثلاثائ وأربعين، وبعدما توفي خلفه ابنه محمد الأول، وبوفاته انتهت مرحلة من مراحل تاريخ الأندلس (٣٢).
من الإمارة إلى الخلافة

عندما توفي عبد الرحمن الثاني خلفه ابنه محمد بن عبد الرحمن، وكان شاباً، وذلك أنه ولد سنة 207 هـ/823 م، وكانت أمه أم ولد اسمها بهيرة، وعندما كان عبد الرحمن الثاني حياً، وعند وفاته، اوقفت الظروف الخارجية للدولة بشنها كانت تنتمي بالقوة واللاستقرار، لكن الحوادث التي ظهرت بعد وفاته برهنت على أن هذه الضرورة كانت خداعاً، وأن بناء الدولة كان متعمداً، لكن بطرق ظلمة وقمعية، وكان فقط يتذكر حدوث بعض الأزمات الحادة لتتعصف بهذا البناء ونواته عليه.

وحين يفحص المرء تاريخ الأندلس بعد عبد الرحمن الثاني يجد فترة مميزة حكم فيها ثلاثة أمراء، واحدة تلو الأخرى، وكانوا:

أ – محمد الأول: 852 – 886 م
ب – المنذر: 888 – 912 م
ج – عبد الله: 888 – 912 م

فبينها فترة هؤلاء الأمراء أطلت الأندلس على عهد جديد، وهو عصر الخلافة والعروض إلى ذروة القوة والصبر والحضارة، وشهدت الأندلس في عصر هؤلاء الأمراء عددًا من الثورات، وقد سارت هذه الثورات على المنحنى نفسه الذي انتهجته الحركات الثورية منذ عهد الحكم الريشي، أي أن الثورات قامت في المدن ومن قبل سكان المدن، وقامت هذه الثورات لأسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية وغير ذلك، لكن سكان المدن كانوا غير راضين لبضعة أو لآخر، وكان التعبير عن عدم الرضا يتم بالثورات ضد السلطة المركزية، ومع وضوح أسباب الكثير من الثورات، ونيلها الكثير من التأييد نراه تخفق في النهاية لأنها عجزت عن تقديم أفكار اصيلة يمكن أن تحمل محل أفكار الوضع القائم والنظام الحاكم، والعجز في تقديم مثل هذه
الأفكار وانعدام البرامج الواضحة الطويلة وسم الثورات لأنها ما كانت إلا رداً فعل لبعض الأصول استقلت من قبل بعض الشخصيات ذات الخلق الواسع، وقبل نهاية القرن التاسع للميلاد ظهر على صدر أحداث الأندلس عد من الشخصيات الطموحة التي استغذت من عدم الرضا الشعبي، واستغلت هاته الماربها في سبيل إقامة حكومات مستقلة أو نصف مستقلة عن فرقة.

وبدو أن أول أعمال التمرد ضد السلطة المركزية قد بدأت في مناطق النفوذ، خاصة مناطق النفوذ الجنوبية والجنوبية الشرقية، وساعد على ذلك وضع النفوذ السياسي والدولي. فمن الناحية البشرية كانت مناطق النفوذ كثيفة السكان، كما كان سكانها آمنًا، طالبتهم أكثر مناتة وتفاعلاً مع الجانب الأوربي أكثر من الجانب المسلم من البلاد. ثم إن هذه المناطق كانت من الناحية العسكرية حصينة، فيها المنعة والمدايا والجيش الدروبي، بضاف إلى هذا أن وضع النفوذ العسكري كان يمنح بشكل دائم حكام النفوذ صلاحية استقلالية واسعة وكبيرة، وغالبًا ما كان قادرًا أن دمر أسر امرأة السلمية والأفلاط تلو الآخر، ويرى بعضهم أن نظام نفوذ الأندلس تأثر بشكل واسع بالنظام الاجتماعي الأوروبي، وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مفصل، وسنعمل على نشرها من هذا بعد أن نبين أن منطقة النفوذ في الأندلس كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام هي النفوذ الأعلى، ويبن في النفوذ الشرقي بمسافة سريعة، ثم النفوذ الأوسط، ويشمل منطقة قلابطة، وتلاذ النفوذ الأدنى. وكانت مدينة ماردة مركزًا لها حلت محل مدينة بطنيموس، وكانت أشهر أسر النفوذ أسرة القاسي، وكانت في النفوذ الأعلى وقد برز منها هذه الأسرة عدد من الرجال كان أشهرهم موسى بن موسى، وقد بدأ بتحركه الاستقلالي منذ أواخر أيام عبد الرحمن الثاني، وبعد وفاته عبد الرحمن اعتبر نفسه مستقلًا ودرجة الملك الثالث للأندلس، وكانت له علاقات زواج مع الأسرة الأسبانية، وكان له أقرباء عدد من الأسباني وخاصة مع أفراد الأسرة التي كانت تؤسس مملكة ستعرف فيما بعد باسم مملكة نافار.
الأسرة تؤسس ملكيتها حول مدينة سامبليونا، وأعطت علاقات الزواج مع آل القاسي هذه الأسرة الشيء الكثير من القوة في وقت كانت فيه في غاية الضعف، وهنا لا بد لنا من وقفة تنبين فيها تفسير هذه العلاقات، إذ كيف لنا أن نفهم قيام زواج بين أسرتين واحدة مسلمة وآخرة نصرانية، خاصة وأن الأسرة المسلمة لم تكن في مركز ضعف. لقد رأيت بعضهم أن يفسر هذه العلاقات على أساس النظام الاقتصادي الذي كان سائداً آنذاك في أوروبا الكارلية، وفي ظل هذا النظام كانت هناك علاقة مصلحة بين سيد وتابع، والمصلحة هي التي ربطت السيد بالتتابع، وعلى هذا اعتبر أثر الدين ومكانته في درجة أدنى من مصالح الطرفين ومنافعهما المتبادلة. وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن تغيير الدين في تلك المنطقة لم يكن بشكل مشكلة خطيرة، وبذلك نستطيع أن نفهم بعض ما اورده المزربين عن تحول بعض المسلمين إلى النصرانية.

وهذا الأمر يقودنا إلى طرح سؤال أكثر هل سياسة الدولة الأموية في الأندلس كانت سياسة لا تعتمد الدين رابطاً أساسياً بشد أزرها، كم إذا ما مدى صعوبة هذه الدولة إلى نشر الإسلام، ولقد رأينا أن أمراء الأندلس قد سعوا نحو جعل شخصية الأمير محور الحياة في الأندلس والرابط الذي ترتبط به الأمة، وفي الوقت نفسه لم يتخذ أمراء بني أمية القباني دينية كما لم يقوموا بالسعي الداعي نحو إحاطة أنفسهم بهالة من الفلسفة كما صنع خلفاء بني العباسي، لذلك كثرت الثورات ضد أمراء قرطبة، ذلك أنه عندما كان يحدث مسألة صغرى تراجع العلاقات القائمة على العقد بين أمير قرطبة وآخر، احتوى الشخصيات حتى كان صاحب هذه الشخصية يساري إلى نقد العقد وإعلان عدم الاعتراف بقيادة أمير قرطبة، ولاحظ أن عدداًً من أمراء قرطبة ادركو خطورة الحال، فعملوا من أجل إحلال رابطة الإسلام محل الروابط الأخرى، فحاولوا أنفسهم بعد كبير من علماء الدين ورجالاته، وأثر هؤلاء العلماء على سياسة الدولة، وساعدوا على نشر الإسلام، ولا شك أنهم هبوا السبل نحو تبدر
الوضع السياسي في الأندلس بالتخلي عن لقب أمير وابنه بلقب إمام وخلفية.

وفي الوقت الذي بدأ فيه هذه السياسة، قام بِن صغرف الأسبان حركة معارضة دينية، أو بالحرى حركة إحياء ديني جديد، واعتمدت هذه الحركة على ظهور عقيدة تعرف بعقيدة القديس جيمس كومبوستيلا، وكانت هذه العقيدة مسيحية بالأساس، واعتمدت على أفكار دينية أبيرية قديمة، وكانت هذه تؤمن بالتوأم الألبي. وهكذا اعترفت هذه العقيدة جيمس الأخ توماس للمسيح.

ولقد قدمت هذه العقيدة قوة إيمانية شديدة للأسبان، بذل ذلك أنهم اعتقدوا بأن الله أرسل جيمس مع مساعدة سماوية للأسبان في حروبهم ضد المسلمين، وأنه حينما سيستنصر الأسبان، وقد استنبذت هذه الحركة أساس القوة الروحية لحرب الاستقلال الإسبانية.

وعجز أمراء قرطبة عن هزيمة موسى بن موسى القسي فظل سيد سرقسطة والثغر الأعلى حتى سنة وفاته في ٤٤٨ هـ / ٧٣٢ م، وحاول من بعد ثلاثة من أولاده ثم عدد من أحفاده الاحتلال بالأندلس، فلم يوفقوا كثيرا.

وفي الوقت الذي كانت فيه أسرة آل القسي صاحبة السيادة في الثغر الأعلى كانت أسرة الجليفي صاحبة النفوذ في الثغر الأدنى، وظلت كذلك حتى استردت حكومة قرطبة قوتها زمن عبد الرحمن الثالث.

ومهما بلغت ثورات أسر النفوذ من خطأ فإن ذلك لم يعاد جزءا مما نجم عن ثورة عرفت بثورة ابن حفص بن تجربة إيمام الأمير محمد الأول واحتاجت إلى وقت طويل حتى قضي عليها، وتمت هذه الثورة إحدى حركات جماعة مولدين في الأندلس، ومع أننا سبق لنا وعرفنا هذه الجماعة، لكن لا باس من أن نقوم مرة أخرى بالتعرف إليها مع غيرها من جماعات المجتمع الأندلسي، عندما قام الفتح الإسلامي للأندلس، أصبح مجتمع هذا البلد يضم: (١) العرب (٢) البربر، (٣) السكان الأصليون، ومع الأيام خاصة بعد تأسيس
الأسرة الأموية اضف عنصر جديد من الرقيق الذي استخدم في الجيش وكان أبيض واسود. ولقد حدث تمازج بين العرب والبربر أو بين العرب والسكان الأصليين، وجاء من هذه النماذج هيئة جديدة عرفت بالأبناء، ثم إن بعض من السكان الأصليين اعتنق الإسلام، وبعض تبني الثقافة العربية وفتي بعضهم الآخر على حاله، ودعي الذين اعتنقوا الإسلام باسم المولدين، كما دعت الجماعة الثانية بالمستعربين، وخيلما يستعرض المرء أخبار الأندلس يجد أن كل جماعة من مجتمعات الأندلس قامت باكثرة من حركة، ولقد قمنا حتى الآن بالتعرف إلى حركات الجماعات العربية مع دشاط البربر وسنعكس للحديث عن حركات بعض الجماعات الأخرى، وسنكتفي بحركة ابن حفصون كمنزوج لأهميتها وشهرتها. وابن حفصون هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن شميم بن..... ويبدو عليه نسبة إلى أحد اسراءسبانيا المحلية التي صارت اسرة نمئة بعد الفتح الإسلامي ثم قام أحد أفرادها ولعه جعفر بن تبني الإسلام.

وبدا ابن حفصون حياته بداية غير مرئية، حيث كان رجل شر وعصابات، شارك في العديد من أعمال القتال والسلب، مما جعل السلطات تقوم بمحاكمة فاضطر إلى مغادرة الأندلس وهرب إلى المغرب، وعاش هناك عدة سنوات ثم رجع إلى الأندلس وحل بجبل بيشتر، وكان هذا سنة 367 هـ ـ 880 م، وبصفة جبل بيشتر بالحصانة وتتوفر الماء والأشجار والعديد من القلاع الحصينة فيه. هذا وقد اختلفت دوافعه الآن، وأقام ابن حفصون بهذا الجبل فترة وجيزة حيث اقترب منه وسبق إلى قرطبة وظل بها حتى سنة 371 هـ ـ 884 م حيث هرب منها وعاد إلى بيشتر.

وكان ابن حفصون صاحب شخصية مميزة، فقد تمتع بصفات الزعامة والقدرة على تجنيد الأنصار واصطحاب الرجال وتأمين ولائهم، وكان يعرف كيف يحبب إلى اتباعه، كما استطاع تأمين النظام والأمن في منطقتة وبين صفوف أنصاره.
ولا نملك الآن معلومات عن مضافات أفكار ابن حفصون وشعاراته، وإنما نعلم أن حركته لاقت تأييدًا شديدًا من المولد، وبهذا فهي تذكرنا بثورات الموالي في الشرق، ذلك أن الشمال شديد بين موالي المشرق ومولدي الأندلس.

ومع الأيام ازدادت ثورة ابن حفصون اتساعًا، وعجزتسلطات قرطبة واختلفت في التصدي لها، وإذا ما صدنا ما كتبه بعض المؤرخين العرب، فستنتج أن ثورة ابن حفصون كانت حركة وطنية إسلامية محليّة، مصبوغة بال伸びا الإسلامية، ابتغت الانتقام من العرب، وأرادت التخلص من حكمهم، ومن هنا نجد تشبّه حركات الموالي المشرقية التي تأثرت بآفكار الشعوبية، وهذا عن عمليات الانتقام والثأر تختلف عن عمليات الإصلاح الاجتماعي، كل ذلك على الرغم مما تلقاه من نقل، لكن يحقق عليها بالفلاسفة والخدموات النهائية. والفعل استجاب كثير من الناس لدعوة ابن حفصون كما أوى إليه زعماء العصابات، وكان يسلم زعيم كل عصابة حكم حصن من الحصون أو منطقة من المناطق التي دخلت في حوزته، وكان يحسن فيه التعامل مع الناس وأرضاء جميع الرغبات، ولقد ترك زعماء العصابات احتراماً وأعطاهم صلحيات جمع المال والنهب كي يملؤها. ولكن بما أن غالبية زعماء العصابات يتصوفون بدءاً من الشهامة، فقد استغل ابن حفصون هذه الناحية لحماية الأخلاق وعدم التعرض للنساء، وكان صارمًا للغاية بالنسبة للنساء حتى يقال بأن المرأة كانت تسافر، وهي محملة بالحلي والمعاط، من حصن إلى آخر فلا يعترضها معترض.

ووات ابن حفصون العديد من الظروف المشجعة، كان أهمها الأزمات التي قام في أواخر حكم محمد الأول ثم في عهد المنذر القصير، فقد حكم المنذر قريبًا العامين فقط، وكان التبديل السريع في الأمراء وعدم استقرار السلطة داخل قرطبة من الأمور المشجعة والمساعدات لابن حفصون.

وكان ابن حفصون عندما يشعر بقوة وتماسك سلطة قرطبة.
ينكمش ويتخذ موقف الدفاع، وحينما كان يشعر بضعف هذه المنظمة كان يمارس سياسة الهجوم.

وفي عهد الأمير عبد الله ارتفع شأن ابن حفصون وازدادت قوته، في حين ازداد فيه حال الأمير عبد الله ضعفا وتهورا، والذي ساعد على بقاء الحكم الأموي وسانده تحرك العرب الذين قبضتهم بين صفوفهم ردا على شدة حركته الذلدين الموجهة ضدهم. فاستدعى هؤلاء العرب، وجمعوا قواهم حول الأمير، فتم نوا سلطة قرطبة وساعوا بعدم البقاء ثم على التحرك نحو القضاء على ثورة ابن حفصون.

لقد حقق ابن حفصون نجاحات كبيرة ووصل إلى حالة كان بإمكانه أن يقضي بها على أمارة قرطبة ويقيم حكما جديدا فيها، لكنه لم يقم على ذلك، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه لم يملك مسر المطاح ما يدفعه لتسلم إمارة الأندلس، ثم إن تركب قوته واعوانه وعدم وضوح خطط وعقائد شورته، وعجزها عن تقديم الحلول الدائمة. وأخيراً لكن ليس أيضاً انعدام النظام العقائدي الهادف، كان كل من الهلاك الذي أودت به ثوراته، ذلك ما لم يكتب له أي ثورة في التاريخ النجاح حين اعتمدت على رجال العصابات ذوي الأفكار الشخصية، ونجحت الثورات عندما تعتمد على رجال مؤمنين بهما، ملتزمين بخطط واضحة لها، وعاملين على تطبيق مبادئ معيارية لها.

كما كان الحال بالنسبة للثورة العباسية.

اما في حال ابن حفصون فقد ظل زعماء حركته من رجال العصابات ملتقيين حوله ما دام بإمكانه تحقيق الرمح والغلاف لهم، ثم ما دام يتمتع بالقوة وخصوصه ضعيف متفكك، لكن مع أول بادرة ضعف وانقسام، وضرب لمصالحهم، أو اضرار بها كان العقد سيتفرط، وهذا ما حصل.

فقلد بلغت ثورة ابن حفصون الذروة زمن الأمير عبد الله بن محمد.

وقام هذا الأمير بمراسلة ابن حفصون يطلب منه أن يقدم له الطاعة، فرفض، فراسله مرة أخرى طالبا منه تقديم الطاعة له شرط أن
يسمح له الأمير بأن يحتفظ بجميع الأراضي والأماكن التي كانت بحوزته، ومرة أخرى رفض ابن حفصون وركب رأسه وتمادي في غزوه وشطته. واخذ يعمل غزواته ويوظبه ضد قرطبة. وجعل هذا الأمير عبد الله اسير قصره ومدينته، وعندما لم يحاول ابن حفصون قطع شار ما حققه.

وفي سنة 278 هـ / 900 م يلمس الأمير عبد الله من الحال الذي كان فيها، وقرر أن يقوم بعمل انتحاري ضد ابن حفصون فجمع جيشا وقاده نحو منطقة عرفت ببلاي، وانهضت قواته بقوات ابن حفصون التي ركبها الغزور وحل بين صفوفها الشنافض. وحقق الأمير عبد الله في هذه اللحظة نصرًا ساحقًا، كان له أثره الحول على حركة ابن حفصون ومستقبل تاريخ الأندلس. فقد اتخذ الحزبة بدب من جديد في جسم الإدارة المركزية في قرطبة، وتحسن من جديد وضع الأمير قرطبة. وأخذ عقد ابن حفصون بالانفراج، فقد بدا الكثير من اتباعه بالتخلي عنه، حيث قامت سلطات قرطبة بشراء بعضهم واستدراجهم، وعندما بدأ الضعف يحمل ابن حفصون وضاقت به الأحوال، تطلع نحو الحصول على مساعدات خارجية، وكان امامه افريقية وأمراء الثغور وأوربة، فاتصل بالأغالبة ومناهم بأن يدعو للخليفة العباسي، لكنه لقي الأهمال وعدم الاستجابة وحاول الاتفاق مع الانتقالي والتحالف معهم فلم يوفق، فكل هذا في الوقت الذي اتخذ فيه أعداد كبيرة من المولدان بالتخلي عنه. ونجحت قرطبة في تثبيت التوارث، وضرب فنادهم بعضها ببعض الأخر، ووصل الضيق بابن حفصون إلى حال فدفعه العمل على الاستفادة بالمنافرين مع نصارى الأندلس. فقام في سنة 286 هـ / 899 م بإعلان نصرانيته وردته عن الإسلام، ومع أن ذلك أكسبه عطف بعض المستعدين وتايندهم. لكن جعله يخرج جميع المولدات واعطي النزاع الكامل لسلطات قرطبة لإعلان الجهاد ضده، واستمر حكام قرطبة في إرسال الحملات ضده ومضابقته عسكريًا. وذات سنة 292 هـ / 904 م حاول ابن حفصون أن يهاجم قرطبة فهز ومضض قواته، واستمرت
الحملات ضده، فانتزعت أراضيه قطعة تلو الأخرى، وضعف شناه وتضاءل خطره.

وفي سنة ۹۲۲ هـ توفي الأمير عبد الله فخفيه حفيده عبد الرحمن الثالث الذي كان شاباً في الحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين، فاستطاع عبد الرحمن هذا أن يصفي حركة ابن حفصون، وأن يعيد الحياة والقوة والوحدة إلى جسم الأندلس، وأن يقلب الإمارة إلى خلافة.

وفي سنة ۹۲۷ هـ توفي ابن حفصون، واحتفظ أولاده بيقايا ملكه الصغير مدة عشر سنوات حيث استطاع عبد الرحمن الثالث، الذي سرعه بالناصر، أن يصفي هذه الحركة نهائياً (۲۲).

ولكن كانت الصورة في الأندلس قبل وفاة الأمير عبد الله مضطربة، وبدأت تسير لغير صالح الحكم الأموي هناك، فإن الأوضاع في الشمال الأفريقي وحوض البحر المتوسط وفرنسا وسويسرا وإيطاليا قد شهدت تغييرات جمة سببكون لها جميعاً انعكاساتها على عصر عبد الرحمن الثالث والصورة التي تلته، فقد كان العرب قد افتتحوا منذ امتدت كل من جزيرتي كريت وصقلية - الأمير الذي سبقله عقد في فصل مستقل - وكانت دولة الأغالية قد زالت من إيطاليا وحل محلها الخلافة الفاطمية بمشاربها التوسعة التي لم توفر الأندلس من حساباتها، وكانت دولة الأندلس في فاس قد بدأت بالتلاشي، ولكنها حذرتنا أولًا عن نشاطات العرب في فرسان وسويسرا، وذلك قبل العودة إلى سياق الحديث عن عصر عبد الرحمن الثالث واعلان الخلافة في فرطبة.

توفي الامبراطور لويس النفيسي سنة ۸۵۰ م، ووقع صراع مثير بين أولاده من بعد وحروب طويلة كان لها أثرها المأساوي على أوروبا، وزاد من اضطراب أحوال أوروبا الغربي تعرض سواحلها وبعض مناطقها الداخلية لغزوات الفايكنج المدمرة، والذي يعني هنا هو استيلاء العرب على مقاطعة بروفانس الفرنسية، وتوسعهم حتى ما بعد جنفي في سويسرا وإلى حدود الملانيا أيضاً، وسادع الحديث
عن النشاطات العربية في جنوب إيطاليا إلى حين البحث في افتتاح
صقلية وما أعقب ذلك من أحداث.

دخل العرب إلى مقاطعة بروفانس عن طريق البحر، واغنوا
على بعض المواقع فيها، وخاصة على مرسيليا مع نهائية النصف
الأول من القرن التاسع للميلاد، لكن بعد هذا التساري شرعوا في
تنفيذ خطة استهدفت الاستيلاء على المنطقة بشكل كامل.

والثير للانتباه أننا لا نملك معلومات كافية في مصادرنا العربية
بشأن هذا الموضوع وعلى النعم هناك الاعتماد على الروايات الأوروبية، وبدون
أن العرب الذين اجتاحوا بروفانس لم يلقوا توجهًا حقًا أو
مساندة أو تغطية سلوكية، ويفسر هذا طبيعة الأحداث والنتائج.
في حوالي سنة 889 م كانت بروفانس ودوقينيت تقعانان لزعيم
ولم يكن من أسرة شارلان، ومع هذا
حصل على لقب ملك أرل، في أيام هذا الملك قام عشرونه من الملاحين
العرب على ظهر سفينة بالانطلاق من الأندلس، وقد أضطرتهم
Grimaldi عاصفة شديدة إلى الالتقاء إلى خليج غريمان
وصعدوا
الي البر دون أن يعترضهم أحد، وكانت هناك غابة كثيفة قرب
الخليج، واله الأشمال منه أمتلك سلسلة من الجبال الساحلية لبناء
القلاع، وبالتالي ان هذا كان في كونتينت نيس، وقام على قرية هنالك ثم
استعدوا قاعدة لهم وأخذوا باستخدام الأوان من الأندلس وإفريقية
وكثير عند العرب، وما لبثنا ان تحققو بأهم موارد وحضن
بروفانس، وفي العقد الثاني من القرن العشرين شرعوا ب الصحون
الغارات على سهول بيمونت ومستعمرات
ومن وعدها سنقرنا
أخبار الحروب الصليبية سنجد أن بارونات مونتفرات كان لهم الدور
البرز فيها.

لقد غدت بروفانس كلها خاضعة للعرب، ومن ثم غدت سيراويسا
مرضا لناشطاتهم، وكان من بين الذين الفرنسية التي استولى
عليها العرب مدينة غرينويل، ع. بريل، وهذه المبدا يبحث لهما
اقامة مؤسسة جامعية مبكرة فيها سيبكون للعرب القادمين من الأندلس دوراً عظيماً فيها.

واخذ الفرنسيون وسواهم يجمعون قواهم للاخراج العرب من سويسرا وبرونانس، وحالفهم الحظ بعد وفاة عبد الرحمن الناصر خليفة فرنسا. ففي سنة 965 م تم إجلاء العرب من غرينبووبل، وكانوا حوالي سنة 960 م قد اخترعوا من مضيق سان برنارد الجبلي، وحدث في سنة 972 م أن أسر العرب القديس مايول رئيس رهبان دير كلوني الشهير، فباشر ذلك مشاعر المسيحيين وتممت قواهم واخذت تسعى لإجلاء العرب، ولم تأت نهاية العقد الأول من القرن الحادي عشر حتى كان العرب قد فقروا وذلوا، وتم فيها من القسرة البحرية الأندلسية، وغيرهما، عن الإغارة على شواطئ فرنسا حتى سنة 1047 م، أي حتى قبل جيل واحد من مؤتمر كليير مونت ودعوة البابا أوربان الثالث للحروب الصليبية (32).
عبد الرحمن الثالث واعلان الخلافة

عندما وصل عبد الرحمن الثالث إلى العرش كانت الفتنة قد طبقت أفق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها، فاستقبل الملك بسعد لم يقابل به أحدا ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه، واستولى على ما في يديه، فافتتح الأندلس مدينة مدينة، وقتل حماتها، واستدل رجالها، وهدم معاقلها، حتى دانت له البلاد واتقاد له العباد.

لقد كان على عبد الرحمن أن يواجه الخصائص الداخلية للأندلس وأن يتصدى للمشاكل الخارجية التي جاء اشدها من إفريقية حيث قامت الخلافة الفاطمية، وجاء ثانياً من مملكة ليون ومع ذلك فقد تمكّن عبد الرحمن بقوة شخصيته، ثم بطوله الذي حكم فيها ليس فقط من القضاء على الشورات والشقق الداخلية، وتوجيد الأندلس وأبعاد الخصائص الخارجية، بِل أوصل الأندلس إلى ذروة المجد والرفاه والحضارة والقوة.

وعبد الرحمن هو ابن محمد بن عبد الله، كان أبوه محمد قد قتله اختوه مطرف، فقتله أبوه عبد الله، بِقِمَام الأمير عبد الله بِضم حفيدة النبه، واحذ بعده منذ صباب لخلافته والحكم من بعده، فكان يجعله في محاسنه وكأنه يسكن قصره، وبعد وفاة جده بِوعيد بالأمارة وكان هدفه الأول بعد تسلمه لنصبه إعادة إقامة الوحدة الداخلية للأندلس، وفي سبيل ذلك قاد في السنتين الأولى من حكمه عدة من الحملات كما وجه العديد وكانت هذه الحملات جيدة التنظيم والخطيط، وقد وجه بعضها ضد بعض مؤيدي ابن حفصون فَأَقْتَعَت الهزيمة بهم، كما قام في الوقت نفسه بِمصادرة من أمك مصالحته من هؤلاء المؤيدين، ووضع عبد الرحمن القلاع والحصون التي استولى عليها في أيدي أمينة مخلصة له.
واعتقاف سنة 206 هـ / 926 م استعادة مدينة اشبيلية
ووضعها مرة أخرى تحت الحكم المركزي لقرطبة. واندفعت مركز ابن
حفص بن شعبانا، وعند وفاته سنة 939 هـ / 577 م تنازع
أولاده من بعده فتمكن عبد الرحمن من انتزاع أملاكهم قطعة تقل
ال أخرى حتى ثم له القضاء عليهم نهائيا سنة 942 هـ.

خلال هذا كلها أولى عبد الرحمن مناطق الثورات اهتماماً شديداً
وسعي نحو إعادة سيطرة قرطبة عليها، وقام عبد الرحمن سنة
316 هـ / 928 م بانقل نفسه خليفة، وشع له على القيام بهذا
العمل ضعف الخلافة العباسيه بالشرق، ونجاح الإسماعيلية في
المغرب وإعلانهم عن إقامة الخلافة الفاطمية، وعُبد قرابة عامين على
اختياره هذه الخطوة الحاسمة استعادة إعادة السيطرة على الثغور
الإدبية، ثم توجه بها محاولة فتحها عامين واستمر على
عليها سنة 320 هـ / 932 م، بعد هذا توجه بانظار نحو الثغور
الإفريقيا فتمكن من استعادته.

ويلاحظ المرء أن عبد الرحمن الثالث، الذي لقب نفسه بالناصر
بعد غامض من إختياره لقب خليفة، استعاد خلال العشرين سنة
الأخيرة من حكمه إعادة توحيد الأندلس، وقد استهلك هذا جه نشاطه
وقت، ومع ذلك نجد خلال هذا الوقت لا يخفف الحرب ضد
النصارى على الأخص في مملكتي تافار وأليون.

وكانت هذه الممالك قد انتابها الضعف بعد تمزق الإمبراطورية
الكارولنجية (إمبراطورية شارلماين) وفي البداية استعاد عبد
الرحمن أن يكون نشاط النصارى ضد الأندلس، وحسن حين
نتحدث عن مملكة ليون... نقصد بذلك المملكه التي شملت منطقة
اشترش... التي وقعت في الأقصى الشمالي الغربي لشبه الجزيرة
الإيبيرية، وكان ملك ليون منذ سنة 932 م حتى سنة 950 م
يعرف برنيم... وتصدى زعيم هذا لحملات عبد الرحمن ضد
مملكته ويدرك أنه تنصر عليه النصارى ساحقاً ساحقاً
سنة 939 هـ / 539 م مع أن جيش عبد الرحمن ضم آنذاك حوالي المئة
الف مقاتل، وعلى الرغم من هذا فإنهم لم ينجح عن هزيمة عبد الرحمن نتائج كبيرة. فقد انشغل رموز بمشاكل داخلية مما سمح عبد الرحمن من استعادة قوته ونشاطه، وبعد وفاة رموز سنة 329/ 950 م، اضفت الخلافات الداخلية الدول النصرانية، فازداد نفوذ عبد الرحمن عليها، وتحول هذا النفوذ فيما بعد إلى اعتراف بالولاء وقبول بالتحكم ودفع الجزية.

ويمكن القول إنه منذ منتصف القرن العاشر للهجرة وحتى نهايته، سيطر المسلمون لأول مرة تماما على جميع أجزاء شبه الجزيرة، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع المسلمون الاحتفاظ بما سيطروا عليه، فقد جاءت سيطرتهم على أطراف الجزيرة قهراً وليس فتحاً. ذلك أن المسلمين لم يستوطنوا أراضي الممالك النصرانية في الأطراف، وهكذا بقي حكام هذه الممالك تابعين لقرون طويلة مستعدين للعمل ضدها عندما تسنم الفرصة، ولم يستقر العرب في الأراضي الشمالية لشبه الجزيرة الأيبيرية، لعدم وجود اللغة في سكنى المناطق القريبة من فرنسا، لصعوبة العيش في هذه الأراضي، ولعدم وجود الكاسب ولطبيعة المناخ الصعب. والعرب، كما هو ملاحظ أحيوا سكنيين المدن الكبيرة ذات المناخ المعتدل، واستقر بعض العباد في هذه المناطق، لكن صعوبة الحياة الجبلية وجودة الخطر الدائم دفعهم إلى الانسحاب نحو داخل شبه الجزيرة.

ولم يقتصر نشاط عبد الرحمن على الاندلاع فقط بل انصهر بالتواصل في شمال أفريقية، فقد اشتهى على الشوربة ضد الخلافة الغزافية، ونجح بعد بذله لبعض الجهاد في السيطرة على أجزاء من المغرب الأقصى، وفي زمن المعز لدين الله الفاطمي (341 - 365 هـ / 953 - 975 م) استطاع قائد جوهر الصقلي استمرار معظم املاك قرطبة ما عدا طنجة وسبت، وباقي الحال هكذا حتى وفاة عبد الرحمن الثالث دخل ذلك أن الفاطميين انصرفوا نحو مصر وشغلا بشغاب الشام والشرق فضعف نفوذهم.
في المغرب، ومع هذا كان للصراع الفاطمي—الأندلسي على المغرب أثاراً حضارياً وثقافياً مثل السياسية وأكثر، فازداناً أهمية المغرب الأقصى كان له بعض انتقاداته من الصحراء الكبرى وقيادتها، وهذا ما سترصد له في قيام حركة المرابطين، ودور الأندلسيين في إدارة المرابطين في الأندلس، وتحويلهم هذه البلاد إلى ولاية مغربية.

ومن الواضح أن اتخاذ عبد الرحمن الثالث للقب الخلافة له علاقة واضحة بظهور الفاطميين، وتسمية نفسه بلقب الناصر لدين الله، معاني الرد على الفاطميين، ولقد ساعد هذا ثورة إفريقية واعظة الخلافة، والفرص والجال للتحرك.

وبصرف النظر عن كل هذا فإن نجاحات عبد الرحمن وتوسعه الإمبراطوري مع اتخاذه لقب الخلافة قد فرض عليه أوضاعاً جديدة وقادة نحو الأبدية والأخذ بمثابة من بناء ورسوم، فالخليفة غير الأمير، صار عليه الجاهز والإيجاب والتعالي واتخاذ الحرس و댕ع السير بالإيوال الفخامة، وذلك الوقت نفسه انيس والفلاسفة رجاء العزة والإجراءات وعدم مباشرة الأعمال بنفسه، وهنا أزدادت قوة الإدارة، مع قوة الجيش المحتفظ، ذلك أن روح الجهاد كانت قد ختب منذ زمن وكاتت تختفي وحل محل المتطوع جدنا من المرتزقة والعبيد، ومع ازدادت قوة الإدارة والجند تهبات الفرص لاضعاف قوة الخلافة وانتقاس نفوذه ثم حبسه في قصره والتحكم به، وما جرى اتخاذ لقب الخلافة متأخراً، حيث أنه لم يقرر بدعابة دينية طويلة مثلما حدث بالشام مع العباسيين، فإنه حينما مرت خلافة الأندلس بما مرت به خلافة أبي العباس من التحكم والحج على الخلفاء تدفق أنه سهل القضاء على الخلافة الأموية، وصعبت إزالة الخلافة العباسية لأنها نالت صفة الفضيلة والشريعة المرتبطة بالسماء.

واستطاع الناصر خلال النصف فرن الذي قضىده في الحكم أن يوطد أركان الإدارة في فرصة وأن يقطع ثمار ما صنعه من اتصال واستقرار في الأندلس، ولقد عاشت الأندلس ذروة مجدها أيامه.
أيام ابنه الحكم التي كانت امتداداً لأيام الناصر ونتيجة مباشرة لما تحقيق فيها.

وقع الناصر سنة 649 هـ / 1212 م مريضاً وظل المرض يلازمته حتى توفي سنة 650 هـ / 1213 م، وعقب وفاته خلفه ابنه الحكم الثاني (244).
الحكم الثاني

لقد جاءت خلافة الحكم الثاني، الذي عرَف بـ"المستنصر بـالله"، استمرارًا لخلافة أبيه ونتيجة لها. فقد استمرت الأحداث تسير على المناخ نفسه، وفيما يتعلق بالغور تابعت قرطبة السيطرة على شؤونها وشؤون ممالك ليون ونافار كاستيلا، وحالت دون هذه الممالك ودون التحرك نحو الاستقلال.

وأهتم الحكم باستطولة بلاده خاصة من أجل حمايتها من غزوات شعوب الشمال (الفايكنغ)، كما تابعت سلطات قرطبة التدخل في شؤون المغرب والصراعات من أجل السيطرة في بين قوى كانت تابعة للأدارسة وأخرى للخلافة الفاطمية وسواءً.

ولعل أهم الانجازات التي تمت أيام الحكم المستنصر تلك التي تعلقت بالجوانب الثقافية و/or الاقتصادية والعمرانية، فقد كان الحكم مغرما بالعلم، شغوفاً بجمع الكتب، لو نهائية فائقة بالعلماء ونشر الثقافة بين عامة الناس وخاصاتهم، استطاع أن يكون مكتبة ضمت بين خزائنه من الكتب ما لم تضمه مكتبة أخرى سواءً كان ذلك من ناحية الكم أو النوع، وراء الصلابة عبد من علماء المشارقة كما نبغ في هذا البلاط عدد كبير من العلماء، وكان من أبرز علماء المشارقة القالم صاحب الألماني، ويمكن القول بأن الفكر الاندلسي شبه المستقل والمتميز عن الفكر المغربي، بيد أن التوزع زمن الحكم، ونمت الحركة العمرانية زمن الحاكم، وله أهم المجرات العمرانية التي تمت في عصره، تلك التي أقيمت في قرطبة، وفي مسجدها بالذات.

وكانت أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية أيام الحكم وليه وجاجي جعفر بن عمرو الصحفى ثم قائده غالب بن عبد الرحمن.
وفي زمن الحكم كان ابتداء ظهور محمد بن أبي عامر ثم ارتفاعه. 

كما ازدادت أيام الحكم أهمية رجال الدين، وعظم تأثيرهم على مجرى الأحداث. وتوفي الحكم سنة 366 هـ/ 976 م، وعندما مات كانت الخلافة الأموية في ذروة قوتها، لكن أحداثاً كثيرة أبدت ساعة موتها وتعلقت بمسألة الحكم من بعده، كان لها تأثيراً مفاجئاً ومحوراً على مستقبل هذه الأسرة وبالتالي مستقبل الأندلس السياسي (26).
هشام الثاني والاستبداد العامري

وجاءت وفاة الحكم بعد مرض الم به واقعه مدة من الزمن عن مباشرة الأعمال بنفسه، وقد ناب عنه اثناء مرضاه وكفاه مؤونة الحكم وزمره الصحفي ولم يكن الصحفي هذا يرغب في الاحتفاظ به كمكانته فقط بل كان يسعى لرفعها وعلى هذا الأساس بنى خططه في حال وفاة الحكم.

ولم يكن الصحفي صاحب النظام الوحيد بين رجالات السلطة. فقد كانت هناك قوى عدة من غلامان القصر وخصيانته وكان هؤلاء مناسبات الأصل، وكان يؤديهم العديد من أبناء جنسيتهم الذين كانوا يعملون في الجيش ويتسلمون قياداته، وكان أبرز صحابة القصر يعرفان بفائق وجوخر، وأخفي جوخر وفائق خبر وفاة الحكم عند حدوثه، وارتباط تولية الخلافة الغيرة بن عبد الرحمن الناصر، أخي الحكم، حيث كان شابا يستطيع أن يباشر الأمر، في حين كان هشام بن الحكم ولي عهده صبيا في الخلاصة عشرة من عمره، وخطط جوخر وفائق لقتل الصحفي وإعلان خلافة الغيرة بشرط أن يكون هشام بن الحكم ولي عهده.

وعندما علم الصحفي بأخبار هذه الخطة تحرك بسرعة، يعاونه شاب كان في الثامنة والثلاثين من عمره، وكان صاحب مواقف وطامح واسع، وعرف هذا الشاب ابن أبي عامر، وارسل الصحفي ابن أبي عامر حواء من الجنذ إلى دار الخلافة بن عبد الرحمن فقتله خنقا، وهنا سهل تنصيب هشام بن الحكم خليفة وقفي الصحفي سيد الأندلس، ولكن إلى حين، واستطاع الصحفي في البداية الحد من نفوذ صحابة القصر وأثريهم، وساعده في ذلك ابن أبي عامر، وقد تم التخلص من الصحابة بالبطش والتأمر معا، ولا تم ابن أبي عامر تدبيره في الصقالبة جعل يتوصل
التي تقلد جيش الملكة «فحقق ما صباه له»، وأخذ يبرز في مصادف
السلطة والشهرة حتى وصل الغالبية وتفرد بسبادة الأندلس، ولعله
من المفيد الاكتفاء هنا بهذا الموقع عن ابن أبي عامر لاني سأعود
لحديث عنه بشيء من التفصيل في مكان آخر.

لم تكمل محاولات دمج العناصر البشرية في الأندلس لانتاج مجتمع
عربي واحد، وعلى هذا ما أن الغيت الخلافة الأموية حتى تمزقت
البلاد شر ممزق، وظهر فيها أعداد لاتحصى وأنواع لا تعد من
المغامرين والطامحين لذل السلطنة، وإنفرست في النفس طبائع
الفرقة وعادات التمزق، وناجرا ما أصاب الأندلسيون إلى نداءات
الوحدة وحجر الفتنة، وتبنت سحابات الأندلس لتعرف غير البحور
والصعاب وأعمال التنازع، وأفاد من هذا الحال حكم أسبرانيا
النصارية، وزادوا من نشاط حركة الاستقلال وانتزعوا من
المسلمين المدينة تلو الأخرى وابتدأهم بدون رحمة، ولا شك ان هذا
كله اتفكى على الأوضاع الاقتصادية العامة والخاصة لساسي
الأندلس، واستمرت أسبرانيا النصرانية في الشمال على ثلاث ممالك
هي: ليون، ونافار، وأراغون، ومنذ مطلع القرن الحادي عشر
للميلاد تقدمت نافار بين هذه الممالك، ولا يعني هذا الحديث عن
ملوك نافار وسواهم ولا عن نشاطاتهم، بل المهم الإشارة إلى
أن الفونتسو السادس (الفنش) إينين فونساندو الأول
(425 هـ 1035 م)، استدعى لتسليم الحكم
سنة 425 هـ 1035 م بعد وفاة أخيه شانجية، وكان إذاك ملتجنا
الي مدينة طليطلة، حيث أمضى فيها تسعة أشهر، وبستكون هذه
المدينة الحصينة أولى ضحاياه في معارك حرب الاستقلال التي
خاضها.

وحينما تمزقت الأندلس قام في كل مدينة من مدنها منغلب، وذهب
أهل الأندلس من الانشقاق والانشقاق والانشقاق إلى حيث لم
يذهب كثيرين من أهل الاقطار، مع امتيازها بالحل القريب والخطة
المجاورة لعباد الصليب، ليس لأبحريهم في الخلافة أرث، ولدي

- ١٠٣ -
الأمارة سابقة ولا في الفروسية نسب ولا في شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الاقطار، واقتسموا المداوين الكبار، وجبوا العمالات والأمصار، وجنموا الجنود، وحدثوا القضاة، وانتقلوا الألقاب، وكتب عنهم الكاتب الأعلام، وانشدهم الشعراء، ودونت باسمهم الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقفت بابوا منهم العلماء، وتولست البهم الفضلاء، وهم مأمون مجيب، وسريري مجمل، ومجنف غير محبوب، وغضل ليس في السراء بحسبهم، ما منهم من يرضى أم يسيئ شائرا، وللاجزة الحق مغاليا، وصارى أجدهم أن يقول: أقيم على ما بدي حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه، ولو جاء عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه، ولا لقي خيراً به، ولكنهم استوفروا في ذلك أهجاء وأعمالا، وخلفو آثارا وإن كانوا لم يبالوا اغتشارا من معتمد ومختصر ومتهم ومستقيم ومستعد ومنصور وناصر. ومتوكل-------------------------------------(٢)...

وكان أهم دول الطوائف:
ملكة سرقسطة - الثغر الأعلى: بنو هرود
إمارة قرطبة - وسط الأندلس: بنو هرود
ملكة طليطلة - الثغر الأوسط: بنو ذي النون
ملكة بطليوس - الثغر الأدنى: بنو الأقتفس
ملكة إشبيلية - غربي الأندلس: بنو عبد
ملكة بلنسية - شرقي الأندلس: تداولها أكثر من حاكم
ملكة غرناطة - جنوب الأندلس: بنو زعيري

وقد تدهورت قرطبة التي كانت حضارة الأندلس ودار الولاية والخلافة، وتقدمت عليها وعلى سواها اشبيلية، وحكمت إشبيلية من قبل أسرة بني عباس التي أدت الانتساب إلى ملك الحيرة، وتخلدت الاستقلال من قبل القاضي أبي الوالي اسماعيل بن محمد بن عباس، الذي شعر بحبيسه وقوته، وقد توفي سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٢ م، وورثه ابنه أبو عمرو عباس الذي تلقب بالمعتصم، وكان المتعصب على
درجة كبيرة من الدهاء، سعي إلى توسيع ملكه بشتى الوسائل، وصرف في هذا السبيل جهودا عسكرية وسياسية ومالية كبيرة، لكن في سبيل الصالح الفردي المحض، فهو استخدم طاقاته ضد أهل الأندلس، لكنه تقلل لفرناندو الأول وذهبن بنفسه إلى مملكة ليترضا ويطلب منه الصلح والهدنة مقابل مبلغ كبير من المال، وأمضى المعتضد في الملك ثمان وعشرين سنة حيث توفي في سنة 678 هـ / 1279 م وخلفه ابنه أبو القاسم محمد الذي عرف بالمعتمد على الله، وكان شاعرا مجيدا، من الملوك الفضلاء والشجعان العقلاء، اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع للملك قبله من ملوك الأندلس، وأمر بإنشابية بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة، واتفقته له الحمالة الكبرى بخلعه وأخراجه عن ملكه في شهر رجب، الکائن في سنة 684 هـ. 

واسم جل ملوك دول الطوائف بالبذخ، وضع النですよ، والصغار مع انعدام الشعور بالمسؤولية، وقد تحدث ابن بسام في النخيرة طويلة عن بعض هؤلاء الملك، وكان منهم الأمام بن ذي النون صاحب طليطلة، فقد أراد الأمويون يما أن بني قاعة صادية به، أرادون أن تكون على درجة لانظير لها من الجمال والأبهة، ووقع اختياره على بناء ماهر فيه بلم صلب لتنتفخ هذه الهمة واستطاع هذا البناء أن يجل الأمام أكثر من مرة، وبينما الأمام مهتم بناء القاعة، اتفقت أثنا ذلك أن ضربت خليل الطاغية فرناندو الأول (فرناندو الأول) على بلاد المظفر بن الأفطس، وطنه وطاة حكّة، رسومها، واستباح حقيّتها، وقيديّتها، وأيامها، وأيامها من البقاء، وأيامها من البلا، فأخبرت عن وزيره أبي المطرف بن مثى أنه كان يوماً بديع مزلا بين الوجوه والأطراف، وعلى نهاية الحذر والامتناع، إذ وردت رسول الأمام عليه ترتى، وهجعت عليه زمرة بعد أخرى، فدخل عليه فوجده قد استباشر حلقا، حتى كاد يتميز شققا، فظن أن ذلك الضجر، لما كان ورد به الخبر من ضرب الخيل على يد المظفر، واختار الندم، وزلة القدم، وانهتك الحرم، فطفق ابن مثى ببسطه وبيوضته،
تارة يسليله وثارة يحرسه، وطيرا يقول له: فيه الخلف مما فات، ومرة يقول: قد أنك أن تنكر على الطاغية هذا الافتراض، فلما فهم منحه ابن مثي منه، أعرض عنه، وقال: إلا ترى هذا الضال.

الفاضلي الصانع يعني عريف بنبانه - صبرت له وأغضب -، وفعلت به كبت وكيت، فما زاد إلا تنفيصا للذنبي، واستخفافا بإمرتي وتصويرا لشاني، واختراء على سلطاني وحاول الوزير مداراته وتهوين الأمر عليه، ثم خرج لمقابلة البنياء، فلم يلبسه به، واخذ يداوره ويدريه، والصانع مقبل على شأنه، ما أمره بالجلوس، ولا زاده على التجهم والعبوس، ثم عاد الوزير إلى المامون ووعده خيرا وخرج بعد ذلك من عنته وهو لا إدرى من أي الثلاثة يعجب: أم ان أقترح ابن ذي النون وجهله، أم أضفـاء الضرورة بنفسه إلى خدمة مثله، أم من جرأة ذلك الصانع القصير.

البد، النذر العدد، على ذل ابن النون وله.

قال ابن بسام: فتبارك من أهات بالأشياء، ولم يخف عليه شره في الأرض ولا في السماء، ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب ببنيائه، الهامـ، كان للدين والدنيا شأنه، مربطا للأفراس، وجعلبا للاعلاج الإرجاس، من رجال الطاغية أنفونش ابن فرنلند، بدد الله شيعته ١٢٨.

لقد استجاب الله تعالى لدعاء ابن بسام فيذ قوى الفوؤوس السادس بعد ما كان أن يلتهم الأدلس جميعا وياخذها من ملوك الطوائف (٢٣) استجاب جل ولا بأنه أرسل المرابطين فخضموا معركة الزلاقة وغيرها من المعارك فأخذوا بذلك سقوط الأدلس عدة قرون، وقد آن الأوان للحديث عن المرابطين وقيام حركتهم.
الفصل الثاني

قيام حركة المرابطين

يظهر البحث في تاريخ الإسلام أن قضياء هذا التاريخ قد تقاعضت وتشابكت على الرغم من سعة الواقعة الجغرافية والمسافات الطويلة بين المناطق والبلدان، وعلى هذا إن الواقعة التي حدثت مثلا في المغرب قد تتخذ أسبابها المباشرة في بلد إسلامي وغير المباشرة في بلد إسلامي آخر، ونضرب هنا مثلا بتاريخ الدولة الفاطمية، حيث أن هذا التاريخ مرتبطة في مسألة مبكرة بتاريخ التشريع حتى منتصف القرن الثاني للهجرة، ثم بحوادث بلاد البحرين والعراق، فالشام فاليمن فمصر فإفريقيا فسجولاسا فمصر والشام من جديد، لذلك من العبث البحث في أي قضية تاريخية إسلامية دون أخذ هذا الأمر بالحسبان.

وتطبق هذه القاعدة على حوادث قيام حركة المرابطين في قلب الصحراء الأفريقية الكبرى ثم تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى وإن هذا تدخلهم في شؤون الأندلس، فالبحث في تاريخ المرابطين مرتبطة بداتها بحوادث الاستفادة الإسلامية السينية أولا في المشرق الإسلامي ثم انتقالاتها إلى بلاد المغرب العربي خالال القرن الخامس، وذلك مثلا ترتبط بواقع الحياة القبلية الاجتماعية والاقتصادية وسياسيا في الصحراء الكبرى وفي البلدان المجاورة في المغرب الأقصى وإفريقيا، والثبوت للانتباه أن الاستفادة السينية للقرن الخامس توافقت في المشرق مع هجرة البداية التركمان من بلاد ماوراء النهر وتأسيس السلطة السلجوقية في المشرق، وكان أيضا من جملة نتائجها في المغرب هجرة قبائل الصحراء نحو المغرب الأقصى والإندلس وتأسيس دولة المرابطين، وتعلق هذا كلها بتعيين التبادل الكبرى على صعيد العلاقات مع أوروبا بخصوصها الشرقي والغربي.
في الشطر الشرقي كانت - كما رأينا - معركة منازكدة التي
عند فيما بين أسباب قيام الحروب الصليبية، وفي الغرب معركة
الحلفاء وازالة دول الطوائف من الأندلس وتوجيه هذه البلاد تحت
رئاسة المرابطين والاستعداد ليس فقط لاسترداد ما فقد المسلمون من
بلدان الأندلس بل لاستنذل حركة الانتفاضات داخل أوربة من جديد
مما كان له أبعد الأثار في قيام الحروب الصليبية أيضاً، فهذا كله قد
هيا الأجواء الإفريقية حتى جاءت ساعة الانفجار.

في الحقيقة ماتزال مسألة قيام حركة المرابطين وتأسيس دولتهم
من الأحداث التي تحتاج إلى المزيد من الأبحاث المعمقة، ذلك أنه
على الرغم من دور التاريخي المشرق الذي شغله المرابطون في
الغرب الإسلامي، وقد كسرت عقد المؤرخين الذين دونوا أخبار
.readyState هذا الدور، فإن ما ورد إلى نهاية المرابطين المأساوية بقيام
دولة الموحدين، قد أدى إلى طمس آثار المرابطين وأخبارهم تماماً.
كاد أن يكون كاملاً.

ومع هذا لا يلغق البحث الأول، في حين وآخر يكشف أثر
مرابطي مباشر، أو غير مباشر ينقل عن أحد الآثار الحجوبية عنا،
وبذلك تتضخ الصورة أكثر فأكثر، وعلى كل حال حين تتحدث
المصادر عن قيام حركة المرابطين مراها تجمع على أن الحركة كانت
دينياً إسلامية تولى قيادتها بالأساس داعية إسلامي بعد من المغرب
إلى قلب الصحراء، هو عبد الله بن ياسين بن ياسين، بيد أن ابن ياسين
توجه إلى الصحراوة مرسلًا أو لاعم قبل عالم اسمه أبو عمران النحاسي
ثم إنه من قبل عالم آخر اسمه واجاج بن زلو، وتحت اشراف ابن
زلو وتجاوزه عم ابن ياسين حتى لاقى النجاح

وألف زلو لم يبادر إلى إرسال ابن ياسين من عنده بل جاءه هذا
إيضاً بناءً على توجيهات من شيخه أبو عمران الغفوجمي الشهير
بالفاس، وعلى هذا بين ابنينا في البداية شخصيات دينية ثلاثة
يوجب علينا التعرف إليها واحداً ثلو الآخر.
وكان من أقدم من ترجم لأبي عمران الفاسي القاضي عياض في مداركه وتميز هذه الترجمة عن قدمها بكونها وافية من كثير من الجوانب وعظيمة الفائدة فهو : موسى بن يحيى بن أبي حاح -الغزاني- وغفجوم فخذي متن زانته وفي رواية أخرى من هواة....أصله من فاس ومثليها بها مشهور، وبعضون ابن أبي حاح، ولم عقب وفهم نباهة إلى الآن واستوطن القوريان، وحصت له بها رئاسة العلم» (۱).

وفي مقابل هذه الرواية نجد نصا على درجة عالية من الأهمية عند صاحب «بنتان فاس الكبرى» المساوية بعض مواده إلى اسماعيل ابن الأحمري حيث جاء: ومنهم - أهل فاس - بيت أبي الحاح القرشي، بيتهم بيت حسب وثراء وقوه ومعبرة وعدالة، ولهما زقاق فاس يقال له درب أبي حاح، منهم الفقهاء الأسماء الجامعتين للرسول المفتي الخليل الصالح ولي الله تعالى أبو عمران موسى بن أبي حاح القرشي، المعروف بابي عمران الفاسي، كان عامر بالعلماء، وينهى عن المكروه، ويستند ذلك أخذه من فاس الطاغية من أهلها العاملين عليها لغراوة، فاستقر بالقوريان إلى أن توفي سنة ثلاثين واربعمئة، وهو الذي ندب بن عمران بن إبراهيم المحتوى الصنهاجي إلى قتل الطاغية من أهل المغرب وجهاد أهل برغوثة من السوس» (۲).

ولكن اتفقت القاضي عياض مع صاحب بنتان فاس حول مكانة أسرة أبي عمران الفاسي، فالخلاف بينهما حول دسهم فهو غفجوم عند القاضي عياض وقرشي عند صاحب بنتان فاس، وقد يميل الباحث نحو ترجيح رواية صاحب النيابات على رواية القاضي عياض على قدما، وذلك على قاعدة، أهل مكة أزدي بشعيبها، ويقوي هذا الاحتمال الدور الذي شغله الفاسي في كل من مدينة فاس ثم القوريان وفي أصل قيام حركة المرابطين.

ومن القاضي عياض صراحة على أن الفاسي قد ولد ستين، وسنين وثلاثمائة، وقيل أيضا إنه ولد سنة ۳۶۵ أو حتى سنة
386 وعلى هذا عاصر الغفوجومي منذ صباه الأحداث الخطرة الغامضة في تاريخ المغرب من هجموم الصهاجيين خلفاء العبديين، والعامريين خلفاء بني أمية، وقيام زعماء البربر بالدعوة لهؤلاء تارة ولأولئك أخرى، وفي طليعتهم زيري بن عطية المنهاوي، ويوسف بن علي البزمنى، وأبو البهار الصقلي، ففي هذا الظروف الحرج القاتل ولد وعاش سنواته الأولى. وشب وترعرع... ونال مكانة سامية في العلم والفنون والإلياء بالعرف والنهي عن المنكر حتى تضابق من وجوده رجال السلطة فخرج من وطنه مهاجرا كارها للوضع القائم وتصرفات رجاله في البلاد (4).

يبدو أنها كانت فرصة بالنسبة للغفوجومي، فقد ارغمت على مغادرة بلدها أن يرحل في سبيل العلم، فكان أن قصد فرطبة، وبعدها أخذ عن ملظمتها قصد القيروان، ومن القيروان توجه إلى المشرق فقضى فريضة الحج ثم دخل بغداد حيث حاول فيها في مند العراق الأخرين قادة رجل البقعة للقرن الخامس، وقد تأثر كثيراً ببابي بسكر الباقلاني، فعليه درس الأصول مع علم الكلام برودة الشديدة على حركات الغلاة، وملح زؤلاء في الشمال الإفريقي، فثار وجهة من إفريقيا في سواحل المغرب الإقليم بمباين الإسماوية في إفريقيا، وكان المعز بن ياديس نائب الفاطميين في إفريقيا، فملك المزاعم والإثبات في الغاء الانتفاخ الفاطميين، والاستقلال عليهم وإعادة الخشبة للعباديين.

وكان الغفوجومي بعد ما غادر المشارق إلى المغرب استقر في مدينة القيروان، وفيها نشط وحظي بهما مكانة محترمة ومؤثرة. ولهذا شغل دورا فعالا في اقناع المعز بن ياديس بالانقلاب على الفاطميين، وأيقاع منبحة في المؤمنين بالعقيدة الإسماوية في إفريقيا.

كان الخليفة في القيادة المستنصر بالله وكانت دولته اضعف من أن يتنكّم من اتخاذ إجراء عسكري مباشر ضد المعز بن ياديس، لكنها لم تدع الوسيلة للانتقام منه، وكان الانتقام في تجريف قبائل هلال وتسليم الجرح نحو إفريقيا، وحدث هذا الربح أسوأ الآثار.
السياسية والاقتصادية والعمرانية على جل بلدان المغرب العربي، وفيها ثبت طابع العروبة بشكل أبدي مطلق (٥).

وإذا كان القاسي قد أسهم بصنبه في أسباب تفجر الأحداث التي شهدتها إفريقيا، فإن شهيرته لم تصدر عن هذا الأسهام ولا حتى عما صنفته أرواؤه في ميدان الفكر والحديث، فقد صدرت عن دوره في قيام حركة المرابطين في القرومان قبل اتصال به في طريق العودة من الحج يحيى بن أبراهم الجدالي، وكان يحيى زعيما للفتية.

جداول أخرى كبيرات قبائل الصحراء، ديارها واقعة على مقررة من شواطيئ المحيط الأطلسي ومصب نهر السنغال.

واعجب الجدالي بالشيخ أبي عمران الفاسي، ورأى أبو عمران فيه رجلاً محباً في الخبر، فاعجبه حاله، فسأله عن اسمه وبلده ونسبه فأخبره بذلك، وأعلمه بسمة بلاده وما فيها من الخلق، فقال له: وما ينطلقون من المذاهب؟ فقال له: إنهم يقوم علىهم علهم الجهل، وليس لهم كثير علم، فاختبره الفقيه وسأله عن واسعات دينه، فلم يفده يعرف منها شيئاً ولايفضف فضائل الكتاب والسنة حرفًا، إلا أنه حرير على العلم، صحيح النية والعقيدة والсты، جالب بما يصلح دينه، فقال له: ما يمكنك من العلم للعلم، فقال له: بابسيدي إن أهل بلادي قوم عظم الجاهل، وليس فيهم من يقرأ القرآن، وهم مع ذلك يحلمون الخير ويرغبون فيه ويسعون إليه لو وجدوا من يقرروه القرآن ويدرس لهم العلم ويفروضهم في دينهما، ويدعوهم إلى العمل بالكتاب والسنة، ويلعنهم شراح الإسلام، ويبين لهم سنن النبي عليه السلام، فلو بلغت نواعر من الله تعالى بتعليمهم الخير لبعثت معي إلى بلداننا بعض ضلامين يقرروه القرآن ويفقهم في الدين فيعتمدون به ويسعون له ويطيعون في ك ذلك الأجر العظيم والثواب الجسمين عند الله، أن تكون سبباً لهديتهم.

فندب الشيخ الفقيه أبو عمران تلاميذه إلى ذلك فاستمعوا واشتفقوا من دخول الصحراء، ولم يحده منهم أحد من يرضيه الشيخ، فلم يغفوهم منهم قال: إنني أعرف بلدان نفس من أرض المصامدة فقثها.
حانقا تقبّي لقيني هنا، وانذعني علما كثيرا وعرفت ذلك منه واسمه
وأجاج بن زلو المطي، من أهل السوس الأقصى، وهو الآن يعتمد
وديرس علم، ودعو الناس إلى الخير في رباط هناك ولد تلاميذ
جمة يقرؤون عليه العلم، اكتب له كتابا لم ينظر في تلاميذه من يبعثه
معك، فسر إليه (3).

ونستخلص من هذه الرواية أن المبادرة بـأرسال عالم إلى
الصحراء جاءت من عند الجدالي، وأن الذي قام به الفاسي هو
مجرد الاستجابة، وهذا يعني أنعدام أدلة خطوة للدعوة في الصحراء
لدى الفاسي، وأن كل ما حدث نجم عن عمامل الصدفة: فريق من
حجاج الصحراء التقي واحد من كبير العلماء في الثقافات، وهذا
سارت الأمور، لكن يبدو أن القضية لم تكن أبدا بهذه البساطة ولم
تسر على هذه الشاكلاة.

تحت صاحب بيوتات فاس عن اللقاء الذي قام بين الرجلين في
القروان فقال: «وهو الذي ندب يحيى بن عمران بن إبراهيم
المتواني الصناحي إلى قتال الطباعة من أهل المغرب وجهاد أهل
برغواطة من السوس». وقال المصنف نفسه في مكان آخر من
كتابه تحدث به عن أسرة عبد الله بن ياسين في فاس: «وهم من بني
عبد الله بن ياسين الفقيه الذي انتدب لترني إلى قتال برغواطة من
السوس». وبعد ارتاده لبعض المعلومات عن كل من برغواطة
وقبلة لترني بين أن ديار لترني في الصحراء المغربية بين بلاد
السودان المغربية وبلاد المغرب...... وذلك بمجرد عبورين طولا
وعربا، وليس لهم مدينة يأبون إليها إلا مدينة غاهة من بلاد
السودان المغربية...... وإما غاهة فكانوا على دين النصرانية إلى
سنة السبع والستين وأربعون، فاسلما أهلها على يد عبد الله بن
ياسين عند خروجه مع يحيى بن عمران المتواني إلى قتاله اهل
برغواطة، وحسن اسلامهم.

وكان السبب في دخول لترني المغرب أنهم على دين الإسلام منذ
اسلموا على يد الإمام ادريس، وكانوا يحاربون السودان، ثم إن
بيحبي وابا بكر بن عمر خرجا الى الحج مع قومهما فسروا بمدينة القيروان يتغبراً بالعلاقه ابي عمران الفاسي حيث بلغهم أن أهل فاس أخرجوا من مدينة فاس لنهيهم لهم عمداً احتجوا مع البي حبي بن عمر ندب أبو عمران الى قتال برغواطة بلاد السوس وقتال زناية على ما صدر منهم من الظلم واستنزال رؤسائهم فمن الولاية فعده بخيي بن عمر بالنزول الى ذلك وطلب منه ان يوجه معه الى بلاده بعض طلبه لينظر في أمر ديانتهم واخراج زكاتهم واعراضهم وفيمن تصرف مع اخمس غناهمهم فرد ذلك أبو عمران على طلبهما فامتنعوا من المسير مع حبي بن عمر بن إبراهيم بعد البلاد والمشقة وانقطاع الصحراه عن بلاد افريقية ثم قال له أبو عمران: نكتبه لرسالة الى قبته بالسوس فما يلي بلادك يدعى بوجاج فمكن كان قرأ عليه بفاس قبل ارتحال أبي عمران عنها فكتبه لرسالة يطلب منه فيها أن يوجه معه فتبيها الى بلاده فسار حبي بن عمر بن إبراهيم مع قومه الى وجاج الى ان وصلوا إليه فدفعوا إليه كتاب أبي عمران فلما قرآه رحب بهم واكرمهم واختار لهم عبد الله بن ياسين من أصحابه (8).

الجديد في هذه الرواية أن الذي التقى بالفاسي وفده من لنونة وليس من جدالة بقيادة حبي بن عمر بن إبراهيم وحدث هذا اللقاء في القيروان والفاسي هو الذي ندب الوفد ليس اقتلاع برغواطة فحسب بل لقتال زناية وكانت بعد ذلك تشكل خطراً كبيراً على حكم المعز بن بايديس وان واجب تسلمه على الفاسي في مدينة فاس وسندى أن حبي بن عمر المكنوتي سيتولى زعامة المرابطين حتى وفاته حيث سيخلفه اخوه أبو بكر بن عمر.

وجاءت وفاة حبي بن عمر سنة 449 هـ في 157 م حيث قتل في معركة كبيرة ضد قبيلة جدالة (9).

والإشكالية التي تواجهنا هنا ليست مقصورة على كيفية انتقال زعامة المرابطين من جدالة الى لنونة بل أمر آخر يتعلق بشخصية
اخرى يروى من قبل مصادر مبكرة جدا انها التي التقت أولا بـ
عمران الفجوميَّ.

يحدثنا البكري في كتابه المسالك والممالك بقوله: "وخلف بني
ائهم قبلة من صنهاج تسمى بني جدالة وهو يجاورون البحر ليس
بهم وبينه احد. وهذه القبائل هي التي قامت بعدد الأربعين
وأربعمائة بدعوة الحق، ورد المظالم، وقطع جميع المغامرين، وهم
على السنة متمكنون بذهب مالك بن أنس رضي الله عنه، وكان
الذي نهى ذلك فيهم. ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله
ابن باسين، وذلك أن رئيسهم كان يجيء بين ابراهيم مـ بن
جسدال. وجاءه في بعض السنين، ولقى في صدره عن حجه الفقيه ابن
عمرا البغدادي، فساره أبو عثمان بن曉ه وسيرة وما يحصلومنه
المذهب، فلم يجد عنده علماء بشيء، إلا أنه راح حريصا على العلم
صحيح النية والبيئين، فقال له: ما يمنعكم من تعلم الشريعة على
وجهه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، قال له: لا يصل إلينا
إلا معلمون لاروع لهم ولا علم بالسنة عنهم، ورغب إلى أبي
عمران أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودئبه ليعلمهم ويقدم
أحكام الشريعة عليهم، فلم يجد أبو عثمان فيمن يبيبه
الي السيرة، فقال له أبو عثمان: إنى قد عمت ببالخيرون
بغيكم، وإن بكلمك فقها حانقا ووعا قد لقيتي وعرفت ذلك منه
ويقال له: واجب بن زؤل، فلم به فرما ظفرت عنه بفيتكم، فجعل
ذلك يجيء بين ابراهيم أوكدهم، فنزل به وعلمه ما تجري له مع أبي
عمران، فاختار له وجامعه من أصحابه رجل يقال له عبد الله بن
باسين، واسم أمه نين زرامان من أهل جزيرة من قرية تسمى
تمامانات في طرف صحراء مدينة غزالة، فوصل به إلى موضعه,
واجتمعا للتلميع منه والانتقاد له في سبعين رجلا فغضروا بني لتونة
وخاصروهم في جبل لهم فهـزهم، فلم يزل أـرهم
ينوى. وعبد الله بن باسين مقيم فيهم، وهم يسمعون له
وبينظرون إلى أن نفروا عليه أشياء يطول ذكرها وكأنهم وجدوا في
أخلاقه بعض الندافت، فقام عليه فقه منهم كان اسمه الجوهر بن

- 114 -
سكم مع رجلين من كبرائتهم... فعزلوهم عن الرأي والمشورة، وقبضوا منه بيت مالهم وثروتهم وهموا دارهم وانتهوا ما كان فيها من أثاث وخرزتي، فخرج مستخفياً من قبائل صنهاجة إلى أن اتى ولج بن زلو فقية ملكوساً (10).

عاش البكري في الأندلس، وكان من الأمراء العلماء، وهو لم يزور المغرب، والمعلومات التي دونها في كتابه كانت مما نقل إليه. وقد قام هو بدمج التقارير التي حصل عليها، وعلى هذا لم تخل معلوماته من شيء من التنافض والخالل، لكثرة مع هذا هـامته لا يستغني عنها، وتزداد فائدةً لها الحصول على بعض المواد المعاصرة لها أو من طبقتها.

ومعلومات البكري تؤكد هنا على أن الذي اتصل بالفاس كان من قبيلة جمالة، وقد انفرد بإزاراته خبر طرد عبد الله بن بسمن وعودته إلى رباط، ولج بن زلو، وهام جدًا اتباهه على ذكر الجوهر بن سكم، فلقلق حاول بعض الباحثين تجاهل وجود هذه الشخصية، أو المطابقة بينها وبين يحيى بن إبراهيم الجدالي، والمطابقة صعبة نعم التقارب بين الآسيس، وأن الجوهر ووصف بالفقيه ولـه الحديث عنه كزعيم سياسي.

وسلم في الذكر أن جل المصادر الرباطية قد ناله التلف، لكن يبدو أن بعضها نجا ووصل إلى مكتبات المشتركة فقطقاو على عهده، وهكذا نجد كل من ابن الأثير والنوبري والقريزي يقولون على ذكر الجوهر بن سكم، ومن عادة ابن الأثير أن لاذكر مصدراً وذلك المغريزي لكن النوبري ذكر مصدره بكل وضوح وهو كتـاب الفـهم المـتنكير، والبيان في اخبار المغرب والفيروان، أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم بن العز بن بديس، وقد ذكر أبو محمد هذا » بسنده وفرعه إلى القاضي أبي الحسن على بن قنون، قاضي مراكش، أن رجلاً من قبيلة جمالة من كبرائنهم اسمه الجوهر أتى من الصحراء إلى بلاد المغرب طالباً للحج، فالتقته بابي عمران الفاسي، فلمّا حسره وانصرف قصد المسجد الذي كان فيه الفقيه، وسمع الكلام فيما

- 115 -
تقتضيه ملة الإسلام من الفرائض والسنن والأحكام، فجمال الجوهر: يا فقيه ما عدننا في الصحراء من هذا الذي تذكرنه إلا الشهادتين في الخاتمة، والصلاة في بعض الفقهاً. فأحبل معي من يعلمهم عقائده مرتهم وكمسار دينهم، فقوله له الجوهر: فابثتني أحد الفقهاء، وعلى حفظه وبره وإكرامه، وكان للقهيب ابن أخ اسمه عمر، فقال له: إن وهو مع هذا السبى إلى الصحراء، فعلم القبائل بها ما يجب عليهم من دين الإسلام، ولقد الشبايب النجيز من الله عز وجل، والذكير الجميل من الناس، فاجابة إلى ذلك، فلما أصبح عمر من الغدا، إلى وعله، فقله: فئد من الدخول إلى الصحراء فإن أهلها جاهل، فقد عرف أن تسبراً مت ايضاً عليها، فتم نقلها عنها قلناً من أمرهم، وكان من طابية الفقهاء رجل يقال له عبد الله بن ياسين الكزولي، فراعه الفقيه وقد عز عليه مخالفته ابن أخيه فقال: يافقيه أرسلني معه والله المعين، فأرسله وأولها إلى الصحراء، وكان عبد الله بن ياسين فقهاء عالمًا ورفعاً ديناً شهداً قوي النفس ، حاذاً ذا رأي وصبر، وتبدير.

فدخل الجوهر وعبد الله بن ياسين إلى الصحراء، فانتهوا إلى قبيلة لقنوه، وهي على ربوة عالية، فلم رأوها نزل الجوهر عن جمله، وأخذ بزمام جمل عبد الله بن ياسين تنظيفها بين الإسلام، فافتقت أعيان لقنوه، وأثابهم للقاء الجوهر والسلام عليه، فراوا يقول الجمل فسالوا عنه فقال: هو حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد جاء يعلم أهل الصحراء ماليمهم في دين الإسلام، فرحوا به وانزلوه الكرم نزل.

ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة في محفل وفيهم ابن بكير ابن عمر، فقالوا: تذكر لنا مما أشرت إليه أن يلزمنا؟ فقص عليهم عبد الله عقائده الإسلام وقواده، وبيث لهم حتى فهم ذلك أكثرهم ثم أضخهم الجواب، فقالوا: أما ما ذكرته من الصلاة، والزكاة فذك ذلك قريب، وأما قولك: من قتل يقتل، ومن سرق يقطع، ومن زنا يلد، فأمر لان.plus

- 116 -
فرحلاً عنهم والجوهر الجدالي يجر زمام جمل عبد الله بن ياسين 9999 قال: وكان بالصحراء قبائل 9999، كثيرة قد حازت ارضاً تسرح فيها مواصلها، وبحرونها بسيوفهم 9999.

قال: وسار الجوهر حتى انتهى يبعد الله إلى قبيلة جدالة، فخطط لهم عبد الله هم والقبائل المتصلة بهم، فمنهم من سمع واطاع ومنهم من اعرض وعض، ثم إن الخالفين لهم تهاجموا وانحازوا.

قال عبد الله للذين قبلوا منه الإسلام: 9999 قد وجه عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وكانوا دين الإسلام، فاستعدوا لقتالهم، واجعلوا لكم حزباً، واقيموا لكم راية، وقدموا لكم أميراً.

قال يا الجوهر: انت الأمير، فقال عبد الله: لا يمكنني هذا إنما أنا حامل أمانة الشرع، اقص عليكم نصوصه وأبين لكم طريقه، وأعرفكم سلوكه، ولكن انت الأمير، 9999 فقال الجوهر: لوفعلت هذا لتساعد قبليتي على الناس وعائلاً في الصحراء، سيكون وارث ذلك علي، لا راوي لي في هذا 9999. فقال عبد الله: 9999 هذا أبو بكر بن عمر، رأس مثونيه وكبرىها، وهو رجل جليل القدر، مشكور الجمال، محمود السيرة، مطاع في قومه، تسير إليه وتعرض تقدمة الأمة عليه، فلحب الرياضة يستجب إلى ذلك بنفسه، ولكن الجماهير ستتجلى إليه طائفة من قبليته تقى بعضها على عدونا، والله الاستعان.
ذكر ولاية ابن بكر بن عمر اللمتوني

قال: فأتوا أبا بكر بن عمر فاجاب، وعقدوا له راية وتباعوه بيعة الإسلام، وتبعتهم زمره من قومه، وسماه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين.

ورجعوا إلى جدالة وجمعوا إليهم من أمكن من الطوائف الذين حسن أسلامهم. ومن الأقوام الذين تألفت قلوبهم، وحرمهم عبد الله على الجهاد في سبيل الله، وسموا المرابطين، وتأتبت عليهم أحزاب من الصحراة معايندين من أهل الشر والفساد، وجيشهما لحاربتهم، فلم يتناجزوه الحرب ولا يبدروهم بلقاء بل تلطف عبد الله وأبو بكر في أمرهم، واستمالوه، واستعانوا على أولئك الإشار المفسدين بالصلحين من قبائلوهم يسبونهم قوما بعد قومهم بضروب من التوصل حتى حصلوا منهم تحت زرب عظيم وثيق ما ينفث على أفي رجل من المفسدين وتكرههم فيه إياها باهار طعام وهم يحفظون الزرب من سائر جهانه، وقدم خندقوا حوله، ثم اخرجهم قوما بعد قوم وقتلوهم عن أخرهم.

فحينذ ذالك لهم أكثر قبائل الصحراة وهابهم كل من فيها، وقويته شوكة المرابطين، هذا عبد الله بن ياسين يعلم الشرعية ويقرأ الكتاب والسنة، حتى صار حوله فقهاء، وكل من انتقد إلى الحق على طريق الورع والتقى والخضبة لله والمراقبة، فسرت له أوقاتها للمواضع والتنى وإيراد الوعيد والوعيد، فاستقام منهم خلق كثير، وخلصت عقائدهم وزكتم ذفوسهم، وصفت قلوبهم.
ذكر مقتل الجوهر الجدالي

قال: كان الجوهر أصح القوم عقيدة، وإخلاصهم لله ديناً، وأكثرهم صموداً وتهجداً، فلما استبد أبو بكر بالله، وعهد الله بنذل الأموات بالسنة، فصارت الدولة لهما. وبقي الجوهر لحكم له فدأخله الحسد وأزنه الشيطان، فشرع في إفساد الأمر سراً، فعلم بذلك منه وعقده لمجلس. فثبت عليه ما ذكر عنه، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة، وشك العصا، وهم بمحاربة اهل الحق، فقُتِل الجوهر، وانا ايضاً حسب لقاء الله عز وجل حتى ارى ما عنده هذاء فاغتسل وصلى ركعتين، وتقدم طائعاً، فضربت عنقه رحمه الله تعالى.

قال: وكثرت طائفة المرابطين، وتنبؤوا المعاندين لهم من قبائل الصحراء بالقتل والنهب والسرق إلا من أسالم منهم وسالم، وبلغت الأخبار الفضيل بما جرى في الصحراء على يد ابن ياسين من سفك الدماء والنهب والأموال وسيب الحريم، فاعظم ذلك عليه وأشمز منه ونءم على ارساله، وكتب له في ذلك، فاجابه عبد الله بن ياسين، اما انترك علي ما فعلت وندامتك علي إرسالي فانكر لرسلي التي امة كانت جاهدة، يخرج أخوه ابنه وابنته لرعي السواق فيريبان في المرعي، فتاتي المرآة حاملة من أخيها ولا ينكرون ذلك، وليس دابهم إلا إثارة بعضهم على بعض وقتل بعضهم لبعض، ولا دابة لهم في الدماء، ولا حرمة عندهم للحرم، ولا تويق بينهم في الأموال، فأخبرتهم بالفروض عليهم والمسنون لهم والحدود فيه، فمن قيقل والبيه، ومن تولى أرديته، وما تجاوزت حكم الله ولا تعذبته.

السلام ((11)).

إن نصر ابن شداد هذا على درجة عالية من الأهمية ونقطة.
التوافق بينه وبين مادة العسكري كبيرة. فهما قد اتفقا على كون شخصية الجوهر شخصية تاريخية. وعلى أنه كان أشبه بالفقهاء الآمر الذي أدرك ابن الأثير بقوله: "وكان الجوهر - مجيباً للدين(12)". وهكذا اتفقا على حصول خلاف فيما بين الجوهر وابن باسمن. وروى ابن الأثير أيضاً أن أعم الجوهر بعدما اتفقا فيه تدابيره وشره سرا في فساد الأمر، فعمل بذلك منه، وعقد له مجلس وثبت عليه مانقل عن فحكم عليه بالقتل، لأنه نكس السبعة وشق العصا وأراد محاربة أهل الحق، فقتل بعد أن صلى ركعتين(13).

ومن الواضح أن كل من ابن الأثير والنوري قد نهلا من المصدر نفسه. ولهذا أورد أن الجوهر بن سكم صحب معه عبد الله بن باسمن من القيروان، نضيف إلى هذا أن التاليف حين ترجم لوجاج ابن زلو أوضح أنه لحق بالفارسي إلى القيروان، اسمعه يقول: "وجاج بن زلو المطلي.

من أهل السوس الأقصى، رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفارسي، ثم عاد إلى السوس، فبنى داراً سماها بدار الرايبيين لطلبة العلم وقراءة القرآن، وكان المصمادية يزورونه ويبتكرون بدعائه(14).

لقد طارت شهرة ابي عمران الفنجومي أثناء إقامتته بالقروان، وعلى هذا يرجح أن الطلبة قد نصوها إليها. وإنما لازم بن باسمن ووجاج بن زلو تقيا بالقروان، وهناك تعرضوا إلى بعضهما في حضرة شيخهما الفنجومي، وبناء عليه أرى أن صورة الأحداث ربما وقعت على النحو التالي:

اصطحب الجوهر بن سكم معه عبد الله بن باسمن من القيروان إلى الصحراء، وبعد شيء من النجاح اختلافاً، وهكذا أزعم ابن باسمن على الالتجاء إلى رباط وجاج بن زلو في السوس الأقصى في طرف الصحراء، ومجدداً مر بالقروان ركب جديد من حجاج الصحراء فيه أو على رأسه يحيى بن إبراهيم الجدالي، وإن موضوع اوضح الصحراء أثير من جديد، وهكذا تم الاتفاق أن يمر هذا الأمير برباط.
وجاج ويصفح معه الله بن ياسين، وهذا ماكان، وعلى
أساسه يمكن أن نفهم مسألة اعداد الجوهر بن سكيم. وكان عبد الله
بن ياسين كما رأينا من أهل الصحراء، وكان قد رد في سبيل طلب
العلم حتى أنه زار الأندلس وعند فيها سابع سنوات (13) وكان أصله
وتكوين شخصيته وثقافته التي حصلها تؤهل اثر كثير من غيره للعمل في
الصحراء ومن ثم النجاح.

والتالي خلاف كبير بين المصادر حول تاريخ هذه الحوادث، ولا بد
أنها حصلت قبل وفاة أبي عمران الفاسي في سنة 430 هـ/ 1029 م
وأميل هنا إلى الأخذ برواية صاحب روض القدراس حيث ذكر أن
باحب بن ابراهيم الجدالي توجه إلى الحج سنة سبع وعشرين
وأربعمائة (17) وقد يكون لقيه في هذه السنة أو في السنة التالية.

في الصحراء حقق ابن ياسين برفعه السكيم الجدالي بعض
النجاحات غير أن رحلات جدالاوة مربأها أن اختنا بالاعراض عنه،
وهنا فكر بالرحيل عنه. إلى بلاد السودان (17) والسؤال التي
لا بد من طرحه هنا لماذا إلى بلاد السودان وليس مجددا إلى بلاد
رباط، واهاج بن زلاد، لعل السبب هو أنها قيل هذا الواهاج ثم
تذكره بالعودة إلى بلده أو المناطق المجاورة لها، ولكن لما اعراض
هنهتداث ين، هل فقط أنهم ما رأوه قد شهد عليهم في تلك ماهم
عليه من المذكرات تبادوا منه وهجروه وناضروا، وقلت ذلك عليهم.

القضية أكبر من هذا، كان مشروع عبد الله بن ياسين م شروعًا
سياسياً، وقف في سبيله في المرحلة الأولى السفقة الجوهر بن سكيم
والآن بمعاونة الأمير الجدالي، أو بالحراب أمير جدالاوة تخاصم من
الجوهر بإعداده، ولا بد أن ردت الفعل القاسية جدا على ذلك محي
الذي ارجعت ابن ياسين على قرار النزوح، لابن أكثر من هذا افقدت
باحب بن ابراهيم سلطانه ومكانه، فقد كان يحب ابن ابراهيم على
رئاسة صدامة وحروبهم مع أعدائهم (18).

وصنهاجة كما سنرى كان اسم «الجدران» لقب السكيم الصحراء
خاصة جدال وللو تونّة، ولا يفقد الأمير سلطانه إلا بسبب كبير جدًا، و...

ومعروف أن تجربة الرابطة في الثورة تجربة مبكرة قامت منذ العصور الأولى وتتركز أولاً على شواطئ البحر المتوسط الشامانية، ومن أشهر النماذج الأولية لها رباط بيروت الذي عاش فيه الامام الأزفزعي، وله حياة الأزفزعي وعدد من النشاطات في الإسلام مثل عبد الله بن المبارك وعلاقتهم مع السلطات بعض التعليم لنمو حركة الرابطة وتطويرها وتنظيمها حيث غذا الرابطة مؤسسة عسكرية فقهية، له مقوماته وأدواره في جميع المجالات حتى الاقليمية منها، فالفقهاء والصحابة فروا من التعامل مع السلطان واجهوا بقوله تعالى: "يا بابا الذي أتمنا أصبوا وصابروا ورابطوا...

وانتقا اللهم لعلكم تفلحون" (23).

ومن سواحل الشام انتقلت تجربة الرابطة إلى شواطئ إفريقيا، وهناك تطورت تطوراً عجيباً وشغفت أوساط الأدوار (23) وظلت كذلك حتى قيام الخلافة الفاطمية والقضاء على حكم الأغالبة وتأسيس مدينة المهدية، فقد سد هذا ضربة موجعة للربط المتوسطي وبالتالي أدى إلى انتقلت التجربة إلى سواحل الأطلسي والإدوار في الأراضي الغربية، ومنذ هذا التاريخ شغل الرابطة أهم الأدوار في اقامة الدول والحكومات وإسقاطها، فقد أقام رباط عبد الله بن ياسين دولة الرابطة، وكان لرباط تأثير دور الحاسم في استقرار
دولة الروابط وأقامة الدولة الموحدة، وهكذا من رباط الي آخر ومن دولة الي أخرى حتى رباط درجة سجلماسة وأقامة دولة الأشراف العلويين الحاكمة الآن في المغرب.

وتبينت الآراء والروايات حول تحديد موقع رباط بن باسين، وأقرب ماروي إلى القبول مانكر ابن خلدون، حيث يستخلص أن ذلك كان قرب مصب نهر السنغال (33).

واستبعد بناء رباط محصن عسكريا، فقد الدين جازوا الي الموقع أولاً كان ضئيلاً وكانوا جميعاً من بناة الصحراء، بلا تجربة أو خبرة ببناء البناء، ولعل الأمر لم يتعين نوعاً من أنواع المبتكارات أو الخيام المؤقتة فيها، خضع للاحتكاك لبعض التدريبات خاصة في المجالات التكتية الدينية، طبعا حسب مذهب الإمام مالك، ولعل دروس الوعظ كانت بالبربرية مع شيء من العربي全面推进. وخلال عدة أشهر اجتمع ابن باسين حوالي الالف وهنا شعر مجدداً بالقوة والقدرة على التحرك، انها لم تلها هذه المرة إلى استخدام السلاح مباشرة، فقام في أصحابه، وقال لهم: يامعشر المراقبين انكم جمع كثير، واذن جم كبير، وأنتم جوهر قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحتم الله تعالى وهداكم إلى طرططاء، المستقيم، فوجئ عليكم ان تشكروا نعمتهم عليه وتماموا بالعرف، وتنوها عن الذكر، وتجاهدوا في سبيل الله حق جاهد، فقالوا: إباهي الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجنبنا سامعين مطيعين، ولو أردنا بقائلاً أباذنا لفعلنا، فقال لهم: اخرجوا على بركة الله، وأذنوا قومكم، وخفوهم عقابل الله، وإبلغوه جهته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق واقلعوا عنكم، فإنا أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طفيفهم استعنا بالله تعالى عليهم، وجاهدناه حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

فساء كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته، فوعودهم وانذروهم، ودعهم إلى الاقلاع عما هم بسبيله، فلم يكن منهم من يقبل برجع، فخرج بهم عبد الله بن ياسين، فجمع إشبا القبائل ورؤساءهم.
وقرا عليهم حجة الله ودعام إلى الثورة، وخوفهم عقاب الله، فقام
بجزهم سبعة أيام، وهم في كل ذلك ائتقتون إلى قوته ولايزدادون
الفسادا، فلما يئس منهم قال لأصحابه: قد أبلغنا الحجة وإنذروا;
وقد وجب علينا جهادهم فاغزواهم على بركة الله ۴۴.

ويبلغ الآن تعداد أتباع ابن ياسين ثلاثة آلاف مقاتل فغزا بهم أولاً
قبيلة جذالة، فهزمها وأوقع بين صفوفها اصابات كبيرة جداً، ثم
التقت إلى قبيلة لثونة فأذاعت له ولكن ذلك فعل بقبيلة مسروفة وغيرها
من قبائل الصحراو، وتضافف عدد أتباع ابن ياسينين وملك
الأموال، واخذت بيت موالاً، اخذ يركبه منه الجويس ويشتري
السلاح، ويفزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراو واستنولى
على قبائثلها ۴۵.

وأرسل عبد الله بن ياسين، بالله عز وجل، غلى شعب الحرة بطلب
الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلب مملكة، وقضاتها ۴۶،
وفي عمله هذا مؤشر على تطلعات مستقبلية في شباب نحو المغرب
الأقصى، فقد حال بينه في الصحراو وآريзы المغرب الأقصى جبال
الطلس الكبير (درن) حيث توطنت خلفه قبائل مصمووده، وكان
شراء رضاه مصمووده أمرًا استراتيجياً، وفي مستقبل الأيام أحسين
الجهد بن تومرت استغلال عامل الجغرافيا هذا مع انعكاساته في
 سبيل استقاط دولة المرابطين.

ويقتضي هذا منا وفقة تناقل فيها أوضاع بلاد الصحراو، مسرح
العملات التي أتينا على ذكراها، ولتعرفي على الوضع القبلي
هناك والاجتماعية.

بلاد الصحراو التي شهدت حركة المرابطين هي اليوم أقيمت مقفر،
قليل السكان، وذلك بعدما قضى الاستعمار على الأعمار الروسية
الذي كان فيه، وهذا الأقلام موضوع اليوم بين المملكة الفرنسية
وموريتانيا ومالي وغانا مع معظم النيجر، وقد عاش في هذا الأقلام
مجموعة من القبائل، ووجدت فيه بعض البلدان والواعث ومراكز
العمران ومحطات القوافل ۴۷.
وانتمت قبائل الصحراء إلى جد قبلي كبير عرف باسم صنهاجة، واعتقدت صنهاجة أنها من أصل عربي من قبائل حمير اليمن، وحتى يومنا هذا مايزال المنتمون إليها يستخدمون لغة خاصة بهم اسمها الحسانية، يرون أنها لغة حمير لما قبل الإسلام، وأطلق على قبائل صنهاجة اسم قبائل المثلثين، لأن من عادة كل واحد من الرجال وضع لثام على وجهه للفقه مطلقاً، ومع أن عادة اللثام نشأت - كما هو مرجع - عن طبيعة الحياة في الصحراء، غير أن الصنهاجيين تمسكوا بها تدليداً وأعطوا مسحة تقدير، وتصدر قبائل صنهاجة: ملونة وجدالة ومسوقة، ومسرات، ومداسة وبنو وارث (28).

وتتحدث الشريف الإدريسى عن قبائل ملونة بقوله: وهم أصحاب إبل، ونجب عتاق رجاله لا يقيمون مكان واحد، ولباس الرجال منهم والنساء أكسي الصوف، ويرجعون إلى رؤوسهم عمائم الصوف المسماة بالكرازي، ويعشهم من أبلان الأبل ولحومها مقددة مطحونة وربما جلبها اليهم الحنطة والزبيب، لكن الزبيب أكثر، لأنهم كثيراً ماينيعون الزبيب في الماء بعد القف ويفروجون صفوفه نقياً حلواً. وفي بلالهم العسل كثير، وجل الطعام واحله الطعام المسمى بالبربرية أسوا، وهو أنهم يأخذون الحنطة فيقولونها قلياً معتدلاً، ثم يدقونها حتى تقوم نكراً، ثم يمزون العسل، ويشتبه سفراً ويجلونه به تلك الحنطة على النار، ويبغونه في مزاود لهم، قبئىط طعاماً شهياً، وذلك أن الإنسان منهم إذا أخذ من هذا الطعام ما بله كله واكله، وشرب عليه اللبن، ثم يشيع بقية يومه لم يشتهط طعاماً على الليل، وليس لهم مدينة يأوون إليها إلا مدينة نوار لطبة، وبهذة المدينة تصنع البرق المفتوحة التي لا شيء أبعد منها ولا أصلب منها ظهراً ولا حسن منها صنعاً، وله قبائل أهل المغبر لحصائنتها وخصبة محلها، وهذه المدينة تقوم بصنع السروج واللجم والأكلات العدة لخدمة الأبل، وتتبع بها الأكسة (29) على هذا كان بداية ملونة، بعينهم عن اسباب المدينة إلى حد أنهم لم يعرفوا صناعة الخبز، وكانوا جمالة، لم يبرعوا في استخدام الخبز، والصناعات التي
وجبت في مبنتهم الرئيسة قد ارتبطت بتقديم الخدمات الأساسية
المسبحة للبداية

واوzer من وصف الأدبيسي ما أودعه الكاري في كتابة المسائل والممالك
حيث ذكر أن «لمتوة ظعاف رحلات في الصحراة مراحلهم فيه ذكرية
شهرين في شهرين، ما بين بلد السودان وبلاد الإسلام، ومصرى،
في موضوع يسمى أمطوراً وأخر يسمى تاليوين، وهم الى البلاد
السودان أقرب... وليس يعرفون حركاً ولايرعا ولأجير ... انما
أموالهم الأنعمر وع合唱هم من اللحم واللب، ينفذ عمر أحدهم وماراي
خيارا ولاانقله الا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو البلاد
السودان فيطعمونهم الخبز ويتحونهم بالنفقه، وهم على السنة
مجاهدون للسودان... وخائف بني لتونة قبيلة من ميناجها تسمى
بني جدارة، وهم يجورون البحر، ليس بينهم وبينه أحد... وله... لمن
لثونة في قتالهم شدة وجد، ليس لغيرهم، وهم يختارون الموت على
الانهزام، ولا يحفظ لهم فرار من زحف، وهم يقاتلون على الخيل
والنجب وكثر قتالهم رجالة صفوياً بأيدي الصف الأول الفني
الثواب والمداعسة والطمان، وما يليه من الصنف بانثيهم المزاريع,
بجعل الرجل الواحد منها عدة يزرفها فلا يركض بخطى، ولايشوى،
ولبهم رجل قد قطعوا أمام الصنف بيده الراية، فهم يقفون ما وقفت
منتصبة، وإن أمالها الى الأرض جذوا جميعاً، فكانوا أثبت من
الهضاب ومن فين أمامهم لم يتبعوه... (23).

واجمعت المصادر التي تحدثت عن الجانب العسكري لدى قبائل
الثymm على الحديث عن الدرق المطلقة ووصف أبو عبد الله محمد
الرجري هذه الدرق في كتابة الجغرافيا بقوله... هذه الدرق من
اعيج ما يكون، وذلك أنه إذا ضرب فيها برعم أو سيف أوهم،
وتبتخى منها موضوع بقيت بعد ذلك سيريا، مفتوث، فلا يوجد فيه أثر
الا رجع صحيحا كما كان وهذه الدرق تهدى للوك المغرب والأندلس.

والمط حيوف حتى قدر العجل أو ابن منه، طويل العنق، رأسه
كرأس الأشقر، له أذان كاذبة الملط، في رأسه قرون طويلة السودان أو
مزيرة الخلقية خارجة من يافو، راجعة إلى خلفه، تبلغ إلى كفه، ولا يوجد إلا في هذا الصقع، ومن جلده تصنع الدرق المطية، وانما سميت بهذا الاسم لأنها نسبي لله (32).

ووصل الإسلام إلى الصحراء منذ أيام الفتوحات، ومع الأيام ازدادت تنوعاً وانتشارها وعمق الأخذ به، وكان لتأسيس النواة الأولى لمدينة فاس، ثم قيام دولة الأدريسة واسع الآثار على تطور انتشار الإسلام، ومن الملاحظ في تتبع تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية في بلادان إفريقيا خاصة الشمال الإفريقي أن القروان بعض تأسيسها قامت بالدور القيادي بالنسبة للدين الإسلامي والثقافة العربية، انها مع سعة الانتشار قامت مدينة فاس، بعدما تأسس فيها جامع القرويين بدور الوارد الكبير لنشاط القروان، وبعد تأسيس مراكش شاركت هذه فاس في حمل أعباء العمل الثقافي والديني، ثم كان أن قامت شنطيط أيضاً بالمشاركة بشكل قيادي في مجال، لكن دور شنطيط عطله الاستعمار الأوروبي.

ومنذ ما قبل قيام الخلافة الفاطمية وجد على أطراف الصحراء وفي قلبها عدة مراكز حضارية، كان أهمها سجلماسة، فقد شابهت هذه المدينة بنفوذها التجاري وحتى السياسي على سكان الصحراء مكة ما قبل الإسلام بالنسبة، أنشئ حزيرة العرب (33) ومع سجلماسة على الجهة الشرقية منها عند اطراف الصحراء، فوق السودان، السودان (افريقيا) قامت مكة أخرى هي أودغشت التي ارتبطت ازدهارها، بإزدهار سجلماسة، فقد كانت تمثل حزباً للسعودية التجارية الكبرى بين سجلماسة باعتبارها آخر مدينة مغربية في اتجاه الجنوب، وبلاد غانة، هند القوافل التجارية لتوتير الذهب والرقيق، ولكنها لم تكن محطة رحلات القوافل لمجرد الاستراحة، ثم وصولاً للسيرة، فذلك أمر لا يكفي لخلق حركة تجارية دائمة وازدهار عمري، بل كان سوقها نقطة لقاء يغير فيها تجار القوافل الشمال بضائعهم المستوردة إلى أودغشت من بلاد غانة ولاسيما الذهب (33) ومع الذهب اللحج، وربما أيضاً الرقيق.
وسكن اللثمون داخل المدينة في بيوت بسيطة من الحجارة والطين، اودخل أكواخ من الخوص والشجر أو في خيم من الشعر والويل، وكان ثلاث البيوت مثله مثل البيوت الناس من الصوف، وكان للمرأة بين اللثمين مكانة سامية، وعند احتياجها مساحية للرجل، اقتنى الثروات وتمتت بنغود كبير، ولم يباع الشرك النسوة الأعمال المنزلية، حيث قام بها العبيد، وسيمربنا خبر زينب التفراوية زوجة يوسف ابن ناشف، ومكانة عهدها، وصحرها عن رابيها ومشرورتها وانقسام مجتمع كل قبيلة أو عشيرة إلى فئتين اجتماعيةين امتصازا عن بعضهما: السيدة والأمجد، الصماد أو الرقيق، وروست مقاليد الأمور والرسائل التجارية وقيادة الجيوش بأيدي السيدة وكان الأمجاد لابذاعه ولايعتوق ولكن يثورون، ويقومون بختلف الوظائف من رعي وعمال بدوية، ولم الحق بالكسب وامتلاك الثروات شرطة دفعهم لنصيب محدود منها لسادتهم.
وكان اللثمون بشكل عام طوال القامة، فيهم رشاقة، لهم وجه سمراء لا يماثل الرجل منهم بدون سلاح وقد يحمل رمدين قصيرين لكل منهما سنان طويل مشحود من فولاذ جيد.
وعقد قراً في صفحتها تقدمت آخبار عهد الله بن باسن ومعه الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، وأخضعها لقبيلة جدالة ثم قبائل لمتوتة داخل الصحراء، وطارت شهرة حركة المراكب ونجات رجالها وعمر الأخبار في جميع بلاد الصحراء وبلاد القبائل، وبلاد المصمدة وسائر بلاد المغرب، وأنه قام رجل بجدالة يدعو إلى الله وإلى طريق مستقيم، وبحكم بما أنزل الله، وأنه متوسط زاهد في الدنيا، واشتهر ذلك بلاد السودان، وفي هذه الأثناء توفي بحبيب الله إبراهيم الجدالي، ويرجع إلى ذلك كان سنة
1048 هـ، وهذا عقد عبد الله بن ياسين مؤثراً لقدمي المرابطين وافق على اختيار الأمير الكنوني يحيى بن عمر الكنوني، وقال عبد الله بن ياسين يقرر هذا على أنه ملك بصورة تاريخية، وعلى علاقاته المقدمة، مع قبيلة جدالة، وقدرات قبيلة لتوتة، ولأنها كانت أكثر قبائل صنهاجة طاعة لله تعالى ودينا وصلاحاً، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويشرفهم ويقدمهم على قبائل صنهاجة، وذلك لما أراده من ظهور أمرهم وتملكهم على المغرب والأندلس.

كما يحيى بن عمر أشد الناس اقتناعاً لعبد الله بن ياسين، وامتناعاً لما يأمره به، ولقد حدد جماعة أن عبد الله قال له في بعض تلك الحروب: أيها الأمير إن عليك حقاً أبداً، فقال له يحيى: ما الذي أوجبه علي؟ قال عبد الله: أنني لا أخبرك أنه حتى أؤدي وأخذ حق الله مكن، فطاع له الأمير بذلك وحكمه في بشرته، فضربه الفقهاء ضربات بالسوط، ثم قال له: الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكمه! وعلى هذا كان عبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة، لأنه هو الذي يأمر وينهي ويعطي، ويأخذ.

ويروى أن عبد الله بن ياسين تلقى مع الأمير الجديد رسائل من بعض مناطق الصحراء، وخاصة من أهالي سلسلة، تشير إلى الأوضاع وظهور الحكام، وبالتالي تدعو المرابطين لتبثوا أعمال الانتفاض، ويدعو أن هذه الدعوات لاقت هوى في نفس قادة المرابطين، لكن يستخلص من مواضيع البركي أن مدينة أودغشت خضعت في هذه الأونة تلك غاية السودان، وراينا من قبل أن هذه المدينة عبده مدينة لتوتة، ولعل لمتوتة فقدت هذه المدينة في مجري أحداث الصحراء ودخول متوتة تحت ظل عبد الله بن ياسين، لهذا أثرت القوات المرابطية التي توجهت أولاً نحو أودغشت لاستردادها، ويرجح أن هذا كان سنة 446 هـ، وتم الاستيلاء على أودغشت عنوة، ونهبها، واستباح المرابطون حريمتها، وجعلوا جميع مكاصباً فيها فيما، وأثر هذا بدأ تفقد أهميتها الاقتصادية ليس فقط...
نتيجة لما لحقها من دمار وانما بسبب التحول الذي لم يطرق التجارة ومسالكةها لاسيما بعد تأسيس مدينة مراكش وتَسْأْسِيس دولة المرابطين والاستيلاء على الأندلس (23).

ولم تحسم معركة أودغشت مسألة الصراع مع السودان، أو ماعرف اذاك باسم غانة، وظلت هذه الجبهة مشتعلة تستحذز على قسط وافر من الإمكانيات العسكرية لقبيلة لتوه، وسيكون لهذا الجانب مع جانب استيلاء المرابطين على المغرب الأقصى وأجزاء من المغرب ثم الأندلس أبعد الأثار على تحديد مصير الدولة المرابطية، ولاعتصق هذا الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والحضارية العامة، بل أعني الطاقة البشرية، فقد غدت طاقة تتجلى أدنى من أن تغذي بممتلكات الصحراء وجبهاتها والدولة المرابطية واتساعها، وانتشر في هذا القسم ما قدمه ابن خلدون في مقدمته حول عصور الدولة.

والذي يعنينا الآن هو أن عبد الله بن ياسين بعدما فرغ من شؤون أودغشت بات بامكانه الالتفات نحو سجلماسة.

إن بقايا أودغشت موجودة في موريتانيا وبقايا سجلماسة في المملكة المغربية في اقليم تافيلت أو الراشيدية، وكانت سجلماسة تحكم من قبل قبيلة زناتة، واسم حاكمها مسعود بن ياسين الخراوي، ولم يكن حكمه يحظى بالقبول من قبل علماء سجلماسة والصلحاء فيها، وهذا بعد سنة 447 هـ/1055 م، فقهراء سجلماسة وقهراء درعة وصلحاءهم فكتبوا إلى الفقيه عبد الله بن ياسين والي الأمير يحيى بن عمير وشاغل المرابطين كتابا يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليظهروا مما هم فيه من النكرات وشدة العسف والجور، وعرفوها بما هي فيها أهل العلم والدين وسائر المسلمين من النزل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن ياسين الزناني الخراوي.

فلما وصل الكتاب عبد الله بن ياسين، جمع رؤساء المرابطين، وقرأ عليهم الكتاب وشاورهم في الأمر، فقالوا له: أبدها الشيخ الفقيه هذا مهما بلزمنا ويلزمك، فسر بنا على بركة الله تعالى،
فانفرادهم بالجهاز، وخرج بهم في الموتى عشرين لسنين سبع
وأربعة واربعين (1000) في جيش عظيم من
المرابطين، فسار حتى وصل بلاد درعة، ثم وجد عامل أمير سجلماة
فخرج منها ووجد بها خمسين ألف، فهاكنت بها في مساعيها.
لصاحب سجلماة مسعود المغراوي، فعلم الأمير مسعود بذلك،
فجمع جميع جيوشه وخرج نحوهم، فالتقي الجماعة، فكانوا بينهم حروب
عظمي من الله تعالى المرابطين فيها، وصلى الله علية مغراوة، فقفل
مسعود بن وانوين المغراوي وأكثر جيوشه وفر الباكون، فأخذ عبد
الله بن ياسين أموالهم ودوابتهم واسحبتهم مع الإبل التي اخذ في
درعها، فخرج منها خمس جميع ففرقه في فقه، سجلماة ودرعة
وصلت، وقسم الباقى على المرابطين، وارتحل من فوره حتى
دخل مدينة سجلماة فقتل من وجد بها من مغراوة، وأقام بها حتى
هدنها وأصلح أحوالها، وغير ما وجد بها من المنكرات، وقطع
المجزأ، وأحرق الدار التي كانت تباع بها الخمر، وأزال المكوس،
واسقط المغمر المخزني، وترك مالوج الكتب والسنة تركه، وقدم
عليها عاملاً من لفترة وانصرف إلى الصحراة (40).

وبعدما انتهى عبد الله بن ياسين من مهمته في سجلماة غادرها
عاداً إلى الصحراة، غير أن أهل سجلماة مالبيهم أن وجدوا أن
حلفهم من بئر لفترة أشد قسوة وخشونة، وضعفهم، فشغروا
بالخيبة والتدمير، وعقدوا العزم على استعادة استقلالهم، وشجعهم
على هذا أن قبيلة زناتة أعادت جمع قواها، وإن عبد الله بن ياسين
يعاني من مشاكل كثيرة مع قبيلة جدالة ومع المنطونين، وهكذا
ثارت سجلماة وتم الفتك بالحامية المرابطية فيها.

ولما عرف ابن ياسين بما جرى في سجلماة قرر استعادتها بأي
ثم، فندب الأرباعين إلى غزو زناتة ثانية فاستجاب عليه، وخلف
عليه بنو جداله وذهبوا إلى ساحل البحر، فأمر عبد الله الأمير يحيى
أن يتحصن بجبل لفترة، وهو جبل منيع كثير الماء والكل، في طوله
ستة أيام وفي عرضة مسافة يوم، وهناك حصن أثبت حمله نحوو
عشرين الف نخلة، كان بناءً ينوا بن عمر الحاج أخو بكر بن عمر، فصار يحيى في جبل متوة، وذهب عبد الله بن ياسين إلى سجلماسة في مائتي رجل من قبائل صنهاجة، ونزل موضع يقول له تأمل ولحصنه فيه مياه ونخل كثير (41).

ومن موقعه الحصين استطاع ابن ياسين أن يجمع جيشاً ممن قبائل الملثمين سرية وترغة كما أنه استدعى إليه الأمير أبو بكر بن عمر، وهو أخو يحيى بن عمر، وكان ممسكاً في درعة، وهذا امتك مايكفي من القوات لاسترداد مدينة سجلماسة، وهكذا توطد سلطان المرابطين في أقليم الولاحات، وعين ابن ياسين يوسف بن تاشفين والياً على سجلماسة، ولعبه يوسيف بن تاشفين أحسنت إلى الرعية واقتصر منهم على الزكاة (42).

وفي الوقت الذي كان ابن ياسين فيه في سجلماسة كانت قبيلة جدالة قد جمعت قواها وأرادت اغتيال الفرصة فعادت نحو يحيى بن عمر فحاصره في الجبل، وذلك سنة ثمان واربعين وهب في نحو ثلاثين ألفاً، وقاومة يحيى بن عمر جدالة، غير أنه عشاق فعل حيث قتل، وقتل معه بشر كثير (43).

وامام الوضع الجديد عين عبد الله بن ياسين أبا بكر بن عمر خلفاً لأخو به، وسعى للانتقام من جدالة بعد الخروج من الصحراة لقتال برغوة، تنفيذاً لوصية أبي عمران الخفجومي. ويرجع أن سجلماسة كانت الأحاسرة مؤقتة للمرابطين أو لتقيل لدولة المرابطين الناشئة فقد وصلنا ديناران ضربا في سجلماسة ويبنجل اسم الأمير أبا بكر بن عمر، وتاريخ الأول منها سنة 450 هـ والثاني 458 هـ، وتعرف مماجأة على الدينار أن الدولة الجديدة التي قامت الآن في سجلماسة أعلنت الولاء للخلافة العباسية في بغداد (44).

وزادت تعداد القوات المرابطية، ووجدت القيادة الموزعة مابين أبا بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين من الضرورة بمكان الخروج من الصحراة إلى الأراضي المغربية، وهكذا تورطت الحركة المرابطية في
حماية مداخله جميع الثورات والحركات الاصللاحية وسواها في الإسلام بتوجيه امكانياتها نحو داخل أرض الإسلام، وسقطت سلطانها على المسلمين، وقد برز بعض المسلمين الذين استقروا في تاريخ المراقبين، حيث أنجح فيما سترونيه بعد قليل انشطار القوات الدرعية، وعودة قسم كبير منها إلى الصحراء بقيادة أبي بكر بن عمر، ولكن أبابكر عاد لعاصفة دفاعية على البلاد، عن الصحراء ضد السودان، وليس للتوسع في بلادهم، ذلك أنه اتخذ من الصحراء مقرا له، ومن سجلماسة عاصمة، وقد تكرس هذا بعد بناء مدينة مراكش، وفي الصحراء مات أبو بكر بن عمر نفذه في سجلماسة ابن إبراهيم، فقد وصلنا من بناتير إبراهيم بنابور ضرب في سجلماسة سنة 622 هـ/1029 م (45).

وأذكر مسغات الخروج من الصحراء إلى المغرب القاتل ضد بني نافع وفرض برغواطة وبعض القوى المتطرفة الأخرى، وازالة الفوضى والظلم، وسيطرة على المناطق الساحلية لمزيد من التحكم بالتجارة الخارجية، وعمل باتخاذ قرار الخروج تعرض الصحراء للجفاف، روى التوضيبي عن ابن شداد قوله... في سنة خمسين وأربعين وأنحات وصلت بلاد الملحين، ومابو اشتيهم ولقوا شدة عظيمة، فامرأ عبد الله ضعفاءهم بالخروج إلى السوس الأقصى واجذ الزكاة، فخرجوا وقالوا: نحن مراقبون خرجنا اليوم من الصحراء نطلب حق الله من أموالكم، فجمعنا لهم شيئا لبال، فرجعوا إلى الصحراء ثم ضاقت الصحراء بالمراقبين لشوفها وكثيرهم، ففظروا أظهار كلمة الحق، فخرجوا إلى السوس الأقصى، فتسامعوا بهم أهل البلاد، فاجتمعوا وجيشهوا فخرجوا لقتالهم (46).

قد اصطدم المراقبون أولا ببعض قوات مصمودة، لكن هددهم كان اقليم تامسنا المغربي حيث وجدت دولة برغواطة، وبرغواطة بالأصل من قبائل المصادة، وقامت دولة برغواطة على أساس ديني مزيج بين بقايا الوثنية لما قبل الإسلام لدي البربر، وأفسكار الشيعة والخروج والرافضة والمغزلة، وقبل أسس الدولة صالح بن محمد، وكان طريف من موالي موسى بن نصير بعثه كما رأينا في بعثة

- 133 -
استطلاعية الى الأندلس قبل فتحها ، وقامت هذه الدولة على سواحل المغرب الأقصى وامتنت فيما بين نهري سلا ( قرب الرابط الحالية ) الى نهر أم الربيع ، وعاش منذ أواخر القرن الأول للهجرة حتى بعد تاريخ غزوه من قبل عبد الله بن ياسين ممارسة سياسة رعب في البر والبحر ، وقد كان القضاء عليها مطلباً بينياً وسياسياً ، لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين.

ومهما يكن من أمر سار الأمير أبو بكر بن عمر على رأس جيوش المرابطين وبرقته فقيهه عبد الله بن ياسين وخصائص الجويش المرابطية قتالاً قاسياً ضد برغوطية استمر حتى عام 516 هـ / 1120 م ، وفي أثناء القتال أصيب عبد الله بن ياسين بصابات مميتة توفي اثرها وقد دفنت بكر بفيلة ، ومازال قبره معروفاً في المملكة المغربية أقيم عليه ضريح كبير يزوره المغاربة.

وبعد وفاة عبد الله بن ياسين تابع المرابطون القتال حتى حققوا النصر ، ولذلك توجه أبو بكر عائداً مع جيوشه نحو الطرف الصحراوي فعسكر في مدينة أمزمات ، وكانت أكبر حواضر قبائل مصصودة ، وفي أمزمات نزوج أبو بكر من زينب النفرواوية ، وكانت امرأة جميلة ثرية ، ارملة لواحد من كبار التجار أو الأعيان ، لكن ابا بكر لم يقم طويلاً في أمزمات حيث وردت عليه الأخبار من داخل الصحراء بختيارات أمورها ، فاتخذ قراره بالعودة إلى الصحراوات وصوب مع شطراً من جيوشه، وقبل سفره عين مكانه يوسف بن تاشفين، وطلق زوجته فتزوجها يوسف ذلك انها كانت امrama حازمة لبيبة زينب وعقل وزجالة ومعرفة بالأمور، حتى كان يقول لها الساحرة، كان أبو بكر رجلا صالحا كثير الورع، فلم يستحل قتال المسلمين وسفك دمائهم، لذلك أثر العودة إلى الصحراوات، ليصلح احوالها ويفيده بها ليصالح الكفار من السدات، فلم يعم على الخروج إلى الصحراوات طلقة زوجته زينب وقال لها عند فراقه لها: يا زينب اتك ذات حسن وجمال فائق، وأنت لطيفة للفلكة لك على بلد الصحراء، وانتي مطلقة فإن تمت وعدك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين.
فهو خليفي على بلاد المغرب، وأخذ أبو بكر الطريق إلى سجلماسة، 
وبدأ أن الأمر لم تستم له فيها لسنوات طوال فقد قال البكري 
، وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمئة أبو بكر بن 
عمر، وأمرهم متناصر غير ملائم ومقامهم بالصحراء، (67).

إن مسألة تأسيس مدينة مراكش، ودور يوسف بن تاشفين -
الذي لم يذكره البكري - في إقامة الدولة المرابطية في المغربين الأقصى 
والوسط، ثم مد الحكم المرابطي إلى الأندلس هو ما استناءله في 
الفصل التالي، ولهله من المفيد أن نختتم هذا الفصل بالتعرف إلى 
نهائي أبي بكر بن عمر، حيث قيل إنه ملك في الصحراء حتى 
استقرت الأمور فيها، وهذا عرف بالنجاحات التي حققها يوسف بن 
تاشفين في المغرب، فقدم إلى مراكش وفي نفسه عزل يوسف، لكن 
ابن تاشفين اختط لأمر وأخذ بنصيحة زوجته زينب، مما أدى إلى 
نجاحه، فما كان من أبي بكر بعدما تسلم هدبا كثيرا من يوسف، 
وبعدها مات يوسف، أنه لينتقل عن عمله ما كان منه إلا أن سلم للأمر 
الواقف فالتيق يوسف وخطبه قائلا: يا يوسف إنك وليتك هذا 
الأمر، واني مسؤول عنه، فاترك الله في المسلمين واعتقني واعتق 
نفسك، ولاتضع ملك أمر رعيتك شيئا فانك مسؤول عنهم، والله 
تعالى يصلك ويمكنا ويفوقك العمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو 
خليفي عليك وعليهم، ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء، (68).

والسؤال الذي يواجهنا الآن متى حدث هذا؟ من الصعب 
الحصول على تاريخ متفق عليه، فقد ذكر ابن عذاري صاحب الحلل 
الوطني أن ذلك كان سنة 465 هـ، وإن أبي بكر عاش بعد عودته 
الي الصحراء ثلاث سنوات حيث قتل أثناء حروب ضد السودان، 
ولذلك أن أبي بكر عاد من الصحراء بعد سنة 460، لكن ليس 
سنة 465 هـ، ذلك أن زينب النغزاوية توفيت في سنة أربع وستين 
وبعدها، (69) ولم يذكر ابن خلدون سنة عودة أبي بكر لكنه متفق 
مع رواية روض القرطاس في أنه توفي سنة 480 هـ. وكذلك فعل 
لسان الدين بن الخطيب (70).
وقد نفترض أن زينب النفزاوية توفيت بعد سنة ٤٦٤ هـ، لكن هنالك مشكلة أخرى تتمثل في وصول دينار ذهبي ضرب في سجلماسة ٤٦٢ هـ جاء عليه فقط اسم الأمير إبراهيم بن أبي بكر (٤١) ومقدر أن في ذكر إبراهيم لاسمه وحده دون إضافة اسم أبيه، أن الأب كان في سنة ٤٦٢ هـ في عداد الأموات، فهل كان فعلاً؟ إن هذا ما أكده كل من ابن الأثير والنوريري نقلًا عن ابن شداد (٣٢).
الفصل الثالث

يوفس بن تاشفين وقيام دولة المرابطين بالغرب والجواز الأول إلى الأندلس

مر معنا من قبل أن البكري الذي كان يكتب عن المرابطين سـنة 46 هـ / 1678 م قد يعرف يوسف بن تاشفين، مع أن الرجل كان كما توثق المصادر الأخرى كان في العقد السادس مـن عمره. وكان من أبرز زعماء المرابطين، وجـاء لدى كل من صاحبي روضـة الفرات والحل الموشـية. ما يـفيد أن ابن تاشفين كان ابن عم أبي بكر بن عمر، ابن عمه لـحمة. يجتمع معه في حر لـحمه، والراحين بن نوـرقيت، والدـ كل من تاشفين وعـمر. لكن الرجل بـهـده الكـانه.

وـهـذا النـسب لـذا لم يـعرفه البكري.

والـثير للـانتباه أن الأدريسي عندما تحدث عن أهم قـناعات صـنية.

أوـحـي البني بـناي اـخر حول القرابة فيما بين ابن تاشفين والأحوين. فـي بـندرية. يقول الأدريسي: "ومن قناعات صنية.

بني منصور وتـمـة وجـنودية وـتـونية، وـبـنـة اـبـراهيم وـبـنـة تاشفين.

وـبـنـة محمد وـحـمـل من صـنيعة. "(1) فـجـل يـنـذر انحدر يوسف من بني تاشفين وانحدر أبو بـكر مع اخـيه من بـنـة اـبـراهيم. إذا صـبح.

هـذا فـيـفي تبين أن نوع القرابة التي ربطت يوسف بالآمـيرين اللذان.

تقدما.

وـترجـم ابن دـخـلكان في وفيات الأعيان لـيوفسـ بن تاشفين، وـاستقـل مـعلوماته من كتب حـمل اسم "المعراب عن سـيرة ملوك المغرب". لم يـهدد إلى مؤلفه غير اـنه وـد في مطلع النسـخة التي تـقـل عنـها أنها كتبت في الموصل سنة تسع وسبعين وخمسمائة وجـاء في.
هذه النسخة كانت بـ المفسارية الجنوبية لقبيلة تسمى زناتة، فخرج عليهم من جنوب المغرب من البلاد المسمى بـ السودان الملغمين يقدمهم أبو بكر بن عمر، وكان رحلا سانجا خير الطبع، ممثلا للبلاد على بلاد المغرب، غير مبال إلى الرفاهية، وكانت ولاية المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملغمين، فأخذ البلاد من أبديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط، فلما حصلت البلاد أنبى بكر بن عمر الذكور سمع أن عجوزا في بلاده دهبت لها ناقة في غداة فنكت وقالت: ضبعتنا أبو بكر بن عمر، فدخلته إلى بلاد المغرب، فجعله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رحلا من أصحابه أسمه يوسف بن تاشفين، ورجع إلى بلاده الجبودية، وكان يوسف هذا رجلا شجاعا عادلا مقداماً.

احظ مغرب مدينة مراكش،(2).

وكما قد سمعا عن يوسف بن تاشفين للمرة الأولى لدى توليتهم سلمانية ثم في الحملة ضد بركة تات، ولقد عاد مع أبي بكر بن عمر وعسكر معه في أغمات، وكانت حاضرة ديار قبائل مصمودة، ولم يعش أبو بكر بن عمر طويلًا في أغمات بل عاد نحو الصحراء، وحين فعل ذلك أوكا الأمور في بلاد المغرب إلى يوسف بن تاشفين حتى أنه طلق زوجته زينب النجراوية، وأوصها بالزواج من يوسف ففعلت.

لم يمحض قبائل مصمودة الولاة المرابطين، وكانت أغمات التي اتخذت الآن حاضرة لهم بلدة مذردة غير أن سكانها كانوا من مصمودة، وكانت منقسمة إلى بلدين: هما أغمات ورناوة وأغمات هيلانة، وكان أن تخلص أغمات المرابطين منها، وكلاهم عسكر لهم مهداً وأصبحت ها المهد للرسل الامامية، ولم يكن هذان مكننا، يقول الزهري:، والمسامية خلق كثير، مسيرة بسلاهم عشرون يوماً، وعندهم بالمغرب الكسب الكثير من بقر غنم، والزرع قليل، وأكثر فاكهةهم العنب والزيتون والتين ...
أما مدينة أغمات التي هي في أقصى هذا الصقع فهي مدينة موسومة بالقدم، وكانت حاضرة المصادمة، وبالقرب منها البركة العظيمة التي تجمع فيها مياه أغمات كلها، وهي كثيرة الفواكه والكروم والزرع والضرع، (3).

لذلك توجد على المرابطين اتخاذ حاضرة لهم خاصة بهم بدلاً من أغمات، فجرى استطلاع المنطقة في وقت الاستي بالكش. وبناءً على صاحب الجبل الموشية: "ما خرج - أبو بكر بن عمر - من الصحراء باللثميين، واحتلوا بأغمات وريكة، وكثر الخلق بها وضيّقاً على أهلها، وكانوا على حال صعبة، شكاً اشباً وريكة وهيلانة إلى الأمير أبي بكر بن عمر لما يلقحهم في ذلك مِن العذاب والمشرقة وأنوه إلى الهجرة بعد المرة، إلى أن قال لهم: عينوا لنا موضعًا ينبني فيه مدينة أساء الله.

فاجتمعوا على أن يكون بناها بين بلاد هليلانة وبين بلاد هزميرة. فعرفوا بذلك الأمير أبي بكر بن عمر. وقالوا له: قد نظرنا أيها الأمير موضعًا صحراء، رحب الساحة واسع الفناء يليق بمضد، وقالوا له: (وادي) نحب جنابها، بلاد دكالة فذائها وزمام جبل درن بيد أميرة، (4).

ولعل النقطة المهارة في هذا ليس تبيان الامكانيات الاقتصادية للموقع المرتاد وانما "زممام جبل درن" هذه مفتاح السيطرة على المنطقة وضمان التواصل مع الصحراء، ويسوّل موازاة صاحب الجبل الموشية أن بداية هذا المشروع جامعت سنة 46 هـ/1558 م. وذلك في ظل قيادة أبي بكر بن عمر، فهو كان موجودًا في أغمات، ويضيف صاحب الجبل أنه شرع في بناء المدينة الجديدة "سنه إثنتين وستين وأربعينات" وأنه بينما "الأمير أبو بكر ابن عمر قد نزل بها واخذ في بناء الديار، إذ وجد عليه رسول من قبلة لمتونة بالصحراء، يقوله أن جدالة اغتارت عليهم، وكانت بينهم فتنة دائمة، فاستلتف ابن عمه يوسف بن تاشفيق على المغرب، ودخل إلى الصحراء لاصرلاحهم وأخذ ثارهم من عدوهم، (5).
ولايس من السهل الركون إلى هذه الرواية والاعتماد على ما جاء
بها من تاريخ، فقد رأينا من قبل أن أبا بكر بن عمر عاد إلى
الصحراء للحرب ضد السودان وعلى جبهة السودان قضى ثم إن
دينار ابنه أبراهم وما ذكره ابن الأثير والنوربي قد دعا إلى
مرافقة الروايات المعطاة البينة وبعض المصادر حول تاريخ وفاته
ذلك أن المعتم دومًا هو الوثيقة لاسيما إذا دعمت بعض
الروايات، هذا وجعل صاحب روض القرآن تأريخ تأسيس
مراكش سنة 54 هـ/162 م (2).

ومهما يك من أمر بقي تاريخ مراكش مرتبط بيوسف بن تاشفين
لايقل أكثر من هذا إن تاريخ حكم المرابطين بالالمغرب ثم بالأندلس
مرتبة بشخصية يوسف بن تاشفين، وبعد يوسف عاشت دولة
المرابطين بداية النهاية.

وتجاء رسم اسم مراكش في المصادر المبكرة «مروكوس» أو ما
يشابه ذلك، وقد اختفى حول توالي هذه التسمية وتركبها وأدرج
الآراء الحديثة أن معتناها هو حميي الله أو المالك الذي ترقى فيه
عهود الله(7) أو المرعي فقط.

وبدأت المدينة الجديدة بدون تصور موحد أو خريطة، مما فعل
المصروب العباسي عندما بنى بغداد، واستخدم الناس في بناء دورهم
الأجر، إنه يبني اليوسف دار من الحجر (قصر الحجر) وعلى مقرية
منه شيد المسجد الجامع، وحول هذا المسجد قامت بعض الأسواق.
إذا يبدو أن هذه المدينة وإن حصرت بأسوار دفاعية تكونت
بالأصل من عدة أحواز كان كل منها أشبه بقرية متفردة، ومرد هذا
إلى أن كل عشيرة أو مجموعة بشرية متجانسة اتخذت لنفسها رقعة
من الأرض احتاجت عليها مساكنها، وحين قلت مجموعة بشرية
متجانسة هدفت إلى الاشارة إلى أن أعداد كبيرة من الأندلسين
سكنت المدينة، انتقل بعضهم من أغمات وقدم بعضهم الآخر بعدما
ما جذبته الدولة الجديدة، والهجرة من الأندلس إلى المغرب
تتصاعد وتيرتها بنتائج حرب الاستقلال والاضطراب السياسي في

- 140 -
ظل دول الطوائف، وفيما بعد بسبب اعتماد دولة المرابطين على خبرة الأندلس في جميع المجالات، وكان لهؤلاء الأندلسيين أعظم الآثار في تكوين شخصية المغرب الأقصى حضارية وعمرانية وثقافية.

ومن المرجح أن يوسف بن تاشفين لم يحسن العربية ولالقراءة والكتابة وأن الأندلسيين تعلموا بسرعة لغة اللشتونيين فقموا بدور الإداري والترجمة. جاء عبد ابن خلكان: "وكان يوسف بن تاشفين لاحر الرسول العربي، ولكن كان يجيد فهم القصائد وكان له كتاب يعرف اللغتين العربية والمرابطية، (8)."  

وسكن مراكش بعض الأندلسيين وسواهم من غير المسلمين. عملوا كمرتزقة في قوات المرابطين، (9) ويبدو أن الموقع الذي اختبر لبناء المدينة المرابطية الجديدة كان معرّفونا وقمع على طريق التجارة، وكان فيه وقت وقوع الاختبار عليه "قرية صغيرة في غابة من الشجر". (10) وفي الحقيقة لاعرف فيما إذا كان الأندلسيون قد شغفوا دوراً ما في خطط المدينة المرابطية الجديدة وتطويرها كما أطلق عندنا هذا العمل، والمعروف لدينا أنه بتأسيس مراكش امتلك المرابطون قاعدة انطلقت منها لبناء دولتهم المغربية. الأندلسية، وامتلك وقت نفسه لعرب الأقصى مدينة غدت مع الأيام قاعدة متقدمة للإسلام وحاضرة هي الأكبر والأهم في الشمال الأفريقي.

من مدينة مراكش انطلق يوسف بن تاشفين نحو بناء دولة المرابطين المغربية، وقد توجب عليه انتخاب معظم بلدان المغرب من قبيلة زناترة (11). لكن لم يكن بمكانه الانصراف ضد زنانة حتى يخلص من خطر برغواطة التي جمعت فلولها، وتولى أمرها امرأة عرف بأبي حفص عبد الله (12). وقام يوسف بن تاشفين أولاً بمراسلة برغواطة فيبعث بها بعض العلماء المالكي إلى بماد تاماسنا، واتفقت هذا الوفد مع رجالات برغواطة في مدينة إفغما (دار البيضاء حاليا) المطلة على المحيط الأطلسي، وقرر البرغواطيون "إعدام السفراء ونفي قرئهم"، وعبرعوا بذلك
جيشا قوامه خمسون ألف محارب قاصدين طرد قبيلة لتشونه من مراكش ومن المنطقة كلها، وعندما علم يوسف بذلك انتابه أشد غضب أنثابه في حياته، فجمع جيشا عظيما ولم ينتظر قدم العدو إلى مراكش، ووصل خلال ثلاثة أيام إلى الاقليم بعد أن عبر نهر أم الربيع، وعندما رأى أهل تامسنا هذا الجيش الزاحف لمواجهةهم بحزمة شديدة، أشتباحا الخوف وتجابوا المعركة وعبروا نهر أبي الرقراق في اتجاه فاس، تاركين اقليمهم، وحينئذ أباح الملك يوسف هذا الاقليم وسكانه لجيشه، فأصبح عدوه للدار والدم والنهب والتقتيل للكباد والصغار حتى الأطفال الرضع.

وفي خلال الأشهر الثمانية التي قضاها في البلاد عمل على تخريبها حتى لم يبق فيها سوى بعض أطلال من المدينة كانت قائمة فيها، أضاف إلى ذلك أن ملك فاس الذي بلغه نبأ قصد اهل تامسنا عبر نهر أبي الرقراق زاحفين باتجاه فاس، عقد هدنة مع قبائل زناتة، واجنح نحو النهر المذكور على رأس جيش لجب، وهناك واجه ملك تامسنا البأس الذي كانت قواته منهوبة القوى تماما بسبب الجوع والبوس، ولم حاول ملك تامسنا عبور النهر وجد الماء مسدودا في وجهه بتآثر قوات ملك فاس، وهكذا اضطر هؤلاء البوساء بعد أن أصبحوا ماثرين ويبطلوا من قضيتهم إلى التشتت في الغابات وبين الصخور التي يعسر اجتيازها، وبعد أن طوقوا وحاصروا من قبل الجيوش الملكية أعيدوا بشكلا طائر، فحلوا جماعيا في مياه النهر، ويبطلوا الأخر طوروا في مناطق الجروف الصخرية فقتلت أعدادهم بعد سقوطهم في الفراف، وعند الذين استطاعوا أن يخرجو من الماء سقطوا في أدي رجال الملك حيث قطعت رؤوسهم بالسيف، وهكذا راح سكان تامسنا يتناقصون ثم أبدوا قاطبة في مدة عشرة أشهر، وقدر أن عدد الصباحا بلغ الليون بين رجال ونساء وأطفال.

وعاد يوسف ملك لكونه إلى مراكش كي يعيد تنظيم جيشه ضد ملك فاس وترك تامسنا ماوى للأسود والدبب والبوم. 

(12)
وذكرنا قبل قليل ما نقله ليون الإفريقي من أن يوسف بن تاشفين
عاد إلى مراكش بعد القضاء على برغواطة في عهد الناصرة، بـ ٤٧٧ هـ. أو أن التأسيس
الذي استولى فيه يوسف على فاس يأت في مكة نهائياً، وأيده بهذه
الرواية صاحب الحلال الموشي (٤٥) ويعني هذا أن الحكم على
برغواطة انتهى قبل هذا التاريخ بوقت قريب، لكن يضاف بعد هذه
الرواية ما ذكره البكري الذي كان يكتب سنة ٤٩٠ هـ: إن جميع
برغواطة اليوم على ملة الإسلام (٤٦) هذا وروى صاحب روض
القرطاس أن الاستيلاء النهائي ليوسف بن تاشفين على مدينة فاس
كان يوم الخميس الثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين
واربعمئة (٦٦) (١٨ أيار ١٠٠٧ م) وكانت عمليات يوسف ضد
فاس قد لا بعدتمنذ سنة ٤٥٤ هـ (١٠٤٣ م)، وارجح أن ابن تاشفين اندثر منذ هذه السنة بحكم
المغرب، وأنه في هذه السنة عاد إلى مراكش من الصحراء أبو بك
ابن عمر ناوبا عزل يوسف فأخفف وسلم له بالأمر ومن ثم عاد إلى
الصحراء، يقول صاحب روض القرطاس في سنة أربع وخمسين: «تقوى أمير يوسف بن تاشفين بالغرب وكير صبته»، وفيها أشرى
موضع تأسيس مدينة مراكش من كان يملكه من السيرة، فسكن
الموضع بخيام الشعر، وبنى فيه مسجداً للصلاة وقصيدة صغيرة
لاحتران أموله وسلاحة، وفي سنة أربع وخمسين المذكورة جند
يوسف الأجانب واستكرر القوانع، وفتح كثيراً من البلاد، واتخذ
كثيراً من الطوب والبنود، وأخرج العمال وكتب العهد، وجعل في
جيشه الأغواز والرماة، كل ذلك أرهاباً لقبروات المغرب، فكم له من
الجيش في تلك السنة أزيد من مائة ألف فارس» (٦٧).

وأعطانا صاحب الحلال الموشي مزيداً من التفاصيل حول تطوير
يوسف بن تاشفين لقراراته العسكرية حتى قوي أمره، ونظم شوكة، فاشترى جملة من عبيد السودان، وبعث إلى الأندلس
فارشترى منها جملة من العلوج فأركبهم، وأنهى عندهم هجائه عنان.
وحسين فارسًا ، شراة بما له ، ومن العبيد نحو ألفين ، فاركبهم فرسانًا ، ففظح حجابه ، وعظم ملكه (٨٣).

ولا شك أن شعور يوسف بالخطر على ذاته قد دفعه لشراء أعداد كبيرة من الرقيق الأبيض والأسود اتخذهم حرسًا له ، ومقرر أن مصدر الخطر على يوسف كان أبو بكر بن عمر فهو صاحب عصبية لمثوبة والمرابطين.

وبهذه القوة دفع يوسف بن تاشفين خطر أبي بكر بن عمر ثم دفع أيضًا بسهولة أكثر خطر إبراهيم بن أبي بكر بن عمر الذي قدم من الصحراء بعد وفاة والده ، يطلب ملك أبيه فنزل بخارج أعماق في خلق كثير من آذائه لمثوبة ، فسمع بذلك أمير المسلمين ، فبعث إليه الأمير مزندلي فقال ، ما الذي تريد يا إبراهيم؟ قال ، أطلب ملك أبي الذي غصنا فيه عمي يوسف ، قال مزندلي : إن الملك بيده الله يتزليه من يشاء ، والله تعالى قد خص هذا الرجل بالملك دوتنا ، فان كنت عاقلا فأطلب منه أن يعيتك بمال وخيل ترجع بها إلى بلدك ، وإن طبت غير هذا أخفت ان يجعل على رجلك فيها ، ويهبسك عنده عبدا ، وما قلت لك ذلك إلا بوجه الشفقة عليك ، فقال له : يا عمسي مزندلي رضي الله عنك ، عسى أن تجتمع معه في أمري وتبين له حالي.

وكان الأمير مزندلي حسن السياسة ، صحيح المذهب ، عارفًا بخديمة الملوك ، فهدى إبراهيم المذكور ، وقال له أتم في موضوعك حتى ابتلك بكل ما يرضيك ، فانصرف عنه ووصل إلى الأمير يوسف بن تاشفين فحسن كلامه إليه ، وانعم الأمير يوسف عليه مال وخيل وكس وغير ذلك بعدما بولغ في كرامته وضيافته ، واحترم له ذلك مزندلي ، فشتكه الولد على ذلك وانصرف عنه من هناك ولم يجتمع بالامير يوسف وما راه وانصرف إلى الصحراء وبقي بها إلى أن مات (١٢٧).

وتعود ثانية إلى مسألة استيلاء يوسف بن تاشفين على
فاس، ذلك أن هذا الاستياء هو الذي جعل دولة المرابطين دولة مغربية. فقد كانت فاس دوما حاضرة الغرب الأقصى من كافة الجوانب وكانت أحوالها مضطربة قبل الاستياء عليها، ولقد رأينا أن اضطراب الأحوال فيها كان وراء مغادرة أبي عثمان الفاسي لها. وكانت فاس تتالف من مدينة اسمها: عرونتي الأندلسية والقرويين، لكل مدينة أسوارها ومحورها المعادي من الأخرى، وقد حكمنا قبل استياء يوسف بن تآشين عليها من قبل القريب، هما: الفتوح بين دوناس وعجيسة بين دوناس اللذان اتماما إلى قبيلة زناتة، وتحصين الفتوح في عدوان الأندلسيين وعجيسة في عدوان القرويين، وكانت بين الأخونين عداوة وصار القتال بينهما وبين اهل العدوتين، وكثير الهرج بسبب ذلك في أرض المغرب وانتشر الغلاء إلى أن ظهر أمر لم أتو في أطراف المغرب، وظهر الفتوح بأخيه العجيسة، فقتله وجد أن ظفر بأخيه أتمارا لم يفسدك علىه وحاصروه، وتخلي عن المدينة فولها برقصه ابن عمه، إلى أن دخلها متوحنا ركث من بها من زناتة؟ (30).

وبعد استياء يوسف على فاس، أمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاسة بين المدينة، عدوان القرويين وعدها الأندلسيون، وردهما مصرا وحدا، وأمر بينان المساجد في أحوازها وازتتها وشوارعها، وأي رقاق لم يجد فيه مسجدًا عابد أهل وأجبرهم على بناء مسجد فيه، وبنى الحمامات والفنادق والأرحام، وأصلح أسواسها وهدف بناءها. (31).

وبعد استياء يوسف بن تآشين على مدينة فاس شعر أن عليه إكمال مسلطانه في مختلف الاتجاهات، وهكذا سيطر على تلمسان وعلى مناطق أخرى من الغربين الأوسط والاقليم، وكان بعد الاستياء على إقليم تماسنًا قد تمك شواطى المغرب الأقصى الأطلسي، فالفت نحو الشواطئ المتوسطية فانغزع ملكية طنجية، وسبيثة، وشرع يتخذه لنفسه أسطولا خاصا. (32).

والأي وفد عدد يوسف بن تآشين سلطان دولة واسعة الأرجاء
بحث عن مجالات جديدة للتوسع، وعن لقب يليقه به وعن الشرعية

كانت هناك مجال واحد أمام يوسف للتوسع هو الأندلس. وكان ذلك
عملًا مسرحًا ومرغوًا به. ولقد كان التوسع باتجاه الغرب الأوسط
مغامرة غير محمودة العواقب، وكانت العودة إلى الصحراوات غير
واردة. وتوجž على يوسف إصلاح قواته الفقيرة في جبهة فيها جهد
وناقص، وكان مثل هذا ما واجهه قادة السلاجقة بعد الاستيلاء على
خراسان، وإيقاف رجال القبائل الصحراوية وسواها عن الأعمال
العسكرية المربحة. كان أمرا ليفض يوسف تحمله. ولعله مثل مثل
رجالاته من قادة المرابطين رأى من واجبه الجهاد في سبيل الله.
وتوفر هذا فقط في جبهة الأندلس. مثلا رأينا قائد التركمان
فقط في الأراضي البيزنطية بعد الاستيلاء على ديار المسلمين في
الشام والجزيرة والعراق وخاراسان.

وقد كانت بلاد الأندلس بجهاتها موجودة تماماً لمقاصد يوسف
والمرابطين. وكما فعل بدء التركمان حين حاربوا في الشام والعراق
والجزيرة حاربوا ضد الهرطقة، وحين قاتلوا بيزنطة كان ذلك في
 سبيل الله. ودار عيش ونهر وسكن في المستقبل. والشيء نفسه في
الأندلس، كان القتال في الداخل قتالاً ضد حكام كله فساد وتقشير
وظلم وفرقة وفترة واضطهاد، والقتال ضد النصارى كان جهاداً في
 سبيل الله.

ولهذا زاد يوسف من الاعتماد على العناصر الأندلسية في إدارته.
ولم يكشف بذلك بل إنه اشتري بعض النصارى وجعل منهم مرتزقة
في قواته كما استورد السلاح من الأندلس وأوروبا وخاصة المسوب.
وبدو أن حكام الأندلس من ملك الطوائف كانوا يرغبون بقلق ما
كان يجري على أرض المغرب. وربما من قبل أن أفضل المعلومات
عن حركة المرابطين حتى سنة 460 هـ تلك التي دونها الأمير
الأندلسي أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والمسالك، والبكري لم

- 146 -
يرحل إلى المغرب بل استقى معلوماته مما وصل من المغرب إلى الأندلس.

جاء في ترجمة يوسف بن تاسفين لدى ابن خلكان أن كتبه:
قال: "له أغى المالك هذا الكتاب من ملك الأندلس يعظمونه فيه،
ويعرفون أنهم أهل دعوتهم وتحت طاعته، ويلتمسون منك أن
إتبعوه في منزلة الأعداء فإنهم مسلمون، وهم من ذوي البورض.
فلا تغير عليهم وكمي بهم من وراءهم من الأعداء الكفار، وبلدهم
ضيق لا يتحتم المساكر، فأعرض عنهم إعراضك عن أطاعك من
أهل المغرب."

وتناول يوسف مع كابنه حول طرح الجواب الذي سيستعيد به فجاء
حسباً يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم - مسن يوسف بن
تاسفين: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحلية من سالكم وسلام
إليكم، وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم، وإنكم بما بابيديكم
من الملك في أوسع إباحة، مخصوصون منا باكرم إيثار وسماحة،
فاستدعوا وفافنا بوفانكم، واستصلوا إخاننا بإصلاح إخانكم،
والله ولي التوفيق لنا وكم، والسلام (33)."

وهام التمنه في الفقرة الأخيرة من إجابة يوسف خاصة قوله
، فاستدعوا وفافنا بوفانكم.

فهنا تهديد منطقين ونذار، ولم يرد في الرسالة أدنى وعهد بعدم
التدخل في أخاء الملك، لكن المسألة أرتبطت بالفرصة المناسبة
وباستكمال الاعدادات البرية والبحرية.

وطور يوسف إدارة دولته الناشئة وضرب نقوده، وكتب إلى
أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زنانة، واصماد، ومغارة وسائر
قبائل البربر فقدموا عليه وبابيته، ففسكنا جميعهم ووصلهم
بالأموال، ثم خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب ويتقدم.
ahkan يوسف بن تاشفين حتى الآن بدعو بالأمير، فلمًا ضمت ملكته واتسعت عمالته اجتمع إليه اشخاص قبيلته، وأعيان دولته، وقالوا له: أنت خليفة الله في هذا المغرب، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين، فقال لهم: حاشياً لله أن ننتمي بهذا الأسم، إنما ننتمي به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، لأنهم ملوك الحرميين مكة والمدينة، وانا رجلهم، والقائم بدعوتهم، فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز به، وبعدما أجاب إلى أمير المسلمين وناصر الدين، خطبه له بذلك على المنابر، وخوطبه من العدوتين، وأمر كتابه أن يكتبوا عنه في ذلك (25).

وبات على يوسف بن تاشفين الآن الاتصال بالخلافة العباسية في بغداد والحصول منها على تفويض له بحكم المغرب، وأعتراف بشريته سلطانه، وكان كاتب الخلافة أثناء ابن موسلايا، وهكذا نسخة خطبة من رسائل هذا الكاتب في تونس لم استطع الوصول عليها، لكن أخبرت أنها تحتوي على نصوص الملاسات مع يوسف بن تاشفين.

واعرف أيضاً أن ابن تاشفين قام في مرحلة لاحقة بارسال بعثة إلى بغداد تقدم بها أبو بكر بن العسري، الفقيه المشهور وصاحب العديد من المصنفات من بينها العواصم من القواصم، مع أبيه، وأوعد أبو بكر بعض الأخبار ما حدثه في الشرق في مولفاته لاسيما في كتابه العواصم، وكتب كتاباً مفردًا عن رحلته، عثر على أجزاء منه ونشرته، وكتبت قد رأت في فأس نسخة كاملة من هذه الرحلة نسخت بخط رديء في عدة دفاتر، قبل لي وقتها أنها نسخت عن نسخة خطية محفوظة في مكتبة الزاوية العباسية قرب فاس.

وطبعاً حصل يوسف بن تاشفين على الاعتراف العباسي المطلوب.
وقيل إن اخباره ارضت كبار الفقهاء في العراق وخاصة الإمام الغزالي حتى روي أن مراسلات تم بين الغزالي ويوسف، وذلك على الرغم من أن المرابطين عارضوا نشر كتاب إحياء علوم الدين للغزالي إلى حد أنهم أخوا باحراق نسخه.

ومن الواضح أن جميع ما عرضناه حتى الآن عن التأريخ المرابطي كان الهدف منه التوطئة للحديث عن دخول المرابطين إلى الأندلس وما نجم عن ذلك من نتائج في توحيد الأندلس، ودفع خطر السقوط عنها، وجعلها ولاية مغربية الأمر الذي نجم عنه نتائج خطيرة على صعيد الشمال الأفريقي والأندلس معًا وعلى صعيد علاقات الغرب الإسلامي بأوروبا الغربية.
لم تكن الاستعانة الأندلسية بقبائل البربر المغربية هي الأولى من نوعها، فبصرف النظر عن المشاركة البربرية الفعالة في فتح الأندلس استمر تدفق البربر على هذه البلاد، وازداد ذلك في القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد إثر الصراع بين قبائلة ومهدية، واحتلال القوات الأندلسية لجزء هام من أراضي المغرب الأقصي.

لقد حدث التدخل الأندلسي في أيام الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر، واستمر أيام ابنه الحكم، وشهدت الأندلس بعد وفاة الحكم تطورات سياسية خطيرة جدا تمثلت في استيلاء المتصور العامري على السلطة وحجزه على الخليفة هشام بن الحكم.

والمنصور العامري هو محمد بن عبد الله بن عمار بن أبي عامر، ينتمي إلى قبيلة مافر الحميرية اليمنية، وأمه سيدة إسلاها من قبيلة تيم وأسماها بريدة، وقد ولد سنة 328 هـ / 940 م في قرية طرش، موطنه إجداده الذين نشأوا الأندلس في أيام فتحها، وقد نشأ منذ صغره متلمذ الناسبة اهتم بثقافته وعلومه، ثم واجه أولا حياة أثرت قاصية لكن طموحه دفع به نحو ارتقاء المناصب ليكون سيد الأندلس بلا منازع (62).

التحق محمد بن أبي عامر بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس ودار خلافتها، وكان الخليفة وقتها الحكم بن عبد الرحمن، وكان هذا الخليفة قد تسلل الخلافة بعدما تقدم به السن، ولم يحظى بولد إلا بعد امتد طويل، وأتجه لولد السيدة صبحي وكانت من أصل بشكسي، وحمل هذا الولد اسم عبد الرحمن ثم أتجه له هشام الذي سيكون آخر خلفاء بني أمية في الأندلس.

لم تطل الاقامة بابن أبي عامر في قرطبة حتى التحق بخدمة السيدة صبحي ليشرف على إدارة أملاكها مم مسلاك ولي
العهد، وحظي ابن عامر بإعجاب السيدة صبح وأسعده. وأدخل السرور على حياتها، وكان كريماً ملائماً، وقد تهبت إمامه السبيل ليترقى بالمناصب فاستلم ادارة السكة(27) ثم ما لبث أن تولى وظائف أخرى منها رئاسة الشرطة الوسطى، وذلك عرض جاهز.

وتوثقت صلاته بالوزير الأول الصحفي وغديره.(28).

وفي سنة 359 هـ/ 970 م توفي الأمير الصغير عبد الرحمن، فأسند ابن عامر إدارة أملاك أخيه هشام المؤيد، وفي هذه الأثناء كلف ابن عامر من قبل الخليفة الحكم بالذهاب إلى المغرب لمراقبة وقد برز كبار من زناتة على رأسهم يحيى بن علي بن حمدون، وبذلك تعرف ابن عامر للمرة الأولى من حياته على قبائل المغرب الأقصى وكسب خبرة بشأن الصراع والجيوش وقامت علاقات بينه وبين القادة غالب، الذي كان مارس الاندلاع وأعلى العسكريين فيها شاناً.(29).

وبعد الأيام شعر الحكم باعباء تقدمه بالسن ويثبت المرض، فآثر ابنه هشام ما يزال طفلاً سعده، ومع هذا أثر الحكم هواد في محبة ابنه فسماه في سنة 365 هـ/ 975 م ولباً لعهده، مع أنه كان بإمكانه تسمية واحد من اله في الأهلية، وتسمية هشام ولياً لعهد هذا المسام.(30).

وستفاد ابن أبي عامر من بيعة هشام بولاة العهد نظراً لعلاقاته الوثيقة به ولياه، وتعاون ابن أبي عامر مع الوزير جعفر بن عثمان الصحفي، وفي سنة 266 هـ/ 876 م توفي الخليفة الحكم، وكتب نبأ وفاته، وحاول كرسيراً من قبل غلامه القصر من الصقلاة خلع هشام وعدم بيعته، ورد الأمير إلى الأمير المغيرة بن عبد الرحمن أخو الحكم(31) ولم تفلح خطة الصقلاية، وتعاون الصحفي مع ابن أبي عامر على تصفية قوى الصقلاية الذين تحكموا بالدولة وذلك بعدما تمت بيعة هشام وقتل الأمير المغيرة.

وبعد هذا سعي ابن أبي عامر إلى التخلص من الوزير الصحفي فتحالف مع القائد غالب وصاهره، وشارك في عدة عمليات عسكرية
 ضد الدول الأسبانية في الشمال، وفي سنة 367 هـ/ 978 م صرف الصحافي عن عمله، وأودع السجن مع أهلته (33) وظل يعاني من المكابرة حتى توفي مسجوناً.

وطبعت عندما عزل الصحافي حل محلة ابن أبي عامر، فعمل في سبيل تقوية سلطانه والخلاص من كل نوع من أنواع المعارضة بمعتقل الوسائل من قمع وشراء للدمم ومؤامرات، واستحوذ على رضي الفقهاء والقضاة إما بكل صعوبة، ولم يبق أمامه غير القائد غالب واحتاج التخلص منه إلى جهد كبير واستعدادات خاصة.

قام ابن عامر أولا بالحجر على الخليفة، وعزل دار الخلافة في مدينة الزهراء - كما، وأين لنفسه مدينتة سماها الزهراء - وله إليه من قبل محمد بنadin الرضا، وهو لقب له مضمون مهذبة وبيضاة، ولم يبق عليه سوى التقلب بإمرة المؤمنين والخلافة، لكنه لم يقدم على هذه الخطوة لمخالف ذلك أديان، إنما مهد ذلك سبيل، وفي خط سابقة الانتزاز على السلطة ومن ثم تمزيق الأندلس.

لقد كان ابن أبي عامر مجاها من الدرجة المثلى قد أكثر من خمسين حملة ضد الدول الأسبانية في الشمال، وهم قوى هذين الدول وجعل ملوكيه ينقضون إليه، غير أنه لم يقض على أي منها، وتمتاع مع أكثر من ذلك من ملوكيه، وهكذا، معي ظهر بوادر الضعف على الأندلس وتمزقها أنقض هؤلاء الملوك عليها، وقذاها حملات مدمرة ضدها.

واهتم عدد من الباحثين بالحياة العسكرية الجهادية لأبي عامر، ويرى أن ابن حيان - مؤرخ الأندلس الكبير - أوقف كتابا خاصا على أخبار حملات ابن أبي عامر، وهذا الكتاب بحكم المفقود، ويعتبره مختل في تاريخي مجهول المؤلف اسمه نذر بلاد الأندلس إثر المؤلف على أخبار حملات ابن أبي عامر جميعها لكن بشيء من الاختصار.

وتعود الآن نحو مسألة تصفية ابن أبي عامر للقائد غالب، لقد
فعل هذا بفضل امتلاكه لقوات عسكرية خاصة به جندها وأشرف
على تسليحها وقادها في حملاته، وجاءت عناصر هذه القوات من
المغرب الأقصى خاصة من قبيلة زناته، ووصلت إلى الأندلس على
شكل قبائل وأفراد حتى بلغ تعدادهم الآلاف، وتعلق المغربة بـأبي
عمر لكرمه ولشدة اهتمامه بهم (33).

وهمام جداً مسألة اعتياد الأندلسيين على التقويم المناسبة
والاستعانة بهم، لا بل إنهم لم يبتكر أن السيرة صحٍ وقد
ضاقت بأعمال ابن أبي عامر لها وإنصرفها عنها، فبحثت عن
شخصية تستعين بها للتخلص من ابن أبي عامر، فوقع اختيارها
على زيري بن عطية المغراوي الخزري أول ملوك زناته بالمغرب
الأقصى، فاتصلت به وعملت على أرسل الأموال ليأتي إلى الأندلس
لراحة ابن أبي عامر، لكن هذه المؤامرة كشفها أبن أبي بكر
عامر، وارسل بالقوات إلى المغرب الأقصى فتمكنت من انسلاخ هزيمة
ساحقة زيري بن عطية (34).

وكان القائد غالب قد ضاقت بتصرافات ابن أبي عامر، خاصة
تجننده لرجالات قبائل زناته، فتحوله مع ملوك الشمال مـن
الاسبان، لا بل هم يقتل ابن أبي عامر ببميه، وجرحه في وجهه
وابناء بعض أتباعه، ونجا منه ابن أبي عامر، وأخذ بجمع قواته
وفي 713 هـ / 981 م نازله وقامت معركة شديدة بين الطرفين
وأتت عن مقتل غالب وتمزق قواته (35).

وهوذاً جداً ابن أبي عامر سيد الأندلس بلا منازع، غير أنه ظل
عرضة للمؤامرات حتى أن ابنه عبد الله تامر عليه، فاعتقله وأعدمه.
(36) ولا شك أن المنصور بن أبي عامر قد حقق كل ما طمح إليه وأمن
الحماية والمنعة للأندلس، لكنه جاء في وقت كان المجتمع الأندلسي قد
قطع فيه مراحل واسعة نحو الوحدة والثورة والإكتفاء
الذاتي، وكانت طاقات أهل البلاد العسكرية كافية، غير أن
المنصور أبعد الأندلسيين عن الميدان العسكري واستقطب العرب من
الديوان وأقتصر بالاعتماد على القبائل البربرية من زناته بشكل
ولا تُزعم أن قبائل الأندلس بسِباعية البربر، وأُخِذت بهم أولئك الأعلام الأكبر، فإنه قوامهم بأضدادهم واستكرار من أعداءهم حتى تغلبوا على الجمهور، وسُلوا عنهم الظهور، وروثوا عليهم الوضوء المشوير، الذي أعاد أكثر الأندلس قفراً يبَّانى، وملاها وحسناً ونُظَّابى، وأعراها من الأمان.

وحدث الأمير عبد الله آخر ملك بنى زيري في غرناطة وهو الذي عزله يوسف بن تاشفين... كما سُلِّم معنا... تحدث في ذكرائه عن المنصور بن أبي عامر وسياسته العسكرية ونتائجها بقوله:... وتوقع المنصور من أجناده الاتفاق على بعض ما يحل بهدله، إذا كانوا صنفاً واحداً وتآليهم على معصية أمره، مثلي امرأء بقايا أوروب وكهروا، فنظر من ذلك بعض اليقظة، وسول له راهى أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتاً متفرقًا، إنهم أحد الطوانف بخرج عن الطاعة عليها بسائر الأفائد، مع اجتماعه إلى تقوية عسكره، والزيادة فيه بم يسبطبع على تخليل بلاد العدو وتدويذها مثى شاء، فاستجلب رؤساء البربر وحمايتها، وإنجادها من بلغه فروسيته وشته، وتسامس الناس بالجهاد، فبادر الية من شرق العدو ومن كان لهم من الآثار والكارم والباس على النصاريا ما لاحظه به، وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو، وهم كانوا عدده في الجيش، والموثق بهم عند اللقا، ومعتركون وغابا...

فولب ابن أبي عامر الرتب، وأظهر هيبة الخلافة، وقع الشرك، وغض المسلمين عامة على الفزؤ، فنجى عن ذلك روع الأندلس، وشكا لهم ضعفهم عن الراقة، وشغفلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم، ولم يكن القوم اهل حرب، فقاطعوا على أن يشغلفوا بعمارة أرضهم، ويهتطوا من موالهم كل عام ما يقيم به من الإجتاهد، من يكفيهم ذلك على اتفاق ورضى منهم، فضرب عليهم الأقطاع، وحصل في الدواوين جميع موال الناس، وكسروا عليهم، وفرض بينهم مالاً يترقى منه الجيش، فبقيت تلك الاقطاع عليهم إلى أن
عمت الأندلس عدة الثورات، واتبعوه على تلك الآثار، ودابه في ذلك
إذنا كان على ما وصفناه....
فلما تمت الدولة الام粱ية، وبقي الناس لا أمام لهم، ثار كل قائد
بمدينته، وتحصن في حصنه بعد تقدمة النظر لنفسه، واستعده
العساكر، وإدخاله الاموال، فتنافسوا على الدنيا، وطمعل كل واحد
في الآخر، وكذلك لا يصبح أمر بين نفسين، فكيف سلاطين كثيرة
وأهواه مختلفة(38).

على هذا إن التدخل الاملى في شؤون المغرب الأقصى، قد مهد
السبيل لتحويل الأندلس إلى ولاية مغربية، وهكذا صار كالم تغير
الوضع السياسي في المغرب تغير بالأندلس، ففي أيام زانته وحكمها
للمغرب، تحكم الزناتيون بالأندلس، وعندما قامت دولة لتونة
ازاحت زناته عن حكم المغرب، فكان بالنتالي أن التأمور في
الأندلس إلى مثونة، وبعد اندلاع المهدى بن تومرت وخلفته من
بعده الفضياء على لتونة ودولة الريانيين بوساطة قبيلة مصمودة فما
لبث الأندلس أن غدت ولاية موحدية حكماها من مصمودة، وبعد
زوال ملك مصمودة وحلول المرينيين في ملك المغرب الأقصى، تغير
الحالة في الأندلس مرة، وظلت الأمور تسبر على هذا النموذج حتى
سقوط غرناطة وطرد العرب من الأندلس.

صحيح رأينا من قبل أن عهد الرحمم الداخل عزل الأندلس
سياسيًا عن بقية دار الإسلام، وجعلها تحمل بطاقاتها لوحدها
مواجهة قوى أوروبا الصليبية، غير أن عهد الرحمم واجهد شرعية
استقطب اهل الأندلس حولها بدلاً من العصبية القبلية والصراعات
العرقية، وفي أيام عبد الرحيم الثالث تحوّلت الشرعية إلى خلفية
وتسارعت التحولات وعمقت فجاء المصير بن أبي عمرو فاويقها
وجلب المرتزقة البربر إلى البلاد، وبد غئ الشرعية، لذلك ما ان
زالت الدولة الاملى كما قال الأمير عبد الله: وبقي الناس بلا
أمام لهم، ثار كل قائد بمدينته وتحصن في حصنه بعد تقدمة النظر
لنفسه، وأتخاذ العساكر، وإدخاله الاموال، فتنافسوا على الدنيا.
وطبع كل واحد في الآخر، وكذلك لا يصبح أمر بين نفسيين، فكيف سلأتم كثيرة وأهواء مختلفة «(3)».

وإنه لأمر مثير ان نقرأ مقدمات سقوط الأندلس في سيرة أعظم حكام الأندلس وارشذهم نكالة في العدو، واكثرهم حنكة ودهاء: إنها حقائق التاريخ، وغالبا ما كانت الحقائق مرة المذاق، والفسار الكبير بين عبادة البطل بعين غير مبصري وبين بصيرة التاريخ: ومهمها يلك من أمر واجه المنصور بن أبي عامر منتهيه سنة ٢٩٢ هـ - ١٣٨٩ م وهو عائد من حملة جهادية في الشمال، وتوفى في مدينة سالم، وكان قد اتخذ لنفسه الاكتفان من رقق كله خلال وجمع ما تعلق بثوبه من غبار في مغازي، واستدعى وهو على فراش الموت ابنه عبد الملك فأصبح ونصحه وإرسله ارسال مقاليد الأمور في قرطبة، وقرر أن يكون ابنه الآخر عبد الرحمن وليا لعهد أخيه، ثم استدعى قادرة جنده وغالبته فوهم واوسعها، وقد توفي في ٣٧ رمضان ٢٩٢ هـ - ١١ آب ١٣٨٩ م، وكان يوم توفي ابنه خمس وستين سنة وعشرة أشهر... فكانت سنة قيامه بالدولة منذ تقلد الحجاجة إلى أن توفي خمسة وعشرين سنة وأربعة وأربعين يوما، وترك من الأموال الناشئة بالزاهرة أربعة وخمسين بيتاً، وكان عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها، الذين حارب بهم الحروب عشرة آلاف وخمسمائة، واجناد الشتار قربا من ذلك ٤٠، وتسليم السلطة عبد الملك بن المنصور، وحمل لقب الظفر بالله، وقد نمى إلى الخليفة المؤيد وفاة أبيه واخباره، وتسببه تدبير الدولة مكانه، فاقترح الخليفة وساعده على النجاح بعمله وخلع عليه وكتب له عهدًا بولايته، فاستوسق له الأمر، ولم يرد أحد طاعة واجتمع الناس على حبه «(4)».

ولم يكن عبد الملك مثل أبيه لغيبة، النبيذ عليه واستفراقه في ذاته (40).

ومع هذا تابع الخطط الجهادية لأبيه، ويتبع حفظ الأندلس للتفوق العسكري والسياسي، واستمر ورد الزعماء من زناتة على الأندلس وظهر بوادر الضعف على الكيان العثماني، وعشر عبد الملك
لا أكثر من أزمة، وهكذا لم تطل مدة وقد توفي في السنة السابعة حكمه، وقيل إنه مات مسموماً. وقيل إنه مات من علة الجحثة. سنة تسع وتسعين وثلاثمائة (43) (1009).

واستحوز على الملك أكثر وفاة عبد الملك أخوه عبد الرحمن، وكان لقبه شنجول، وكانت أمه شنجول ابنة شنجة (ساسانغارسبي الثاني) ملك بنبلونة، ومن اسم شنجة نال عبد الرحمن لقبه ذلك لأنه كان أشبه الناس بجدته (44) وحصل عبد الرحمن من الخليفة هشام على التقليد بولاية الحجاب والانفراد بالسلطة، وتلقب للحين بالناصر ثم بالمأمون، فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة، فنظر في الأمور نظراً غير سديد، وأنفق الأموال في غير وجهته، واعن على كثير من الناس، ويسرب يده عليهم وأخذ أموالهم، ونسب اليهم أباطيل من القول والفعال حتى قلق الناس به، وابغضوه في الله، وابتغوا لله تعالى في الدعاء عليه (45).

وبعد مضي شهر ونصف الشهر على وليته طلب من الخليفة هشام، أن يوليه العهد من بعده وأن ينصبه بولي عهد المسلمين، ففعل ذلك هشام معه وسلمه وسوء نظره ونقصان فطنه، فولاه عهده، فكان سبب انحراف أكثراً للاندساس عن عبد الرحمن متابين لهم من سخف عقله، وسرعته إلى نقل الملكة عن خلفائها إليه (46).

من الصعب القول أن عبد الرحمن طمع أن يتملك الاندساس ليجمع حوله بحكم نسبه المسلمين والنصارى، حيث يبدو أنه كان غير متوازن فيه فسولته وبدون مؤهلات قيادية أو عزيمة جهادية، وكان أقرب إلى الخلاعة والمنجاة ياعاصر. رجال الشراب والغنياء والضحك، والتنفيسية وشارك معه الخليفة هشام في بعض هذه النشاطات، وأغضبت تصريحات عبد الرحمن الناس جميعاً خاصة رجال الدولة لاتهم عرضهم للمهانات حتى أنه امرهم بتغيير ازيائهم وشاراتهم، وانهموا.

وفي سنة 399هـ 1009 م تår في فرطنة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقب نفسه بالمهدي، فخلع الخليفة
هشام واستولى على الأموال، وكان عبد الرحمن بن المنصور العلّامي غانبًا في الشمال، وعندما وصلت الأخبار قرر العودة إلى قرطبة وفي الطريق تخلى عنه جنده وأعوانه لذلك بعد ما وصل إلى أحوال قرطبة الذي عليه القبض ثم تم التخلص منه، وبهذا زالت الدولة العلّامية من الوجود.

ولم يتملك محمد بن هشام القيامة أو القدر على التهوض بالأندلس وإعادة رونق الدولة والخلافة لهذا، لقبته العامة المشقق له، وظفته، وخففته (43) وهمداً نشرت القواعد بالأندلس وزالت وحدثتها السياسية وزالت الخلافة، ولم تقم دول الشمال الفرصة بالشروع بحرب استغالات لنعرف الرحمة وتدخلت هذه الدول أيضاً في صراعات القوى الداخلية في الأندلس وسافر بنا القول أن الفترة التي تلت عصر الخلافة عرفت باسم عصر دول الطوائف، واسس هذه الدول المتغليون العرب وبربر وصقلية (44).

ودخل ملك الطوائف في صراعات متواصلة وطمع بعض الملوك فيها بالتوسع لكن لم يسع واحد منهم لأحياء الخلافة بخلاص وفي سبيل إعادة الوحدة للبلاد، وتشابهت الأندلس في هذه الأزمة لكن لبعض الوقت ازدهارها الاقتصادي. وأهم من هذا الازدهار الفكري والحضاري، وتجدود مراكز السلطة، واختصار كل بلاد بعدد من الشعراء والأدباء والعلماء والكتاب. وكان هناك عدد كبير من النقاط هائل وتميز العصر بحكاية المغرميين واجتماعه بالأخدمية السياسية وهكذا تم العفو والشعور بقداسة الأرض وحب الوطن، واخذ الجميع يشدد سياسياً كان بعيداً كل بعد عن الخلافة والمثل، وتبادر ملك الطوائف بالانقلاب وكان هناك أكثر من خليفة.

قال صاحب المجلج يصف ما حدث: "وأما حال سائر الأندلس بعد ابتعاد دعوة بني أمية، فإن أهلها تفرقوا فرقتا وتفق في كل جهة منها متغلب، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه، وتقسموا الألقاب الخلافة، فمنهم من تسمي بالمغمسية بالمعتمد، وبعضهم تسمي بالمأمون، وأخر تسمي بالمستعين والمقترح، والمعتصم، والمعتمد."

- 158 -
الموفق، والموكل » إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية، وقيل:

يقول أبو علي الحسن بن رشيق:

ما يهدي في أرض أندلس
سماع مقتدر فيها ومعتضد
اللقب مملكة في غير موضعها
كالهر يجكي انتفاخا صولة الأسد (1)

وحين فقدت الأندلس وحدتها تبددت طاقاتها العسكرية وانشققت
جيوشها بالدفاع عن الحكام والفنين الداخلية، وكانت الأندلس في
عصر الخلافة تمتلك قدرات بحرية كبيرة جدا، فقبلت الآن
استي्ابيلا، وحدث هذا في مطلع القرن الخامس للهجرة/الحادي
عشر للميلاد، الفترة التي انبعثت فيها الطاقات البحرية لدول أوروبا
خاصة دول مدن إيطاليا، واندفع النورمان نحو فرنسا وسواها.
وزادت الروح الصليبية التهابا وحدها وتقصبا وفقد المسلمين
السيطرة على البحر المتوسط، ولم تقتصر أثار هذا الفقدان على
الجانب العسكري والسياسي بل تعبثت إلى الجانب التجاري-شم
الصناعي، وكان لهذا آثاراً في أزدهار الأندلس وقادرتها
على التماسك والصمود.

وخذت الضغوط الصليبية اجباراً على ملوك الطوائف لدى مصوت
واحد من كبار ملوك الشمال وحدوث خلافات حول رؤىهم من ذلك ما
حدث اثر وفاة شاهزاد (شنجية) الكبير، حيث انهار صرح الوحدة
التي اقامها واقتسم اولاده الأربعة املاكه وهم: فاتسبيا،
وفرناندو، وراميريو، وجوناثالو، وقام صراع بين هؤلاء وبرز من
بين صفوفهم فرناندو صاحب قشتالة الذي استطاع سنة
1294 هـ/ 1637 م، أن يستولي على مملكة ليون، ثم قام منذ
1422 هـ/ 1605 م بشن عدة حملات ناجحة ضد امراء المسلمين
في سرسطة وتالينطة وبطليوس كما استولى على عدد من القلاع
والحصون وأجبر بعض ملوك الطوائف على دفع الجزية والاتناتات
لهم (50) وتوفي فرناندو سنة 458 هـ/ 1065 م، فقام صراع بين

- 159 -
أولاده حول توزع املاكه واستطاع سسانشو الثانى الذي كان من نصيبه مملكة ليون ان يهزم اخاه الفونسو السادس، وبعدها اسره نفاه إلى ديار المسلمين فالتنا إلى طليطلة. وقد سلفت الإشارة إلى هذه المسألة، وعندئذ ان نعود هنا لنبن أن الفونسو السادس امتلك بعد وفاة أخيه سانشو قشتالة وليون ثم ضم اليهما جليبية، ومن ثم اقفل في حرب ضروس ضد المسلمين الذين اتفقوا أمراؤهم في اللذات وصار لهم الوحيد منافسة بعضهم ببعض. في البذخ والترف، وكانوا في حسب دائم مع بعضهم وحرب مستمرة بالخنجر والانفجار في الحضارة (110).

ومعروف أن الحضارة عند ما تغدو انفجاسًا في اللذات تفرغ من محتواها الإخلاقي وتصبح عرضة للسقوط بسرعة على أيدي القوى الهمجية، وقام ابن العقابي صاحب الفخر في الآداب السلطانية يوصف درجة الحضارة التي وصلت إليها الخلافة العباسية وقصة تعرضها لغزو هولاكو، وتحدث عن الانفجار في اللذات، ثم حكي عن واحد من أمراء الجند الذين تصدوا لجيش هولاكو قال: كنت في عسكر البويرادر الصغير لخرج إلى لقاء الأندلز بالجانب الغربي، من مدينة السلام في واقعها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة، قال: فالانتقينا بجيش يشتر من أعمال دجل، فكان الفارس مما يخرج إلى المبارزة، وتحته فرس عربي، وعليه سلاح двух كأس، وفرسه الجبل العظيم، ثم يخرج إليه من المغول فرس تحته فرس كانه حمار، وفيه رمح كانه المزاز، وليس عليه كسوة ولا سلاح، فدمعوا عند كل من راه، ثم مات النهار حتى كانت لهم الغفرة، فكسرنا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر، ثم كان من الامر ما كان (2).

لقد ملكت الهمجية الإسبانية الصليبية المتخصبة القدرة على الفتك بالحضارة الإسلامية والوجود العربي بالأندلس، وكان فقط يمكن لقوة من السوية الحضارية نفسها مع التعصي أن تتصدئ بها، ووجدت هذه المؤهلات لدى مملوكة المرابطين، لكن مملوكة ما لبث أن
تأثرت بحضارة الأندلس أو تصصادمت معها، وكان لذلك نتائج خطيرة.

لقد أخذت حرب الاستغلال التي قادها الفونسو السادس سمة صلابية واضحة، شارك فيها متطوعون من كل طرف أوروبي ؛ وباركت البابوية هذه الحروب ودعمتها بسكون الغفران. وهكذا اشتعلت الحروب الصليبية على أرض الأندلس وامتدت إلى أوروبا قبل أن تتشكل في أرض الشام، ومع هذا اشتدت حرب الاستغلال في الأندلس بشدة من المشاعر القومية أو الوطنية. فقد عد ملك ليون أنفسهم ورثة الملوك القوط الأندلسيين قبل الفتح الإسلامي لها ونقل أحد رسل الفونسو السادس إلى الأمير عبد الله صاحب غرناطة قول الفونسو: » إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر، حتى غلبههم، والسبب والحقوهم بانحس البقاء؛ جلبيقي، فهم الآن عند التمكين، طامعين في أخذ ظلالاتهم« (32).

وكان الفونسو على بيئة بأحوال حكام الأندلس ويتدهور أحوال الناس فيها، ويهدي زراعة أضعاف البلاد بنى خضعت في حروب الاستغلال، فقد نقل عنه قوله: » أنا من غير الله، وكل الناس بشأنني، فبأي وجه اتبع في أخذهما، إن كان من يسب الطاعة، فأنا لبصعيًا، وإن كان من وجه القتل فيهلك فيها رجالي، وذينه، أموالي وتكوين الخسارة، على أكثر مما نرجو إن صارت إلى ولو صغيرة، لم تتنمس إلا بأيدها، ولم يؤمنون، ولم يكن أن تستطيع أهلها وتعبرها بأهل ملتي، ولكن الراي، كل الراي تهديد بعضهم ببعض، وأخذ أملاهم أبدا، حتى ترق وتضع، ثم هي تلك، تبهرها إذا ضعفت، وتتأهل عليها كأنها جري بطيئة، أما كان من فقر أهلها وتشتتهم، مع اندلبي سلطانها، وصارت إلي بلامشقة« (33).

والمثير للانتباه أن أمراء دول الطوران كانوا على بيئة بعهد الفونسو وخططه ومع هذا كان الجمع يساري الأصور ويدفع الأيام ويقول: من هنا إلى أن تتم الأموال وتترك الرعايا ... يأتي.
الله بالفراح وينصر المسلمين(55) وكان كل منهم يشتري رضى
الفونسو ، ويطلب منه أن يكون معتملا في مطالبه حتى لا تستقطع
دولتهم لآخر من ملك الطواليف فصيح قويا في وجه الفونسو، فقد
هاصر الفونسو غرناطة وطلب مبلغ خمسين ألف مقاتل مقابل
انصرافه، على خبر، فجاجبه الأمير عبد الله: إن ذلك لا يقدّر عليه،
وفي نظره لما يقتصرنوا به ابن عباد، فانتقد غرناطة
قوي عنصره، ولم يندفع ك، فخذ ما نقتدر عليه، واترك رميا
لاستناصل من إجله، وما تركت تجده عندي، ما طلبته(55).

لقد استنفر ملوك الطواليف اموال أهل الأندلس في شراء السلام
من الفونسو، وفي ذكهم غير الحدود، ان تكن شاهدا، التقى المعتبة بن عبد صاحب اشبيلية بفتاة من
عامة الشعب فاعجب بها وخلت عقله فتزوّجها، وكان أساها
اعتماد، وعرفة عادة باسم روميكي، وقد رأت مرة نسوة من
المتمنين قد وضعن ارجلهم في معجن فيه طين لضر أبوه،
فدفعها هذا إلى البكاء، فأثر ذلك في نفس المعتبة وسالها: ما الذي
يبيكك؟ فقالت له: اه إني تنسى، ومنذ انثرعتني من الحياة الحرة
الطويلة المرحة أيام أن كنت انعم بكولي الحنر، أنا سجينة هذا
القصر العابس، أسيرة الحياة المقطبة، متملّقة بسلاسل التقابيد
وعادات القصر الملكة، انظر إلى هؤلاء النساء اللاتي عند نسيانهم
النهر، وانظر إلى ارجلهن، منفصلات بالطين، ليتذكرى كنت داربة
القدرين، متملّكين اجنة الطين، ولديتي حريتى حريتى مملوءين
واطعيمات الحرية التي استطع بها أن فعل ما أريد، فجاجبه وقد
شاعت على شفقتها ابتسامة لطيفة: بل أنك عما أقبل سعدتين.

نزل في اللحظة نفسها إلى فناء القصر، وأمر بإحضار مقدار
عظيم من المسك والعنب وبعض الاعمال، ووضع ذلك كله في معجن
وأمر أن يزرع بهاء الورد، ويداف ويسحق، إلى أن صارت منه
عجيبا في حجم تلك التي كانت في معجن النسوة اللاتي كن يضربن
الليب، ولا تهاب لى كل ما أراد من ذلك صعد إلى اعتماد وقال لها:
لتنافضي بالنزول إلى فتنة القصر أنت وجواريك، فان معجن الطين في انتظارك فنزلت الأميرة إلى ساحة القصر، وخلعت هي وجواريها نعالهن وصرن يعن بقادمهن ذلك الطين المسكي المدفون وهم في مرح وسرور

ومما لا ريب فيه أن تحقيق هذه الرغبة قد كلف المعتمد ثمنا باهزاً وأموالا طائلة، وقد كان في استطاعته أن يغين عن هذّه الحادثة (57).

وقد تنكرنا هذه الحادثة بحادثة ميسون ابنه بحيد زوج معاوية بين أبي سفيان حين ضاقت ذرعاً بحياة القصر، غير أن الفارق كبير جداً فهذه جبيل لها المسك والعنبر لتعين به وذلك قالت: وليس عباءة وتقريري

احب إلي من لبس الشفوف

وتوالت المصائب على عرب الأندلس، وعندما كان الضعف بثبات الفونسو أو يحتاج إلى المال والمؤن، كان ملوك الطوائف يهبون لنجدته وتفريج عنه، لذا حق له أن يثمنه بكل اللتوين وأن يحمل لقب أمبراطور، وحدث في عام 878 هـ/ 104 م أن حاصل مدينة طليطلة، وكان ذلك في فصل الشتاء وكان ذلك الشتاء قاسيا جداً فيه اشتد البرد وكثر المطر مما سبّب انقطاع الوصلات بين الشمال الأندلس وطليطلة الواقعة بالوسط، وهكذا تعذر وصول المؤن إلى جيش الفونسو، وأصيب جيشه بمجاعة حقيقية، وعندما أصبه الفونسو في هذا الوضع المتفاجى هب ملوك الطوائف فقتله واغتال الفرصة بدفعة من طليطلة ذات الموقع الاستراتيجي الهام بل للتفرج عنه وعن جيوشه، وولا احتلال ملوك الطوائف بإقامة ملتقى، واصفاحهم إلى هدير شقاقه لطار شعاعا، وذهب ضياعاً (58).

وستقلت طليطلة، ودخل الفونسو عاصمة القوط القديمة وانتهت

دولة بني ذي النون، ورثى أحد الشعراء طليطلة بصيغة منها قوله:
لقد غدت الآن طليطلة عاصمة لدولة قشتالة، فانقلبت الموازين وتغير الوضع الاستراتيجي بالأندلس، فمن قبل كان مقر هذه الدولة في أقصى الشمال، أما الآن في قبده في وسط الأندلس، في موقع مسيطر على جميع أنهوا شبه الجزيرة الإيبيرية. يقول ابن الكرديوس: ولا حصل الطاغية الفنجر لعن الله طليطلة، شمع بنافل ورأى أن زمام الأندلس قد حصل في كفة، فشن غاراته على جميع أعمالها حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستنصالها، وذلك ثمانون مئا سوياً البنين (البلدان)، والقوى المعثورات، وحاز من وادي الحبشة إلى طليبة وفحص اللج وعمال شنطورية كلها، ولم يكن بالجزيرة من يلقى أقلاً كلب من كلابة. فعند ذلك وجه كل رئيس بالأندلس رسائل إلى الفنجر مهنيين، وابنهم واموالهم مقتدين. وفي أن يشركهم في بلاده، هم عاملين، ولائهم جاهزين؛ حتى إن صاحب شنطورية حسام الدولة ابن رزين نهض إليه بنفسه، وتحمل هيئة عظيمة القدستية، متقدبا إليه، ورغب أبو ان يقره في بلده عاملين بين يديه.
فجأة على هديته بقرد وهبه اياه، فجعل ابن رزين يفطر به على
سائر الروساء ويعتقد انه جنته مما كان يحجر من الفنش من وقوع
البساء.

واتخى الفنش انتخاء الجبايرة، وانزل نفسه منازل القياصة،
وداعله من الاعجاب ما احترق به كل مائي على التراب، وتمشي
بالذبّاطور، وهو بلغتهم أمير المؤمنين، وجعل يكتب في كتبه
المصدر عنه: من الانتبطرؤ ذي اللتين (۳۰).

وأجمل ابن الكرديوس وصف علاقات الفنوسوز السادس مع
حكام الاندلس بقوله: واستحكم في المسلمين طمعه، وصح في
قياسه القاضي أن يستخلص جزيرة الاندلس لنفسه قلم يد عن شن
الغارات ومواصلة الغزوات.

وصادف أيام ملكه نفقة كثيرا بين المسلمين وامتحانا عند
وضع بعضهم عن البعض الا بمعونة الروم، فبأنوا للفنش مسا
بحبه من الاموال ليعينهم على مناونهم بانجاز الرجال، والتعيين في
اثناء ذلك ما بينهم من الفتنة مسرور، وهم عن ذلك مشغولون بشرب
الخمور، واقتناق القيان وركوب العصابي ونساع العيدان وكل واحد
منهم يتنافس في شراء الذهات اللوكية مثة طرقت من الشرق، كي
يجهة إلى الفنش هدية ليغمر بها الهي ويوطم دون مطالب له،
الي أن ضعف من أولئك الثور الطلب والطلوب، ونال الرئيس
والرؤوس وافقت رعية، وفسدت أحوال الجمع بالكلية، وزالت
من الفنوس الانفتاد الإسلامية وانعث من بقي منهم خارج المساحة إلى
آداء الجزية. وصاروا للفنش عمالم يجيبون له الأمواج، الاختلف أمره
أنتم كولوا أمور المسلمين الي اليهود فعطائهم فيهم عيش الأسود
وجعلهم حجابا وزراء ولصا.

وتطف الروم في كل عام على الاندلس يسبون ويضمو ويحرقون
ويهمون وباسرون (۳۱).

وبعدما صار الفنوسو سيد طليطلة اخذ يتطلع بجدية نحو إشبيلية
لللاستيلاء عليها، وأزاولة منك، آل عباد منها، وأتبع في سبيل ذلك

- ۱۶۵ -
خططه المعروفة في التهديد واستنزاف الموارد، واشعار الناس بعدم وجود منفذ، وحاول ابن عباد دفع الفونسو السادس عنه فرسalah
وحاول شراء رضاه بالأموال والقناع وغيرها ذلك، وبعد أن اتبعه في
أحدى المناسبات برسول يهودي، يعرف بابن مشعل فقال له: كيف
اترك مجانين (ج. ماجن) تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم
وملوكهم وأمرائهم: المعتضد والمتمدن، والمعتصم، والمتوكل
والسفين، والمقدور، والأمين، والمأمن، وكل واحد منهم لا يرسل في
النبي عن نفسه سيفا، ولا يرفع عن رعيته ضيما ولا حيفا، قد
اظروا الفضسوق والعصياء، واعتقلوا على المفتنين،
والعباد، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحدا، وإن
يدعها بين ابديهم سدى! (21).

وذلك بعد الفونسو إلى المعتمد بن عباد صاحب أشبولة يوفد
من عنده ليجبى منه الجزية، وترأس هذا الوفد يهودي اسمه بس
شالب، ونزل رجلا الوفد خارج أشبولة، فوجه اليهم المعتمد ابن
عباد المال،العلم مع بعض اشباخ أشبولة، منهم ابن زيدون (ابن
الشاعر المشهور)، وغيرهم، فلموا وصلوا اليه، وأخرجوا اليه
المال الذين السياد، قال لهم اليهودي: والله لا أخذك هذا
العيار، ولا أخذك من هذى العلم، ولا تأخذك من هذى العلم إلا
إجفان البلد، وزاد في كلامه ونقص، وساء الأدب، فبلغ المعتمد
خبره، فدعاه بعيدة وبعض جنوده، وامرهم بالخروج لقتل اليهودي
ابن شالب، وأسر من كان معه من التنصاري، ففعلوا ما أمرهم به
من ذلك.

فلما بلغ ذلك أنغش، أقسم بإيمان مغفلته أن لا يرفع يده عنه
وأن يحذر من الروم عند شعر رأسه، ويصل بهم إلى بحر
الزقاق، فكان ذلك.

وخرج أنغش في جيش لايحصى كثرة، وافساد في الشرف (ريض
اشبيلية) فساقا كبرى، وحرقه، واجتاح عليه قاصدا حصن
طريف، فوقف على شاطئ بحر الزقاق، والبحر يضرب ارتفاع

- 166 -
فدرسه، ومن هناك بعث برسالة فيها تحديدات وقحة إلى يوسف بن تاشفيق.

وكيف لايفعل هذا ولايشتغل حيث لم يجد في الأندلس من يقاومه أو يدفعه، فقد انتشر الروم على جميع الأقطار، وعاشوا في جميع الأصوار، وصارتهم لهم أقصى بلاد الإسلام مرتعاً، وقد بلغ الروم أن أغاروا في ثمانين فارساً ممن أخذوا لهم على أنفسهم أمرهم للمرة، فانخرط ابن نصران قائدًا من قواده، ومعه من خيار جنده أربع منازل، فقلا التقوا بالعدو الهزوم، وما وقعوا ولا أقدموا.

والمثير للانتباه هنا إن المستعراض للتاريخ الأندلسي حتى نهاية الفترة العثمانية أن القواعد المثلية كانت تتلقى في الشمال مقاومة عنيدة، وأن ملوك الشمال لم يلق اباأهم منهم السلاح ولم يستسلم بل لم يستوعب الواقع الحال كما قالت العرب: "هيئة على دينه".

وبدأ الأندلسي من ملوكهم فكان أن توجهوا بإنساههم نحو المغرب الأقصى حيث يوسف بن تاشفيق، وقصده وهدفه أندلسيه وسواه الأشياء ما حل بهم من أعدائهم، فوعدهم بالمددهم وأعنتهم وصرفهم إلى أوطانهم.

وشدد الفونسو من ضغوطه على ابن عباد، وساله أن يخله له معاقل كان الموت عندباه أولى من أعطائه، فوجائس نفسه منه بالجملة.

وقال ابن الكرديوس، ولم ترق كل من شار وراس، ولاسمعا رؤساء غرب الأندلسي كابن عباد وابن الأفطس، مهدها الفنف فيهم وانه لابقى عنهم بجزية ولاهدية، رأوا أن الرجوع إلى الحق اجتهد فاستمرزوا بالمحتاجين، واستنصروا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفيق، على أن ينخرطوا في سلكيه، ويدخلوا تجاه ملكه، وفتحوا له بابا إلى الجهاد كانوا قد سدوه، فأجابهم إلى ما رغبوا، ولم يخيلهم فيما طلبوا، إذ كان في جهد المشركين والدرب عن حرير المسلمين، فاستبق طلب النصر من متنه، وطمأناة دبر التأبيد من خلال غمانه.
لم تكن الأمور بمثل هذه الدرجة من السذاجة، وفي الحقيقة لم يرجع ملوك الطوائف قط إلى جادة الصواب، وأبدا لم يروا أن الرجوع إلى الحق حق، بل أرادوا الحفاظ على ملكهم من خلال حرب يخوضها الصديق ضد العدو فتضحيفهماً مما فتحصل الفاتحة لهم، فقد رام ابن عباس كسر الفونسو ببطوانج المرابطين وضرب بعضهم ببعض.

غير أن يوسف بن تاشفين تنبه لهذا، ربما بوساطة مستشارية من أهل الأندلس وأثر هذا التنبه على طبيعة المواجهة العسكرية بينه وبين الفونسو وعلى استثمارها ثم على مستقبل ملوك الطوائف.

ولم يرد يوسف على نداءات الاستغاثة بالاستجابة الفورية، ولكن ذلك فعل عندما بلغته رسالة رسالة الاستغاثة التي جاء فيها:

لم يخف عليك ما عليك، تواصل كالأندلس من التخاذل والتماكل والاهتمام الرهبة، والأخلاق الراحلة. وانا أسويمن الخسفة فأذكرب الديار، وأهلك الأُسْتَرَك، وأقتل الشبان واسرة الولدان، ولا أعذر لك في التخلف عن نصرهم إن كنت تفصره هذا... فان كنت لا تستطيع الجوامز فابقث الانثى ما عندك من المراكب لاجوز اليد، وأنا أقاتل في احب البقاع اليد، فإن غلبتني تلك غنية جبلت اليد، ونعة مثل بعين يديك، وأنا غلبتك كانت لي اليد العليا، واستلمت الإمارة، والله يتبير بالإرادة.

وأخذ يوسف بن تاشفين يعتَدَّ العدة للجوامز إلى الأندلس، واقتحم الحالة سنة تأمين ما يكنى من القوات البحرية للجوامز والقتال، وتمام السبلة اللازمة لنقل القوات مع العدو والنصر والسلاح، وجعل الامدادات إذا لزم الأمر، وهكذا، شرع في تجديد المسارك وزوروها، وبعث إلى الصحراء للمثورة ومسوقة وجدالة وغيرهم، وعلمهم بما فتح الله عليهم من تلك الغرب، وطاعة أهله، وتأكيد عليهم في القدوم إليه، فسوف عليهم جميع كلمة، ولاهم الأعمال، وصرف اعيادهم في مهملات الأشغال، فاكتسبوا الأموال وملكوا رقاب الرجال، وكثروا...
بكل مكان، وساعدهم الوقت والزمن، وكتبت جميعهم وتوفرت عساكرهم، وعظم ملك يوسف بن تآشفين، وضم من جزؤه وله ومصنودة وقبائل زناتة جموع كثيرة، وسماعها بالحش، وضم طائفة أخرى من أعلاجه واهل داخته وحاشيته فصاروا جموعا كثيرة، وسماعهم الداخليين، فاجتمع له في الطائفتين ثلاثة آلاف فارس» (٢٠).

ولم يكتف يوسف بهذا فقد وجد نفسه بحاجة إلى السلاح والعتاد من الأنواع المستخدمة في الأندلس مع خبراء بشؤون القتال لدى الأندلسيين، أعدائهم، ولذا «بعث إلى الأندلس برسم شراء العدسة والآلات الحروب، فباشرته له منها كثيرا، فأمضى عاما في اقتناء العدة واتخاذ السلاح واكتشاف الأجناد، واستيار الرجال في بلغ جيشه إلى أثني عشر ألف فارس، كلهم نخبة أئمته» (٢١).

ولم يكتف يوسف بهذا بل تبادل الرسائل مع المعتصم بن عبيد وغيره من ملوك الطوائف، يطلب منهم جميع قواتهم، وتوحيد طاقاتهم العسكرية لتجتمع إليه بعد أن حورك إلى الأندلس لقتال العدو، وطلب يوسف في ابن عبد القدوس نصائحه الجزيرة الخضراء يتخذه قادة لقواته التي ستجوز إلى الأندلس، وجاء هذا الطلب بناء على نصيحة واحدة من كتابه اسمه عبد الرحمن بن اسباط، وكان أندلسيا من أهل الدرب، فقد روي أنه قال له: أيد الله الإلكترو تعلمنا أن الأندلس جزيرة مقطوعة في البحر، ويعمر المسلمين منها الثمن وسماحة اسمه أئمته يعمهم، ويعويهم، ويجعله ويع việnها.

النصاري، وهي ضيقة حرة، سجنت بست دحلها، لابد أن تحت حكم صاحبها، وإن أنت جزت إليها وحصت فيها ما يكون لك في نفسك شيء، وهذا الرجل الذي استدعاه ما بنيك وبينه مقات قديم، ولايدفعه مصلحة، وبقي إذا قضى الله الغرض من العدو أن يمسك بها، والحال كما تريد، والنفر إليكم، فاكتبه إلى إنك لايمكنك الجوز إليه إلا أن تعطيك الجزيرة الخضراء، فتعجل فيها ثقاتك، واجتادك، يكون الجوز بيني سنت» (٢٢).
وكتب يوسف إلى المعتمد بن عباس يطلب منه التخلي عن الجزيرة الخضراء وأن يخلبهما له وكتب بذلك صمكا عليه توقيعه مع شهادات رجال الدولة والقضاء والفقهاء. وكانت ولاية الجزيرة الخضراء مسندة إلى الراضي زيد بن المعتمد، لهذا عارض تسليم الجزيرة الخضراء إلى المرابطين، وكان الشريف الإبن الثاني للمعتمد قد عارض من قبل أيضاً فكره الاستعانة بالمرابطين، وأيده في هذا ووجه دولة إشبيلية. فقد أشار هؤلاء على المعتمد بقيادة الأفغاني ملك قشتالة، وطلب معاهمه، وعهد السلم معه على مما يذهب إليه من الشروط، وكيف ما أمكن، وأن ذلك أولى من تجويع المرابطين.

ثم إنه بعد ذلك بابنه وولي عهده الشريف أبي الحسن عبد الله، وقال له: يا عبيد الله إننا في هذه الأندلس غرباء بين بحر مظلم وعدنا حرسة، وليس لنا ولا نناصر إلا الله تعالى، وإن إخواننا وجيراناً ملوك الأندلس ليس لنا فيهم دفع ولا ترجي منهم نصرة ولا جنة، إن نزل بنا مصاب، أو نالنا عدو ثقيل، وهذا اللعين أسفش قد أخذ طليقة من يد ابن ذي اللون بعد سنة سبعة وسبعين، وعادت دار كفر، وهبه قد رفع رأسه إلينا، وإن نزل علينا بكلمه ما يقلع عنا حتى يأخذ إشبيلية، وترى من الرأي أن يبعث إلى هذَا الصحراوي، ملك العدوة تستدعىه للجوار ليدفع عنه هذا الكلب اللعين، إذ لا أقرتنا لنا على ذلك يكونا، فقد تلف مجابان وتبددت إجاداننا، وأبغضتنا العامة والخاصة، فقال له ابنه الشريف: يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلمينا ملوكنا ويبذل شعمنا؟ فقال: يا بني، والله لا يسمع عني أبداً، إن أعدت الأندلس دار كفر، ولا ترتكبها النصارى فقوم علي اللعنة في منابر الإسلام فلم لما قامت على غيري، جرح الجمال والله عني خير من حرز الخنازير. (73).

لاديري مدى صحة هذه الرواية أخذت بعض الاكتبار أن الحديث جرى على خلوة بين أبي وابنه، وألمهم معرفته الأندلس هو أن المعتمد ابن عباس جمع (47) القاضي والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة
الخضيرة ليوسف بن تاشفين وتسليمهمها له بحضور ذلك الجمع.
وبعث به إليه . (٧٥).

وقام المعتمد بن عباد بمخاطبة جاريه الموتى عمر بن محمد بن
الافطس ملك بطيوس ، وعبد الله بن حيوس ملك غزانتيه ، وطلب
منهما أن يرسل كل منهما قاضيء حاضرة دولته وحين فعلا استحضر
قاضيين كهبانًا وضاف بهما لجواب القضاة وزيره ابنا رضوان وبعث بهم
وفدا للتاشفين مع يوسف بن تاشفين حول ترتبات دخوله إلى الأندلس
وبعده مفاوضات تام الاتفاق والإتفاق على أن تتصلا الأيدي على غزو
الروم بمعونته ، ولا يعرض لأحدنا ببلده ولا يقلي عليه رعيته ، ومن
بروم الفساد عليه . (٧٦).

وبتاشب يوسف بن تاشفين وقاد قواته نحو سبته بالعبور إلى
الجزيرة الخضراء ، وفعلاً وهذا بعدما وردت عليه رسالته
المعتمد ، تعلمه أنه يتلحم للجهاد ، وتعده بإذاعة الجبيرة
الخضراء ، وأنه لا يصل إلى سبته إلا ويضيعا في يده ، فلما وصل
متاحبا لذلك ، فمن اعتقله من جيشه ، قدم رسله إلى المعتمد .
فأمسكهم بإيشبيلية مدة طويلة ، وأمير المسلمين في ذلك متققل
لوردهم . فارسل منهم من شيوخ إشبيلية من يقول له : تربع في
سبته مدة من ثلاثين يوما إلى أن نخلو لك الجزيرة فاجابهم إلى
هذا . (٧٧).

لقد ظل المعتمد بن عباد حتى هذه الساعة يراوغ وسيء النوايا
باتجاه يوسف بن تاشفين ، وبنية يوسف إلى هذا وقيل له : لم
يعملك ابن عباد في هذا الالتباس إلا لأنه يريد أن يرسل للفرنوس
يعمله بقدومك ، وله عتيته له منه ما يرغب ، ويسأل أن يعاوضه على
آن يتهب الجرية أعواما فإن فعل استجابة عسكره على الجزيرة ،
ومعها الجوائر ، فاسقفة اليها ، وإن كان النصراني لاينتائتي له
ارسال الالك في الجوائز . (٧٨).

قيل هذا ليوسف ورسل ابن عباد عندهم في سبته ، وبناء عليه لذا
انفصل الرسل عنه بنية التربيص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً.
جهز عسكره مقدماً من نحو خمسمائة فارس، وأرسلهم في أثره.
فلم تصل الرسل إلى الجزيرة. أخر النهار إلا والعسكر في أثرهم قد
عدوا ونزلوا بدار الصناعة، فانطلق القوم إلى خيل قد ضربت
محلتها.، لم يدر متي أقبلت، ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى.
بعدها يزيدون وترادفون.، حتى انكمل العسكر كان على الجزيرة مع داود
بن عانشة.، أحذقوا حولها يجرونها، ونادي داود بالرائي،
وقال له: وعدتمنا بالجزيرة، نحن ننذ نأت لأخذ بلدة ولا ضرر
بسلطان، إذا أتينا للجهاد، فكأنا أن تخذهما من هنا إلى وقت
ظهور من يومنا هذا، ولا فاذي تقدير عليه فاصنع.

وخطب أمير المسلمين ابن عباس يعلم أنه لما صنع ويقول له:
كيفناك مؤنة القطائع وإرسال الأقوات.ناجيادنا كما وعدت، فأرسل
المعتم لابنه الرائي في إخلائها لهم، وحصل فيها داود، وأتى
الامير إليها، ودخلها ناظرا إليها، ثم انصرف إلى سبحة إلى وقت
إقباله. (79).

إن ما حدث حتى الآن يساعد على تفسير ما أسفر عن العبور
الأول الأول ليوسف بن تائف في إلى الأندلس.، وبعد هذا موقفه.
ابن عباس وحذقه عليه وعدد مسامحته له، ولعدم وثوق يوسف بابن
عباس تتقد الجزيرة الخضراء بنفسه، وعلى الفرس "شرع في بناء
اسوارها، ورمم ما تشتث من أبراجها وحفر الحفيرة (المندق)
عليها، وشحنها بالأطعمة والأسلحة، ورتب فيها عسكرا انتقاها من
نخبة رجاله وأسكنهم بها. (80).

وبسيطرة يوسف بن تائف على الجزيرة الخضراء حدث تبدل
استراتيجي بشأن أحد منفذ البحر المتوسط، فقد كان العرب قد
امتكنا منفذ الزقاق (مضيق جبل طارق) من طرف في العصر
الأموي، وذلك بامتلاكهم لكل من سبحة وطنجة من جانب المغرب
والجزيرة الخضراء من الجانب الأندلسي المقابل، وبعدما حاولوا
فتح القسطنطينية للاستيلاء على المنفذ الأخير، ومع تأسيس الحكم الأموي بالأندلس امتلك هذا الحكم الجانب الأندلسي فقط، ومنذ أيام الخليفة عبد الرحمان الناصر تمكّن الحكم الأندلسي المغربي بطرفيه، إنما بعد انتهاء فترة الاستبداد الفاسدي فقد الأندلسيون الطرف المغربي، والآن مع حلول قوات المرابطين في الجزيرة الخضراء صار بحر الرقاق مغربياً، وآذاك كان المسلمون يمتلكون مع بحر الرقاق مضيق مسمى قرب صقلية، لكنهم سيفدون السيطرة على هذا المضيق الهام بعد أمد قصير ونذ ذلك بسقوط صقلية للنورمان، الأمر الذي سيكون له أبعد الأثار وأخطرها على مسار أحداث الحرب الصربيبة وسبيت نجاة ثلاثة وجها الإعداد للاعداد بما سيعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة، بعدما حضر صلاح الدين حسب القطنين القدسيين، ولتلدك في هذا المقام أن دول المشرق كانت ذات إمكانيات بحرية متدنية.

وكان بعدم يوسف بن تاشفين إلى سبعة أشهر بنفسه على عبور قواته إلى الجزيرة الخضراء، وقارب عدد هذه القوات العشرة آلاف فارس، وكان القائد العسكري لها داود بن عائشة، وعندما تمت عملية العبور كان الفوستوس السبادس بيعدا في الشمال مثابة الحصار على مدينة سرقسطة، وكانت إجواء من قواته مشتقة بحصار طرطوشة وبنحسن، وقد فوجي بهم باختيار المرابطين فأوقف أعمال الحصار وجمع إليه قواته ليتوجه نحو يوسف بن تاشفين.

وتحرك يوسف بن تاشفين وراء قواته نحو إشبيلية، فثقيب ابن عباد على محلة من الجزيرة فسلم عليه فأهتم ابن عباد بقبوله، فبادر لمعانقته، وساله عن حاله، وقابل معه في الحديث، وهذا ابن عباد بالسلامة، ونكلت ضيافات ابن عباد، فمعت جميع المحلة على حال كبيرة، وركب ابن عباد ودار بالحلة، ونظر إلى العسكر فرأى عسكرنا نقيا ومتناهبا، فلم يشك أن ذلك الجمع لا يخلو من بركه.

وبعدما وصل يوسف بن تاشفين إلى إشبيلية أقام بها ثلاثة
اِيامٍ، ثم ارتحل نحو مدينة بَطْلِيَوس، لكن لماذا نحو هذه المدينة وليس نحو سرقسطة أو طرطوسية أو بلنسية؟

لعل السبب هو أن المتوكل على الله ابن الألفاتس صاحب بَطْلِيَوس كان أول ملوك الطوائف كتابة إلى يوسف يستنجد به قائلاً، إلا ناصراً لهذا الدين الهنضمي، إلا حامياً لما استنجد من حمي الحرمين، وإننا على ما لحق عبده من نكر، وعزة من ذلك، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلاً بلاء (42).

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية (43). إعادةً الله لِلإسلام، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلايا، ولن فيها من المسلمين بالخلايا، ثم مازال ذلك التخليان والتداريب يترنادي حتّى تخلت القضايا، وتكبعت البنية، وتحصّنت بيد العدو ومدينة سرية (44)، وعلى قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصين والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدائرة تديرها سُنّ جميع الجهات، دائرة بنواحيها، ويستوي في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافق، ومرق زاهق، استولى عليه عدد مشرك وطاغية منافق، إن لم تدركها بجماعاتكم عجالة، وتبادروا ركبانًا و رجالًا، وتتفّروا نحوها خفايا وثقلا، وما احصصون على الجهاد بما في كتاب الله، فإنكم له أثلى، ولا بما في حدوث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنكم إلى معرفته أهدي (45).

على هذا جاء يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للدفاع عن نفوذ مملكة ابن الألفاتس، ولذا توجه إلى بَطْلِيَوس (وهي منطقة تقع الآن على مقرية من الحدود البرتغالية) لِقد جاء للتفريق عن هذه الملكة ولدفع العدو عنها، وليس للتوغل داخل الأراضي التي غلب عليها الفسفس، ويوافق هذا التأويل ما ذكره الأمير عبد الله في مذكراته، فبعدما حل يوسف بن تاشفين بِأرض الأندلس وأثناء وجوده بإشبيلية راسل ملوك الطوائف للالتحاق به ومعهم قواتهم، ففعلوا بِاستثناء المعتصم ابن صمادح صاحب المرة حيث بعث بابنه
ويقى هو "متربصا ليرى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم، واعتراف بكبر السن مع الضعف".

وحدث الأمير عبد الله عن خروجه من مملكته للالتحاق ببوسفور، إن تناشيف وأنها التقى به، في الطريق إلى بطلوس وقلا: "وأرنا من أكرامه لنا وتحفيه لنا، مازادنا ذلك فيه رغبة، لامستنا أن نمنحه لومنا فضلا على أصولنا، ولقينا المتكول بين الأكثر، محترفا بعسكره، كأن يرغب في الجهاد، قد أعلم جهده ووطن على الوقت نفسه... والعجب في تلك السفرة من حسن التحية، وإخلاص الضمائر، فإن القلوب إذا جمعت على ذلك". (88)

هذا من جهة يوسف بن تناشيف أما من جهة الفوسفور السادس، فقد عاد إلى طليطلة، ومن هناك حشد قواته كما تلقى نбежات من المناطق الشمالية ومن فرنسا وسواها فاجتمع لديه أعداد كبيرة من المقاتلين ساروا تحت رأية الصليب وبمباركة بابوية، وقد بذل كل الصالح الجنوح في تقدير تعداد القوى الصليبية، يقول صاحب الجملة: "واحتفل - الفوسفور - في الاستعداد، وخرج ومعه ثمانون الفارسي لا يسبر الدروع دون غيابه - حتى انهى إلى فحص الراية، وكان لواء المسلمين ينامي خمسين ألف فارس، أربعة وأربعون ألفا من فرسان الاندلسيين مبينين، مدعوم وليدوس، ومثلها أو أكثر منها مراعبون واهل الحدود". (88)

وأرى في هذه الرواية مبالغة كبيرة، وسبق أن نقلنا عن رؤية القرطاس أن تعداد المرابطين كان عشرة آلاف، ونقلنا من قبل عن صاحب الجملة نفسه أن تعداد جيش يوسف بن تناشيف وصل إلى اثنتي عشر ألف فارس، ولا يعقل أن يفاجئ يوسف إلى الناحية كل ما ملكه من قوات، وهكذا نجد الجمعي صاحب الروض المعتاد يقول في مادة "الراية - اختصار الفوسفور - ممن مجتمع إلى إنجادهم، وقال حين نظر إلى ما اختاره من جموعه - بهلاء أقاتل الجن والدنس، وملاكمة السماء، فالقليل يقُول: كان هؤلاء..."
المختارون من اجتاده اربعين الف دارع، ولابد لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان، وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ويقولون، وافق الكل أن عدد المسلمين كانت أقل ممن عدد المشركين».

والذي أراه أن عدد المسلمين لم يتجاوز العشرين ألف مقاتل وأن عدد الصليبيين زاد على هذا العدد قليلا، لكن ليس أكثر من خمس عشرة ألفا، ونزلت القوات الإسلامية قرب أسوار ببطليوس، فهي جاءت للتفريج عن أراضي هذه الدولة، وهناك وردت الأخبار برحب الفونسو نحوها على رأس جيش كبير، يقول الأمير عبد الله: ولنونا ببطليوس أباما حتى صبح عندنا أقبال الفونسو في حلفه، بروم الملاقاة، وطيب أنه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبل، وساقفة القدير إلى أن توغل في بلاد المسلمين، وأبعد عن أنصاره، ونحن بارزاء المدينة مترهصون، إن كانت لنا فيها ومنعت، وإن لم تكن كأتنا وراءنا حرصا ومعقلا نأوي إليها، وأمير المسلمين يدبب هذا الأمر بحسن رأيه، ويتولى عسق تفع الملاقاة بتلك الناحية، دون أن يجوز إلى التوغل في بلادهم، وهم بخلوا الأندلس لا يعرفون من لهم أو عليهم، ورجاءً بأن يكون الروموس لا يخرج إليه أحد فينصرف طريقه، ويكفي الله المؤمنين الفائل، على هذا تمنى يوسف بن تاشفين، عند زحف الفونسو نحوه، لكن الفونسو ركب رأسه وساق قواته مسافة واسعة، ووجه بعدما أكل الطريق قواته ليقاطع قومه موقف الدفاع في متسع من الوقت والمكان، وكتب الفونسو إلى يوسف يقول: ها أنا قد أقبلت أريد مفاكاك، وانت تتربع وتختبئ » (15).

وكان من المتوجب على المسلمين مهاجمة الفونسو قبل ان ترتاح قواته ويتخذ مسركا خاصا بها، لكن يوسف لم يفعل هذا، وترك الجيش المعادي يعسكر على مسافة ثلاثة أميال من مسركه، وكتب يوسف إلى الفونسو كتاباً يدعو فيه إلى المماذبة أو الإسلام أو
الحرب، فلما وصل كتابه إلى الفؤوسن أمره الانفة وداخله الكبیر.
وقال للرسول: قل للأمير لا تتبع نفسك أنا أصل إليك.
وجاء في كتاب يوسف إلى الفؤوسن السادس: وقد بلغنا يا
انفذش أنت دعوت إلى الاجتماع بك وتمنيت أن تكون لك ذلك تعبير
 البحر عليها إلينا، فقد اجترناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة
 بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك (ومداعة الكافرين إلا في
فلما وصل الكتاب إلى أنغفنش وسمع ما كتب به إليه جاش بحـر
غيظه، وزاد في طفانيه وكبره، وقال: آبِثْ مَـعْـهِ هـذِهِ المَخَاطِبَـتِـي، وَانْتَهِيَ بِعَـنْـدِكَ مَنْ ْمُـلِيَّـتَـهُ مِنْ ثَمانِينَ سنة، وأقسم أن لا يبرح من مكانه الذي نزل فيه، وقال: يزحف إلـى فانسي أكَرِه أن الامام قرب مدينة تعسمه، وتعمني منه، فلا أشيئ نفسه بقتله، ولا أبلغ أمي فيه وبيني وبينه هذا البسيط المتسع، فاعلم السفراء أمير المسلمين بانتخاينه وما أظهر من طفانيه.
وكبريانه (32).

وأثناء تراشق الرسائل بين المعسكرين وتبادل الوفود كتب
الفونسو، إلى أمير المسلمين، كرما منه يقول: إن غدا يوم الجمعـة،
ولا نحب مقاتلكم فيه لأنه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود،
وهم كثير في مهلتنا، ونحن نفتقر اليهود، وبعد الأحـد عبـدـنا فحـترم
هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين، فقول أمير المسلمين:
اتركوا اللعـين وما أحـب، (33).

وحذر ابن عباس يوسف بن تاشفين، ويلاحظ أن يوسف اتخذ
معسكرنا خاصا به بعيدا عن معسكر الأندلسيين الذين عـسكروا في
وجه جيوش الفونسو، فقد عـسـكـر يوسف خلف تلة في تلك
المنطقة. ويدبر أن المسلمين صدقوا مما كتب به إليهـم
الفونسو، وفقط المعتقدم أتخذ الاحتياطات اللازمة وبـث اليعون
والطلاع، وأمضى الليل بقطة خشية هجوم مفاجئ، وجاء فجر
الجمـعة الثاني عشر لرجع الفرد سنة تسع وسبعين وأربعمـان، (34)
(32-تشرين أول 1086 م) دون قيام هجوم ليـل في مـال
المسلمين إلى الراحة مع إبـقاء قوات الاستنالاع واتباعـه على خصـة
القتال، إما خطة دفاعية حيث يرجى أن المسلمين لم يفكروا
بـمهاجمة الفونسو وقواته، وفي صباح يوم الجمعه استعد الفونسو
لهجومه، وارتقي في ربوة مع جماعة زعماء قومه ليبصـر أعداد
جيوشه، فاعجبهم ما رأى من كثرتهم ومعمان دروعهم. فبعد ذلك
تقدم بجيشه قاصدا محلة المسلمين فاقبلت طلائع ابن عباس تنادي
وتقول إن الروم في إنيالنا، والناس على طمأنينة، وقد كانوا يتوقعون على أن يكون المتعمد بن عباس في قلب المقدمة، والمركل بين الأفطس في ميمنتها، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها، وسائر أهل الأندلس في الساقية، والرابطون وأهل العدوة كمئات متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء.

فلما علم ابن عباس بقدوم الطاغية عليه بدار الركوب على غير تعبئة ولا أهبة، وغشيهم خيل العدو كالسحاب، وعامتهم كقطعة الليل، وظنوا أنه وهم لا يقع، فوافق محلة ابن عباس في طريقه باهل الشبيلية وسائر عملائه، فOutcome بينهم حروب صعبة كانت الدائرة فيها على أهل الشبيلية، استأثر الله فيها بأرواح شهدت لها الرحمة وخطبتها الجنة، وخرج ابن عباس بجراحات وأبدى في ذلك اليوم بلاء حسنًا... قال ثم ثاب العسكر من المسلمين لأنفسهم وحملوا على محلة أتفشح حملة صادقة.

وقد كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على حين غفلة، ولم يكن عنده علم بما وقع، إذ كانت محلته بعيدة عن محلة ابن عباس، حتى بعث إليه ابن عباس كاتبه ابن القصيرة فأخبره، فركب وأحذق به زعماً لمئة، وكبيره صنهاجة وسائر عسكره (48).

واحتاج إبرام الخبير إلى مسكون يوسف بن تاشفين بعض الوقت، وهدر المزيد من الوقت في ركوب القوان المرابطة واتخاذها الوضع القالي، يضاف إلى هذا أن يوسف سبتا، في أرسل النجد إلى ابن عباس، وله أراد التخلص من القوانات الأندلسية، قال ابن الكرديوس: فأعلام أمير المسلمين بانهازم الروؤساء فقال أتركهم قليلاً للفناء فكلا الفريقين من الأعداء (49) ومع هذا بعد حين بعد صغير من الجندي للوقوف إلى جانب الأندلسيين والتفرج عنهم، وبدا أن الفووز قد تصور أنه اشتبك بالقتال ضد جميع القوان المسلم وقت لم يعرف يوجد معسكر منفصل للمرابطين، ولقد شدد الضغط على القوان الأندلسية واستنفط طاقاته ضدها ولم يتخذ ما ينبغي من اعتيادات، لهذا ما أن وصلت
طلائع القوات المرابطية حتى تغير التوازن وفيما الحال هـذا كان يوسف بن تاسفيش قد بث بالجسم الأعظم من قواته لقوم بحركة التفاف وتهجّم متعاف معسكر العدو، وتمكنت القوات المرابطية بيسر من نجح المدافعين عن الجيش الصليبي والقضاء عليه، وفوجئ الفونسو وقواته، ومزق الجيش الفرنجي بعدما حاول الفونسو أرسل بعض كتaneب نحو المعركة، وفي هذا الوقت النقت القوات المرابطية بالقوات القداسية، فطلعت القوات الصليبية، ومعه هذا جمع الفونسو بقایبه وصمد وقال بشراسة، فقام يوسف بتوبيجه حرسه الشخصي من مقاتلي السودان فنفّضوا صفو الصليبيين وأصيب الفونسو بجراحه كبيرة، وحدث هذا ورجالات الفونسو كلا وثقلهم السلاح مع بعد المسافة، فانهزموا، فاقتفي المسلمون أثارهم وركوبهم بالسيف، وما من جيشهم خلائق وتبادوا في الطريق، فمن بين قتيل، ومن ثقل صريح (77) وتسك الفونسو من بين الجرحى ومعه عدد ضئيل من جنه، وهم جميعاً مقتلين بالجراح، وكمبا بالغ المصاب العرب في تقدير عدد القوات الصليبية بالغ في تعد خسائر هذه القوات وأوجحت أن جيش الفونسو قد دمر وأبيد، وتحذرت الأمير عبد الله عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالصليبيين وقال: » ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل، وإنصرف أمير المسلمين راجعا إلى اشتبيلة على حال سلامة ونصر (58) ويعنّي هذا أن القوات المسلمة لم تطرد قتل العدو ولم تحاول استمرار النصر المحلي الذي أحرزته، وكان أقل ما هناك محاولة استرداد طليطلة، فماذا حدث هذا؟«.
الطليطلة أو غيرها، يضاف إلي هذا أنه كان من عادات لمثوسة عدم مطاردة فلول المنزهمين من أعدائهم، قال الپـکری لدى حدثه عن عادات المنتزمن القتالية «ومن فر أمامهم لم يتبوعهم»(9) وطبعا لم تقم القوات الإندوسية بأعمال المطاردة أو محاولة استرداد طليطلة بعدم توفر الإمكانيات، ولخوف كل واحد مـن ملوك الإندوس على ملكه، ويمكن أن نضيف معرفتهم أكثر من سواهم بإمكانات الأعداء العسكريه، فنحن سنجد بعد وقت ضئيل معاودة الـفونسو حملاته على المسلمين ومن ثم الاستنجد ثانية بيوسف بن تاشفين.

ويستوجب تأييد لهذا مما رواه صاحب الحلال الموشيه لدى خيده عن فرار الـفونسو قال: «فقر، يوسوف المسلمین تتبعته حتى لـم على رؤية عالية اعتصام بها تعمر مرمقاتها، وأحدقت بهـا الخيل، فقال لهم أمير المسلمين يوـسف بن تاشفين: الكلب إذا أرهق لابد أن يعض قد سلم الله المسلمين من معرته، ولم يقتل منهم إلا القابل، فلا همـنا على هؤلاء أبوا بلاء عظمهـا، ولكن اتركهم ولاحظوا حلالهم، فلما جن الليل فروا وأصبحوا يوم السبت فلم يوجد لهم أشر، ثم شاه أمير المسلمين عنانه، فنزل الناس بعنف، وقد ابان الله بصارمه تلك الشوكله، واستحلصل أولئك الجموع المشركة(10).

ومع هذا فقد الحميري صاحب الروض المـعان روايات وآراء جديدة بالاعتبار، قال الحميري: «وكان الأحجاز الطاغية بشرمنته جعل ابن عباد يجبر على اتباع الطاغية وقطع دابره، فأتي ابن تاشفين واعتنى بل قال: إن اتباعه اليوم لقيه في طريقه أصحابنا المنتزمن راجعين الينا منصرفين فهلكهم، بل تصبر بقية يومنا حتى يرجع الـينا أصحابنا، وجتمعون بنا، ثم نرجع اليه فنقضم داءه، وابن عباد يرغب في استمغال الهلاكه ويقول: إن فـم إمـامها لقيه أصحابنا المنتزمن فلا يعـجزون عنه، يوسيـف مصر على الامتناع من ذلك، وما جاء الليل تسلل ابن فرنارد، وهو لا يرودي على شيء، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدا بعد واحد من أثر جراحهم، فلم يدخل طليطلة إلا في دون المانه».

-181-
ويمه ان سوء النوايا وانتقاد الثقة بين الفقراء والحراس على الملك ضعف على المسلمين مكاسب هذا النصر المؤزز، وهكذا تبدد الوقت وضاعت الفرصة، قال صاحب الجاهلة الفوضاوية: وله قضى الله بهذا الفتح الجليل، والصنع الجميل، أقام المسلمون في جميع أسلابهم، وضم عدهم مدة أيام، فامتنات أُبيهم بالغنائم الوافرة والسبه الكثير، واتكسب الناس فيها من أثاث الحروب والأموال وسيوف الحلي، ومناطق الذهب والفضة ما أغناهما.

وكان يوما لم يسمع بمثاله من الأبروك والقادسية، سبالة من فتح ما كان أعظمه، ويوم كبير ما كان أكبره، فيوم الزلاقة تثبت قدم الدين بعد زلاتها، وعادت ظلمة الحق إلى أطرافها، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس، واعتززها رؤساء الأندلس، فجزى الله أمير المسلمين، وناصر الدين اباً بعـض يوسف بـن تاشفين، أفضل الجزاء، بما بل من أرماق، ونفس من خداق ووصل ل닉م هذه الجزيرة من حبل وتحوشما إلى تلبية دعائهما؛ واستبقاء نعماً من حزن وسهل حتى هزم على يده أعداء الله المشركين، وظهر أمر الله وهو كاهون (102).

وفاد يوسف إلى أشبيلية ومعه ولوك الطوارف، وقد شعر هؤلاء الملوك بتنزل مواطنهم خاصة في اعين شعوبهم، وانهم شبه تابعين ليوسف بن تاشفين، يقول الأمير عبد الله: لا أنيقتضت غزوتهم، ذلك جمعنا في مجلسه - اعني رؤساء الأندلس - وأمرنا بالاتفاق والالتفات، وأن تكون الكلمة واحدة، وأن النصارى لم تفترضنا
لا لقد كان من تشتتنا واستعانه البعض بهم على البعض، فأجابه الكل إن وصيته مقبولة وأن ظهره مما يجمع الكل على الطاعة والجري إلى الحقيقة، ثم تحدث عن شكاوى قدمها بعض الحكام ضد بعضهم البعض وعن موقف يوسف بن تاشفين من ذلك كله، ثم أخذ يوسف يعد العدة للعودة مع قواته إلى المغرب، وقد اطلع عبانا وسباعا من اختلاف كلمة ما لم ير وف الجليلة في الجزيرة، وأنس الجميع، ولم يتربص في البلاد، أن يعود عليه السلام، مما يتوقعونه من احتياج رعيتهم إليه، فكل من شكا عليه ذلك الوقت من رعيته يقول له: لم نأت لهذا، والسلاميين أعلم بما يصنعون في بلادهم، حتى أزيد بذلك نج하 إلى ما كان عليه في قلوبنا، والله استناماء وميلا، ورجع الكل إلى وطنه (93).

وقيل الكثير عن الأسباب التي دعت يوسف إلىعودة إلى المغرب، من ذلك ما نقله صاحب الجليلة : "وعلي ضر من وقعة الانسحاب وأنصف أهل الأندلس إلى بلادهم، ورد عليه ضعف ورجع، ونبا اقتحمه بهوحله أبي بكر سير، فتعلن ابنه مسن العدواء وصددهم، وقد قضى في عبرة وطراه (68).

وقيل السبب الذي عجل بعودة يوسف هو موت أبي بكر بن عمر وتحرك ابنه إبراهيم، ولقد عالجنا مسألة الوفاتا من قبل، اضاف إلى هذا أن الزلزلة وقعت سنة 427 هـ، وذهب المبارص التي دحضنا روايتها إلى أن أبا بكر قد توفي سنة 428 هـ، وقد تحدث صاحب روض القرطاس عن عودة يوسف بن تاشفين فقال: "ولاتصل بأمير المسلمين يوسف...وفاة ولده أبى بكر، وكان تزكيم مرضا بسبيبة فاغتنم لذلك وأنصف راجعا إلى العودة بسبب وفاة ولده، ولولا ذلك لم يرجع. فгазى إلى العودة ودخل حضرة مراكش، فاقام بها إلى سنة ثمانين وأربعمائة، فخرج في شهر محرم الآخر منها ينطوف على بلاد المغرب، ويعتقد أحوال الرعية، وينظر في اسماء المسلمين ويسأل عن سير عمائه في البلاد وقضائه، (94).

ويرجع أن عودة يوسف على أعماله كانت روتينية، أو أنها
ارتبعت بتفجر مشاكل خطرة مع الناصر بن علاء سلاجقة جنوب الحد . (في جزيرة اليوم) فقد أغتى ابن حماد على الأراضي المربطية , وقيل حدث هذا أثناء وجود يوسف بن تاشفين في الأندلس , وهذا في محفوظات الفانيكان نص رسالة مرسلة من البابا غريغور السابع إلى ابن حماد , كما حفظ لنا ابن يسحاق في كتابه النبضية نص رسالة تقريع بعث بها يوسف بن تاشفين إلى ابن حماد (1042).

وعلى جميع الأحوال شكل جواز القوات المربطية إلى الأندلس نقطة تحول في تاريخ هذا البلد وفي تاريخ المغرب أيضا . فقد إعار نصر الزلاقة الشوامز العسكري والسياسي إلى ديار الأندلس , وأدخل سقوط هذه البدر عدة قرون , كما أن ظهور المربطين على أرض الأندلس ازاح الفرصة أمام مسلمي الأندلس وعلى رأسهم بعض القضاة للشكوى ضد ملوك الطوائف ثم التمرد على سلطانهم , ومنير أنه لولا ذلك لما سهل على يوسف بن تاشفين توحيد الأندلس وازالة ملوك الطوائف.

وقد رفعت جملة الحواشت من مكانة المتهم بن عبادة في الأندلس , وأظهرت أنه أقوى ملوك الطوائف وأكثرهم جدارة ; وانه بالتالي منافس حقيقي للوسيع المربطي في الأندلس , ذلك وضع الخطط للاستيلاء على بلاده نفسه بل للخط من شأبه وتقيه ومعاملته بسوء كبير .

وقد وقعت هذه المعركة بعد ست عشر سنة من وقوع معركة منازك . فمعركة منازك كتبت القفص في العلاقات البيزنطية الإسلامية - أو نقل العلاقات بين أوروبا الشرقية والمشرق الإسلامي - منذ القرن الرابع ه / العاشر لميلاد ; بعدما انتساب الضعف الدولة العباسية وصارت البند العليا في جهة الثور , لا يل . داخل الشام والجزيرة ، البيزنطة ، والتي نفسها يحدث الآن في جهة المواجهة الإسلامية مع أوروبا الغربية , في تعد مبادلة متوالية طوال ثلاثة أرباع القرن تلقت القوات الأوروبية ضرفة ما حققت على بسيط الزلزال , ومع أن المسلمين في الشرق والمغرب لم يستثنوا ما كسبوه مباشرة , لكن صوت الهزيمة طرق بشدة وعنف أبواب.
أوروبا من الشرق ومن الغرب، لاسيما وقد اجتاح التركمان اسية الصغرى بعد منازكرد، ونشأت لهم دول على بعد أميال من القسطنطينية كذلك الحال في الأندلس، فستقرأ في الفصل التالي قصة إعادة الوحدة إلى الأندلس وأخذ المسلمين مجدداً بزمام المبادرة العسكرية، ولا شك أن هذا كله شهد أجزاء أوروبـا الغربية، وزادها تعصبًا وتأثرا بالنشاطات الدينية، وهكذا استجابت شعوبها بسرعة لدعوة البابوية – كما سنرى – وحمل الأوروبيين شارة الصليب وخرجوا بحشود هائلة نحو المشرق لإزالة الإسلام منه وتحويله إلى وطن لاتيني وراء البحار.
الفصل الرابع

يوسف بن تاشفين وتوحيد الأندلس وعذبة دولة الطوارف

راينا في الفصل المقدم أن الأمير عبد الله بن بلقن صاحب غرناطة، كان من بين ملوك الطوائف الذين استقبلوا الأمير يوسف ابن تاشفين وشاركوا في معركة الزلقة، ومنذ ذلك Èا الأمير الأندلسي على درجة عالية من الأهمية، حيث أن مبادئه وثائقية، وحين أجمل الأمير عبد الله نتائج الجوار الأول ليوسف ابن تاشفين قاً: وأخذ أمير المسلمين في الانصرف إلى بلاده، وهو قد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كثيرون ما لم ير وجة لبقائنا في الجزيرة» (1)

ونظروا لعدم قيام المسلمين باستثمار ما منحهم اياه نصر الزلقة ما لبث الفونسو السادس أن سمع إلى لم شعثه وتدارك بعض مما خسره ونابعة نشاطاته التوسعية بشكل أو أخر، واستغل قيام صراعات حول بلنسية بين ابن عباد وأخر تغلب عليهما اسمه ابن رشيق، وفي الوقت نفسه نشأت بعض العصائب الإسبانية في منطقة الされること، واعمال لورقة وربط، وهي الكورة التي عرفها المسلمون باسم تدمير، وقام على مقررة من لورقة محصن حكمن على رأس جبل شاهق بين وبين لورقة نصف يوم يملكه العدو (2) واسمه ليبط، شجنه الفونسو السادس بأعداد وافرة من المساكر وامره بالاغارة على الأراضي الإسلامية، وهكذا كانت سراياه تغير شرقا وغربا، إذ كان في موسطة بلاد المسلمين (3)

وخلال عامين انقضيا بعد معركة الزلقة تزداد الأوضاع كثيرة وشرعت الوفود الأندلسي بالتوجه إلى مدينة مراكش والأنقلاء بيوسف بن تاشفين حيث شكك الله سوء الأحوال الأمنة في الأندلس، فقل يزل وجه الأندلس من تلك البلاد، يتردون اليه.
بالشكوى حتى وعد بالجواز اليهم، إذا أدرك الاتفقات مع ملوك الطواطف.

وكنا قد رأينا أن المعتمد بن عباس قد تصدر يوم الاغلاق ملوك الطواطف، وأمهاك من الفاونسو لهذا الحال عند كل حصن لي 用户 الممالي لعمل أبي عباس فشحنه بالخيل والرجال والرماة، وأمرهم أن يدخلوا من حصن لي figuring في الخارج في اطراف بلاد أبي عباس دون سيائر بلاد الإندلس، فكانوا يدخلون منه خيلاً ورجالًا فيقتلون ويسرون في كل يوم، جعلوا ذلك وظيفة عليهم فساء ابن عباس ذلك وضاقت ذرعاً (6).

ومن المقدر أن ابن عباس عرف بتفاصل اتصالات الأندلسيين بيوسف بن تاشفين، وأن يوسف أبدي استعداده للجواز إلى الأندلس، شريطة عقد اتفاق رسمي حول هذا الموضوع، ونظراً لتبديل الأوضاع بعد الاغلاق ولأن يوسف بن تاشفين لم يعد الآن الصاحرومي ملك العدو، بل أمير المسلمين والسيد القوي، لم يقدم ابن عباس على ممارسات واستدعائه، بل توجه إليه شخصياً، فغادر اشبيلية على رأس وفد كبير وجزءاً من ناس إلى مدينة مراكش، ويفيد هذا وجود ترتيبات مسبقة أعدت لهذه الزيارة حتى جاء يوسف إلى هذه المنطقة، وروى صاحب الحلل الوضعية أن يوسف بن تاشفين قابل بإسلامة الترحيب بوجه طليق بصر رحب وأكرام جم، وقال له ما السبب الذي دعاه إلى الجواز الين، وهلا كتب به حاجته فقال له: جئتكم احتساباً وجهاداً، وانتصاراً للدين، وقد اجريت خير إليك، وحظك مما جئت به الحظ الآخر، وقد اشتهد ضرار النصارى المستحيل على حصن لي بط، وعظام أذى بالمسلمين لتوسط في بلادهم، ولجهاده اعتصم منه أجراً، ولا تأكل منه وزناً. فلتقى أمير المسلمين مقصده بالقبول، ووعده بالحركة والجواز، فاستحده واسترتو منه، وصدراً إلى حضرية اشبيلية، وتقدم إلى كل طبقة من أهل مملكته بالاستعداد وأكثر أعمال السهام والمطارد، وعمل العرادات وغير ذلك من الآلات (7).
في رواية صاحب الحلول هذه مسحة ناعمة واضحة، واكثر واقعية
منها ما حكاه الأمير عبد الله في ذكراتي حيث قال: «وإن المعتمد بن
عبد الله رأى من خلف ابنا رشيق عليه واته أراد أن يهمل ابنه
الراضي برسوم خاصة عن الجزيرة، صار بنفسه إلى أمير
السلاطين، وجاء إليه البحر، يربط السفينة وحجم معه شملاء
من عمل في مرسية وغيرها، ونظمه له شنح ليبط، وأنه في قلب
البلد، وأن لراحة المسلمين أنها بقده، وعاقده على أن يأتي عليه
نفسه ورجاله، لكي يتهدأ سلاطين الأندلس حربه بعدهم وأجماعهم
في نواح من يقلمهم عنه،».

وفي سنة إحدى وأشمانين وأربعمائة جاز أمير السلاطين إلى
الأندلس الجوائز الثاني برسوم الجهاد... فركب البحر من قصر
المجار إلى الجزيرة الخضراء، فطلبه ابن عبد بن الفاتي ثوب
الميراء والضيافة، فلما نزل يوسف بالخضراء، كتب منها إلى
أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد، وقال لهم: «الموعد بينما
حص في ليبط، ثم تحرك يوسف من الجزيرة الخضراء، وذلك في
شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأثمانين وأربعمائة، (حظرود
188 م) فنزل على حصن ليبط،».

وتجمعت القوات الماربانية والأندلسية أمام حصن ليبط، وكان
بداخلهم الروم الفرسان، فانتقل الف راجل وانتصارات
الحروب، وكثير الورود، وتمادي القتال على الحصن ليلًا ونهارًا
منذ أشهر، وكان أمير من أمراء الأندلس يقاعد في يوم بخيله
ورجاله.

واجتمع المعتمد بن عبد ويوسف بن ناشفين، وظهر لهما من
حصانته ومنتزهته واستعضاهم ما استمع عنه... وأنه لا يتبع لهما
فأخذه فالمارب، وقطع مادة القوة عنهم، وكان من جملة من
وصل من رؤساء الأندلس ابن رشيق صالح ملك السلاطين بها على
المعتمد بن عبد، فشكا ابن عبد بن رشيق لأمير المسلمين وذكر
انزاءه عليه، وأنه دفع جليبه مكولة للطاغية انفندش، فحضر
ابن رشيق، واستفتي يوسف بن تاسفي في أمرهما الفقهاء
فوجب الحكم على ابن رشيق، فأمر يوسف بن تاسفي بالقبض
عليه وإسلامه في يد ابن عباد، ونهاه عن قتلها، فقتله ابن عباد
فهرب للحين أصحاب ابن رشيق وقرابته وجميع محتله إلى
مرسية، وانتزوا بها، ومنعوا المرة عن المحلة، فاختلت أمورها
ووقع الفلاء بها، وارتفع السمر فيهما، فاضاقت الناس
الأحوال.

وفي أثناء ذلك استنصر أهل الحصن سلطانهم، فأخذه في الحشد
ويمه الحصن في أمم لاتحصى، فاقتضى راي يوسف بن تاسفي
التوسع على الحصن والتأهب للدفاع، فتأخر بمحله، وظهر له
أن الانفصال إذا وصل فغابه تخليص قومه وإخلاء الحصن وبرز
ضرره، ورأى أن الصفاء إخلاء الطريق له.

نما وصله اللعبل وجد قوما جياعا لا يقدرون على أمساك الحصن
فأحرقه وأخرج من كان فيه من قومه،(3).

ومثيل للانتباه اخفاق هذه الحملة لحصانة لبيط وانفجار مشكلة
مرسية، ومن أجل هذين المسائلين جاز يوسف بن تاسفي إلى
الأندلس، والمثير أكثر أن ابن تاسفي تجنب الصدام بقوى
الفونسو السادس، وفعلاً نظر نفسه الفونسو وقد عدل تصرف
الفونسو هذا نتيجة ما كان قد نزل به في اللاقة، لكن لنا تجنب
يوسف بن تاسفي الصدام معه؛ لعل السبب قد كمن في وضع
القوات الأندلسية في وضع الأندلس بشكل عام، ووصف ذلك كله
الأمير عبد الله يقوله: "وكانت تلك سفارة أخرج فيها أضحان
سلاطين الأندلس وراعيهم في ذلك نابون، أفواج شاكر، لما وجدوا لن
استقوا عليه فحالها منهم يلمس الزيد، والمساطر يرجل
الانتقام، وجعلوا في شكواهم فقهاءهم وساند يقتلون نحوهم
منهم الفقيه ابن القليعي قد صار خبانه تلك المحلة مغطية، لكل
صار ووارد يجديد السبل إلى الطل للفقر الذي قدره الله.

ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحاميم رعايهم وامتناعهم

من مفارم الأقطاع التي كانت عليهم مع احتيائهم إلى الانتفاغ ما قلق به وساء الظن من أجله، جيش يكلفونه كل عام، ومجاميلات تلزم المرابطين كثيرة، وتجف متوالية لوفرت منها في شي انتسرت عليهم الأحوال ثم راعيا تمتنع من ثانية ما تقوم به الحال المصووفة فلا حللة إلا بين صبر يؤدي إلى ملاءمة توجه عقوبة، أم امتناع يؤدي إلى استمال كالذ جرى.

وسمع في هذا كل من أهل جهانه تهديدا وعصيانا أنكرنها لاتتم به مملكة، ولا أدليها معه لأنه حاجة، ولقد كان الراقي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتهم إلا يعطونا شيئاً، وبعدهم بما كان، فلما كان يأتيهم الخوف منا يقدرون لنا، وننحن أهوج مما كنا عليه للانتفاغ، لاسيما في تلك المحلة التي عدنا فيها الأقوات، بالشاء كل يوم، فندخل علينا من ذلك ضرر شنيع.

وطال تلك المحلة الملونة... وكشفت الحورات... فلم يزده الرؤساء إلا توحشا ولا رعية إلا تساطعا... وحق لهم، مع اختلاف كلمة الرؤساء وهم في أسباب الغرق، فمن اغتري منهم طلب صاحبه وهو المطلوب، وشغله ذلك عنا هو في سبيله... وكانت مقدمات سوء، وزمانا على السلاطين عسيرا وسعدا للمرابطين مقتبلاً.

ثم قدم الأمير عبد الله تفاصيل جيدة عن مسألة ابن رشيق وبين أن أمير المسلمين، لما رأى حال ابن عباد مع ابن رشيق، واختلف ما بينهما، أعلم في ذلك عقده، ودبى برآيه وقال: ما تنبيغي لنا مفاسدة ابن عباد من أهل ابن رشيق لاحتاجنا إليه فيما نحن بسبله، وننحن لم نأم أمر الرومي ولا الأكد علينا في هذا الوقت مداراة ابن عباد حتى ترنينا الأمور ووجدها في هذا...

ويستخلص الإنسان من صوره التفاصيل التي حكاها الأمير عبد الله أن المسلمين اشغلا أثنا حصارهم لحصن لبيب خلافاتهم وليس بالشونة الحربية، وإن قدرات المرابطين في القتال ضد الأماكن الحصينة كانت متدينة، ومن المقدر أن يوسف بن تاشفين
كان مدركا لهذه الناحية وكان يعرف أن جميع الأعداء الأندلسية حرصية لا يمكن لقواته الاستيلاء عليها، ولذا نحابض، الآن عن وأحيانا شجع على تمرد عامة الأندلسيين على حكامهم، وتحالف بالوقت نفسه مع الفقهاء، فلم يخفوا بإصدار الفتاوى بجلع ملوك الطوائف، ولا بد أن تردي الأوضاع داخل الأندلس كان مريعا حتى تخلى الأندلسيون عن استقلالهم لصالح المرابطين.

وتشجع الفقهاء شعب الأندلس على الامتناع عن دفع الضرائب للملوك، ووجد هؤلاء الملوك الآن الحاجة إلى المزيد من الأموال لتنفق على تحصين ممتلكاتهم وتحفيز جندهم واسترخاء بعض القضاة والفقهاء، ونيل رضى رجالات المرابطين، وفي الوقت نفسه الاستمرار بدفع الجزية لألفوفهم السادس (1153) وهذا تعمقية الأمور كثيرا.

وجاءت المحصبات جميعا لصالح المرابطين.

في الجوائز الأول لم يدخل يوسف بن تاشفين في المسايل الداخلية للأندلسيين، لكنه في هذه المرة لم يكتف بأن أصبح يقوم بالاصفاح إلى الشكاوي بل مارس صلاحيات السيادة، فهو الذي أمر باعتقال ابن رشيق، وهو الذي استفقت الفقهاء، وحين لم يعترض أحد على ممارساته جاء ذلك بمثابة إقرار بتفويضه بحكم الأندلس، ويدفع للمفتوح بالسلطة اتخاذ الاجراءات المناسبة من عزل وتعيين وعقوبات.

وغير ذلك، وهذا ما كان.

وامضي ابن تاشفين في الأندلس أربعة أشهر، وحين عاد نحو المغرب.

واعد وهو أخذ قراره بإزالة ملوك الطوائف، ووضع الأندلس تحت حكمه المباشر، وسيكون هذا في الحقيقة تنفيذ للرغبة المرابطية الأساسية في التوسع بالأندلس، لكن الذي حدد أن هذا التوسع تمويه بلوسجهاد وإنصاف المظالمات، وتحالف مع رجال الدين.

ولقد أدهشت أوضاع الأندلس وتقدمها، ونهاها يوسف بن تاشفين والمرابطين، ولهذا رأى أنه إن تركها ملوك الطوائف لا بد وأن تسقط للأعداء، وهنا تمازجت المصالح والرغبات مع القناعات الجهادية والدينية، قال عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب وهو يصف
أحوال يوسف بن تاشفين بعد عودته إلى المغرب إثر الجزيرة الثاني: ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المعقد، فبلغني أنه قال لبعض قتالنه من وجهه أصحابه: كنت أظن أنني قد ملكت شيئاً، فلما رأيت تلك البلاد صغرتها في عيني ملكتني، فكيف الحيلة في تحصيلها؟ فوافقنا رأيه ورأى أصحابه على أن يرسلوا المعتمد يستأنفوا في رجال من صلبهاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس، ومجاهدة العدو، والكون ببعض الحصون المصادقة للروم إلى أن يموتونا، ففعلوا، وكتبوا إلى المعتمد بذلك فانكن لهم، بعد أن وافقه على ذلك ابن الألفس المشروك صاحب الثور، وإنما اراد يوسف وصاحبه بذلك أن يكون قوم من شيوتتهم مبتوهين بالجزيرة في بلادها، فإذا كان أمر من قيام بدعوهم أو إظهار ملكتهم وجدوا في كل بلد لهم اعوانا.

وقد كانت قلوب أهل الأندلس قد أغبرت كما نكرنا حب يوسف وأصحابه، فظهر يوسف من خيام أصحابه رجالاً انتخبهم، وأمر عليهم رجلاً من قرابة يسمي بلجين، وأمر إليه ما أراده، فجعل بلجين الذكور، وقسم المعتمد من ملوك الجزيرة، فقال له ابن تامورني بالكون، فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه (20).

على هذا استفاد يوسف بن تاشفين مع المرابطين من درس لبيت، لكن ملوك الطوالف لم يأخذوا حذرهم، أو أ Lehr تصوروا أن هؤلاء المرابطين سوف يعون عليهم عادة بسرية تحميهم داخل المدن، وذلك بعد سحب الحامية كلهما أو بعضها من الحصون وإحلال المرابطين محلها، واللهم أن خطة يوسف بن تاشفين همة التي نجحت.

بعد عودة يوسف إلى المغرب إثر الجواز بداية بعد العدة لتصفيحة ملوك الطوالف، فهو واقعياً قد اعترف به الجميع سعيداً للمغرب والأندلس، ولكن من حيث الواقع الشرعي لم يختلف وضعه عن
أوضاع ملوك الطوانف فلجميع كانوا من أهل السنة، ولأهل السنة خليفة واحد هو مصدر الشرعية لديهم واعتنى بذلك الخليفة العباسي، والخليفة العباسي كان يضع في الأندلس تعزوجه من البداية الشرعية، والآن بعد سقوط الخلافة الأموية لم يكسب ملوك الطوانف أي صفة شرعية، فقد عدوه من الشوار المتغلبين، لذلك توجب خلعهم، وطبعاً لم يحاول أي من ملوك الطوانف الانتصال بالخلافة العباسية في بغداد للحصول على إعتراف بحكمه وتفويض لابن انجي من هذا سمعه بعضهم للحصول على الشرعية والتفويض من عند الفونسو السادس.

فبعد العودة من ليبط دفع الأمير عبد الله للفونسو جزية ثلاث سنوات تقدمت، وهو يعرف تمام المعرفة أن المرابطين سيتوجهون إليه اللوم الشديد على فعله، وقد أخبره الفونسو مطمئناً له: "حتى أدرككم في ذلك طلب، فعلي الندب عن مدينكم. "(13).

واحتار الأمير عبد الله عبثا التفاوض مع الفقهاء وشراء رضاهم، لهذا التفت نحو جنده وقلاعه وحصنونه، وارد استخدام الجند وسيلة قمع، وهكذا اعتقل بوساطة الجند الفقيه القليعي، وأقلم على الجند الاعتيابات فوقع بهم، وهكذا قال: "وأنا جميع الجنود من الأثري والانقراض والناصبي ما حسبت أنهم يقانون على النجاح فسررت هذه الحالة وأطمانت إليها، وقلت: هؤلاء أمة لأيرين بيدنلا لانصافي لهم ورغب عيشهم معي، وهم قد رأوا جند العدو، وإن أفلح أبدمهم من غيرهم، وأصلح حالة، فلا يمكن استبدال الأثري بالفضل.

وشغله أيضا أمر المغاربة من المرابطين الذين أسكنهم في القلاع فسمى لشراء رضاهم أيضا، غير أن همه الحقيقي ظل متعلقاً بشغب مملكته وهكذا قال: "إنما وجدت نفسي من الرغبة لمطاعم في حكم المغرب، وللذي نشأ من الزكاة والمعيت عند المرابطين، وطمان نفسه أنه مع وجود الجندر على رؤوس الشعب لن يحدث ما يخشى منه، ثم حدثه نفسه بناء على مسأله في ليبط أن
يُزيد من مناعة قلبه ، فقلبة واحدة قد تعرقل منسيرة جيش كامل اسمه يقول : "وكم غي يستطع الجيش القادم على أن يعم جميع البلاد ، ومحاولة معقل واحد منها تطول .... فصبرت وجه اهتمالي إلى تشديد الحصون وبنائها وإعداد ما يصلحها لحصار إن كان ، فلم أدع وجها من وجه الحزم إلا فعلته : من إقامة الأجباب ، وإعداد المطاعن ، وأنواع العدد من الترس والنبال والعرادات وجميع الأقوات ، وقلعتها من القرى ، وأعدت لكل حصون فتوه لزيادة من العام ، وفعلت أكثر من ذلك في المدينة حضرتي ، سالستغني عن تحديده لأشتهاره ، "

وحذره نفسه أن يوسف بن تاشفين لن يقدم على اتخاذ إجراء بحق ملوك الطوائف قبل " إبرامه لأمر الروم ، ولابد عند معاركتهم من فرج : إن غلب الرابط لم يفتنا الدخول في طاعته .... وإن غلب الرومي كنا منه على حذر " وصرف وجهه في الوقت نفسه نحو إعداد سفن في ميناء المكش القريب حتى إذا " تغلب الرومي ، تكون على البحر متصلا بالمسلمين ، تدفعه منه جهذنا ، إلى أن نضطر إلى الجوار وطلب السلام سباحة أذننا وتنتف من أموالنا " (24)

كان هم كل واحد من المتلنين في الأندلس ملكه ، واحد انعدم من قلوبهم شعور الارتباط بالأرض أو بالشعب ، والاهتمام بالقلاع في هذه المرحلة أمر جديد في تاريخ الأندلس ، شابهت به مع ما شهدته بلاد الشام في الفترة نفسها ثم ما تلاها من الاهتمام بالقلاع ، فحتى قيام الحروب الصليبية صنعت المدن الشامية الكبرى تاريخ البلاد ، وعاش الحكام في قصور خاصة بهم ، لكن منذ أواخر القرن الحادي عشر اخذت كل مدينة شامية تحمل قلعة حصينة ، فيها استقر الحكام ومنها حكموا ، وفي أيام الحروب الصليبية ثم بناء المزيد من القلاع ، أو بعث قلاع جديدة ، وهكذا انتشرت القلاع من المدن ،دورا ، وأخذ التاريخ السياسي والعسكري يستقطب حول القلاع .

وفي عودة إلى سياق الأحداث نجد أن إجراءات الأمير عبد الله وامثاله لم تكون مجدية ، ذلك أن يوسف بن تاشفين تمكن من مراسلة
الخلافة العباسيَّة في بغداد، وحصل من الخليفة على الاعتراف بمع
التفويض بحكم المغرب والأندلس، وهكذا بات بالإمكان اتخاذ أي
إجراءات ضد ملوك الطوائف لكن بشكل محكم جدا في ضمان النجاح.
ففي سنة 483 هـ/1090 م دخل يوسف إلى الأندلس للمرة
الثالثة.

لكن جاء دخوله هذه المرة بمبادرة شخصية منه دون الحاجة إلى
استدعاء وإبرام عهد مع واحد من ملوك الطوائف. لقد دخل إلى
بلاد هو مالكها الشرعي، يريد الشعب فيها ويدعمه الفقهاء الذين
أفتهوه جميعاً بخزمهم – أي خلع أمراء الأندلس – وقالوا ليوسف:
نحن خصائصك عند الله، لأن هؤلاء لا يجوز طاعتهم ما اقتضبه
من الفوج وانتهاك المحارم، وضيعوا غائب البلاد (هـ).

ولدى وصول ابن تاشفين إلى الجزيرة الخضراء، وافه المعمد
ابن عباس، فتلقاه بعدها مهن التعظيم، واحتفل في التضييف
والتكريم.

وتولت عليه الأخبار من الأمير عبد الله بن بلقين بما يفيظه
ويعقده (١٦) ذلك أن ابن تاشفين سأل المعتمد عما لهج الناس به من
ما ظننا رومنيا، فشهد بذلك الذي كان في نفسه... وأرسل أمير
المسلمين البلنا كتبتا يقول فيها: أقبل البلنا، ولاتباع ساحة واحدة
فرابني ذلك، وهو موضوع الانقراض، لما تقدم من الطب، وأن
بمحضر جميع أتباعه، والحاجة عليه في الوصول، ووعيد مرت
اليه بوجه رسل: أتسته ولا جدج الآخرين ما شاء الله
ففسحة وصولهما قرعها بكل ما نقل إليه، وأمر بتفاهمها في
الحديد على المقام، وقال لهما: يا الله، إن غزوة كانت وقعاً
الفونس والذين يأمر عليه فليصنع، واتباع بعض الفرسان
الناضجين مع الرسول على أسوا حالة، مضروبون مهولين
... فدهمني من هذا الأمر مالاً مفرع فيه ولاجابة، ولاظنت أنه
يجري على هذه الرتبة.

وأرسل على المقام كتبنا إلى اليسانه، فاول ما طاعت له، والي
جميع حصن الغرب ، ... وكان من كتابه اليمين ، أما بما بعد فقد
(17) اندلعوا ودعوا إلى يحلق الباطل ان الباطل كان زهوتا(18) وان خطايبه لم يرد على
ملذ منها الا والقبي بره ، وقام أهل على اخراج قاناتهم حتى
تناثرت المعافل كلها كانت الأذى العقد ... ومن امتنع منها قاتلته الرمعية
... حتى يلقى بيه .

قلت ندر منصنع ، وأتسع الخرق على الواقع ، وقتت : لاطاقة
لي بجميع اهل البلاد ، اذ غدوا وخرجوا على الطاعة ، في ندس
نمسك الحضرة ، ليس فيها خلق من غير جنس ممن كان في المعاقـ
و لاحلية مع الرجل أكثر من رغبته في خلقتنا ، ولا شم غيره
يسند اليه تستريح فيه من هذه الداهية العظمى والطامة الكبرى
ولامنالنكم ان نوجه إلى الروم ! ... ان شعر بذلك اهل
حضرتنا كانوا اول من يقاتتنا قبل المرابطين»(19) ... 

وبلغ الأمير عبد الله’s غابة جهده لنيل الرضى من ابن تاشفيـ
فأخفف وطلب منه المشول بين يديه وبعضه لي رسول الله يقـول
له: لاطاقة ولاصلح الا بالخروج «وذلك مع أمان» في النفس والأهل
 دون المال» ، وبعد مراسلات كثيفر يوسف اليه ان كنت استوحشت
من النزول الينا فتخبر من بلدنا موضعنا تصرف فيه ، ولتسكن غير
غرينة لنرى فيها رأينها»(20) ...

وصف الأمير عبد الله’s الأحوال داخل غرينة فبين أن الجند من
البرير فقد هجروا طاعته ، واعلنوا عن سرورهم بعودتهم المرابطين
وباتوا طامعين في الزيادة على أشيائهم للجنسية ، واتفق رأيهم على
الا يقفو بحجر ، وقدوهم كتبهم بالطاعة ، ووعدوه بالخروج الى
وتسلمهم الأمير عبد الله والثور منه ، وبالوقت نفسه أعلن التجار
انه لاطاقة لهم بالحرب وغالب كثير منهم غرينة ، وما رعية
فبض الذاك ما كانت تبغي ، طمعا منها في الحرية وأنها لا يلزمها
غير الزكاة والعصر وتخلى عن أمير غرينة اليوم حتى الخدمن
النساء والخصائص».
وبعث يوسف بن تاشفين بفرق من قواته لحصار غرناطة
فهجر المدينة إلى الأرياف جل سكانها وعلم الأمير عبد الله بإقبال
يוסף نحوه فأسقط بيده، وبعد تقليبه لجميع أوجاه الاحتمالات
رأى عبد الله أنه لا مفر امامه من مغادرة دار ملكه والنزول إلى
مختوم يوسف بن تاشفين مسلما نفسه وملكه، وطلب يوسف من
الأمير عبد الله تسليم ما لديه من أموال ودفائن، ففعل، ومن البث
أن تعرض لااحات شخصية وآعمال تفتيش جسدية، ثم ذهبا بعد
هذا كله إلى المغرب الأقصى، فأقام فترة في سبته ثم في مكثاف
الزيتون وبدرا في أشغال (22).

وقيل بعد هذا يوسف بن تاشفين توالت صاحب غرناطة وأخذوه منه، وإذ تركته ينسفه إلى بادها، طلب بالأثر، وافس الهل ما
ترجو صلاحه، ومع شرته وحيدته فهو بذلك مرسر مسلم، ففعل
بثقافه يصفي لك مامته، وفوجى الأمير صاحب مالته والقبي
القبض عليه وصولا ممثلكا ومقايتا، شم القمي في
الحديد، وامر به إلى السوس، وما كان طرديه على مكثافه
قيقده، فأخبر به ما قاس وصرنا وهو على تلك الحال قد شقي
بالكيل لعظمه، إن يتبرع به، فأوجب ذلك ما وسم به من
الشر، وإن أهل مالقة رفعوا به حينذ اتفعال قبيحة، وأبادي
سينة أسددا اليه، ثم بعث إلى السوس ليعيش هناك مرفقاً (23).

وإثر تنفيذ هذه العملية عاد يوسف بن تاشفين إلى سببة ليشولي
من هناك الأشراف على تصفية بقية ملك الطوانف، وقبل تباني
هذه الأعمال لابد من سؤال عن موقف ملك الطوانف تجاه ما حدث
في غرناطة؟

أما صاحب الحلول الموشية فقد أورد أن، المعتمد بن عبان والموكل
ابن الأفطس قدما عليه، يوسف، بغرناطة يهضانه بما تهيئ له من
ملك غرناطة ومالقة، فلم يقبل عليهما وأعرض عنهما، وانصرفا
عنهما إلى بلادهما، وأدرك ابن عبان الندم على استدعاء يوسف بن
تاشفين إلى الأندلس، وقال لخليفة المتوكل بين الأفطس، والله
لابد له أن يسقينا من الكأس التي سقي عبد الله بن بلقينٌ (۷۳).

لقد أورد صاحب الحلل هنا بعض حقيقة م занدث، وأولاً منه
واكث أمانة وقريباً من الأحداث الأمير عبد الله صاحب غزالة
العوزل، فقد ذكر أن يوسف بن تاشفين وعد العمدب بن عباد عندما
القاء الإث جوازه الثالث، بغرناطة وقائلاً له: أنا رجل مغربي
وليس قد متنى أخذ مال ولبلاد، وقد ترى ما رفع على صاحب
غرناطة، وثبتنا عليه ممن الرومي، وليس غريزي أكثر من
تخليصها، فإذا صارت في يدي، ولأيمكنتي إمساكها ليبن بلال
الاندبس من العدوة، وضعتها عند ذلك في يدي، فتكون أعظم بما
تصنع بها، واقعد لما يصلح المسلمين.

فلم يشك العمدب أن ذلك منه كائن، وعمل حساباً آخر ان قال في
نفسه: إن لم يتهبوا أخذها، بقوة صاحبها عن الخروج
اليه، فلا يست مما تؤخذ من وقتها واحدة، ستستند حاج ممن
اجلها، وتشكي عليه العسكرية كما صنع بليبيت، وتدخل الشائعة
فيحتج إلى الانصرف، وتقبي هذه المفعمة التي دعت للأمير الاهواء
زعيمها، وفيما ما يتلقى أمير غزالة اختيج الي، وكان لي
بذل الصولة على الفريق، ولانخلي من بركتها (۷۳) لكون ما أن حقق
يוסף بن تاشفين نجاحاته الأولى ضد غزالة حتى بدا يغير
سياسته تجاه ابن عيبد وحليبه ابن الخطلس، وقد الرجلان زمام
المبادرة، لأجل فقد استقلالهما، وهكذا لم يتمكننا من فعل شيء
لصالح ابن بلقيس، وعندما خاطب كل واحد منهم بما نصبه هذا
الأمر منجى الهمان، واليوم بين وغدا بك، فلم يمكنهم قراءة الكتب
دونه - ابن تاشفين - وعرضوها عليه، فقنعل علي، وكتبوا
الجواب بإملاه يقولون: إننا تريد أن تلطفنا باعمالك، ونحن قد
برنا الله، ولم يكن هذا الموقف غريبًا بالنسبة للأمير عبد الله، فقد
املاه الطاعة للمرابط والطماع، على يحصى للهجدي، مزيد في
بلاده، ولا يمكن لأحد منهم معيقء ولا الاستفادة من اجل منهم
لم يكن بعضنا ببعض على الرومي فكيف على المسلم (۷۵).
وبعد سقوط غرناطة ليوسف بن تاشفين طالبي المعتمد بن عباد بتسليمها له فلم يلتزم اليه، وهضر المعتمد بالتحيد وعزج جزءا شديدا، وخفف أن يذني به، فصارع بالفرار نحو قرطبة، وحاول يوسف شنша ورده اليه، فأخاف ووصل إلى قرطبة، ونحى حذر ابن الألفس و قال له: انج بذفسك فقد ترى ما حل بصاحب غرناطة وغذا بنا.

ثم أنه بعد أن ظهر للامير نفوره، وجه اليه بأمره بالقوام عليه، ويقول له: تريد الاجتماع بك فيما نحن بنسبهه، ليقول لا، فيجد السبيل كما فعل، فرافعه ابن عباد: إن ذلك كان وقت كنت ضيفاً وتسرب الظلم، فلزمتني مععونتك بنفسك وجميع أموالي، والآن انما انت لي جار مثل بديس وحفيده: وانت أقدر مني على القدر، بجنودك، فلا يمكنني الت골ف بنفسي، عسى أن تريد اخذ بلدي، إذا لاتصح لك غرناطة إلا بما بضف اليهوا معنا، الأندلس (2).

وهكذا توترت العلاقات بين المرابطين وبين المعتمد بن عباد واستولى المرابطون على جزيرة طريف ثم وجهوا التعليمات إلى المرابطين بالحصون فشاروا عليه (2) وقامت عليه الرعايا بكل قفتر، فأرسل إذ ذاك الي الرومي، يستغفر به، فقوته حقيقة من التغريب، فلما تبين للامير خلافة وقعته عنه شاور الفقهاء في أمره، فشاروا عليه بغيظه (2)

وسيرت الجيوش المرابطية ضد سكينتي قرطبة والشبيلية وسقطت قرطبة وكان المدافع عنها عباد بن المعتمد وكان يعرف بالله، وقتل عباد مع عدد من شخصيات المدينة، ثم توجهت الجيوش ضد الشبيلية، وبعد مقاومة شديدة من المرابطين يوم الأخد 27 رجب سنة 484 هـ – 1919 م (49).

واستباحت القوات المرابطية الشبيلية ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبيا ولا استبدا، وانتهت قصور المعتمد نهياً قبيحاً وأخذ هو قبضاً باليد، وأمر على الطلب من ولديه المعتد بالله والراضي تسلم.
القصائد اللذين كانا يتألقهما ، ففعلا وأما المعتمد بالله فإن القائد
واصل إليه قبض عند نزوله على كل مساكن يملكه ، وأما الراضي
بالله فعند خروجه من قصره قتله و خلقه جسده ، ورحل بالمعتمد
والله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله ببلقة
زادة ، فركب السفين ، ورحل بالعودة محل الدفيف ، فكان نزوله من
العودة بطنجة ، فقام بها أياما »(30) ثم اخذ إلى مكاسة الزيتون ،
ففيها مدة ثم اخذ إلى أغمات (32) حيث أمضى بقية حياته في فقير
منفع وذل لم يرتفع حتى موته .

وفي الرابع الأول من هذا القرن زار صاحب أزهار البساتين أغمات
حيث أمضى المعتمد بين عباد بقية حياته بمسارته ، فقال : » في هذا
المكان الساحر الذي تقع فيه أغمات حيث تنحمر المياح الصافية من
أعلى الجبال المقارية ، فتجعل من هذا المكان موضع ساحرا فيشتت
عن قبر المعتمد طيلة صباح من أيام الربع .... فلم أعثر على أثر
ولا اتساءف على ذلك فقد وجه هو كل هذى المكان الجميل ، هوى هذى
الشمس المشرقة ... هوى هذى المياه الجارية ... هوى هذى الشمس
المرقة ... هوى هذى الظلام الكثيفة ... هوى تلك النواج التي نراها تبدرق
عن بعد ، هو ذلك الشيء لا يوصف والذي يبعث في النفس متعة ولذة
ويفصلها عن هذا العالم الفاني ... هو ذلك النسيم الذي استنشقته
ذلك الصباح في هذا المكان الفريدوي » (33) .

وكان يوسف بن تاشفين قد وجه بعض قواته ضد المريه ، وذلك
بعد الفرار من أمر غزانتة ، وعرف صاحبها المعتصم بين صمادح
أنه لن يقدر على مقاومة جيوش المرابطين ، فبعث ابنه معر البوة
إلى مسكة المرابطين للتفاوض مع يوسف بن تاشفين ، وكان هذى
الامير فقرا ، وقد دخل لأبيه أنه سيؤثر على ابن تاشفين ، لكن
تقدره هذا لم يصب ، فالامير كانت مشتعلة وكان يصبر إطفاء
لهبها بالوعظ ، لذلك أمر يوسف بن تاشفين باعتقال هذى الأمير
ساعة وصوله إليه ، وهنا تحمل المعتصم في تخليص ولده من الإسر
فاصلج ، وبالنظر لانشغال ابن تاشفين بأمر المعتصم بن عباد ، فقرر
الضغط على المرية. وكان ابن صماد متقدمًا بالسن على الصحة.
ولما شعر بدنو متيته ووصى ابنه وولي عهده بقوله: "أتمسك في هذه القصبة طويل مقام ابن عباد في ملكه بإشبيلية مما استطعت، فإن رأيت ابن عباد قد خرج، فلا تتربص ساعة واحدة وانج بنفسك إلى القلعة، وأدخل البحر بما قدرت عليه من ذخائرك، إذ لم يتمعن لك في البقاء بعده.

وبعد سقوط إشبيلية للمرابطين في السنة نفسها ركب البحر فورًا وتاظه أنه يريد النهوض إلى يوسف بن تاشفين. وفي وسط البحر، وبعدما بعد عن أعين الأسطول المريطي تجوهر نحو الجزائر، ونهاية التجا إلى قلعة بني حماد. وأكرم صاحب القلعة وامته في ذخاريه، وأكرم ضيافته، وخرجه حيث يحب السكن، فاختار تداسس لأنها على البحر، وليقيف عن عين السلطان خوفًا من الطلب، وانحل في ذاته (33).

وباستياء المرابطين على المرية، باتوا سادة لعظم ديار الأندلس، وبيدهم كبريات مدنها مثل: إشبيلية وقرطبة، وغرناطة ومالقة، والمرينة، وجبان.

وفي سنة الاستياء على إشبيلية استولى المرابطون أيضًا على مرسية ودارية وشاطبة (42). وبعد هذا أعد المقاومة للاستياء على بلنسية وعمالها، وكان الحكم في بلنسية بيد الأمير بعبي بن ذي النون، وكانت الولاية تحت حماية مملكة شتنان وقعد عسكر فيها المغامر الإسباني السيد الكنيطور، مع فرسانه وقوات متنوعة من المرتزقة. ومع هذا تمكنت جيوش المرابطين من الاستياء على بلنسية. وقد فقد أثناء ذلك أميرها حياته، وتبعته إنتهى حكم أسرة ذي النون، أصبحت طليطلة شم بلنسية وكان ذلك سنة 1095 هـ/ م 685.

وبقي على المرابطين الآن تصفية ماك المتولك بن الأسفاس صاحب بطلوس، وهو الذي كان أول من استنجد بالمرابطين. وفي أراضيه قامت معركة الزلاقة، واحتاج المرابطون لثلاث سنوات حتى تمكنوا
من إزالة ملك ابن الأفطس، وذلك بوساطة إثارة الفقهاء والشيعة
ضده بسبب سباسته فهو كان يخاطب يوسف بن تاشفين. باطلاعة
الطاعة والشاركاء في أمر الري ، ويخاطب الفنوس ليستعين بها
على ملاءة إله دهته من المرابطين (9).  
وكان ابن الأفطس شيخًا يتبع هواه ويقدمه على عقله، وعلى
 вкусه كان ابنه المنصور، وقد حذره ابنه من اتباع هواه، ونصمه
 بالتخلي عن بطليوس وقال له: هذا التردد لا يجزئك، ولا يغني
 عنك ما ترى من أظهار الطاعة للمرابط، ولا طاعة أهل بلدك
 ومحبتهم التي كانوا يعرضون عليك، فلو أنهم برون بعض حقيقة في
 عزيمة لما أبقوا عليك، كما رأيت من بغيك. فاما أن تصففي
 المرابط فلن تبلغ مرضاته إلا بالانخال له، ووضع البلد في
 يديه، وتقضي بأن تكون متحريما متخليا عن الرياسة ففعلوا ذلك تجدد
 عندن الأمان، وإن تفيت نفسك عنه، فلا تتأخروا عن الأفرار منه
 بنفسك واهلك وجميع أسواك، يجعل الروم في أي بلد
 شنت، وربما سروعها لك، كما فعل بابين ذي النون في
 بلنسية، وتترك مدينة بطليوس لا تدخل على المسلمين
 داخله يحصدلك النجاعة، بمهجستك، وسلامة البلد
 للمسلمين، فقيل له أبوه، وسهف رأيًة: لا تترك موضوعي وعسي أن
 تهيئ الأقدار ضد ما تظن، فهو جزء منها ابنه، ونجاة بامانه
 وأهله، وخذ لنفسه بالرأي الذي أشار به على إبيه، فيبقى الشيخ
 لحينه حتى نفذ أمر الله فيه (10).  
وحكى المرابطون مؤامرات الفنوس على بطليوس، بأن اطلقوا من
 سجنهم ابن رشيق صاحب المعتمد بن عباد، وطلبو منه أعداد خطة
 للاستيلاء على مدينة بطليوس وتوجه ابن رشيق إلى هذة
 المدينة، وهناك عممل على شراء بعض الحرس ومساء المدينة، حتى وقع الاتفاق على أن يطرقوها لبلا، ويفتحون له
 الباب، فكان من ذلك ما حاولوه، وتعلقوا بالصور عند الأمارة التي
 كانت مع مم مداخله، وتقبض على الشيخ وابنه: الفغـ
واجه، واحترى له على أموال جسيمة، وأمر... بباخرته للقتل بعد أن رأى في نفسه هونانا عظيمة، وشدة على المال، ونقّم عليه ما كان من عمله مع النصارى والمعاقل التي أعطاههم، فلم يقبله مع ابنه: القرض والعواب.

وطاعا جميع ذلك التفّصيل للمرابطين، كان له مغتصب لغيرهم... ثم صار ابنه المنصور من جملة الروم حتى لما جرى على ابنه، يطلب الثأر، ويطرق معهم بلاد المسلمين.

لم تبق دولة من دول الطوائف لم تخضع للمرابطين غير دولة بني هود في الشرف الأعلى في سرقسطة، وكانت سرقسطة مهملة من قبل قوات الفونسو يوم دخل يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الأولى، واستفادت هذه المدينة بشكل غير مباشر من التحضيرات لمعركة الزلاقة، بأن رفع عنها الحصار، ففيما أمامها الفرص للاستفادة، وخاصة بعد نصر الزلاقة، وشكلت دولة بني هود سدا منيعاً في وجه الأسبان، وكانت أراضيها متجانسة مع ممتلكات ملوك قشتالة. وكانت هذه الأراضي نائية في الشمال، لم يكن من السهل على المرابطين الوصول إليها، اللهم إلا عن طريق شرقي الأندلس.

وكان المرابطون بحاجة للوقت لتنظيم الأندلس إدارياً وعسكرياً وامنياً، وذلك قبل الدخول في أيّة مغامرة عسكرية جديدة، اضطج إلى هذا أنهم اعلنا دوماً أنهم أزالوا ملوك الطوائف لتناغم آمالهم في الفرصة للجهاد ضد الأعداء، وكان لسان حالهم دوماً يقول: إنه لا ينبغي لنا قتال الروم، ونترك وراءنا الأعداء، مسّن يواجه علينا معهم.

وكان القبل على إزالة ملك بني هود فيما خدمة للأعداء وضرر على المسلمين وأدرك المستعين بالله أبو جعفر أحمد بن هود هذا، فحبس بلاده، وملك زمام رعيته، فخيف أمره، ولم يدخل عليه بسبب ذلك داخله، وكان مع ذلك يهدد أمير المسلمين ويكابده، وقال له في مكتبته: نحن بينكم وبين العدو سنة لا يصل إليكم منه ضرر، ومنايعين.
توقفت، وقد قمنا بالمسالمتهم، فاقتنعوا منا به من نفس الخنازير. فأجاب أبو يوسف من تناضحين إلى معاً ارداه. فأقام ابن هذوح رضي الله بهما، بينه وبينه وبين المسلمين، وبين المسلمين بالروم، لكونه حايلًا بينهم وبين بلاد الأفرونج والأردنانيين (النورمانديين)... وكان يتحف أمير المسلمين يوسف بن تناضحين وهديه مما تحصل بينه وبين نفس النخازر واليهاجات والجواهر، ورفيع الدنانير (٢٠).

على هذا تأخر استقاط دولة بني هود، ولم يقم المرابطون على اتخاذها لأنه كان لديهم في الداخل ما يكفيهما من مشاكل، ففقد سقط جل بلاد الأندلس سياسياً وعسكريةً بيد المرابطين، وكان لهذا نفقاته الهائلة في مواجهة أوبريا التي جاشفت فيها بشدة روح الحروب الصليبية. ولم تقتصر المشاكل على هذا الجانب، فقد كان على المرابطين مواجهة المشاكل التي نجمت عن السقوط المغرب الأقصى في أبدي الأندلسين إدارياً وأجتماعياً واقتصادياً وحضارية بشكل عام. وللهذا، كله، تركوا الظروف المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسين، لكنهم خبروا بأحوالها، وأدرى بلقاء العدو، وشأن الغارات، ولم يغفلوا من ولاتها أحدها سواهم، مع الأحسان إليهم، وكانوا متى ما وصلتهم خيل من العدو، بعثوا بها إلى اهل النفور (٢٠).

وبعد مضي عدة سنوات على إزالة دول الطوائف قام يوسف بن تناضحين سنة ٤٩٦ هـ / ١٠٠٣ م بزيارة رابعة إلى الأندلس، وبرفقة ولده أبو طاهر تميم، وابن الحسن علي، الذي تولى الملك بعده، وتجول في أراضي الأندلس وتفقد أحوالها ونظر في أحوالها فشلهما ببعضة طيقطية، ومقاتلة قلعة رباح، وصدده جبان، ومخالبه غزّانة، وجناحه الأيام بلاد المغرب، وجناحه الأيسر بلاد الشرق (٤١).

وبعد هذا عاد يوسف إلى المغرب ليتربث شؤون الملك مسٍّ عبيه، وذلك بعدما طعن بالسنس وقاضي المائة عام، وفي سنة
500 هـ / 1107 م توفي يوسف بن تашفين، وحين توفي كان قد مضى على أحداث الحروب الصليبية في المشرق أكثر من عقد من الزمان، توفي يوسف بن تاشفين بعدما عمر لمدة قرية من الزمان، وبعدها كما طبع تاريخ هذا القرن في المغرب والأندلس ببطاقة شخصية، فعلى يديه جمع شخصية المغرب الأقصى إلى الوجود الفعلي، وبوسعية الأندلس وضمها للمغرب الأقصى اعطى هذه البلاد هوية ماتزال قائمة حتى يومنا هذا، قال عبد الواحد الدراويش يصف هذا الأمر: "حين ما يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته باسره، ولم يختلف عليه شيء منها عدا من جملة الملوك، لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى، وأم قراه، ومعندي الفضائل منه، فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبي اليها، ومعدون منها، فهي مطلع شمس العلوم وأفامازها، ومراكز الفضائل وقانيتها مدارها، وأعدل الأقاويل هواء وأصفها جوا، واعتنى بها راحة، وأعطيها نبأًا، وإنهاها ظلالا، وأطعيبها بكارًا مستعذبة
وأصالة
فانتقط إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى أشتهب حضرته حضرته بني العباسي في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه في عسر من الأعصار (241)."

بعدما قدم يوسف بن تاشفين إلى أرض المغرب الأقصى وجد البلاد وأزال منها الفساد والاضطراب، وسعى إلى محو الظلم والاستغلال، وهذا أيضا ما فعله في الأندلس، فقد كانت أنظمة الحكم في كل من الأندلس والمغرب مهترئة لا تتمنى بأي رضى أو قناعة شعبية. وكان شعب المغرب والأندلس يندش الخلاف من الفرقة والذن والضربات القاسية والمغامر، أراد شعب الأندلس أن يحصل على شيء من الأمن وأن يسترد المسلم هناك كرامته، وتصميم أن إزالة ملك الطوائف ثم بكثير من العنف، ومرد هذا ليس لطبيعة
المرابطين الاجتماعية وسويّتهم العقائديّة ونظرتهما الإسلامّية إلى
الأمر فقط، بل لأن ملوك الطوائف كانوا من السوء بدرجة ليس
بعدها درجة، ولم يكن من الممكن التعامل معهم بغير العنف
شديد.

اما موقف الأندلسيين بعد اتم من حكامهم من بدأ الصحراء فذلك
موضوع اجتماعي،حضاري، ولا بد لكل تحول اجتماعي وحضاري
وسياقي من ردات فعل، لمهم أن المرابطين تمعوا أيام يوسف بن
تاشفين بقطب كبير من الشعبيّة في الأندلس لأنهم أظهروا في أول
إمرتهم من النكاحية في العدو، والدفاع عن المسلمين، وحماية
النفوذ، ما صدق بهم الظنين، وأطر الصدور، وأقر العيون، فزاد
حب أهل الأندلس لهم، واشتد خوف ملوك الروم منهم، وهوسيف بن
تاشفين في ذلك كله يعدهم في كل ساعته بالبيوض بعد البيوض،
والخيل إثر الخيل، ويبقى في كل مجلس من مجالسهم: إنما كان
غرضا في ملك هذه الجزيرة أن يستنقذهما من أيدي الروم، لما رأينا
استياءهم على أكثرها، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للفوز، وتواكلهم
وتخاذلهم، وإيثارهم الراحة، وإنما هم أحيانهم كأس يشربها،
وقينة تسعمه، وهو يقطع به أمامه، ولهن عشت لأغنين جميع البلاد
التي ملكوها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولاسلانها
 عليهم – يعني الروم – خيلا ورجالا لاعهد لهما بالدعوة، ولعلم
عندهم برخاء الجيش، إنما هم أحنهم فرس بيوسته ويستفرجه،
وأي سلاح يستجده، أو صريخ يلبدي دعوته. (23)

وطبعاً لا يخش يوسف بن تاشفين لبصق هذا الحلم الكبير، ولم
تنتج الفرصّة للمرابطين من بعده في استثناء النشاط الإسلامي في
الشمال لأسابق كان منها طبيعة أهل الأندلس، ثم قيام حركة
الموحدين التي اتّ إلى سقوط دولة المرابطين، فشفّع الأندلس
صلب الفياد للمرابطين بعدما عانى كثيرا من ملوك الطوائف ومن
العدوان الخارجي، فاستسلم بذلك للأمر المنفذي من قبل رجال
الصحراء بكل خشونة ودفاف وقسوة، لكن الحياة تتطور والأفكار
تتبديل، ما أن استرد الأندلسيون أنفسهم حتى باتوا غير راضين عن حكم الصحراويين لهم فكانت هناك الثورات المتوالية.

لا شأن في هذا المدخل بما حدث بعد يوسف بن تاشفين، ومفيد أن نختتم حدثنا عنه بما وصفه مؤرخ الأندلس غرناطي من أهل القرن الثامن، ثم بالانتفاضات التي خلفها رؤية قبره على صحابه كتسباب أزهرار البساتين: قال صاحب الجملة الواسعة تحت عنوان: "سيرة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين": كان رجلا فاضلا، خيرا، نكيا فطنا، حافظا بيبسا، زاهدا، يأكل من عمل يده، عزيز النفس، ينبيق إلى الخير والص@[الد، كثير الخوف من الله عز وجل، وكان أكبر عقابه الاعتقال الطويل، وكان يفضل الفقهاء، ويorgetown العلماء، ويصرف الأمر إليهم، ويبخ فيها برائهم، ويقضي على نفسه بفتياتهم.

اقامت بلاد الأندلس في مدة سعيدة جميلة، في رفاهية عيش، وعلى أحسن حال، ولم تزل مفتوحة محصورة إلى حين وفاته رحمه الله، وكان الجهاد انتقص بها منذ تسعة وسبعين سنة، من مدة لأعمر، إلى حين دخوله إليها، قدم شباخ المراقبين فيها، وكانوا أقروا، يكتم الصحراء، نبتهم صالحة لم تفسدها الحضارة، ولا مخالطة الآسافل" (44).

وبعدما فرغ صاحب أزهرار البساتين من زيارة أغماث قصد مدينة مراكش، قال: فقدلت في ذلك المساء نفسه لراكش، وهنا ذهبت لزيارة قبر آخر، فإذا رجعت من أغماث ومررت بباب اكتون ثم في طريق طوله ثلاثمائة متر، تتبع في مشيك حاطا من الطين فتصل إلى باب الواجه متصل، وكلها مرتقة عليها سما الفجر، وتبحر من ثنايا ذلك الباب تحت ظل شجرة من المشمش على الأرض لبنة متجمعة يبغي فن مسح عليها بالجير الأبيض: هذا هو قبر يوسف ابن تاشفين مؤسس مراكش، quênاد المجاهدين اللهمين في فتح غرناطة وقرطبة.
وفي كثير من الأحيان حاول بعض أهل الفضل بناء قبة على ذلك القبر، ولكن ذلك الدفني العظيم المتعود على الهواء الطالق، والعيادة تحت الخيام كان في كل مرة يهدم ما يبني على قبره، لأنه لا يقدر أن يرى فوقه في نومه الأبدى سقفا من غير الأوراق المتحركة.
ممات سنة يفوق المائة، وزاد ملكه على الخمسين سنة، وخلب باسمه على منابر أفريقيا والأندلس، أي على الف منبر، وتسعنة منابر، وامتدت مملكته من بلاد فرنسا إلى مضيق جبل طارق، وفي المغرب من طنجة إلى جبل الذهب بالسودان، أي على مسافة ثلاثونشهر طولا وعرضا، وكان لا يكتن إلا بأمير المسلمين (٤) .
الفصل الخامس

العرب والصراع السيطرة على البحر المتوسط

امتكن الوطن العربي شواطئ طويلة جدا على سواحل البحر المتوسط، وأبحر العرب منذ اقدم العصور في داخل هذا البحر، ووصلوا بين اطرافه، فقد أبحر الفينيقيون بين سواحل الشام وسواحل المغرب وأسسوا المدن والمراس والمصداك التجارية، ومسألة تأسيس قرطاج معروفة وكذلك حروب قرطاج مع روما، وقامت هذه الحروب مسكن أجيال السيطرة على البحر المتوسط، وانطلقت شراراتها الأولى من صقلية.

وكان عرب شبه الجزيرة قبل الإسلام يعرفون البحر المتوسط ويدركون مدى أهميته خاصة بالذبابة التجار، فقد اعتاد أهل مكة على رحلتي الشتاء والصيف، وأوصلتهم رحلاتهم التجارية أحيانا إلى سواحل الشام، فهاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم توفي في غزة.

واهتم النبي صلى الله عليه وسلم ببلاد الشام ومصر، وفي أيامه راسل عليه الصلاة وسلم السلام هرقل وملك النمساsilver ومقوقس مصر، ووجه أكثر من حملة عسكرية ضد بلاد الشام وكانت آخر حملة جندها بقيادة أسامة بن زياد صممت لترسل ضد بلاد الشام، وهذا ما كان بعد وفاته.

وفي أيام أبي بكر بعثت الجيوش لفتح بلاد الشام، فور الفراغ من حروب الردة، ورسعت خطة فتح الشام على أساس اهتم بشواطئ المتوسط أولا ثم داخل البلاد ثانيا، فجيش يزيد بن أبي سفيان تكلف بالشواطئ الشمالية، وجيش عمر بن العاص تكلف
بالجنوب ثم بفتح مصر، ومن ثم توسعت أعمال الفتح حتى الأندلس فينوب فرنسا وشواطئها المتوسطية.

وشرع العرب منذ العصر الراشدي بـالاهتمام بـبروك البحر المتوسط والرابطه على شواطئه، ومن مزايا البحر المتوسط كثرة الجزر فيه، وثمة سيطرة على هذه الجزر فواجدة جمهور نزول الأمر والأعمال عسكريه وسواها.

وفي ولاية معاوية على الشام لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب جرت المحاولات الأولى لـبروك البحر المتوسط، او ربما لتصنيع اسطول عربي يدافع عن شواطئ الشام ومصر ويحل أبوه على قبرص، وبالفعل قاد معاوية اسطولا تألف من عدة مئات من السفن بني بعضها في بلاد الشام وبعضها الآخر في مصر، ووصل الأسطول قبرص، وتمكن من فرض الصلح عليها دون قتال، وبـم آنها لشروط خاصة بأن يدفع الـقبارصة للمسلمين جزية سنوية قدرها سبعة آلاف دينار، وأن يدفعوا المسلمين بمصر عدوهم من الروم إليهم، وأن يقوم إمام المسلمين بتعيين البطريرك على قبرص، وليس للمسلمين حق طلب النصرة العسكرية من القبارصة، وهذا أن يمنحوا لهم بدفع مبلغ سبعة آلاف دينار سنويا للإمبراطورية البيزنطية، وفي مرحلة تالية من حكم معاوية وضعت حامية عسكرية مسلمة في قبرص ظلت فيها حتى أيام يزيد بن معاوية.

وفي أيام معاوية بعدما اتى إليها الخلافة، استندت حركة الفتح العربية إلى الشمال الأفريقي، وامتلك العرب استراتيجيات متوسطية، واستهدفت تحويل هذا البحر إلى بحيرة شام، وهكذا ربح العرب الحرب ضد الأساطيل البيزنطية في ذرات الصواري، ثم حاصرموا الأفستنطينية في محاولة لفتحها.

وفي أيام الأيوبيين من عبد الملك أكمل العرب فتح الشمال الأفريقي ثم فتحوا الأندلس فسيطروا على أحد منفذي البحر المتوسط، وفي أيام
سليمان بن عبد الملك خليفة الوليد حوريت القسطنطينية مجدداً براً
وبيراً لمدة سبع سنوات، ولم يفلح العرب في الاستيلاء عليها.

وحكي الكثير عن نتائج هذا الاختراق، وأنه حماس أوروبا
النصارية وحضاراتها، وتحدث أميل لودفيغ في كتابه الحور
المتوسط عن هذه المسألة يقوله: "إذا ما تركنا جانباً حروب
الإسلام ضد فارس ومصر لعدم وجود علاقة مباشرة لهما بح יו
البحر المتوسط، وجدنا العرب يحاربون فريقين من الدول فيما بين
القرنين السابع والثامن، يحاربون بيزنطة والجرمان، وما تفق
لسلطان إبراهيم الصهراو في سرعة نسوب في قوته البحرية يقضي
بالعجب، ومن قول محمد ( صلى الله عليه وسلم): "نصر فوق
البحر يعدل عشرة انتصارات فوق البر، ومن الواقع أن العرب
غلبوا أسطول بيزنطة عدة مرات، فتقاموا حتى روسي
وقيصر، ووجدوا بيزنطة مفتوحة أمامهم، وهم لم يلقوا إلا عام
هذه المدينة نتيجة لمقاومة أسوار ثيودور، وفعل النار
اليونانية، التي اختبرتها حديثاً، وكان حصار العرب لبيزنطة الذي
دام سبع سنين اطول حصار في ذلك الزاوية من العالم منذ عصر
اش بك ماريا تروادة، أي اطول من حصار صور وتورنطة وسرقطة
ومع ذلك فإن بيزنطة فازت، فانتقلت أوربة كما قال
على، ومن أي شيء انقلت في العادة؟ لو صارت أوربة مسلمة منذ
ثاني عشر قرنًا ما أصبحت أقل حضارة ولا أقل سعادة. وذلك إلى
أن جميع البحر المتوسط كان يحيى بحركة ثقافية، وما كانت ستتأ
سنة تمران حتى كانت الأمم الأمازيغ تتأثر من العرب على الجبر
والحساب العشري والرقاص، واستعمال الآلات الفلكية والأدبية
المخبرة، وكما تعلمت منهم الصباغة والدباغة والرشو وصنع
الزجاج والخزف والبسط والورق، كما تعلمت منهم البساتين والري
وزراعة الأمطار الجديدة، وفي النبات، اكتسبت أوربة من العرب
الأقواص الصنوعة على شكل نخل الفرس، والنقوش على هيئة
النباتات والحيوانات، وفي الترصيع، ثم إن العرب فجروا الماء داخل
البيوت وفي الساحات والحدائق وفي كل مكان." (2)
ولكان العرب بعدما أسسوا مدينة القيروان في داخل إفريقيا وتقدموا في فتوحاتهم عادوا نحو ساحل المتوسط حيث أعادوا تأسيس مدينة تونس في موقع قرطاج، واتخذوا هناك دار صناعة هامتلكوا أساطيل خاصة بهم نشطت ضد الشواطئ الإيطالية وضد صقلية وغيرها من جزر المتوسط وكانت أهم النشاطات حسبما يلي:

٧٠٩ - حملة سنة ٥٤ هـ ٢١٤ م بناء على امريل عبد العزيز بن مروان والي مصر، وقد قادها ابن رافع النهلي، وقدمت الحملة من مصر إلى سوسة، وكان والي إفريقية موسى بن نصير، ومن سوسة توجهت ضد سردينية، على الرغم من تحذيرات موسى بن نصير، فقد كان الموسم خريفاً، ولذا تأخرت السفن أثناء العودة نتيجة لتعرضها للمعاصف، وحاول موسى استرداد بعض السفن المدمرة.

٧٠٩ - حملة سنة ٥٥ هـ ٢١٥ م أرسلها موسى بن نصير وقادها ابنه عبد الله، وسلمت غزوة الأشراف، ملكة الشخصيات العربية التي شاركت فيها، وقد تكفلت هذه الحملة بنجاح كبير.

٧٠٩ - حملة سنة ٥٦ هـ ٢١٥ م أرسلها موسى بن نصير وقادها عباش بن أخيل، وسار في سردوبة.

٧٠٩ - حملة سنة ٥٩ هـ ٢١٧ م، بعث بها موسى بن نصير ضد سردينية، وقادها عبد الله بن مرة، وقد عادت بأعداد كبيرة من الأسرى وكميات من الفيروق.

٧٠٩ - حملة سنة ٦٢ هـ ٢١٩ م بناء على امريل بن ناصر توجهت أيضا ضد سردينية، وقد غرقت في طريق العودة، وتوقفت الحملات اعتبار من هذا التاريخ ضد صقلية وساردية، لانشغال الأساطيل في عمليات فتح الأندلس.

٧٠٩ - حملة سنة ٦٢ هـ ٢١٩ م قادها محمد بن بوس العنصاري ضد صقلية، وعاد محملا بالفنانين إلى إفريقية فوجد والي البلاد يزيد بن
ابي مسلم الانصارى قد قتله حرسه، فعرضت عليه أعمال الولاية
ريقما يعين الخليفة واليا جديدا.
- حملة سنة 109 هـ / 727 م قادها والي إفريقية بشر بن صفوان
  نفسه.
- حملة سنة 110 هـ / 728 م وجهها والي إفريقية الجديد عبida
  ابن عبد الرحمن السلمى ضد صقلية فاصطدمت بالقوات البيزنطية
  وهزمتها.
- حملة سنة 111 هـ / 729 م وجهها والي نفسه، شاركت بها
  مائة وثمانون سفينة ضد صقلية، ولكنها تعرضت لكارثة بسبب
  العواصف وقلة احتياط قادتها.
- حملة سنة 112 هـ / 730 م وجهها والي نفسه ضد
  صقلية، وعادت مفتوحة.
- حملة سنة 114 هـ / 732 م وجهها أيضا والي نفسه ضد
  سردبية وكانت أيضا مفتوحة.
- حملة سنة 115 هـ / 733 م وجهها مجددا، والي نفسه
  واصطدمت مع القوات البيزنطية ففُقِتت عددا من السفن.
- حملة سنة 116 هـ / 734 م وجهها والي إفريقية الجديد عبد الله
  ابن الحنابض ضد صقلية فاصطدمت بالاستول البيزنطي ونشبت
  معركة غير حاسمة.
- حملة سنة 117 هـ / 735 م وجهها عبد الله بن الحنابض ضد
  سردبية.
- حملة سنة 119 هـ / 737 م وجهها والي نفسه واستشهدت
  سردبية.
- حملة سنة 122 هـ / 739 م وجهها والي نفسه واستشهدت
  فتح صقلية، وبعدما حققت بعض النجاحات استدعى للعودة بسبب
  ثورات الخوارج التي تفجرت.
- حملة سنة 120 هـ / 747 م أمر بها عبد الرحمن بن حبيب
  الفهري المتغلب على المغرب، فتوجهت ضد صقلية.
حقوي سنة 135 هـ / 752 م بعث بهما عبد الرحمن بن حبيب ضد كل من سرنيئية وصقلية، وفي هذه الآونة سقطت دولة بني أمية (3)، وشهدت بلاد المغرب مرحلة تاريخية جديدة، ولم تعرف البلاد الاستقرار حتى تأسيس دولة الأغالبة. وفي عصر الأغالبة في القيروان ورقاد تمت عملية فتح صقلية ولم يقدم جيوش الفتح إلى صقلية قائد عسكري بل قادها قاضي المسلمين أسد بن الفرات، وهاكم الحكاية:

نقرأ في كتاب الأخبار الذي أتى على ذكر الإمام أسد بن الفرات وفتح صقلية أنه في أحد أيام سنة 212 هـ / 827 م تجمهر أهلالي مدينة سوسة في تونس يتقدمهم أمير البلاد زيادة الله بن الأغلب ومعه أركان دولته، تجمهروا قرب مرسى المدينة لوداع الإمام أسد بن الفرات، الذي كان متوجهاً على رأس استطول كبير لفتح جزيرة صقلية.

وخاطب أسد المتحمرين قائلاً: «والله يا معشر المسلمين ماوي لي أب ولا ولد ولاية قط، ولا رأى أحد من سلتي مثل هذا قط، وما رأيت ماترون إلا بالاقلام، فاجهدوا أنفسكم، وأطيعوا أبدانكم في طلب العلم وتدويره، وكاتروا عليه وأصبروا على شدته، فانكم تتلون به الدنيا والآخرة». ودلالات هذه العبارة وإن بُدأت بمناسبة عسكرية، هي غير عسكرية، ومرد هذا إلى طبيعة اختصاص قائلها، فأسد بن الفرات كان قبل أن يكفل بقيادة حملة صقلية يشغله وظيفة قاضي المسلمين في إفريقية، وعد أول علماء الغرب الإسلامي وأكثرهم فقهًا، والبحث في سيرة أسد بن الفرات واعماله يقضي لأهميته أثاره عدد من القضايا البالغة الخطورة، وذلك على كثرة عدد العلماء والفاتحين في التاريخ الإسلامي.

لكي أسد بن الفرات أن يكون وحيداً، في تفرده بالجميع بين الفقه والإجتهاد والقضاء، والإمارة، وحياته على هذا مرتبطة وثيق الارتباط بتاريخ دولة الأغالبة في تونس، وبمسألة انتشار فقه المالكية في الغرب الإسلامي، وبالصراع للسيطرة على البحر المتوسط وفتح جزيرة صقلية.
وعلى الرغم من جلاة هذه الأمور، وأهميتها القصوى، فإن المصادر العربية شحينة المعلومات حولها، ومن المثير للدهشة أن مصادر التاريخ الإسلامي العامة لم تتعرض بشكل يشفي في الفليل لهذه الأحداث الجسم، فقد احتمت بشكل مكثف بأحداث الأقاليم المركزية لقبيلة الخلافة، ولم تحصل كثيراً بسرد تفصيل اخبار مسا جرى في الأقاليم النائية عن بغداد، إن أسيرة عربية مثلاً، حتى وإن وقعت هناك أحداث على درجة عالية من الخطورة وعميق الأثر مثل فتح صقلية.

وهنا نتفخع إلى كتاب التاريخ اللبية مع مصادر التراجم - إن وجدت - لتحصل منها على مصدر بحاجة إليه من معلومات، ومعلوم أن الغرب الإسلامي عرف سيركث تراجم نشطة، وتدويناً تدوييناً أخبار، ولكن المشكلة هنا أن هذه الحركة ولدت متأخرة عن وقت الحوادث المبكرة، ثم ان عدة من اليروات المبكرة مازالت محجوبة عنا، لم نصلنا كاملة أو لم نصلنا بالكامل.

ولحسن الحظ أن كتاب البيان المغرب لأبي عمار المركةي قد وصلنا كاملاً، ومع أن صاحبه صنفه في مطلع القرن الثامن للهجرة (712 هـ) فإنه استمد بتفاصيله الهامة على كتابات المؤرخين الذين سبقوه مثل إبراهيم الرقيق القروياني وغيره، ومعلومات ابن عداري عن دولة الأغالبة في القيروان وفتح صقلية على درجة عالية من الهمية والفائدة، وتمت إبراهيم يأتي بعده ابن خلدون، فذكر أن رواده في مقدمته وكتابه الفكر عن الغرب الإسلامي، في عظيم الفائدة، بسبب أطلاعه الواسع على مؤلفات مؤرخة المغرب والأندلس الذين تقدموا على عصره، ثم بسبب اشتغاله بالسياسة، وتقابل في عدد من الوظائف ونظراً لرحلاته الواسعة.

وقد قام في القرن الماضي العالم الإيطالي ميكائيل عماري بنشر (سنة 1858) كتابه الحافل "المكتبة العربية الصقلية، وفيه جمع أغلب ما تناثر في كتب العرب من أخبار عن صقلية والصقليين أيام دولة المسلمين، ولف كتاب أخر بالإيطالية بعنوان "تاريخ العرب".
 глазين الأثر. اكد أن تكون معدلات توزيع الماء بين الحضارات. يتأثر النباتات بتنوية الأغزية والأنسجة الحية. ومثل ذلك، فإن الأدوات الحديبية المطلوبة لتحسين الأغذية وتنمية الأراضي. توجد أنموذج من الخيات الديموقراطية والمدنية لتنمية الأراضي وتحقيق الحداثة.}

وقد ظلت هذه الخلافة طيلة حياتها غارقة في بؤرة مشاكل الشرق، وذلك لاحتمال أن اهتمام هذه الخلافة بالنماذج البحرية من ديار الخلافة كان من الدرجة الثانية، كما أنها عجزت منذ أيام ودائما عن تم سيطرتها عليه جميعاً. يضاف إلى هذا كأن الدولة العباسية دولة قارية نادراً ما اهتمت بالبحر المتوسط أو فكرت بناء أساسيات للدش - ط.

وفي العصر العبابسي المبكر أرسلت بغداد عدة حملات نحو الشماليات الأفريقي، وقامت بمحاولات متعددة للحيولة دون استقلال جميع بلاده، ولكنها أخفقت ونجح الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية في تأسيس حكمه في الأندلس، كما نجح عبد الرحمن بن رستم في اقامة إرادة تهتم الاستدامة في عمله مهاران جزائريات اليوم، ونجح بنو مدرار الصفرية في تأسيس امارةهم في سجلامة على طرف الصحراء، ونزل آل سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب التوفيق في تأسيس دولة لهم في منطقة تلمسان، وتمسكن ارديس أخو سليمان من تأسيس دولته في المغرب الأقصي، وكانت هناك من قبل دولة برشة على الساحل الثاني في بلاد تامسنا وادراكاً من بغداد لهذا كله، وخشية أن تتم المفاوضات الاستقلالية إلى بلاد المغرب الأدنى ومصر ساعدت على قيام دولة الأغالبية وذلك في أواخر القرن الثاني للهجرة، ولقد حازت دولة الأغالبية على
استقلالها، لكنها لم تقطع قط وشأنها بالولاية للخلافة العباسية.

وإن نتعم دولة الأغلبية بصورة أسبقية أي من دول الشرق الأفريقي، وكان نفوذها الفعلي على القبائل البربرية في الداخل قائمًا أصلاً، ثم انها لم تتعم بالاستقرار الداخلي إلا بشكل نسبي. فقد عانت دوما من الاضطرابات الداخلية والضغوط الخارجية.

ويحفل تاريخها بقنبلة الجند، وهكذا عندما وجدت نفسها محاصراً من الداخل انشبت نحو سواحل البحر المتوسط، وتورمت في صراعاتها السياسية والتجارية.

وكم سلفت الإشارة شغل البحر المتوسط منذ فجر التاريخ دور القلب البارز بالنسبة للحضارات، فعلى شواطئه قام ثم تطورت الديانات السماوية والفلسفات، ومن بلدانه انتشرت إلى بقية أجزاء العالم، وكان هناك صراع دائم بين القوى المختلفة حوله للتحكم بشؤون الملاحة فيه والسيطرة عليه وتحصيل الثروة.

وراحتنا أنه بعد قيام الإسلام، ومع انتشاره في الشرق والمغرب، تبدت أوروبا محاصراً من قبل العرب، وخاصة أوروبا الغربية.

وبين الحصار الذي خمره العرب كان جديداً كلياً: قفدية وقانويونا وحضاريا ودبينتا، مما أدى إلى تغيير جذري للنظم الاقتصادية والقانونية والحضارية العامة، ودبينتا في أراضي روما الغربية، ذلك أن جميع الطرق لم تعد تقوى إلى روما بل إلى حدود الإسلام، وتعادت سياسة استيراد القمح وسواه إلى أوروبا.

وفجعت أوروبا الغربية نفسها مخفضة على الذات بالانتصارات المدنية، ومن ثم اكتشاف الأجواء الشمالية منها، وإزالة الظلال لزراعة الحبوب مكان الأشجار، وهكذا انتهى نفيًا العصور الكلاسيكية القديمة وبدأت العصور الوسطى، فتحت اللهجات ذات الجذور الجرمانية محل اللغة اللاتينية، واختفت النظم الإقطاعية بالظهور، وهذا موضوع مستخدم اليه في الجزء الثالث المقبل من كتاب الملخص.

ولم يقتصر عمل العرب في سبيل السيطرة على المتوسط بالاعتماد
على الأساطيل بناءً على اهتمامات، بتحصين شواطئ بلادهم، فاقاموا المواقع الدفاعية، ومنائر البدار، وبعد سقوط الخلافة الأموية رحل الخلافة العباسيَّة محلها، ونعتها اهتمام هذه الدولة القارية بالبحر والسفن ضعفت السياحة العُربية على شواطئ المتوسط، وزاد الاعتماد على أنظمة الدفاع، مما أدى إلى تطور كبير في قواعد نظام الدفاع، وأخذت اعداد كبيرة من العلماء والزهاد باللقاء إلى مواقع الدفاع والمرابطة فيها، وهكذا بدأت مواقع الدفاع هذه تعرف باسم الرباطات - جميع رباط - ومع الأيام اختن الرباطات تؤدي وظائف دينية ثقافية، وذلك بضمان الجغرافيا مقاصدتها الحربية، وصارت الرباطات مركزاً للعلم في بداية على الطلب، وحوز المكتبات، وتشكيل رجاليات أنفسهم بالتعليم والثقافة والنسخ وغير ذلك، ومن هنا تأثير مزدوج داخلي وخارجي، بحيث صار يمكن أصداء الرباطات التأثير بالراري العالم، وفي رسوم السياسة العامة اتخاذ القرارات الهامة.

ولقد كان نظام الرباطات دوره الأهم على شواطئ الشمالي الأفريقي، خاصة في أرجاء سواحل دولة الأغالبة، ولقد أزدهر هذا النظام بشكل رائع ومعطاء خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة، ومازالت شواطئ الأفريقي تونس تحوي أثار عدد من الرباطات مثل رباط المندسيس وسواه.

واهتمت دولة الأغالبة بتأمِن موارد الاقتصاد كافية، وقالت جيشها الخاص، ورعت الحركات الثقافية في القرى، واعتنى بالعلم والعلماء، وقامت السياسة الدينية للخلافة العباسيَّة في المركز، وكانت حركة التواصل بين بلاد المغرب والشرق نشطة جداً، حيث تتفق التجار والحجاج وطلاب العلم من الشمال الأفريقي على بلدان المغرب، وكان لهذا أعم الأثار على مستقبل الغرب الإسلامي وأفريقيا وحتى على أوروبا.

وحينما يعرض المرء تاريخ قيام الإسلام بلاحظ أن موقع مكة على طرق قوافل التجارة العالمية قبل الإسلام ومع وجود الكعبة فيها
دفعتها نحو تزعم عالم شبه جزيرة العرب، ثم هياها لتحي دم مركز
قيام الإسلام، ومرة ثانية بعد قيام الإسلام، وانتشاره في الشمال
الأفريقي والأندلس، وجاء المسافرون من الغرب نحو الشرق أن
المدينة المنورة هي محطتهم الأولى والعظمى قبل التوجه نحو العراق

وهكذا نال القادمون للتعلم والثقافة دروسهم الإسلامية الأولى في
المدينة، ثم ذهبوا نحو استكمال التعليم في العراق، وكثير منهم لم
يذهب، بل اقتفى بما نهله من دار هجرة الرسول صلى الله عليه
 وسلم.

ومعروف أن المدينة كانت عاصمة الإسلام الأولى، فيها عاش
كبار الصحابة، وفيها تأصلت معارف الشريعة الإسلامية. وفي
المدينة نشأت الأعمال الفكرية في القرن الأول للهجرة. وأثرت في
القرن الثاني بقيام مدرسة أهل المدينة في الفقه على يد الإمام مالك
عين أنس، وحين جاءت هذه المدرسة إلى الوجود، كانت مدرسة
أخرى كبيرة قد قامت بالكوفة في العراق، على يد الإمام أبي حنيفة
النعمان بن ثابت.

ومن الملاحظ أن الخلافة العباسية كان لها سياسة دينية خاصة
فأبو جعفر المنصور، وهو المؤسس الفعلي للخلافة العباسية،
ابرك بفكره المخطط مسألة الأئمة الدينية في خدمة المقاصر
السياسية والمصالح الاستراتيجية للدولة، ناهيك بالدين
وبرجاله، يضاف إلى هذا أن عالم القرن الثاني، الناسك لجزاء
(الثامن والثاني للميلاد) قد عرف تياراً مفكراً سياسية نائت
بوجدة المذهب العقائدي للدولة، وهذا ما نراه في الإمبراطورية
البيزنطية في حركة عبادة الصورة. وفي حياة شارل وتأسيس
الأkkerية الإمبراطورية الكارلويلية في الغرب الأوروبي، وعلاقاته بالبابوية.

وطبعي أن نجد لدى العباسيين الاهتمام بالدين، فقد وصلوا
الي السلطة بوساطة ثورة أطلقها من مقاييم الإسلام القائمة على
المجز بين العمل الديني والدنيوي، واجتذب حاليهم بن بني أمية.
فمعاوية نال الخلافة اغتصابا بقوة السلاح، بينما نالوها عن طريق شرعية الثورة وحق الوراثة.

وبعد شيء من الترتيب اعتمد العباسيون على مدرسة العراق الفقهية التي أسسها أبو حنيفة، وفي الغرب الإسلامي، خاصة في الأندلس والدول المستقلة. وجد الأمراء والحكام أنفسهم بحاجة إلى تقليد طرائق العباسيين، أو تقليل إن الحكم الذي تم نيله - هنا وهناك - بالاعتماد على الصراع بين العصبات القبلية وسواها. يوجد نفسه بحاجة إلى دعم لسلطته غير عمليات التوازن بين القوى القبلية، فكان أن لجا إلى اعتماد سياسة دينية خاصة. وطبعا إن هذا العمل أمر لا يوجد منه في أية دولة إسلامية وخاصة لدى دول الموالية مع أعداء الإسلام، ولابد من القول هنا إن الدين بكل تأكيد لم يكن قط أفون الشعوب، فالأفون يخدر، بل كان محركا للشعوب، وكان بلا شك أخطر الأنوار الاستراتيجية في التاريخ ومزلزال كلك.

وبذرت الظروف المواجهة في الغرب الإسلامي التشدد والتعصب والتظاهر بالثالوثية، ومثاليا الإسلام كانت تؤخذ من مدينا البيضاء صلى الله عليه وسلم في كوفة أبي حنيفة، وتتميزة المدينة بوضوحه مدرسة العباسيين أفق أهل العراق قد جعل القائمين على مدرسة المدينة يفسرون على مناطق نفوذهم لوحدهم. ويمكن أن تجد شواهد على هذا في حياة الإمام مالك بن أنس، فهو قد ظهر أكثر من مرة المعارضة للسلطة العباسية والتحمير لأمراء من الغرب الإسلامي.

من هذا كله نتجلق إلى القول بأن العالم الإسلامي عاش بعد قيام الثورة العباسية مباشرة وفترة ستين سنة في القرن الثاني للهجرة في ظل مدرستين للفقه والتشريع، وهما مدرسة المدينة ومدرسة الكوفة (أو العراق) ومن اللافت أن هذه الفترة نسيت بطول ي-duration محاولات لدعم المدرستين في مدرسة جديدة واحدة.

واعتقدت عملية المزيج الوصول إلى حل وسط بين الطرفين بشكل...
منطقي مؤصل، وهذا ما يشهد في سيرة كل من الإمامين الشافعي، وآساد بن الفرات، وكم هو مشهور نجاح الإمام الشافعي في عمله، وأخفق - كم سنُرى - آساد بن الفرات، لأن الشافعي نجا من ظلمة الوظيفة، ولم يعش في ديابور الولادة إلا وقت قصير، وهذا أوقف حبيه على العلم، وأما ابن الفرات فإنه في الوقت الذي كان عليه فيه العطاء تولى وظيفة القضاء لأولاً، ثم جمع إلى القضاء إمارة الجيش، الذي توجه إلى صقلية لفتحها، وقد توفي أثناء تأديته هذه المهمة، فهل يأتي؟ جاء تعينه في وظافه بناء على خطة مسبقة، أم أن ذلك جاء بالصدفة؟

وفي سبيل الحصول على الإجابة لنبدأ أولا بالتعرف إلى سيرة حياة الإمام آساد بن الفرات: ولد الإمام آساد في مدينة حران الشامية، التي كان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قد اتخذهما مقرا له، وحدثت ولادته كما هو مرجع سـنة أثنتين وأربعين وـسائة للهجرة (759 م) وكان والده جنبيا من جند العباسيين أصله من خراسان، وقد ترك هذا الجندي مدينة حران إلى إفريقية في حملة عسكرية وجهتها بغداد ضد خوارج المغرب من الأباضية الذين كانوا مسيطرين أندل على أجزاء كبيرة من المغربين الأجنبي والأوسط، ودخل آساد بن الفرات مدينة الفيروان وله من العمر عامين، وقد أقام فيها مع ابنته خمس سنوات، ثم تحولت إستره إلى مدينة تونس، فاقام بها نحو سبع سنين، وخلال هذه السنين تعلم القرآن، وأخذ يختلف إلى حلقات مشاهير علماء تونس، وفي مطلع سن الشباب، تم إستره نحو الشرق، فدخل بالإسماعيلية المورة، والتحق بلجقة الإمام مالك بن إنس، فأخذى عن علوم أهل الحجاز وروى عن كتاب الموط، وكان آساد الفرات كثر السؤال، شديد الإلحاح ينتمي العلم التهاماً، ويوجد له أن الإمام مالك وقف وقته كله عليه، ولا تقدر هذا نصح الإمام مالك بالذهاب إلى العراق للإلتزام بالامام محمد بن الحسن الشبياني، صاحب الإمام أبي حنيفة وخلفته.

وبالفعل توجه ابن الفرات نحو العراق، والتحق بالامام محمد بن
الحسن، وأكمل على يديه تحصيله لعلوم الإمام مالك بحكم أنه كان من تلاميذه السلفيين، كما أخذ عنه علوم مدرسة أهل العراق، وmakt أنقر الفرات في العراق مدة لاباس بها. ولقي أولى الإمام الشيباني ابن الفرات عظيم عنايته، فقد عرف فقره، لذلك أسكته مهما في مار واحدة وقام بتأميم دفته، وقضى ب المجالس التدريس خاصة، وتحدث ابن الفرات عن علاقة بالامام الشيباني ووصف حاله معا بأنه قال له: "إنني غريب، قليل النفقه، والسامع منك نزار، والطلب عنك كثير، فما حيلتي؟ فقال لي: اسمع مع العراقيين بالنهاج، وقد جعلت لك الليل وحكك، فأتتني فتبث إلي واصمع، قال ابن الفرات: فكنت أبيت عنه، وكانت في بيت في سقيفة، وكان يسكن النزل، وكان يراقص خلال الليل ويتذم، فكان يبخن عليه ما يأخذ في القراءة، فإذان طال الليل ورأتي ثابت، كما بيده من وضح به ووجي فاتته، وكان ذلك دابي ودابه حتى أثبت على ما أريد من السامع عليه.

لقد رزق الإمام الشيباني ابن الفرات بالعلم زقا ورعاه طوال إقامته في العراق، وعندما أكمل ابن الفرات تحصيله، وكان الإمام مالك ابن أنس قد توفي، أخذ ابن الفرات الطريق نحو المغرب، فخط رحاله في مصر، وتحقت بالأمام عبد الرحمان بن القاسم، أحد كبار تلاميذ الإمام مالك ورواة علمه القدماء، ولازم ابن الفرات فكان يدعو إلى كل يوم ويسأله ويجيبه ابن القاسم حتى دون ستين كتابا وسماها الإسفهانية، وقد حور هذه المدونة الأسفهانية راي مدرسة أهل المدينة حول جميع المسائل التي تعلمه ابن الفرات في العراق.

وعاد ابن الفرات إلى القيوان يحمل معه علوم مدرسة الإسلام، ويريده أنه لما عزم على الرحيل من مصر وجع معاه ابن القاسم بضاعة وقال له: إذا قدمت إفريقية فبعدها وانتشرت فجندها رقفا، وانسج الكتب، ودا حا مختلف الفرات في القيوان، أظهر ما كان لديه من أسبتاه واسمعها الناس، وانتشرت العلوم التي حملها اسد إلى القيوان، وانتشر معها صبي اسد ابن الفرات، وذاعت
شهيرته، ولعل أهم الذين سمعوا الأسماء منه هو الإمام سحنون، فبعدما مضى أسد بن الفرات إلى صقلية قام الإمام سحنون باستخراج مواد مدونته من أسدية ابن الفرات، ومعروف أن مدونة الإمام سحنون هي أعظم كتب الملكية في الغرب، وإن إلى الإمام سحنون يعود الفضل في توطيد أقدام الملكية في الشمال الأفريقي، فبعدما تفنين أسد بن الفرات غدا الإمام سحنون أعظم علماء إفريقية مكانة، وأكثرهم نفوذا وشعبية وشهرة.

والتانع عمل ابن الفرات في الفيروان سعى نحو وضع قواعد مدرسة للفقه جديدة قوامها مبادئ مدرستي العراق والهجراء، لكن النجاح لم يتحقق له لأسباب منها أنه لم يملك الوقت الكافي للتفرغ لمهمته، فقد كلف سنة أربع وثمانين (89) فاسفة مهنة القضاة من قبل الأمير زيادة الله بن الأغلب، ثم إنه في هذه الفترة وسنوات عديدة مقبلة عانت أمارة الأغالبية من أضرارات للجند كانت أن تؤدي بالحكم الأغلبي، وقد بنى ابن الفرات خلال سنوات القترة من التورط فيها، وكان دائما مع مسلمه عليه السيرى لا أهواء القوى المتضادة، وعندما قضى على أضرارات الجند راح الإدارة الأغلبية أنه من الأمثل للمستقبل أشغال الجند بنشاط حربي خارجي، وفي هذا نرى احتي خلفيات الحملة ضد صقلية.

شكلا جزيرة صقلية بواقعها الجغرافي مكانا استراتيجيا هاما، وحصنا منيعا وسط البحر هيمن على حركة الراحة بين شرق البحر المتوسط وغربه، كما كانت بنبطية جسر انتقالات عبرية الحضارات، وعند السيطرة على صقلية دانها القبرة على ساحة كل السواحل الإفريقية والإيطالية، كل هذا بالإضافة إلى ما تتسم به صقلية ذاتها من ثروات، وما تفيديه أراضيها من عظماء وصقلية كانت دائما موضوع صراع بين قوى إيطاليا وإفريقية.

لقد ركب العرب دوما في فتح صقلية وانتزاعها من الإمبراطورية البيزنطية، وتحين الأغالبية فرصهم فيها عام 1212 هـ / 877 م، وساعدتهم على الشروع في قهر أراضيها مما وصلت إليه أحوالها
اِنذاك من اضطراب وتهور وفساد، ذلك أن الولاة البيزنطيين كانوا قد أسرفو عن استغلال مواردها دون عناية بحوال السكان، لذلك أجديبت الأراضي الزراعية وهجرها الفلاحون، واشتغلوا بالرعي، كما كسبت التجارة والصناعة بسبب الضرائب الباهظة، لذلك انهارت الأحوال العامة، واضطرت أمور المجتمع بسبب معايير ومعتقدات بيزنطة، عليه من نفدي المجرمين والخارجين على القانون البيزنطي، جمع الملونين وأعداد كبيرة من العبيد، وكانت الأحوال الكبيرة، بسرعة، ومكانتها متدنية لتخليها عن مهامها الأساسية وانصراف رجالاتها والقائمين عليها إلى مباهجم الدنيوية.

ولاحظ ان هذه الأحوال قد شجعت الأغلبية على التخطيط لفتح صقلية، حيث تحدث المؤرخون عن افتتاح العديد من الاعتداءات في الجزيرة في مطلع القرن الثالث للهجرة، وكان أهمها حركة أوفياس (فيما في المصادر العربية) فقد ذكر ابن الأثير في تاريخه الكامل أن ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقا اسمه قسطنطين سنة أحد عشرة ومائتين، فلم وصل إليها استعمل على جيش الاسطول انسانا روميا اسمه فيمي، كان حازما شجاعا، فغزا افريقية، وأخذ من سواحلها تجارا ونهب، وبيقت هناك مديدة، ثم إن ملك الروم كتب إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي مقدم الاسطول وتعديله، فبلغ الخبر إلى فيمي، فأعلم أصحابه فغضبوا له، وأعانوه على المخالفة، فسار في مراكب إلى صقلية واستولى على مدينة سرقوسة، فأتقوا فانهزم قسطنطين إلى مدينة قطانية، فسرى عليه فيمي جيشا فهرب منه فأخذ وقتل، وخوطن فيمي بالملك، واستعمل على ناحية من الجزيرة رجلا اسمه إبراهيم، فخاف على فيمي وعشي، واتفق هو ابن عم له اسمه ميخائيل، وهو والي مدينة بلرم، وجمعا عسكرا كثيرا فقاتلا فيمي وانهزم فاستولى بلاطة على مدينة سرقوسة، وركب فيمي ومن معه في مراكبهم إلى الفريقة، وارسل إلى الأمير زيدة الله يستنجد ويعده بملك الجزيرة، فسير معه جيشا فحسب الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين"(1)
في الحقيقة كان بلا ثقة قد رأس الأمر زيادة الله، بعد التجاوز فيهم إليه، وعرض عليه طلباً فيه عدم مساعدة فيهم والوقوف على الحياد، ولم يكن زيادة الله عن قراره في الوقوف إلى جانب واحد من الطرفين، فهو بالأساس كان يريد الاستيلاء على الجزيرة، والانهيارات الفردية، لكن الحملة تحتاج إلى نفقات كبرى، وإعداد للرائم العام في دولته، ولم يكن يسعه بالحصول على مساعدات من الخلافة العباسية، مع أن هذه الخلافة كانت الآن في ظل حكم المأمون نشطة عسكرياً في منطقة النفوذ مع البيزنطة، وذلك اللقت الأمير زيادة الله نحو الفقهاء وعلماء الدين، فعن طريقهم كان من الممكن إعلان الجهاد، وتحذير المسؤول، وعلى الأمور اللازمة، لهذا عقد مجلس لبحث مسألة صقلية والصراع فيها، وحضر المجلس إلى جانب رجال الدولة عدد من الفقهاء مع القاضي الإمام أحمد بن الفرات، وقام المجتمعون بفتح ملف العلاقات الإسلامية الصقلية، فذكر بعض الفقهاء بأنه توجد معاهدة للهدنة بين المسلمين والبيزنطيين قديمة، ينبغي التمسك بها، وقام الإمام أحمد بن الفرات ببرض هذا الموقف، وأفتى بأن المعاهدة هي بحكم الملغاة، لأن الجانب البيزنطي خرقها أكثر من مرة، ولم يتمسك بشروطها، وأنه من واجبات الأمير إعلان الجهاد، ونفذ الأمير الأغلي قرار قاضي المسلمين، فساعد أسطولاً كبيراً من سبعين سفينة، شحنهما بعشرة آلاف مقاتل من الرجال، وسبعنة من الفرسان، وبراعة مناهية وفهم سياسي عميق أستقبل قيادة هذه الحملة إلى القاضي أحمد بن الفرات، فاجتمعت له بذلك الإمارة والإدارة والقضاء في آن واحد.

وفي ربيع شهر ربيع الأول من عام 212 هـ حضرت عمان 827 م اقلاع الحملة العربية من ميناء سوسية تزيد جزيرة صقلية. ووجهت أولاً أمام مدينة مازوز، وهناك التقت بالاسطول البيزنطي للجزيرة فسقطته، ودخل المسلمون الجزيرة، وراحوا يحتلون مواقعها الواحد تلو الآخر، وشرع ابن الفرات بحصار مدينة سرقسطة براً وبحراً، بعدما أتاه المدد من القرى، ومن المفيد هنا ملاحظته ان
قاضي الفريضة رفض حين توجه لغزو صقلية أن يصطحب في مسيرته وأعوانه

والتل أرض صقلية وصل استول على بيزنطية كبير للفق الحصار

عنها، وأمده استول من البندقية، ويسبه ذلك ولتأخر الحشد من
القرون، أصبح جيش الأغالبية بانتكاسة، لكن على الرغم من ذلك
لم يتوقف عن متابعة الجهاد، ثم أصبح بانتكاسة ثانية، حيث
انتشر الطاعون بين صفوفه، وأثناء هذا رأت أسد بن الفرات قائد
الحملة، وكان تلك سنة 213 هـ / 829 م

لقد استغرقت أعمال فتح صقلية أكثر من سبعين سنة خاضت
العرب خلالها ملامح رائعة حتى خلقت الجزيرة لهم، وانفرقت
جميع جهود الامبراطورية البيزنطية في الحفاظ عليها، وقبل الحديث
عن مراحل الالفتح ثم تاريخ الجزيرة ومحاولات التوسع من هناك في
إيطاليا مفيد أن نقدم وصفا موجزا لجغرافية هذه الجزيرة.

قام عمري في كتابة "المكتبة الصقلية" بجمع ماجهاء في المكتبة
العربية عن جغرافية صقلية في قرابة 120 صفحة، ومن هذه
المواض:

قول ابن حوقل: "أما صقلية فجزيرة طولها سبعية أيام في أربع
أيام، والغالب عليها الجبال والقلع والخضوع، وليس لها مدينة
مسكنة، معروفة غير المدينة المعروفة ببارلم، وهي قصة صقلية على
نهر البحر من الشمال، .. عليها سور من حجرة مانع شامخ،
يسكنها التجار، وفيها المسجد الجامع.

وتحدث الشريف الأدريسي عن صقلية بأسلوب، ومن ذلك قوله: "ج
جزيرة صقلية فردة الزمان فضلاء ومصاح، ووحيدة البلدان طبيا
ومساكن، وقديما دخلها المتجولون من سائر الأقطار، والمغردون
بين الدن بالأعمال، وكلهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها
واجهوا بزاهر حسنها، ونطقوا بفضائل ما بها، وما جمعته من
متفرق المحاسن، وضمتها من خيرات سائر سائر المواطن ...
فأما صقلية المنتمين نذكرها، فواقترها خطيرة، وعمائها كبيرة، ويلادها كثيرة، ومحاسنها جمة. ومناقبها ضخمة، فإن نحن حاولنا إحصاء فضائلها عدا وذكرنا أحوالها بلداً بعدا. عز في ذلك المطلب، وضيق فيه الملك، لكننا نورد منها جملة يستدل بها، ويحصل على الغرض في المقصود فيها إن شاء الله تعالى. فنقول: إن هذه الجزيرة، مكاناً بلداً وثلاثون بلداً بين مدينة وقلعة، غير مابها من الضياع والمنازل والبقاء. (8)

ووصف أبو حامد الغرناطي جزيرة صقلية وقد لفت إنتباهه بركانها المشهر فقال: "وفي البحر جزيرة يقال لها صقلية فيها جبل قريب من البحر تخرج منه نار تضيء بالليل إلى عشرة فرسخ ... لاحتاجاً معها أحد في تلك المواضع إلى ضوء ولا إلى سراج في طريق ولا في قرية لكترة ذلك الضوء، ويخرج من تلك النار جمر كبار كعادل القطن يتقطع، فيقع بعضها في البحر بفاص حجر أبيض خفيفاً يطفو على الماء تخفته، والذي يقع في البحر يصير حراً أسود مثقباً تحك به الأرجل في الحمام، يطفو على الماء أيضاً، وإن وقع حجر من تلك النار على حجر أو رمل احترق الحجر، واشتغل كما يشتعل القطن حتى يقع ذلك الحجر ويصير غباراً كالканلى". (9)

ومن أشهر مدن صقلية:

بلرما: هي من أهم مدن الجزيرة قديماً وحديثاً، جميلة الموقع والنظر معبدة المناخ، مياهها متدفقة، وهي فينبيقية التأسيس، أخذها العرب حاضرة لحكمهم في صقلية، وغدت مزداً حضارياً هاماً خاصة في ظل الكليبيين في العصر الفاطمي، ومتزال بعض مواقعها تحمل الطابع العربي الإسلامي من ذلك.

قصر الفواره - ويعقب فوق جزيرة تحيط به بركة صناعية من جهاته الثلاث، وقد بني أيام حكم الأسرة الكلبية، وأخذته فيما بعد الملوك النورمانديين مكاناً للهوى وما خلافاتهم، ومتزاول خراجه مائة متلاة حتى الآن، ونضيف إلى هذا القصر قصر العزيز ثم قصر القبة والقصر الملكي، وهو أية من أيات الفن والجمال، كان مقر الدولة والأمراء.
العرب، وفي ضواحي بلغرم العديد من الأبنية العربية والأثار الهامة. مسنيا: وهي أيضا مدينة جميلة الموقع، ذات أهمية عالية، لليا ميناء واسع النشاط، أوتي زلزال في مطلع هذا القرن على مبانيها وسكانها.

ترمية: هي مدينة تكاد أن تكون إسلامية خالية ببحارتها وازقتها ودورةها، وتراث العيش فيها، وهي نشطة الحياة فيها الكثير من الحمامات الحارة.

مأزرة: وكانت مدينة إسلامية حافلة الشهرة والنشاط، مأزرة تحتوي على بعض المؤثرات الإسلامية. مرسى علي: وكانت هذه المدينة من أكثر الموانئ نشاطا وحركة، لأنها ربطت صقلية بفارسية.

اطرابيش: من مشاهير الد녕 أيام المسلمين بهما مرسى علي، هلال كان نشطا وله علاقات مع إفريقية. طبرمين: كانت أهم المعاقل البيزنطية، قاموت العرب طويلا، وبعدما افتتحوها دكوها دكا، وعلى مقربة منها قرية القنطرة.<br>العربية ثم قرية الزعفرانة، ودانتها لأن تحتفظان بهذين الاسميين. سرقوسة: وكانت قبل الفتح العربي أشهر مدن صقلية، تعرضت دوما لغاراتهم، وهي مدينة ذات جمال رائع وبهاء وجلال.

نوطس: كانت أيام المسلمين مركز ولاية، ذات أهمية عالية وظلت هكذا حتى القرن السابع عشر.

وسارت عمليات فتح صقلية في البداية بناج بسيط، فبعد ثلاثة أيام من الإقلاع من سوسا وصلت القوات العربية إلى مرسى مازرة، وبذلك قطعت في كل يوم مسافة مائة كيلومتر، ونزل العرب في مازرة وفتحوها، ذلك أنهم لم يجدوا من يدافع عنها، وهكذا أتيح لهم انزال معداتهم وماحملوه معهم.

في هذا الوقت بلغت الأخبار الباطنة نحوهم على رأس قوات عملاقة، قبل بلغت عشرة أضعاف القوات العربية، وأعلن بساطة أنه سيقف بالعرب إلى البحر، وتصدى له العرب واعتبروا سبئيه.
خارِج مازِرة، وتَقَدِّم أسد بن الفرات على رأس القَوَات العرَبِيَّة وبِيده اللواء، وهو يُتَّلِع آيَاتٍ من القُرآن الكَرِيم، وِشْج جنده ورَفع مِن معْنوِياتِهِم، وَحَلِّ المُسلمون مَعَه بَصِدقٍ ورَعِيْزة، فَهَزَموهُم عَدوهُم هَزيمة سَاحِقة.

وَفَرَت فِي لِقَال قَوَات بَلاطَة نَحو سَرقوْسَة، وَلَا حِقَّاها المُسلمون بَدون تمِهُل وَيَبُكُّها استَوْلُوا عَلَى جَنْنات صَفْقِية، وَوَقَفُوا عِامَّا أُسوار هَذِه الْدِّينِة، وَأُخْفِق المُسلمون فِي اقْتِحَام هِذِه الْدِّينِة الحِضْرِيَّة، وَطَال الحُصَرْاَر وَقَلَت الْمَؤْن لَدِى المُسلمين، وَطَالَ بِعْض الْجَنَّ الْمُؤْن سَبَبِيْن الْفَتْرِيْن الْبَيْضَة، فَذِكَّر بهم، وَتَابَت الحُصْرَار، وَأَخْتَنَّ الْمَؤْن مَعَالَة وَحُصَرَاَر، تَهُصلت إِلَى دَاخِل سَرقوْسَة، وَكَانَت وَقَتَلَت حَتَّى اِنْتَبَحَتَ المساعدات إلى العرب، وَأَسَّرَ أَسْد بن الفرات يَنِبَلُح حتَّى أَجْهِده الْقَتَال فَتَوْكُيَ شُهِيدًا، وَدَفْنَنَّ ثُمَّ الْأُسْوَر سَرقوْسَة.

وَأَخْتَار المُسلمون أمِيراً جَدِيداً اسمه محمد بن أبي الجواري، وَكَانَت مَعْنوياته قد تَبْنَأ فَاتِحُ الأَمير الجَدِيْد قَرَأ بِالاَّنْسحَاب إِخِلاَة الْجَزِيرَة، وَالْحُوْدَة إلى أَفْرِيقِيَّة، وَفِي هُم مِنَسْحُبِين، وَأَجَهُم أَسْوَر بِكِرْم قَدْمٍ مِن الْقَطْسِنْطِيْنِيَّة نَجْدَة لِسَرقوْسَة، وَسَدَ الْأَسْوَر الْبَيْزَنْطِي الْمُرْضِيْنِ السَّامِلِين، فَعاَلَوا ضَمْطَرِيْن إلى الْجَزِيرَة، وَعَزَمُوا عَلَى الْجَهَاد وَالْقَصْر حتَّى الشِهادَة، وَوَقَتَلُت في سَاعَات الْشَهِيْدَة هَذِه بُعْض الْعَمَادَات مِن أَفْرِيقِيَّة، وأَهْم إِن وُصِيَ إلى الْجَزِيرَة اسْتَوْلٌ انْدِيَس قَوْي بِقِيَادَة أُصْبِح بَيْن وَكِيل الَّذِي اسْتَهِبَّ باَمْ أَبْن فَرْغُلوش.

وَأَتَقَف المُسلمون مَعَ عَلَى مَتابِعةِ الجَهَاد في الْجَزِيرَة، وَصَدَّ الْرُومُ عَنْهَا، عَلَى أن تَجْنَبِ الأَمَارة عَنْدِ تَحْقِيق النَّصَّ لا بَين فَرْغُلوش، وَرَحْقِ العرب عَدَة انتصارات وَتَوَجَّهَا لَهَا لِيَتْحُف مدِينَة قَرْبَانّ فَخَاصِرَهَا، وَفِي سَنَة ۵١٦ هـ /٣٦١ م حلَّ الْوَيْه بَيْن صُوْفِ المُسلمين فَمَات بهـِب فَرْغُلوش، ثُمَّ مات محمَّد بن أَبي الجواري، فَوَلِي المُسلمون أمِيراً جدِيداً اسمه عُثمان بن قَهْرِ.
في هذه الأثناء انسحب الأندلسيون إلى بلادهم فبادر زيادة الله في الأغلب برسل جيش جديد إلى صقلية قوامه ثلاثين ألفا بقيادة أمير عرف باسم زهير بن عوف، فاختت ساعد المسلمين واستؤنفت حركة الفتوح، وسار العرب من نصر إلى نصر.

توقفت العرب الآن ضد مدينة بلرم، وقاومهم الروم من داخلها مقاومة شديدة، وجدت أثناء الحصار أن تمكنت قوّة عربية سنة 219 هـ/834 م من فتح مدينة مسينا، مما كان له أكبر الأثر على الوضع في بلرم، وهكذا في سنة 220 هـ/835 م تفاوض الروم مع العرب على أن يسلموهم بلرم شريطة السماح لهم بالانسحاب بحرا إلى القسطنطينية، وهذا ما كان واتخذ العرب بلرم عاصمة لهم في الجزيرة ومنها أخذوا يتبعون أعمال الفتح.

وبات الروم الآن والقوات المسيحية محصورين في مثل صقلية يمتد من الشرق نحو الجنوب الغربي من مسينا إلى قصريانة، ثم يرجع من قصريانة نحو الجنوب الشرقي إلى مدينة نوتو، وحاول المسلمون خرق هذا المثل اولا باحتلال قصريانة فاخفضوا، ثم باحتلال سرقوسة فاخفضوا أيضا، وفي سنة 221 هـ/836 م توفي الأمير زهير بن عوف، فولى أمر الجزيرة اغليبي هو أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب.

رأى الأمير الجديد أن وضع المسلمين وقواهم في نمو مضطرد، ولكن المساعدين البيزنطية لم تنقطع عن الجزيرة فقرر عزلها بحريا وحقق الاستقلال العربي نجاحات واسعة حيث دمر السفّانين البيزنطية واستولى على بعض منه ولنشر الربع في قلب جميع الأعداء.

وتمكن المسلمون سنة 223 هـ/838 م من احتلال جزء من قصر يانة ثم انسحبوا منها، وفي هذه الأثناء وزع العرب نشاطاتهم بين أكمل فتح صقلية وفتح الجنوب الإيطالي، وبالفعل تبخل العرب في إيطاليا أولا لصالح مملكة نابولي واستطاعوا احتلال أجزاء واسعة من إيطاليا واستولوا على مدينة باري الساحلية، ووصلت
قوافلهم إلى أرباض روما لاحتلالها، لكن نشوب بعض الخلافات الداخلية بين صفوفهم راحتهم.

ومنذ سنة 238 هـ/853 م غنت مدينة باري مقراً لإمارة عربية مستقلة تحكم الجنوب الإيطالي، ولياً نقلت المعارف العربية والفنون على اختلاف أنواعها، وهكذا عبرت الحضارة العربية عبر صقلية والجنوب الإيطالي إلى داخل أوروبا مما سيكون له فيما بعد ابعد الأثر وأهمها.

وفي سنة 239 هـ/854 م حاول العرب مجدداً فتح روما والاستيلاء أيضاً على جميع سواحل إيطاليا، وفتح جزيرة كريت، وهذا موضوع سئرود له بعد قليل - وحقق العرب نجاحات كبيرة في البحر ضد الأساطيل الأوروبية، ومجدداً بدأ البحر المتوسط يتحول إلى بحيرة عربية، وتوات النجاحات داخل صقلية، وتمكن العرب أيضاً من فتح جزيرة مالطة، لكن المؤسف أن ماكانات دولة الأغلبية كانت لاتسمح بمتابعة الاتفاق على مشاريع الجهاد البحرية والبرية، ولنذكر أن فتح صقلية احتاج سبعين سنة، وقد نجم عن النزاعات الكبيرة وسواها أزمات خانقة داخل أوساط الأغلبية في أوروبا عامة، وفهما جهود الأغلبة منصرفة إلى ايجاد الحلول للمشاكل الداخلية ولتوبة الجهاد في صقلية وفي الجنوب الإيطالي.

استقل دعوة الدعوة الاستعمارية هذا الوضع، فنشطوا في نبأ كتامة وسواها، وأخيراً تمكن أبو عبد الله من اطاحة بالحكم الأفغاني وإقامة الخلافة الفاطمية في المغرب.

إنه قدر لا يعرف الرجمة، كيف أطبق هكذا بدولة الأغلبة العربية وجهات الجهاد بالتوسط بآمَر الحاجة إليها والقواها، والشيء نفسه تكرر فيما بعد على أرض المغرب العربي، فتفرغت دولة المراقبين لاسترداد الأراضي العربية، تعرضت في الأخرى لناجم عن دعوة المهدي بن تومرت، وسقطت دولة المراقبين الموفقين، ونهبت بعض الآراء حديثاً إلى ابن تومرت كان بطناً؟ (12).
لقد بحثت في تاريخ قيام الدولة الفاطمية في أكثر من كتاب، وليس
بودي البحث في هذا الموضوع مجددًا الآن، بل الذي ابتغي تبيانه أن
عبد الله المهدي، أول خلفاء الدولة الفاطمية لم يستقر طويلًا في مدينة
القبرس، ولم يتخذ مدينة تونس عاصمة له، بل انشأ مدينة المهدية
على ساحل المتوسط، ولقد كان الفاطميين سياسياً بحرية خاصة بهم
وأملوا أساطرهم، لكنهم لم ينشطوا مثل الأغالبة، ذلك ان احتكارهم
كانت تجنو نحو الشرق للانتقال إليه، ومع ذلك لم يقصروا في
الحفاظ على هيبة ملكهم، وقد انعكس هذا كله على أوضاع صقلية.

بعد دخول أبي عبد الله الداعي إلى رقادة، وراحلته تلك بني
الأغلب. راسل بعض التنفذيين في صقلية بالاعتراف بالسلطة
الجديدة، وكانت الأوضاع في الجزيرة اندلع على درجة عالية من
الاضطراب، واستمرت كذلك وزاد الفاطميين بسيطهم
الاستبدادية الخرقاء في اضطراب الأحوال فيها، واضعافها، ففي
سنة 272 هـ/910 م، بعث المهدي الفاطمي الحسن بن أحمد بن
أبي خنذر، والياً من قبله على صقلية، وكان ابن أبي خنذر هذا من
زعماء كتامة، فيه جفاء وجمال وحسن، أراد تغلب العدو
البربري على الجزيرة، فقومه أهلها وطرودو، وعن المهدي والبا
جديدًا على الجزيرة، لكن الأمر لم تعرف الاستقرار، واعلنت
صقلية استقلالها وسلمت الحكم لأحد بن زيادة الله بن قرهب،
وكان من أقرباء الأغالبة، وانتسب ابن قرهب بالولاية إلى الخلافة
العباسية مما أثار خوف المهدٍ الفاطمي، وفي سنة
210 هـ/923 م، بعث المهدي بمسافر وجيشه ضد صقلية، فرده
اهل صقلية بعد مارب بعض سفنه، وفي سنة 315 هـ/925 م
ارسل المهدي حملة ثانية ضد صقلية، واستخدم وسائل الأرهاب
وجيش دعائه، فكان لذلك اثاره، حيث دانت الجزيرة مجدها
الفاطميين، واعتنى ابن قرهب، وحمل إلى افريقية حيث أعد، ومع
هذا ما لبثت الأمر أن عادت إلى الاضطراب في الجزيرة، وكان لهذا
تأثيرات مدمرة، وقد تزامن مع ذلك مع بدايات نشاطات شعوب
النورمان، فأخذ هؤلاء ينشطون قرب صقلية ويسعون للتعاون مع
 المسيحية لكسب قاعدة في أطراف الجزيرة، وكان المسلمين قد
شغفتهم شؤونهم الداخليّة وصراعاتهم عما سوى ذلك.

استمرت الأحوال المتردية في سقارة حتى سنة 968 م,
ففي هذه السنة عين الخليفة الفاطمي الثالث - المنصور اسماعيل
الحسن بن علي بن أبي الحسين الكبدي الكتامي أميرا على سقارة,
فأسس فيها حكم أرثانية استمرت تحكم الجزيرة حتى تاريخ
سقوطها للنورمان، وعرفت هذه الأسرة بالأسرة الكبديّة. وقد
استمر حكم هذه الأسرة أكثر من قرن، وخلال ذلك عاشت الجزيرة
خيرة أيامها، فقد تطورت فيها الثقافة العربيّة،
واستطاع أمراء الكبديين الدفاع عن أراضيهم ضد محاولات القوى
البيزنطيّة والأوروبية، مما جعلها في عهد معارك مشرفة وهكذا ظل
الجنوب الإيطالي بأيدي المسلمين، لا بل حاولوا فتح روما.

فقد أرسل الحسن بن علي عدة حملات ضد الجنوب الإيطالي، وفي
سنة 964 هـ/ 965 م خاض ضد الجيوش البيزنطيّة معركة المغاز
التي اندلعت من أعمد حصار القوّات البيزنطيّة، فقد انتقمت هذه القوّات بقلمة قليلة من المسلمين،
صمدت أمام تفوق العدو العددي فانتصرت، وقبل المسلمين من
البيزنطيين خلقًا عظيمًا حزت منهم رؤوس عشرة آلاف، والطريق
في خبر هذه المعركة ان الحسن بن علي «اعتزل... لفرغ الفرح بما
انعم الله به عليه، فكانت وفاته من حمى حادة بسبب أيام» (126).
ووهيذا عيقق أعمال استمرار نتائجها الكبيرة، لَيْت الأمر اقتصر
على هذا!.

حدثت هذه المعركة أيام المعرز لدين الله الفاطمي، وكانت الخلافة
الفاطمية مشغولة بعد سلطانها على جميع بادية المغرب، استعدادا
لتوهج جيوشها ضد مصر، لذلك عندما وصل اليهودية وفد
بيزنطي للتفاوض على السلام استقبل بالترحاب، وتعاقد
البيزنطيون مع المعرز لدين الله على عدم معاودة الهجوم على سقارة،
ومع ذلك مقابل أن يخلي المسلمين لهم طورمين ورزمة التي كان سكانها.
من السيجيين، أي أن ما اخافة بيزنطة في الحصول عليه في معركة المجاز بقوة السلاح نالته بالعفو، وهكذا نال العدو قاعدة على أرض صقلية، كانت نقطة الانطلاق لأساطيق هذه الجزيرة.

فبعد معركة المجاز بعد قصير تمكن جيوش الفاطميين من الاستيلاء على مصر، واللى مصر ارتحل عزر لدين الله الفاطمي، وهكذا تطورت الخلافة بالصراع ضد القرامطة ومن أجل السيطرة على بلاد الشام، وترك صقلية بمكاناتها لوجودها لتناول قوى أوروبا النحاسية خاصة في المجال البحري لدى النورمان، ولدى جمهوريات إيطاليا الناشئة.

وتاثرت صقلية بتردي أحوال الخلافة الفاطمية، وبتمزق الأندلس وقيام حكم دول الطوائف، ثم بعدها شهدت سلاص المغرب من رفض التوالي الفاطمي، وهجرة قبائل هلال وسيليم وقيام دعوة الربيع، ورسم صورة ملخصة بالأحوال في صقلية لسان الدين بن الخطيب بقوله: "ثم تناول ولاية صقلية أمراء من هذا البيت إلى أن انقطع عنهم أداد المسلمين، لا تشغله كل جهة بما يخصها من الفتنة فكان استخلاص العدو لها في سنة خمس وثمانين وأربعمئة.

(1092 م)

وكان عدو الله الذي تغلب عليها الملك رجار، وهما الداهية، العديم الظلم في أبناء جنسه: حزما ودهاء وسياسة (16)

وتحدث الشريف الأدريسي عن سقوط صقلية في كتابه نزهة المشتاق الذي قدمه لروجر الثاني بن قاهر صقلية فقال: "ولما كان في سنة اربعمائة وثلاث وخمسين سنة من سنين الهجرة، افتتح غرر بلادها وقهر بمن معه طغاة ولاتها وأجنادها الملك الأجل والهمام الأفضل المعلم القدر، السامي الفخر رجار بن تنقرود، خيرة ملوكة الأفرونجيين، ولم يزل يفرق جمع ولاتها، وقهر طغاة حماتها، ويشن عليهم الغارات في الليل والنهار، ويرميهم بصعوب من الحبوب والبوقار، ويعمل فيهم ماضي الشفر، وعوامل القنا الخطره.

- 234 -
إلى أن استولى على جميعها غلبة وقهرًا وفتحها قطرا فقترا
وملكها ثغرا فثغرا، وذلك في مدة ثلاثين عامًا.
وأقرهم على أدبهم وشباة، وامتهم في أنفسهم أموالهم
واهلههم وذراريهم، ثم أقام على ذلك مدة حياتهم إلى أن وافهم الأجل
المحتوم. (16)

لقد قاما صقلية مدة ثلاثين سنة لوحدها، وحين استطعت
سقطت عسكريًا، ولم تسقط من جوانب الحضارة والنظام ولم تقم
محاولات جانب لاستردادها، وقد ورد النورمان أملًا فيها في إيطاليا،
ولم يكتفوا بهذا بل احتلوا مالاتهم وهاجموا سواحل الشمال الأفريقي
فاحتلوا الهندية وغيرها، ولا شك أن هذا التراجع العربي كان له
أبعدها في أحداث الحروب الصليبية، ولقد أعطى الحكام
النورمان لجمهوريات إيطالية البحرية امتيازات تجارية واسعة في
جزيرة صقلية، وسمحوا لهم باستثمار مؤسسات التجارة والصناعة
التي كان العرب قد شيدوها صروحا بكل عناية وبراعة، وفي المحصلة
إذ إن اعتمادات النورمان على إيطاليا وصقلية وسواطياء
الأوروبية، وجمات جنوى وبيزا في المياه البحرية للبحر المتوسط
وهمجات الأقطاب الفرنسيين في الأندلس، وحركات البناقة في
المياه البيزنطية، بالإضافة إلى التشجيع القوي الذي بذلته البابوية
واتباع الإصلاح الكليوني للقيام بهجوم عام على المسلمين من أجل
دعاية دينية، ثم العاطفة الدينية التي دفعت بالألاف من مسيحي
غرب أوروبا لزيارة الأماكن المقدسة، هذه الاتجاهات كلها تتفاوت
فيما بينها لانتاج ما نسميه بالحرب الصليبية الأولى، ويمكن القول
بعبارة أخرى: إن الحرب الصليبية الأولى تمثل خليطًا مركبًا من
عدة عناصر كانت تعمل منذ أقدم في أحداث غرب البحر المتوسط،
وتتلاشى في العاطفة الدينية، وجشع البحارة الإيطاليين والمغامرين
الأقطابيين لتحقيق الأحلام على السلاسل والنهب، والرغبة في كسب
الامتيازات في ميداني النقل والتجارة. (16)
ولم ينطمع العرب من الامبراطورية البيزنطية جزيرة صقلية فقط، بل فتحوا أيضًا جزيرة كريت (اقريطيا) وحولوها إلى قاعدة بحرية عربية متقدمة وظفوا مجتمعين بها لفترة طويلة. وبالإضافة إلى كريت امتدت جزر الأندلس الشرقية - البلبار - ومن الفهد ان نختم هذا الفصل بالحديث عن كريت، ذلك أن الحديث عن جزر البلبار هو مرتبط بتاريخ الأندلس والمغرب، ولا يعنينا بهذا الدخلي مباشرةً (١٧).

وتعتبر جزيرة كريت بين أهم جزير المتوسط عرفت الحضارة قبل أن تعرفها بلاد الأغرية، وكانت لها عبر التاريخ علاقات مع مصر والشام وسوها، وبعد قيام الإسلام ونجاح حركة الفتوحات حاول العرب أكثر من مرة فتح هذه الجزيرة، لكن بزاوية دافعة عنها وجلالا بينهم وبين ذلك حتى مطلع القرن الثالث للهجرة.

واختلفت حكايتي هذا الفتح عن غيرها من الفتوحات البحرية، فقد كان فتحاً بـ«شعباً» - إذا جاز التعبير - ولم يكن فتحاً رسمياً، وراءه دولة أو نظام حاكم، ونحن نذكر أن فتح الأندلس كان بحرياً من بعض الجوامع، وقد امتك أهل الأندلس أسطولاً عظيماً، وقد نذكر أهل الأندلس إسطولاً عظيماً، وهذا ما نذكر إليه بعض الآراء منه أن الأندلس صار لديها أسطولاً بعدما تعرضوا لمخاطر الهيبكونكي، وجذبت السفن والأساطيل الأندلسية جميع بقاع المتوسط للتجارة، والنقل، والأغراض الأخرى، وجرت العادة في الأندلس أن كل بلد يتخذ فيه السفن أسطولاً، يرجع نظره إلى قائمة من النواتية يدير أمر حربه وسلاحه ومقاتله، ورئيس يدير أمر جمهيره بالريح أو بالجاني، وامرأة ارسلته في مرفئةً (١٨).

وبما أن الأسطول العربي قد ملكت السيطرة على البحر المتوسط ولامتداد الشواطئ العربية شرقاً وغرباً، فقد اعتادت السفن الأندلسية على الرسو في أي بلد إسلامي. أرادت، يقول ابن خلدون: «والمسلمون يضيف انس هذا البحر وسواحله من عدوته يعانون ممن احتوائه ما لا تعانيه إم من أم البحار، فقد كان الروم والاسبانجة
والقسط بالعدوة الشمالية من هذا البحر، والروم، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن، فكانوا مهتمًا في ركوبه والبحر في إسطريليه.

فلم أستقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم، وصارت أمم العجم خولًا لهم وتحت أيديهم، وتتفرّقت كل ذي صنعة إليهم بملبج صناعاتهم واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية إما أن تذكر ممارستهم للبحر وثقافتهم، استخدموا بصراء بها، فشرهوا إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشواوشي وكسحلوا الأسطريلية بالرجال والسلاح وامطورها المساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثفورهم ما كان أقرب لهذا البحر، وعلى حافته مثل الشام وافريقيا والغرب والأندلس.

وكان المسلمون يعيد الدولة الإسلامية قد غلبوها على هذا البحر من جميع جوانبه، وعوضت صولاتهم وسلطانهم فيه، فين يكون الأمام النصرانيًا قبلWISE أسطريلية، يشيء من جوانبه، وامتلاعوا ظهره للفتح، سائر الأيام، فكان له المقامات المعلومة من الفتح والغنائم، وملكوا سائر الجزائر المتعددة عن السواحل فيه.

وكنت بعض الأسطريلية الأندلسية قد اعتَدت على الرسو الأسم، فيناء الإسكندرية عند قوثلها، ولم يسعوا ما يصاحبه، وكذلك كانوا على الزمن، وكانت الأمساء لا تسكنهم من داخل الإسكندرية، اننا كان الناس يخرجون اليهم فيبايعونهم،(20) لقد روى هذا الكذبي في كتابه ولاء مصر، وعرض ذلك لدى الحديث عن وقائع سنة 199 هـ، 814 م، وكانت أوضاع مصر أنذاك مضطربة. بدأت المشاكل فيها منذ أواخر أيام الرشيد، واتسعت أثناء الصراع على الخلافة بين الأمين والمأمون، واضطرمت في الفترة التي ستك فيها المأمون في مدينة مرو، واستولى أثناء بعضها أباههم بن المهيدي على عرش الخلافة في بغداد.

وكان والي مصر المطلب بن عبد الله الخزاعي، وعهد هذا الوالي.
إلى محمد بن هبة بن ظاهر بن حنّاني بن عائشة بولاية الأسكتدرية، واستخلف هذا الوالي عمر بن عبد الملك (ويقال له أيضا عمر بن هلال) على ولاية الأسكتدرية التي لم تتهمن بالاستقرار، ووجد فيها

عده قوي تصارعت من أجل السلطة في الأسكتدرية.

وقام والي الفسطاط المطلوب بن عبد الله، بعزل عمر بن عبد الملك عن الأسكتدرية وعين بدلا عنه أخيه الفضل بن عبد الله، وغضب عمر بن عبد الملك من عزله وتبعين المطلب لأخيه بدلا عنه وأراد الاستيلاء على السلطة في الأسكتدرية والخروج على والي مصر القائم في الفسطاط.

في هذه الأوقات كان قد تغلب على بلدة تانيس القريبة أحد قادة الجند واسمه عبد العزيز الجروي، وطمع بالاستيلاء على مصر، وعندما سير والي الفسطاط ضده حملة هزيمته عند شستنوف على النيل واسمه أميرها السري بن الحكيم، ودعوا الجروي عمر بن عبد الملك للتحالف، فاستجاب وقرر الثورة بالفضل بن عبد الله وطرده من الأسكتدرية، ولكن يحق له رأي أن يستعين بـالأندلسيين المرابطين أسماء ميناء الأسكتدرية. وكان عدد هؤلاء الأندلسيين يتراوح ما بين الأربعة إلى الخمسة وكان قوام اسطولهم أربعين سفينة، ويرجح أنهم لجأوا إلى الأسكتدرية في مطلع الخريف للكم العام، واستجاب هؤلاء لطلب عمر بن عبد الملك فاستولوا على الأسكتدرية، ونادى عمر بن عبد الملك الآن بالجروي واليا على مصر، لكن أندلسية غضبوا من نقل الأندلسيين في شؤونهم فثاروا بهم وخرجوا من المدينة بعدما قتلوا عددا منهم.

وهكذا عاد الفضل بن عبد الله إلى عمله.

ولم يجلب هذا الأمن والاستقرار إلى الأسكتدرية، حيث قام المطلوب بن عبد الله بعزل أخيه الفضل وعين بدلا عنه اسحق بن ابنته بن الصباح، ثم مالبه أن عزله وعين بدلا عنه إبراهيم بن جنادة بن عيسى المعافري، الذي انتهى إلى عظيمة قوى، ومع هذا لم يعد الاستقرار إلى الأسكتدرية لأن الأوضاع اضطرت بشدة في الفسطاط حيث تحالف الجروي مع أسيره السري بن الحكم ضد المطلب واجتذب بعض جنود الفسطاط إليه مما أضطر الفضل إلى
مغادرة مصر إلى الحجاز بجرا، وتسلم الولادة في الفسطاط السري
ابن الحكم بناء على أجماع الجند وكان ذلك في رمضان سنة
2 هـ/ 815 م.

وفي هذه الأثناء تمكّن عمر بن عبد الملك من طرد المعافري من
الاسكندرية واستولى على مقاليد الأمور فيها من جديد، وبذلك اتاح
مجددا السبيل للأندلسيين للنزول في بر الاسكندرية ودخول المدينة،
والتسلط على أهلها، الذين كانوا قد خرجوا من قبل ونقموا
 عليهم سلوكهم ونسوا إليهم مفاسد كثيرة.

وطلت خواطر أهل الاسكندرية غير مرتاحة لتسليط الأندلسيين،
ولذا قرر عمر بن عبد الملك اخراجهم إلى سفنه، وهكذا فسدت
العلاقة بين الطرفين، وتربص الأندلسيون شرا بعمر بن عبد الملك

وساعدت أوضاع الاسكندرية الأندلسيين على احکام قبضتهم
عليها ففي ظل الأوضاع المضطربة والنزاعات على السلطة خرج من
بين صفوف أهل المدينة حركات شعبية كان ابرزها واحدة عرفت
بالصوفية، تبنى أفرادها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
وصاروا يسيرون في المدينة وقد علقوا على اناقهم المصاحف
، وبعاضرون السلطان في أمره، فترأس عليهم رجل منهم يقال له
أبو عبد الرحمن الصوفي، فصاروا مع الأندلسيين بما واحدة
، واعتدوا بهم، وكانت لحم أعزم في ناحية الاسكندرية،
فخَضَص أبو عبد الرحمن الصوفي إلى عمر بن هلال في امرأة، فقضي
على أبي عبد الرحمن، فوجد في نفسه سمى ذلك وخزع إلى
الأندلسيين، وألف بينهم وبين لحم، ورجاء أهل الأندلس ان يدركوا
من عمر بن هلال، فصاروا إلى عمر وهم زهاء عشرة آلاف من لحم
ومن الأندلسيين، ومن ضوى إليهم فصيروا في قصره، فتعلم عمر
أن القصر لا يمنع فيه من، وخوف أن يدخل عليه غنوة، فانتفض في
حمره، فاغتنس وتحطم وتكتفت، وأمر أهله أن يذرو إليهم فدى
فأخذتهم السيف فقط، ثم دلي إليهم القدو محمد بن عبد الله بن
محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديثي فقال، ثم دلي إليهم ابن
عمه أبو هبيرة الحارث بن عبد الواحد فقتل ، ثم دلي إليهم حديق بن عبد الواحد فقتل وانصرف القوم.

وكان مقتل عمر بن هلال وأهاله في ذي القعدة سنة مائتين، ثم فسد أمر لخم والأندلسيين عند مقتل عمر بن هلال، وقام بأمر لخم رياح بن قرة، وسأر لي الأندلسين فحاربوه فانهزمت لهم، وظهر الأندلسين بالاسكندرية عدوة في ذي الحجة سنة مائتين، فولوها إبا عبد الرحمن الصوفي، فبلغ من الفساد بالاسكندرية والقتل والنهب ما لم يسمع به، فعزل الأندلسين عنها، وولوا رجلا منهم يعرف بالكناني، ثم حاربته بنو مَدَلِج أهل الأندلس، فظفَر بهم الأندلسين فنفوذهم عن البلاد (٢٠).

وكانت أنباء تغلب الأندلسين على الاسكندرية قد وصلت إلى عبد العزيز الجريو الملقب على تنينس، ولم يرضه ما حدث لحليفه عمر ابن هلال، وقرر استرجاع الاسكندرية من الأندلسين. وقام بعدة حملات ضد هذه المدينة وحاصرها أكثر من مرة ففُتك، ثم إنه سار إلى الاسكندرية مسيره الرابع، فأغلق الأندلسين حصنها، فحاصرهم الجريو أشد الحصار، ونصب عليهم المنجليات، وأقام على تلك سبعة أشهر من مستهل شعبان سنة أربع ومائتين إلى سلخ صفر سنة خمس، فأصاب الجريو فقفة من حجر منجلي من فتحات سلخ صفر سنة خمس ومائتين، ومات السري بن الحكم بالفسطاط بعد بثلاثة أشهر (٢١).

لقد مكث الأندلسين يتحكمون بالاسكندرية أكثر من عشر سنوات، حيث ظلت الأمور مضطربة في مصر وفي الشرق أيضا، ويبعد أن عدد الأندلسين في الاسكندرية ازداد كثيرا، ووصل الأندلسين جدد اليها لاسيما من سكان رحب قرطبة الذين ثاروا ضد الأمير الحكم بن هشام في سنة ٢٠٢ هـ، ٨١٧ م فيبطش بهم، وهدم الرحب واصله أهله (٢٢) فجاء بعضهم إلى المغرب الأقصى، فصعدوا إلى مدينة فارس، وكانوا ثمانية آلاف بيت، فنزلوا عدد الأندلس وشرعوا بها في البناء يمينا وشمالا، فقسِّمَت عدَّة الأندلسين (٢٣)
وترجم ابن الأبار في الجلة السيراء للحكم بن هشام فتحدث عن فتنة ربيض قرطبة ووصف تدمير الريض وشتم شكانه حيث ساروا كله بحسب ما امكنه، واستمروا ظاعين على الصباع والنخل... متفرقين في قمع الكور وأطراف النفوذ، ولحق جمهورهم بطلبيطة لخالفة أهلها الحكم، ولجا أخرون إلى سواحل بلاد البصرة، واصدعت منهم طائفة عظيمة نحو الخمسة عشر ألفًا في البحر نحو المشرق، حتى انتهوا إلى الإسكندرية (23).

وفي المشرق ترك المامون مرو وجاء إلى بغداد، وأعاد هيئة الدولة البابوية واستقرارها في المركز، واهتم بشؤون مصر، فوجه عبد الله بن طاهر بن الحسين إلى مصر، فاقبل على رأس قوة برية بحرية، وتمكن من الاستيلاء على مدينة الفسطاط ودخل اليها، يوم الثلاثاء ليلة ثانتين من ربيع الأولى سنة أحادية عشرة، ثم قرر الزحف ضد الإسكندرية، ونزل عليها في ربيع الأول سنة أثنتي عشرة، وحصراها بضع عشرة ليلة، فخرج اليها أهلها بأمان.

وصالح الأندلسين على أن يسيرهم من الإسكندرية حيث أحبوا، على أن لا يخرجوا في مراكبهم أحدا من مصر، ولاعبدا ولايثنا، فإن فعلوا فقد حلت لهما نعىهم، ونكث عهدهم، وتوجهوا، فبعث ابن طاهر من يفتتح عليهم مراكبهم، فوجد فيها جمعا من الذين اشترط عليهم ان لا يخرجوا، فأمر ابن طاهر باحرق مراكبهم، فسالموه أن يردهم إلى شرطيتهم ففعل (22).

وسائر الأندلسين نحو جزيرة كريت حيث تمكنوا من فتحها، لكن لماذا نحو كريت، ومن اين ولدت هذه الفكرة لديهم؟ يبدو أن الأندلسين كانوا أثناء سيطرتهم على الإسكندرية، نشاطهم داخل البحر المتوسط، وقد استمرؤا لذلك لتمين الأموات وإスピاب الاستمرار، وهكذا أغاروا على كريت عدة مرات، وأرضا أغاروا على قبائل أخرى، وفي السنة التي نزل فيها عبد الله بن طاهر الفسطاط بعثوا ضد كريت عشرة سفن أو عشرين، عادت بكثر من الأسرى والغنائم، بعد أن عرفت الملك معرفة دقيقة (22).
ولعلمهم قصدوا كريت بعد مغادرتهم الإسكندرية لأنهم عرفوا
أخبائ مشروع الأغالبة لفتح صقلية الذي شرع في تنفيذه في العام
 نفسه، وكان الأندلسيون حين قصدوا كريت تحت لواء قائد منهم
 اسمه أبو حفص عمر بن عيسى البليطى، ونزلوا على شاطئ كريت
 دون أن يلقوا مقاومة، ولأنعرف هل نزلوها إلا الغارة فقط أم الفتح.
وينقل فازليف عن المصدر البزنيطية أنه «لم يكد جند العرب
 يبتعدون عن الشاطئ إلى الداخل قليلا حتى أمر أبو حفص بحصر
 السفن، فلما رجع العرب إلى الشاطئ كادوا يثورون لما أحسوا من
 يأس خوفا على نسبائهم وأطفالهم، فهداهم أبو حفص حينئذ وامتح
 لهم غني الجزيرة، وجمال الكريبتات وصالحه للزواج.

فلكما استقر العرب في الجزيرة ابتدأ حصنا حصينا أحاواته بخدن
 عميق، فسمى لهذا بالخدن. ومن هنا جاء كم تعرف الأسم
 الحديث كاندى (١٤٨) وإذا صحت هذه الرواية لم تكن فكرة الاستقرار
 في كريت موجودة إلا في رأس البليطى، ومهمها لكي من أمر أكمل
 العرب فتح كريت، ويقول فازليف: «خذ العرب تساموا وعشرين
 مدينة لم تحقق لنا اسمها، واستقرموا سكانها ولم يسعوا
 للمسيحيين بالاحتفاظ بدنهم إلا في مدينة واحدة، وانتهى
 الأندلسيون بعد استقرارهم في كريت إلى الخلافة العباسية (٢٨٠)

كان على عرش الفاطميين الإمبراطور ميخائيل الثاني مس
 الأسرةlushورية (٩٩٠ - ١٠١٠ م) وحاول هذا الإمبراطور
 الحيلولة بين العرب وبين فتح صقلية، كما يجب في سبيل استرداد
 كريت فارسل لهذا الغرض ثلاث%Hنوات بحرية باءت جميعا بالانخفاض
 (٣٠) وكانت في هذه الأونة جبهة الثورات العربية البزنيطية مشتعلة،
 ففي منطقة الثورات أقام الخليفة الأمام، وذلك قضى، وبعد الأمام
 قام المحتم بحملة عسكرية شهيرة، ولاشك أن هذه الضغوط
 الشديدة على بزنيطة قد أرغمتها على توزيع امكانياتها العسكرية

وهذا قد سهل بعض الشيء، فتح كل من صقلية وكريت

لقد احتفظ العرب بجزيرة كريت مدة تبلغ قرنين ونصف القرن

- ٢٤٢ -
خاضوا خلالها معارك شديدة ضد الأسطول البيزنطي، واستطاع البيزنطيون استرداد كريت في الفترة التي تلت انتصار الدولة العباسية، وفي المقابل عانت الإمبراطورية البيزنطية في ظل حكم الأسرة المقدونية فترة ازدهار وقوة عسكرية، وأنجبت هذه الأسرة واستخدمت عدداً من كبار القادة العسكريين كان من أشهرهم نقولاً فونقاس. واستطاع نقولا أن ينجح من خلال التغيير الشامل. ولم يعمر جهود سيف الدولة الحمدي في التصدي له حيث أقتحم على رأس قواته مدينة حلب وأخذت فيها مذبحة مهولة ودماراً صراحاً، وساق منها قطراً من الأسرى فيه أكثر من عشرين ألف فتى وفتاة، ونقولا هذا نفسه استغل الضعف العربي قبائل بحولة كبيرة ضد كريت في سنة 961 هـ واستطاع الاستيلاء عليها بعد ما واجه مقاومة هائلة، وعندما وصل خبر سقوطها إلى القسطنطينية تقبلوا تبعها بفرح عظيم، وعلى العكس شعر المسلمون بحزن عميق واسع كبير، ومع أنهم في إفريقية وفي مصر ملكوا ما يفوق في بعض الأحيان لاسترداد الجزيرة تواصلوا، وأحسوا الأمر، واتخذوا الفرصة بكتابة رسالة تهديد إلى بيزنطة وتقريع إلى كافور الأخشدي. ولكن ذلك لم يجد، والمشكلة هنا أن هموم العصر كانت منصرفة نحو حيال مصر، وهموم كافور كانت مستقطبة حول الدفاع عن ملكة. وكانت الأندلس منصرفة نحو همومها مع إعداد الشمال والصراع أيضاً مع النافاطين في بحر المغرب الأقصى والبحر مع مشاكل أخرى.

لقد توالت الإكتساحات العربية في البحر المتوسط، ومن الجانب الآخر كانت قوى أوروبا تتصاعد، وقد أثر هذا تأثيراً كبيراً على مسار احداث الحروب الصليبية، وتعاظم التدهور في هذا المجال في المشرق أكثر منه في المغرب، وقد أضحى ابن خليفة حكاية العرب والبحر المتوسط يقوله: «والمسلمون 000 قد تغلبوا على كثير من لجاء هذا البحر، وسارت أسطولهم فيهم جاهدة ودانية، والمساكن الإسلامية تجبر البحر في الأسطول من سارقة الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية، فتوقع بملوك الأفريقيا، ونتخن في
ممالكهم، وانحازت أسم النصرانية ببسط ينبوه إلى الجبال الشمالية الشرقية منها، من سواحل الأفريجة والصقالبة وجزائر الرومانية ليعودونها، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراً الآن في سويسا، وقدم أثر كثير من بساتين هذا البحر عدة وعداً، واختالت في طرقة سلما وحرباً، فلم تسمح للنصرانية فيه الواح.

حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن، وطرقتها الاعتدالات النصارى ايديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريبطش ومالطة، فلمكروا، ثم الحوا على سواحل الشام في تلك الفترة، وملكوا طرابلس وعسلان وصور وعكا، واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام، وغلبوا على بيت المقدس، وبنوا عليه كنائسة لعظماء دينهم وعبادتهم، وغلبوا بني خزرعون على طرابلس، ثم على قابس وصفاقس، ووضعوا عليهم الجزية، ثم ملكوا المهدي مقر ملك العربين من يد أعقب بالكنين بن زيري، وكانت لهم في المائة الخامسة من القرن هذا البحر وضع في الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع، ولم يعادوا بشيء من أمره لهذا العهد.

بعد أن كان لهم في الدولة العبيدية علامة تجاوزت الحد كما هو معلوم فيه. فسقط رسوم هذه الظروف هناك، وقامت بها الأمازيغ والغريب في فلسطين مرسومًا مختصًا بها.

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة وانسحاب عوائد البحر. لكنه على الودية بالغربي، انقطاع العوائد الأندلسية، ورجع النصارى فيه إلى دينهم المعروض من الجدري فيه، والمرأة عليه، والبصمة باحواه، وانطلاق الأكاد في لحبيب وعلى أعواده، وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلا مع أهل البلاد الساحلية لهم مرأة علية، ووجدوا كثرة من الأكاد وقرون. أو قوة من الدولة تستجيب لهم أعواداً، وتوضع لهم في هذا الغرض مسلكاً (22).
ملحق الكتاب
أسد بن الفرات

(من المقفى للمقريزي - مجلة برتو باشا)

اسد بن الفرات بن سفيان، أبو عبد الله، مولى بني سليم.
قاضي إفريقية
أسلوبه من أبناء جند خراسان

ومولده في سنة أربع وأربعين ومانة، واقام بالكوفة، وكتب عن
اهلها وكتب بالري عن جرير بن عبد الحميد.

واخذ الموطاً عن مالك بن انس، وروى عنه المسائل الأندلسية.

ويوم معدود من كان أصحاب مالك

قدم مصر، ومضى إلى إفريقية، وولي القضاء بها من قبل زيادة الله
عن إبراهيم بن الأغلب شركة مع أبي محرز محمد بن عبد الله بن
قبس في 742

ثم غزا جزيرة صقلية وذلك أن أهلها كانوا معاذين، فنزع بعض
اهلها إلى زيادة الله يستدعى إلى دخول الجزيرة، وذلك أن الملك
الروم سخط عليه، وكتب إلى صاحب صقلية أن يعاقبه ويميل به
فلما خافه استدعى أصحابه إلى الخلاف مع فاسجاوه، فمضى في
مراقبة نحو سرقوزة إحدى مدن جزيرة صقلية، فنزل بمرسالاه
وقاتل البطريرك الذي كان بها حتى قتله، ثم لبس الديباجة التي
لبسها الملوك والخم الأحمر، وأخذ الأموال التي بسرقوزة،
واستولى عليها، وأعطاى أصحابه الأموال، ثم رغب إلى زيادة الله
في أن يمده.

فجمع زيادة الله العلماء وشأنهم في غزو صقلية، وكان في

- 246 -
عدهم أنهم إذا دخل عنهم رجل من المسلمين مرتبنا للسلام ضامنًا لهم المسلمين فاحتجز زيدة الله اسد بن الفرات وباي محرز في آخرين وسألهم عن ذلك، فقال: اسد نسال رسولهم إن كانوا احتسبوا أحدا من المسلمين ارتد عنهم. فسألوهم فقالوا: نعم، فعلنا ذلك، ولا يحل لنا في ديننا رد مسئتي إليها ودخلنا في دينتنا.

فقال: أسد قد تقضوا عدهم وجاز لنا أن ننقض ما عقمنا لهم، وإنما تتقدم إلينا الحقائق عليهم برسولهم فيهم عاهدناهم وبهم نجعلهم نافقين، وقد قال الله تعالى: فلا تهنو وتدعوا إلى السلام وإنتم الأعلون، فكما لندع السلام وإنتم الأعلون فكذلك لانتمسك به وإنتم الأعلون.

فأخذ زيدة الله بقول أسد وامر بإنشاء المراكب والاستعداد للغزو، وعرض أسد نفسه على زيدة الله للخروج في الغزوة، فولاه على الجيش، وفيهم اشراف أهل إفريقية من قرطبة والبربر، والجنود، والبربر، والأندلسيين، وأهل العلم والبصائر، وأقرره على القضاء بعد قيادة الجيش، فخرج في حفظ عظم، وعدل جليلة في شهر ربيع الأولى سنة أثنتي عشرة ومائتين، وفقال: لن حوله والله ما ولي أبي ولا جدي ولا يدactiv. ولا رأى أحد من أهل بني ولا سلفي مثل هذا اليوم ينفعه، ولا بلغت ما تزرون إلا بطلب العلم فاجهروا أنفسكم في طلبه، فإنكم تنالون به الدنيا والأخرة.

واجتمع لزيادة الله من المراكب سبعون مركباً، وجعل فيها سبعمائة فرس، ثم فصل أسد بالعساكر يوم السبت للنصب من شهر ربيع الآخر، فكانت طريقة على قلعة البلاط، ثم على قرى الربى، ثم سار إلى قلعة الدرب وقرية الطاوس، وذل ذلك انهم أصابوا في القلعة دبا أنفساً، وفي القرية طباوساً، ثم سار إلى معركة بلاطة فظهر له فيها جمع من الروم فثار لهم وواضعهم الحرب فانهزم المشركون، وأصبح لهم خيل وسلاح، ومن ذلك اليوم.
سميت معركة بلاطة 744 - ثم دخل الى حصون الروم ومدنهم وقرائهم بنسفها وغدير عليها 744 - وبعد السرايا إلى قصور صفقيا وقراها فاصابوا سبيا كثيرة، ومن الدواب والمواشي مالا يحسب كثرة وكثرت الغنائم عند المسلمين فصاروا في رغب من العيش، حتى نزل على سرقوسة، وحصر أهلها أشد الحصار، ونصب عليهم المجانب وقاتلهم برا وبحرا.

كانت المراكب تأتيهم من القسطنطينية لتنصرهم، فربما تغلب المسلمون عليها قبل دخولها 744 - وثب السرايا من كل جهة، واختط الناس المنازل من سرقوسة إلى قطانية وما حولها، ونزع من المسلمون في الروم وسكنوا القرى، وسارعوا الناس الى إمدادهم والغزو إليهم من إفريقية والأندلس وغيرهما. وانتهتم مراكب من الأندلس فيها كلب الأعرج ورجل يقال له المشاط فنزلوا وافتحوا قلعة تعرف بقلعة حفص 744 - وأحرق اسم مراكب سرقوسة وقتل جماعة من أهلها فانقطع الطور من سرقوسة، واشتد عدتهم الغلاء ونبحوا خيولهم 744 - وباشر على أسد أن يرجع وقيل له: سلامة مسلم واحد خير من الروم بأسرهم، فأتيق أن يرجع وقال: ما كنت لاضعيف على المسلمين غزاة وفيهم خير كثير.

وأمر بالزحف وأخذ اللواء بيده وقرأ سورة سب حتى فرغ منها، ثم قال: أهل الناس، لاتهابهم، إنهم عريضهم، هربوا من أينكم، ثم هم قد وقعوا لكم يشير الى من انهمز من الروم عند فتح إفريقية.

ثم إنه زحف وقاتل قتالا كثيرا، واشتد الحرب، وهزم الله المشركين، وكانوا في مائة ألف ومائتين الفا، وقتل بالبلاطة ملكهم في خلق كثير منهم 744 - وجرح أسد، فلم تزل به جراحه حتى مات وهو على حصار سرقوسة في شهر رجب سنة ثلاث عشرة وثمانين فدفن بمدينة بلرم.
جرجي الأنداكى وزير روجار

(من المقفي للمقريزي - مجلدة برتو باشا)

جرجي بن ميخائيل الأنداكى، وزير روجار ملك الفرنج بجزيرة صقلية 5 كان من جملة النصارى وعمل هواً واهلاً بعينهً للك القسطنطينية مدة ورفع عليه وعلى أمه فامير الملك بوصولهم إليه بالأهل والولد، فجمعوا في مركب وخرجوا في أربعين نفساً فلقيهم أسطول السلطان تميم بن العز بن باييس صالح بلاد الغرب، وذلك في سنة نيف وثمانين واربعمائة، وهو راجع من غزو جزائر القسطنطينية، فأخذهم واتى بهم إلى المهدية من أرض إفريقية، فسالوا الحضور بين يدي تميم فامير بإحضارهم فذكروا أنهم حساب وأن السلطان ينتفع بهم في الخدم، فاحسن تميم الهم وقلدهم الأمور، فظهر نصمهم وولي جرجي هذا عاملاً على مدينة سرودة وجعل سمعان أخاه بين يديه وكان لم يبلغ الحلم، فجعل يلتقط الأخبار من أخوه من غيرهم ويوصلها إليه، فبلغ السلطان retries يحيى ابن تميم عن سمعان أنه نقل عنه كلاماً، فسفاق به صدره وثقل على يحيى بن تميم فامير من خذله ليلاه.

وات السultan تميم وقام من بعده ابنه يحيى بن تميم فخاشه جرجي، وكتب إلى السلطان عبد الرحمن (3) وزير الملك روجار بس روجار ملك الفرنج المعروف بابي تليس صاحب جزيرة صقلية بأمره فيه ابن بعث له شيخاً غزوانية ليهرب فيه 4 فوصل الشهري إلى المهدية في سنة اثنان وخمسمائة، وفيه رسول إلى السلطان يحيى ابن تميم 5 فأخذ جرجي وجميع أقاربه وسار بهم بحيث لم يعلم به أحد.

- 249 -
فالما قدموا عليه أحسن إليهم وولاهم الدواوين بصقلية فاظهروا النصع فصار لهم عند منزلة وإشباق الملك روجار وشارك عبد الرحمن الوزير في الأمر والنفي فقترب إلى جرجي بكل مما يوافقه فبعث جرجي رسولاً إلى مصر كرات متعددة.

ولم يزل جرجي يسعى بالسلطان عبد الرحمن حتى أخذ روجار وجعله في قفص حديد وقتله وهو وزارتة أبا الضوء كاتب إنشائه وكان من أهل الأدب فلم ينوض بالأمر فولى جرجي الوزارة فجمع الأموال ورتب قواعد الملك وحب روجار عن الرعية وجعل له زيا كري المسلمين لا يركب ولا يظهر للرعية إلا في الأعياد وبين يده الخيل المسوسة بسروج الذهب والفضة والأجلة المرصعة بالأحجار والقباب بالهوادج والبنود المذهبة والمطلة والتاج على رأسه.

وتعت جرجي بالسيد الأجل المرتضى عز الملك المظفر فاخر الجلال نظام الرئاسة زعم الحيوان شرف الوزراء أمير الأمراء ووقف روجار على سير الملوك وأمر كتبتا من كتابه يعرف بالحشش فجمع له سيرة.

فالما كانت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة عند أخذ المهدية بلغت شوانبه مانتي شني ومانعة طويلة غير الحمالة فخرج جرجي في الأسطول بنفسه وفتح المزارعين التي بين المهدية وصقلية ثم صار في ملكه من سواحل إفريقية ما بين أول طرابلس إلى الحمامات قرب تونس وفي البر إلى قرب القيروان واتسعت لولا روجار بتدبير جرجي فالما وقع الغلاء في المغرب مع الفتن رحل إليه من الأمراء والقضاة والفقهاء والأدباء والشعراء عالم كبير فأسهم جرجي وروجار رفدهما وأنزلهم عنهما فعمت الجزيرة أحسن عمارة وقصدها السفارة من كل البلاد بأنواع البضائع وطرف التجارة إلى أن كانت سنة ست وأربعين وخمسمائة فمات جرجي الوزير وهو في التسعين فاقر روجار ولده ميخائيل بـن جرجي في الوزارة.
ثم مات روجار في العشر الأول من ذي الحجة سنة ثمان واربعين وخمسمائة
جعفر بن محمد الكليبى الصقلي

( من الملقفي للمقريزي - مجلة بروتو باشا )

جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي بكر الصقلي

كان من أمراء بني أبي الحسين بصفة توارث ومانتها مدة سنين، وأول من ولد منهم الحسن بن علي في سنة سنتين وثلاثين وتثالاثية من قبل الإمام المنصور بنصر الله أبي الطاهر إسماعيل بن محمد القائم بأمر الله بن عبد الله (3) المهدي الفاطمي.

ثم ولي بعد الحسن بن علي ابنه أبو الحسين أحمد بن الحسن، ثم أبو القاسم علي بن الحسن بن علي، ثم ابنه جابر بن أبي القاسم علي، ثم جعفر بن محمد هذا.

وكان أبوه أبو عبد الله محمد بن الحسن قد قدم إلى مصر مع العز لدين الله، ومات بالقاهرة. فلما مات العز واستخلف من بعده ابنه العزيز بأبا منصور نزار بن المعز، ونافذ حميزة بن ثلة الكتامي بأسوان في سنة ثمان وستين وتثالاثية أخرج إليه جعفر بن محمد هذا، فأخذته ودخل به القاهرة ومعه أمواله وجواهرا ونعوه، فلما أبلغه عز الدين...

أبو القاسم علي بن حسن أمير صقلي لعشر بقين من المحرم سنة اثنين وسبعين في الجهاد. وقام من بعده ابنه جابر كتب قوم من أهل صقلي إلى العزيز يعرفونه عزج جابر عن القيام بأمر صقلي. فامر العزيز جعفر بن محمد هذا أن يمضي من مصر إلى صقلي وعقد له بولايته. وقد كن في رتبة ابنه من الوزارة والحلال الجليلة فخالف منه الوزير يعقوب بن كلس وأراد إبعاده، فحسنه للعزيز.
ولايته صقلية وعرفه أن النثر يتلف ما لم يله، فقامت حيلته وولاه الفيزر.

فخرج من القاهرة إلى البر وقفه خير يسيرة فوصل إلى مدينة المنصورية يوم الأربعاء لخمس خلون من صفر سنة ثلاث وسبعين وبين يديه عشرون فرسا بالسروج المبتعلا المثلثة، وخمسة بندوب مذهبة وخمس عمياتات، ومهم سبكتتين التركي فلقية عبد الله بن محمد الكاتب وانزله فنادى مناهج في الناس بإعطاء الأرباق السنوية، فأتاه جمعة من الناس فلم يحمل ذلك عبد الله والنادي: "من ملى إلى جعفر بن محمد بن الحسين فدحل دمه وانفذ قوما سائرين نحوه فضرب أعداهم فرسل عند ذلك للنصف منه يزيد المهدي، ورحل معه عبد الله فاتته ثاني يوم وصوله خمسة مراكب بحرية من صقلية بهدايا جليلة وعدة عظيمة بعد بيدها إلى عمهم جابر بن أبي القاسم، فركب فيها يوم الجمعة لليلةين بقيتا من صفر وسار إلى صقلية فتسلما من جابر بغير مدافعة واستقامته له أموره.

وكتبه إليه النايزر في سنة خمس وسبعين بأمره أن يدفع إلى الراعب الذي هو أبو جارته السيدة العزيزة، القلعة التي افتحها جده الحسن على بن بي الحسين، وأن يدفع إليه كل شيء عنهم قديم وحديث، فقدم الراعب إلى صقلية فأنتهى جعفر وركب به ومعه أن يدخل عليه أحد، حتى إنه كان إذا عبر الحمام صحبه عدة من المسلمين حتى يدخل ويخرج فردوته إلى موضعه. فأقام على هذا نحو أربعة أشهر ثم جمع له كل شيخ وعجوز وعلي من النصارى ودفعهم إليه، وهم نحو مائة نفس وأمره بالرحيل، فقيل وما صبي بنجاته. فمضى إلى القسطنطينية. وكتب إلى العزيز بما كان فيه مع جعفر، وأمر جعفر بعد مسير الراعب فاشترى مركباً إندلسياً وشحنته بطرائف الأندلس وأظهر أن ابن أبي عامر بعدته إليه.

وكتب إلى العزيز بأن صاحب الأندلس قد كتب إليه يدعوه إلى طاعته، ويعده أن يقطعه من الأندلس كل ما يسائه، فكتب إليه العزيز بـ...
سلفه من بني أبي الحسين ما عرفوا قت إلا طاعته وطاعة
ابله - يحده عليها - فقري جعفر يداري أمره، والقلاع بآيدي
المسلمين، فلم يرم أن مات في يوم ( ... ) سنة خمس وسبعين
وثلثمائة فول بعده أخوه عبد الله بن محمد.
 Taj al-Dunya al-Kubr

(من المقاوي للمقرزي - مجلة برتو باشا)

جعفر بن يوسف بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي. أبو محمد. ابن أبي الفتح ويعمل ابن أبي الفتح - الأمير تاج الدولة. سيف الله ابن الأمير ثقة الدولة

أحد أمراء صقلية المعروفين بـ "بني أبي الحسين". قام بأمر

صقلية نياحة عن أبيه الأمير أبي الفتح ثقة الدولة يوسف يوسف للفحجه وتعطل جانبه الأيسر في سنة ثلاث وأربعمائة، فلقب الحاكم بـ "امير الله منصور بن العزيز". تاج الدولة وسيف الله، فاستقر على ولايته.

وفي آخر رجب سنة خمس وأربعمائة خالف عليه اخوه الأمير علي

أبو يوسف، فقتل به معونة أخوته أحمد وحسن.

ثم خرج أهل صقلية عن طاعته لظله وحصورهم، فخرج إليهم

أبو يوسف في محفل حتى ردهم عن محاربته، وصرف عليه، وولى عليهم ابنه تأييد الدولة أحمد الإجلي بن يوسف في سياق الحرم

سنة عشر وأربعمائة، وسره من صقلية إلى القاهرة. فقدمها.

وسار أبوه من بعد إليها بأموالها وكانت كثيرة جدا.
جوهر الجدالي

( من المقفي المقرزي - مجلة بردو باشا )

اصله من قبيلة جداله احده قبائل البربر في صحراء بلاد المغرب.

النبي صلى الله عليه وسلم فسمع منه فأعجب بها. فلم إلا عاد من الحج إلى السوس، قصد ذلك الفقيه. فلما سمع كلامه قال له: يا فقيه، ما عدننا من هذا الذي تذكره شيء إلا الشهادات والصلاة.

فقال له الفقيه: فاحمل معك من يعلمهم عقائد الإسلام وكمال دينهم. قل: فآباع معي أحد الفقهاء، وعلي حفظه وبره وكرامته.

فأرسل معه فقيها من طلبه يقال له عبد الله بن ياسين فيدخل الجوهر وعبد الله بن ياسين إلى الصحراء، وفيهما قبائل منهم لمتونة، وجمال ورضاء ويسوسة وغيرهم، فنزلوا على قبيلة لمتونة، وهي على ربوه عالية. فلما عاينا الفقهاء نزل الجوهر عن جمله وأخذ العمل الذي عليه عبد الله بن ياسين، تعظيمًا له.

وأقبلت عيان لمتونة يلتقوه الجوهر الجدالي إيهمنوه - كما جرب العادة - بالسلامة، وكان من أكابر تلك الصحراء. فرأوه يقول ذلك العمل فقالوا له: من هذا؟

فقال: حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم في دين الله من الإسلام.
فرحوا بهما وانزلوها . ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة.
وقالوا: تذكر لنا ما أشرت إليه أن بيزمنا.
فقطع عليه عبد الله عقائد الإسلام وقواعده ويبين لهم، حتى فهم ذلك أكثرهم. ثم اقتسام الجواب فقالوا: أما نكرت من الصلاة والزكاة فذلك أمره قريب، وأما قولك: من قتل يقتل، ومن سرق يقطع، ومن زنى يجلد، فأمر لانترنته، ولاندخل تحته. أذهب إلى غيرنا؟

فرحل عبد الله والجوهر عنهم، والجوهر الجدالي يجر زمام جمل عبد الله بن ياسين. فنظر إليه شيخ كبير السن من أئمة الصنعة، فقال:
ارايت هذا الجمل؟ لابد أن يكون له في هذه الصحراء شبان يذكر في العالم.

وانتهوا إلى جدارة قبيلة الجوهر، فتكلم عبد الله بن ياسين فيهم وفيمن اتصل بهم من القبائل. فمنهم من سمع وأطاع، ومنهم من سمع عصي. ثم إن الخالفين لهم تحيزوا وتحزبوا. فقال عبد الله بن ياسين للذين اقبلوا عليه وقبلوا سنة الإسلام: قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الخالفين للحق، الذين اكرروا بين الإسلام واستعدوا لقتالكم. فألقوا لكم حرباً وأquivoكم لكم راية، وقدموا علينا أميراً.

قال الجوهر: انت الأمير.
قال عبد الله: لا يكمني هذا، إنما أنا حامل امامة الشرع وأقصى عليها نصوصه، وابن لكم طريقه، وأعرفكم سلوكه، ولكن كن انت الأمير! فقال الجوهر: لو فعلت هذا تسقط قبلي على الناس.
وعانوا في الصحراء، ويكون وزر ذلك على.

قال عبد الله بن ياسين: فهذا أبو بكر بن عمر راس لنضوة
وكبيرة يفعل ذلك.

فاجاب. فعقدوا له راية و bâyعوه بيعة الإسلام، وتبعته زمرة من قومه وسموه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين، وعادوا إلى جدالة وجمعوا اليهم من أمكن من الطوائف الذين حسن اسلامهم وسمائهم.

عبد الله: المرابطين.»
وتالبت عليهم احبار من الصحراء معاندون من أهل الشر والفساد
( فلم يقاتلهم المزابطون بل استعان ابن ياسين وأبو بكر بن عمر
على أولئك الآشر بالصلاح من قبائلهم، فاستمروا وقرموهم
حتى حصلوا منهم تحت زرب عظم وثيق نحو الغي رجل من أهل
البغي والفساد ) (1) وتركواهم ايامًا بغير طعام. ثم أخرجواهم شيئا
بعد شيء وقتلواهم عن آخرهم. ومن ذلك الوقت دانت لهم أكثر القيائل
استقام خلق كثير.

ولا ولي الأمر أبو بكر بن عمر استبد به دون الجوهر فداخل
الجوهر الحسد وشرع في فساد الأمر سرا. فعلم ذلك، وعقد له
مجالسًا وثبت عليه ما نكر عنه فحكم فيه أنه يجب عليه القتل لأنه
نكذ البيعة وشاق العصا، وهم بمحاربة أهل الحق. فقال الجوهر:
"وانا أيضاً احب لقاء الله حتى ارئ ما عهد".

ثم كثرت طائفة المرابطين، وساروا لقتال الفرنج فقتل عبد الله
ابن ياسين، وذلك في عشرين من أركمانة. ثم جمع أبو بكر بن
عمر قبائل السوس حتى أخذ مدينة سلماسة، وعليها يوسف
ابن تاشفين اللمنوني، من بني عمه، وعهد إليه من بعده. فلما مات
أبو بكر، خلفه يوسف بن تاشفين، ودعي بأمير المسلمين. فافتتح
بلاد المغرب شرقاً وغرباً بيسر سعي، وبنى مدينة مراكش. ثم أخذ
المعتمد بن عبد ملك الأندلس. ثم مات فقام من بعده ابنه علي بن
يوسف، ثم اسحاقي بن علي بن يوسف. وقتل أسحاقي سنة اثنتين
اربعين وخمسمائة، وانقسمت دولة المماليك التي انشأها
الجوهر الجدالي بقيام دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت.
الوزير اليازوري

( من المقفى للمقريزي – مجلة بردو باشا )

الحسن بن علي بن عبد الرحمن، أبو محمد اليازوري، الوزير الأجل الأول المكين، سيد الوزراء وشاعر الأصفياء، قاضي القضاة ودعاية الدعاء، علم المجد، خالصية أمير المؤمنين، الناصر للدين.

كان أبوه من أهل ضيعة من ضياع فلسطين يقال له: «يازور»، وله بها حلال متسعة كبيرة. فلما اتسعت حلاله، وكثر ماله، انف من المقام بها وتحول إلى الرملة وسكنها فشهر بها. وعرف بالصديق في القول وسماحة النفس، فتقدم الشهود بها، ورد إليه قضاة أكثر أعمال الرملة، ونشأ له ابنان: أحدهما الحسن هذا، فخلف إخاه القائم بعد أبيه، وأربى على أبيه وأخيه، في حسن الطريقة وجمال السيرة وشرف الإجلال.

واتصل بخدمة خيرة جارية الوزير علي بن أحمد الجرجرائي فاحسن الله إياه واعتنى به ومنعته من التعرض لصرفه من الحكم إلى أن توفيت. فصرف عن الحكم.

وقدى إلى القاهرة وتلطف بثكرية مداخلته وتوصل إلى خدمة السيدة أم الخليفة المستنصر وواضب خدمته وخدمة حواشيها ولازم بابها للسعي في عودته إلى الحكم بفلسطين. وصار يتردد إلى الوزير أبي نصر صدقة بن يوسف الغلامي حتى اختص به وافضي إليه بما يجد من استفاده: أي سعد سهل التستر بامور الدولة وما يلقى من امتهانة له، فيشاركه في التدبير عليه ويلقنه من ذلك ما يجد.
فانصرف عن القاضي القضاة حضر يومًا بباب البحر، أحد أبواب مصر، على عادته في كل اثنين وخميس، والجسر ينتشر خروج السلام إليه، وجلس معه من الشهود من جرى رسمه بذلك، فدخل البابوري، وجلس معهم فانصرف إليه القاضي وقال له: يا أبا محمد، قد كان يجب أن لا تردي وجهك عقب ما جرى لك مع اليوم.

ثم انصرف عن القاضي وأقبل على أبي عبد الله أحمد بن محمد ابن أبي زكريا خليفة قاضي القضاة فخطابه بأجفًا من خطاب القاضي له. فتركه وقد عظم همه.

ووافق منزله فوجد قد حضر إليه من ضياعه ثلاثون حملًا من النافح لتباع بمصر، فانصرف منها خمسة أحمال إلى الوزير الفلاحي، وبعث لقاضي القضاة خمسة أحمال وللقائد الأجل عدة الدولة رفع خمسة أحمال ولا بن أبي زكريا ثلاثة أحمال وللقاضي خمسة أحمال، وفرق حملين على حواسيبهم، وكان من هذه الأحمال يبلغ جملة ثلاثمائة دينار فلم يلتقت أحد منهم به ولا عطفه.
عليه. ويذكر منا اليه من الجميل ما يوجب أن يكافينا عليه. وهذا رجل حريه مروه توجب أن نصطنعه ونحقق حسن نظمه بنا.

وركب البيزوري من الغد ووقف عند باب البحر أقبل رفق من داره يريد المقرض تلقاه وسلم عليه فأكرمه ورحبه به وساله عن حاله، ثم دخل إلى القصر وقضى حك الخدمة وخرج فوقه وافقت على حاله فسلم عليه. وسار معه إلى داره حتى وصل اليها فانثى البيزوري راجعا. وأقام على ذلك أيام.

فخفى على قلب رفق وقويت رغبته في اصطناعه. وصار إذا وصل إلى داره أمر البيزوري بالنزل معه. فنزل وجلس معه وبحادثه. وكان حلو الحديث فكه المحاضرة. فأطال جلوسه معه. وبيه رفق إذا غاب عنه يشتاق اليه. وإذا هم بالقيام عنه امسكه إلى أن تحضر المائدة. واكثر منه حتى عد من خواصه.

وما ضجرت أم المستنصر من عرض خدمته على أبي نصر إبراهيم أخى أبي سعد سهل التفتي. وامتناعه. حتى وقفت أمور خدمته وأبيه بابها مغلقا. مدة ثلاثة أشهر. قال رفق في بعض الأيام لبيزوري. وقد أفضى به الحديث إلى كثرة رغبة السيدة أم الخليفة في أبي نصر وامتناعه. إنى اري رايا. فما عندي فيه؟

قال البيزوري: ما هو؟
قال: تكتب رقعة تلمس خدمة السيدة وتعرض نفسك عليها.
قال البيزوري: كنت أظن جميل رايك في وإيثارك مصلحة حالي فاكذبيني ظني.
قال: بماذا؟
قال: لهزتك بي. فأنى قد اجتهدت في العدل إلى قريبة كنت فيها فبخ على بها. فكيف إذا تعرضت لهذا الأمر الكبير وما وراء الوزراء؟
قال له: أرأى ترضي بي سفيراً لك في هذا الأمر. وعلى استفراة.
الوسع لوجود حقك علي ؟ فإن قضت الأقدار ببلوغ الغرض في ذلك، فقد ادركنا ما نؤثره. وإن تكن الأخرى، فعلى أكثر من العالمة ما نحصل.

فاستجاب إلي ذلك، وكتب رقعة بعرض نفسه ومَشْهـَع عليه السيدة، وخطب خدمته، وبدل الاجتهاد فيها. فأخذ رقق الرقعة وركب من الغد إلى القصر، ودخل إلى السيدة وقد احترس أبا نصر وعاودته في الخطاب وهو على حاله من الامتناع إلى أن أضجرها.

فانتهر رفق الفرصة بفضحها وقال: يا مولانا قد طال غلق بابك ووقف خدمتك وكثرة امتناع الشيخ أبي نصر ممسا تسردنه منه. وهنأ من انت تعرفيته، وهو رجل مسلم وقاض، وكثير الروعة، وهو مستغن بماله واملاكه عن التعرض لماك، وهو ثقة ناهض كاف.

قالت: من هو؟
قال القاضي أبو محمد البازوري وهذه رقعته، فأمّره بتسليمها إلى أبي نصر. وقالت: ما تقول فيه؟
فلم يصدق بذلك وقال: يأمّلتنا، هو وان الله الثقة الأمين الناهض
الذي يصلح لخدمتك، وفيه لها جمال، وما تطفره بملته.
فوقع ذلك منها بالموافقة لما كان في نفسها من الفيظ بامتتاعها عليها، وقالت لفرق: قل له مجلس في داره غدا الي أن أنفذه اليوه.
فسر رفق بذلك سرورا كبيرا وخرج، فرآي البازوري فقال له: أقسم أم شعير؟
قال: بل بريوسفي - وقص عليه وقال له: ألغى إلى دارك فلا حاجة إلى الاجتماع اليوم، وإذا كان الغد فجلس حتى ياتيك رسول السيدة.

ففعل، وجاء من الغد الرسول يصدعه. فركب إلى باب السيدة وقد جاست له رواة المقطع، وردت إليه أمر بابها، والنظر في ديوانها الذي هو باب الريح، فبلغ ذلك الوزير أبا نصر صدقته بن يوسف الفلاحي فشق عليه كون هذا الأمر لم يكن على يده مع علمه.
أنه لا يقدر عليه، فإن السيدة لم تكن تسع قولاً ما في نفسها. يقتل أبي سعد، ولم يسمع إلا المجملة. واستدعى أمراء الأتراب وأمرهم بالمضي إله وتهتنته، فلما دخلوا على البابوري تلقىوه واعظمهم لمسههم إله، وعندما هنوه شكرهم وأثى عليهم وقال: ما أنا إلا خادم ونائب لوالي الأمراء. أسال في تشريفي بما يعن لهم من خدمة أنهض فيها وأبلغ الغرض فيما يرسمون.

فتهروا وقام لوداعهم واتوا إلى الوزير (الفلاحية) وأعلموه بما كان من البابوري. فقلق لذلك. ولم تصل الأيام حتى قبض على الوزير وقتل، وأقيمت بعدم في الوزارة أبو البركات الحسين بن محمد الجرجراني. فقبضت حال البابوري تزود ومنزلته ترتفع وأمره يتلاك وخلعته على السيدة خلعة ثانية. ولقب بالملك الأمين عدة أمير المؤمنين. وأمره أن لا يقوم أحد، فإن خدمته لانتقضت أعظم أحد إذا دخل إليه. فكان يعتبر إلى من يأتي من الجلة الرؤساء والأكابر عن ترك القيام ويقول: لو ملك اختباري لبالتانت في تكرمكم بما تستحقونه - إلى أن تهم عذره في ذلك، مأخلاً القائد الأجل عدة الدولة رفق الذي كان سفره، فكان إذا أقبل إليه وثب فانهما ووفاء حقه من الأعظم فبلغ ذلك السيدة فقالت له: لا لتحمرك لأحد بالجملة.

فكان بعد ذلك إذا جاء، يعترف إليه فكك كذلك مدة، وحالة أخذ في الترقي ورئاسته تزداد أجملًا إلى أن صار بحضره الخليفة المستنصر إذا أراد أن يستدعى الوزير كما كان قد تقرر لأبي سعد التستري مع الوزير الفلاحية فشتق هذا على الوزير أبي البابرك. وذلك أنه كان إذا حضر البابوري عند المستنصر تحدث طويلاً، وتكون السيدة من وراء المقطع فيدور بينهم الكلام فيما يحتاج ثم تستدعي الوزير أبي البابرك فانها دخل وعرض ما يريد من أمور الدولة لايجبه إلا البابوري، ثم يلتقي إلى الخليفة بعد ما يجيب الوزير ويقول: ليس هو الصواب؟

فيقول الخليفة: نعم.
ويخرج الرسول من وراء المقاطع ويقول على السيدة: هـو الصواب. فصار الوزير كانه انتفاخ على البازوري لعلي الخليفة والسيدة، ولا يقدر على الاعتراض فيما يقوله ولا يجد بدًا من امتهان ذلك.

فشق عليه ما أصاب إليه اتخاذ في أعمال الحيلة فأشار عليه أبو الفضل صاعد بن مسعود أن يحسن للخليفة توليد البازوري القضاء، فإذا تقلد القضاء وقع في هور كبير وشغله عن ملاحظة السيدة في تنصيز الوزير حينها إلى استعمال وله مسكن البازوري، ويستوي له الأمر ويملك جهتي السلطان والسيدة.

فاتفق حضور قاضي القضاء قاسم بن عبد العزيز بن النعمان عند الوزير وقلقته من خليفة أبي عبد الله محمد القاضي وابن عبد الله أحمد بن أبي زكريا وشكوى المكتوبين من قاضي القضاء مع توعك ابن محمد البازوري وتخلفه في داره امامه فلا الوزير بالخليفة واعاد عليه ما ذكره كل من القاضي والخليفة وشنهغ أمر قاسم وقبحه. فقال الخليفة: فمن نسببل به؟

قال: عبيك كثير، وبين يديك من يتجلب الحكم به مع ثقته وامانته وقربه من خدمتك.

قال: ومن هو؟

قال: القاضي أبو محمد.

قال: ذاك في خدمة مولانا الوالدة، ولتفضل له في ذلك.

قال: يا أمير المؤمنين هنيء خلك الله ملكه! أغلى على دولتكم واحسن نظرا إليها من ان تحول بينها وبين ما يجعلها ومع هذا فلم ينقل مما هو فيه الي ما هو دونه، بل اللي ما هو واق منه. فأجاب إلى ذلك وقام وقد استقر لهذا وتمله ما أراده، وشرع في الحال في كتابة سجله وأعداد الخلع ليخلع عليه في غد ذلك اليوم خوفا من تحق ما نستقر.

وبلغ ذلك كله القائد فانفذ إلى البازوري وقص عليه الخبر.

وقال له: تلطف في أمرك كما تريد - فعظم هذا على البازوري وخفى.
من اباعده عن خدمة السيدة، فإنها كانت اجل الخدم وارفضاها واسناها محلا واغناها: فإن كل من كان في الدولة من وزير وأمير وغيرهما محتاج اليه.

فلم ما كان مع عشاء الأخرى حمل على نفسه وهو محموم، وركب إلى باب الريح، ودخل وأعلما مكانه، فأكترت حضوره في مثل ذلك الوقت مع ماتعلمه من توعك بذل، فخرجت ورائى القطع وسائته عن حال مرضه وما الذي دعاه إلى العاناء في هذا الوقت على ماهو عليه، فرمى نفسه بين يديها وقص عليها القصة كلها وقال: إنما الخرذع إبعادي عن خدمتك وحرماني السعادة التي الحكنتي بها ليفق التمكن مني.

قالت: وما الذي تكره من ذلك؟

وقال: يا مولاتنا، هور الحكم واسع، وأحوال قضائي القضاء
قاسم بن النعمان في مشهورة، ولو كانت حارية على النظام المستقيم لشغلت عن خدمتك، فكيف والحاجة داعية إلى تجديد إصلاحه وإحكام نظامه، وفي هذا شغل كبير؟

قالت: لا يضيق صدرك بهذا الأمر، فبابي لك، وخدمتي متوفرة على ولاستبدل بك أبدا.

وقال: يا مولاتنا، قد قدمت القول إن هور الحكم كبير واسع، واشتغالي به يحول بيني وبين مازمة بابك.

قالت: خلفاؤك في الحكم، القاضي وأبى زكرى هما يذعان من الأحكام مايجوز تنفيذه. فإذا تحررت الأحكام نزلت ففصلك ذلك، وقرر لنزولك يومين في الجمعة لفصل الأحكام. فإذا نزلت كان وداك ينويان ذلك في تنفيذ أمر خدمتي. وهذا التقرير لايملك فعله، فقبل الأرض له ودعو وشكر وانصرف.

فلما كان في ذلك اليوم وهو الثاني من المحرم سنة إحدى وأربعين واربعانة، استدعي إلى حضرة أمير المؤمنين وخلع عليه وقرى سجله في الابوان، وخرج والدولة بأسرها بين يديه، فقام في تنفيذ
الأحكام عدة أيام وولدها بنوبان عنه في باب الريح. وجعل الوزير
بيعث السيدة من يطأرها في نظر بنابها ويعبر لهما بـ "ذكر ولد
الوزير. فقالت: وما هو الأمر الذي يعجز ولده القاضي أبي محمد
عنى، وقد لنا فعل أبيهما وفهما. ومنه مايستدعهما إليه، ومع ذلك إلى
أن يجيء أبوهما، وما كنت بالذي يسبدله به بوجه ولاسيب.
فلمما سمع ذلك الوزير أبو البركات،سقط في يده وقال: اردنا
وضعه، والله تعالى يريد رفعه.

فقال له أبو الفضل صاعد: أما إذا جرى الأمر بخلاف ماذهبنا
وامناه، فليس إلا مجاملة الرجل ومواثيقه على السلمامة،
فتوافقاهما. وصار لابسن على الود وليجتمعان إلا بوما في
الشهر، بحضر إليه في داره. فإذا صار إليه إليه الوزير عن كل
احد، وخلاه بن، وحال `
في إكرامه، وهو في اللبس، يدير عليه، فكفاها
الله أمره، وقبض عليه وشغرت رتبة الوزارة عدة أيام، والسيدة
تعرضها على الزيادي وهو يمنع. فأقيمت أبو الفضل صاعد وخلع
عليه وعمل واستدامة لازوريا فصار إذا أحب أن يعرض على الخليفة
امرأ مما يتعلق به يتقدم الزيادي إلى الحضرورة، ثم يستدعى بابي
الفضل. فإذا عرض ما أحب لا يجيبه إلا الزيادي، فصار في نفسه
منه مثل ماكان في نفس غيره من الوزراء. وأقبل بنصب عليه ويحمل
الرجال على مكروهه ويومهم أنه إذا سال لهم زيادة ولاية.
يعترضه الزيادي بما يبطل رأيه ويقضده. فاستدعى ناصر الدولة
حسن بن حمدان بعض خواص الزيادي وقال له: أعلم أن القاضي
له من الثناء جليل كثير، ونحن شاكون له، معترضون بجميلة
متفقون إلى جاهز في جميع أمورنا. وأعتقان من هذا الأمر لايرضيه
من نحن إن وقفت عناجنا، ويكون الشكر في لتغيبه إن قضيته.
وهذا الرجل عديم الملك هوذا يحمل الرجال عليه ويشعرهم أنه يعد
في نزاعات حواضنها، وأنه يعترضه مما يبطل عليها، وفي هذا الأمر
ما يعلمه. فقال له عنى: يبضيدنا، أما إذا تريد شكر الرجال وسلامة
صدورهم لك وخلاص نياتهم في طاعة، فانظر في هذا الأمر. فإن
احمست عرفنا ذلك لك ونشكره متك، وإن أساتك كان لك ضره

- 266 -
وشره.. وإلا فاعتززل جانبي ولاتلعب بروحك مع الرجال لنلطفك أبو الفضل.. وإن أذن لي في المثل بحضري ذكرت له ذلك.
فلما بلغ هذا للبابوزري قال له: أمهلي الليلة ويلي إلي.. فكر إليه وهو خال فقال له: أعد علي قول ناصر الدولة.
فأعاده فقال: اقره عني السلام وقال له: والله إلا أدخل فيه وكون لي خبره وشره. فأبلغ ذلك ناصر الدولة.. فقال: هذا هو الصواب.
فلما كان بعد يومين قريه سجله بالوزارة وقلب بالوزير الأجل.. الأوذم.. المكين.. سيد الوراء.. وناجي الأصفياء.. وفاضي القضاء.. وداعي الدعاء.. علم المجد.. خالصًا أمير المؤمنين.. خلخ عليه في اليوم السابع من الحرم فنظر فيوزارة.. ومضى فيها مضى الجواد.. ونهض مسرعاً به مهوض غير به في وجه من تقدمه.
وكتب ملوك الأطراف فأجابوه بما يليق بقديره ووفور حقه من الرئاسة.. ما خلا معز بن باديس صاحب إفريقية.. فكان قصره في المكتبة عما كاتب به من تقدمه من الوزراء.. وكان يكتسب كلا منهم.. بعده.. فجعل مكتبتاه صنيعته.. وكان ليس باديس بالقاهرة نائب.. فاستدعاه البابوزري وعبث صاحبه وقال له: اظهري انتقاصي عنم تقدمني إذ لم أكن من أهل صناعة الكتابة. وإن لم أكن أوق منهم.. فما أكون دونهم.. ومن رفعه السلطان ارضى و إن كان خالما.. ومن وضعه ائتضع وإن كان جليلاً نبيلا.. فاكتبه إليه بما يرجع إليه الصواب.
فكتب إليه بذلك.. وقد أنكر البابوزري عليه عيوناً يطالعونه بما يتفوه به.. فلما وقف ابن باديس على كتاب وكيله قال: ما الذي يريد مني هذا الفلاح? اكتب له: عبده.. وهوك اكار.. والله لاكان هذا أبدا.. وإن الذي كتبته به إليه لكثر.
فطالعه عيونه بقول ابن باديس.. فأحضر الوكيل وقال له: قد جرى صاحبه على عادته في الجهل.. فاكتبه إليه بما يردعه.. وإن عرفته بنفسها إذ لم يعرفني.
فكتب إليه بذلك فأجاب بأشياء من الأول. فنسب إليه اليزيوري من تلفظ حتى أخذ سكين دواه. فلم وصلت إليه لاحضر الوكيل. وقال له: قد كنت أظن بصاحبه أن الذي جعله على ما كان منه نزوة الشبيبة وقلة خبره بما تحضيه الأقدار، وأنا إذا نبهت نبيه. فإذا الجهل مسؤول عليه، وزنك أن بعد المسافة بيننا وبينه يمنع من الانتصار منه، والوصول إليه بما يكره. وقد تلطفنا في أخذ سكينه من دواه، وهامى! فأنفقها إليه وأعلمه أنا كما تلطفنا في اخذهما، فإننا نتلطف في نبجيه بها - ودفعها إليه. فكتب الوكيل بذلك إليه فازداد شرا ويطيرا وتقيانا. فرس إليه من أخذ نبجله، ولم يمشي في الأحداث السنية. فلم وصل أحضر الوكيل وأعلمه بما انتهى إليه منجل صاحبه، وقال: اكتب إلى هذا البربري الأحمر وقل له: إن عقلت واحشنت أدبك، وإلا جعلنا تادبك بهذه.

فكتب إليه، فجرى على عادته في إطلاق الكلام القبيح، فتشمر له حينئذ اليزيوري، وتعز مكين الدولة الحسن بن علي بن ملحهم، أحد الأمراء. إلى طرابلس المغرب، وبها من العرب زغبة ورياح، فقد حذرت بينهما حروب. فسار إليهما بخلع كثيرة وأموال وافرة ليصلح بينهما. فتحمل ماكان بينهما من الدماء، ودفع إليههم الديبات، وزاد في إقطاعاتهم. وبعثهم على محاوره إفريقيا وابحاجهم ديار ابن باديس، وقام في هذا قياما عظيما حتى سار الذكورون واستولوا على أعمال القفوين وضايقو ابن باديس وحصروه إلى أن نفذت إماله وقفت عدة، وفطئت منه رجاله وأشرف على التلف فطرّب بشاشته في زى امرأة من القفوين إلى المهدية، وترك حربه وداره وإماله وغمانه. فأخذ العرب المدينة وقثلوا الرجال وسبوا النساء ونهبوا ماكان في قصوره وجالوا في المدينة وأخربها. وحمل مناه إلى القاهرة من الآلات والأسلحة والعد والخيام، وكان لدخول ذلك يوم عظيم.

وكان في البحرية طائفه يقال لها بنو قرة قد اقتطعواها وملكوها وعمروا ضياعها، واشتقات شوكتهم، وخشين جانبهم وعظهم أمر.
مقدميهم حتى انتشر ذكرهم ونزل لهم عدوهم وقتل امرهم حتى (على) ولاة الاسكندرية، واجتمع معهم الطلحيون فصاروا بدأ واحد. وكانت لهم واجبات على الدولة، ولم يكن لهم إقطاع، بل كان ما يستحقونه من واجباتهم يحمل مع واجبات العسكر. بالاسكندرية إلى الوالي فينفقه فيهم. وكان الوالي بالاسكندرية في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ناصر الدولة حسین بن حمدان والد ناصر الدولة الثائر بالقاهرة على المستنصر. فلما انقضت سنة أربع وأربعين وأربعمائة استحق الطلحيون على الدولة عن واجباتهم ثلاثة آلاف دينار، فواصلوا اقتصاء ناصر الدولة إنفاسها فيهم، فوعدهم، وكتب إلى الحضرة بتمس لهم ذلك. فوعده الوزير أنه إذا حمل إلى رجال العسكر استحقاقاتهم حمل ذلك في جملته، وكان قد بقي لحمل المال مدة شهرين، فاستبعدوا الصفير إلى ذلك الوقت، وواصلوا مطالبه، وحملوا بني قره على مكونتهم عليه، فاضطهدوه والزموه بالسهر معهم ومع جيرانهم الطلحيون إلى الحضرة لتمام ذلك. فلم يجد بدًا من إجابتهم، وسار معهم إلى الجدري وطلع إلى الوزير وعرفه الحال. فقال: ما اخرنا ذلك عليهم إلا أن السنة كثيرة النفقات والطوارئ. ولكن هذه ألف دينار، فخذها وانفقها فيهم إلى أن حمل باقي مالهم مع مال العسكر.

فأخذ الألف وعاد إليهم وعرفهم ما قال الوزير. فامتثعلا من أخذ الألف، وذكرنا أنهم قد تعبوا وكفيفوه السير معهم، ولا يرجعون إلا بعد قضي ثلاثة آلاف. والزموه بالعود. فعاد عرف الوزير ما كان منهم. فغضب وأمر لهم بالأسيرة، وقال: قد ذكرنا لك أننا لم نؤخرين عليهم ذلك إلا لضيق الحال، وانتظار ما يصل من الريف. فانحل إليهم باقي استحقاقاتهم. ولم يبق الآن إلا ألف، ونحن نحمل إليهم ذلك بعد هذا.

فعاد اليهم ناصر الدولة، فقالوا إلا أخذ الجميع، وإنهم لا يجريون من مكانهم إلا بجميع ما يستحقونه وجفوا في الخطاب. فعاد إلى الوزير وعرفه ما كان منهم. فاشتد غضبه وقال: إجابتهم
الى ما التماسوه دفعة بعد أخرى طعمهم، ووالله لا أطلقت لهم درهماً واحداً لاستعاد الألفي دينار من ناصر الدولة، وتقصد بتجريد العسكر لهم. فتسرع من خف مع يبن الدولة كافور الشرابي وساروا اليهم، فأما ببن منهم متفهمين للهولائهم، فجرت بينهم ذوبة قتل فيها اثنان من العسكر، وحال بينهما الليل. فلما بلغ ذلك الوزير عظم عليه اقمامهم على العسكر، سما بني قرة، فأنه كانوا أشد حرباً من الطالبين.

وكان بالقاهرة من مقدميهم ثلاثة نفر، وهم ضروف مكرمون، فأشار على الوزير بقبضهم ليكفي عادة باني قرة، فأستدعى صاحب الستر سيف الدولة مبشر، ومتوالي الصرح شناني الدولة ابن جابر، ومتوالي الصناعة عظيم الدولة عطاء، وأمرهم باخذ الثلاثة ليل وتسيرهم تحت الحفظ والحوولة إلى الجيزة والتحيز بهم عن العسكر الذي يأمنون عليه أنفسهم، وتخلية سبيلهم، ففعلوا ذلك. وأصبح الناس وقد علموا بمضيهم، وكملوا الوزير في ذلك فقال: قبض السمعة في القبض عليهم، وهم في ضيافتنا متعني من ذلك. فهم في هذه الحال كالحرم، فلم يستجز فعل ذلك. بل اطلقنهم، ووالله لا أختنهم إلا من ظهور دوابهم.

فقال شخص من الأكابر يعرف بعجلان بن مطر اللواني: قد فعل هذا الوزير شيئاً لم يسبق إليه أحد، فمن إطلاق هؤلاء القوم، واستحليهم بما فعله، ووالله لئذ نفظن بهم لأن هذا تقليد البغي، فإن كان فيهم بعد ذلك كان فخادرة عليهم.

فكانا نطق بالغيب: إنهم تشمروا عند وصول الثلاثة إلى الحاجر ونزلوا به. واخذ الوزير يجر العسكري لهم حتى كمل له ما ادراك، وسريرها وقد تجمعت حشود بني قرة، فالتقوا بسكيك شريك فكانت الدائرة عليهم وقتل منهم خلق كثير، فانهزموا. فتبعتهم العسكر ظنا أنهم يعودون إلى اللقاء، فلم يذبح مشي على قصد برقة، وأسلموا موالاتهم وكل ما في أيديهم للنهب، ففاز به العسكر وعذمهم. وانقلعت شأفة بني قرة والطالبين من الجريدة إلى
اليوم، ويعقو مشردين مطردين يحاولون العودة على اقتح صورة
أربعين سنة.

وقد كان الوزير لما إخراج العسكر لقتال بني قرة، فقد أهل الدولة
رايته، وحكموا أنهم لا ينتمون من البحرية ابتداء قوة باسحة
شوكتهم والانتقافهم بالطلائعين. فاكتسب جميل فعله أنهم شمل، ثم إنه
رآى في كون العسكر في أعمال البحرية كلفة كبيرة، فنقل بني
سينس من الدادرم بفلسطين، وكان قد قال وطأتم بتلك الأعمال
وصعب أمرهم، فسدى بهم إلى الحيرة، وهم إعداء قيس،
واوظفهم ديارهم وأقطعهم أرضهم، فاتحت اسم بني قرة.

وكان تجهيزه العسكر لبئ قرة في شهر رمضان سنة ثلاث
وأربعين وأربعينما، وتضربهم في مستهل شوال، فخطاه الناس
كلهم وغطوه في فعله وحكموا بأنه لم يجرد قسط عسكر في شوال
فظفر. وأهم لا يؤمنون على العسكر أن بهزم وينكسر، وكان يمن
الدولة له زم القصور والخدمة في الرسالة، وهو أيضا زمام الاتراك
والمريضة، وليس في الدولة من يجري مجاراة جلالته. وبين وبين
الوزير مباينة شديدة، ويتوقع له الشر ويتربص به الدوار، فصار
يذكر انشرام العسكر ليقض عليه، والإقناع تؤيد بالسعادة
العظيمة. فلما أراد أن يسير العسكر من الجزية رتب على الميمنة
سنان الدولة بن جابر، وعلى المسرة حصن الدولة جيدة بن
منزوي، وجعل في القلب ناصر الدولة بن حمدان، وهو المقدم
عليهما. وقرر معه أن يكون اللقاء في يوم الخميس الخامس من
شوال، بطلال تخبره له. وبعث معه عدة من طيور الحمام ليطلعله
بما يكون منه ومنهم يوما يوما. فلما كان اليوم الذي تقرر فيه
القاء، جلس الوزراء في داره، وهو شديد التفاؤل كثير الاهتمام بامر
العسكر، واحتسب عن الناس لدشغ سره بشدة الأمس. ولجلس
ينتظير سقوط الطائر بما يكون. فلم يزل كذلك إلى الساعة الخامسة
من النهار، فقام ليجدد طهارته ومعبو بالبسطان، وقد أطلق الماء في
مجريه. فرأى وترة تمر على وجه الماء فأخذها متفائلا بها فوجدها
أول كتاب كان وصل من القائد فضل إلى الحاكم بأمر الله، فقد ذهب طرطه وعفاته، ونفي صدره، وهو: كتب عبد ولاة الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين من الخمين المنصور في الساحة الخمسة من نهار يوم الخميس الخامس من شوال، وقد أظهر الله عز وجل، بعده التأكيد، وعند الحضرموت المطهر، أبي ركوة الخنوش، وهو في قبضة الإسوار، والحمد لله رب العالمين.

فلمًا وقف على ذلك سجد إلى الأرض، شكر الله تعالى واستنصره، وذكره في من موافقة اليوم وعدة الأيام عند شوال والإعلام بالأخبار، ثم تجهز لصلاة، فما فرغ حتى سقط الطائر بالاستكشاف بنى قرية وأنهارهم، وما من الله تعالى به منظر له، فما ذكره في الكتاب والورقة التي وجدتها في الماء، وركب إلى أجل المخيفة المستنصر بالله، ووقفه على الكتاب، فحارب به، واراح الورقة التي وجدتها في الماء، وقائل: هذا اجتيب يا أمير المؤمنين، وحدثنا حديثه.

فجاء من هذا الاتفاق ثم تواصلت الأخبار من ناصر الدولة بالبشر، وشرح الحال في الزمر وأنهارهم القوى، فخلع على الوزير، وزيد في القبابة: الناصر للدين، غياث المسلمين، فقوي أمره، وذل خاطبه، وعادوا يتبرعون إليه بالخدمة، فاضغب عليهم ولم يأخذوا أحدًا منهم، وقدمت الرؤوس من قتل وأموال كثيرة من أموال أهل البهجة.

فلمًا خلص الوزير من أهل البهجة، نظر في أمر المدينة، فكان ف nicely explained the previous content and interacted with the user.
خلع نفسه وأمره أن يلزمه ذاك بينهم، فإن رضوا بابن أبي الهسين خلع عليه وقرأ سجلاً بمجرد ولايته. وإن امتنعوا من الطاعة له، ليس هو الخلع وقرأ سجلاً كتب له بولاية صقلية، وإن يلفظ في إخراج بني أبي الهسين من جزيرة صقلية وجعلهم إلى القاهرة. فسار إلى صقلية وتحدث في الصلح فامتنعوا من ذلك ولم يجد فيهم حيلة فأظهر سجلاً ورسل خلعته. فرضوا به وأخرج جميع من كان بسجلاً من بني أبي الهسين، وهم زيادة على ثلاثين رجلاً، وخلت منهم سبعة من أمره.

وبعث الوزير رسول إلى اليمن. وقد شار فيهما علاب بن محمد الصليحي. فما زالت به حتى دخل في طاعة الدولة وبعث المجاوي إلى القاهرة، ومعها هدية جليلة تبلغ عشرة آلاف دينار، فجاء من ذلك ما ليس في المنقول ولم ير مثله فيما تقدم.

ثم إنه عطف على النوبة وأضعف عليهم الباطل فحملوه واستمر بعده وكانت الهدنة قد انعقدت معظم الروم في وزارة أبي نصر الفلاحي، وقدم من قلابه رسولًا، أحددهما يعترض باين اسطفانوس هو المتكلم وكان داهية يديها شاعراً نحوها في فلسطين نظرًا. ولد بلاد الروم ونشأ بانتاكية، ودخل إلى العراق وأخذ عن العلماء والأدباء. فاستهر زكره وعده صيته.

وأخر صاحب حرب يعرف بميخائيل فاعجهبها حسن زي الدولة وكرم أفعالها وجعل فيها سيرته، سيما ميخائيل فإنه طرح ذلك، وكان خيراً عفاً 2، فلم يعاونه إلى بلاده، قضت الأقدار بموت متملك الروم وتملك ميخائيل هذا. بعده 3، فاقام في الملكة نحو الخمس سنين.

وقصر النيل بمصر في سنة أربع وأربعين، ولم يكن بالمخازن السلطانية شيء من الغلال، فأحشت المسغة وخلا السحر.

وكان لخلو المخازن سبب وهو أن الوزير الناصر للدين أبي محمد البازوري ما اضفى إليه الضياء في وزارة أبي نصر الباركات الجرجراني، كان ينزل إلى جامع عمرو بن العاص بمصر في يومي
السبت والثلاثاء من كل أسبوع ليجلس في الزيادة منه للحكّم، على رسم من تقدمه في القضاة. فإذا صلى العصر طلع إلى القاهرة، وكان في كل سوق من أسواق مصر عرف على أرباب كل صنعة يتوأى أمرهم، ومن عادة اخبار مصر في ازمنة الغلاء أنها متى بردت لم يرجع منها إلى شيء، لكثرته ما تغش به. وكان لتعريف الخبازين دكان ببيع الخبز، وجذبها دكان رجل صعلوك ببيع بها الخبز أيضًا، واللحم يومئذ أربعة أرطال بديرهم وثمانية فرارى الصعلوك أن خبزه قد كاد يبرد، فخاف من كسبه فنادى عليه أربعة أرطال بديرهم ليرغب الفقيه فيه، فمال الناس إليه لأجل تسمح بهم، واشتروه بأجمعه، وبقي خبر العريف لم يعلّف عليه أحد فغضب، وركب بالرجل عونين من الحسبة، أمرهما عشرة دراهم، فلم يطلق ذلك ومضى إلى الجامع واستفاقي بقضائي القضاة وكان هناك. فاضهر المشهد وأدرك عليه فقال: العادة جارية باستخدام عرفاء في الأسواق على أرباب الصناع، وتقيل قولهم فيما ينكره. وقد حضر عريف الخبازين بالسوق الفلاني وازداد عونين من الحسبة، فوقع الظن أنه أفكر شيئاً يجعل فعل ذلك، فاستدعى القاضي الخباز وأمره، فقص على المشهد خبره. فقال القاضي للمحتسب: رجل برض صناع الناس أفواههم فيجازى إلى ذلك بما يؤديه، فمال الخباز كأخذ منه. فقال: أخذ مني العريف خمسة دراهم، ولكل ما في يدي مائة درهم.

قال: يصرف هذا العريف عاجلاً، ويحرم ما أخذه من هذا المسكن ويعود إليه.

والتفت إلى صاحب دوائه فقال له: انظر ما معك، فدفعته إلى هذا الخباز فتناوله قطاناً فيه ثلاثون ربعاً، فكاد عقل الخباز يذهـب من شدة فرحه. وعاد إلى مكانه إذا عجلته الثانية قد خبزت فنادى عليها: خمسة أرطال بديرهم، فمال الناس إليه واشتروا خبزهم أربع فخار من هناك من الخبازين تلاف الخبازهم، فإنها بردت، وبعياً مثل بيعه. فنادى: ستة أرطال بديرهم! فقادتهم.
الضرورة إلى بيع اخبارهم كذلك وصار يريد مكايدة العريف بإرخاخ السعر ويزيد رطالا رطالا، والخبراون يتبعون في بيعه خوفا على بوار اخبارهم، إلى أن بلغ النداء: عشرة أرطال بدرهم، وانشر ذلك في سائر البلد، وتسامع به الناس ففسروا إليه، حتى إنه لم يخرج قاضي القضاة من الجامع إلا والخبز في جميع البلد.

عشرة أرطال بدرهم.

وكان ذلك العادة أنه يشترى للديوان السلطاني في كل سنة غلة بمائة ألف دينار وتجلع متجراءا، فلما عاد قاضي القضاة إلى القاهرة مسجد يحضر الخليفة المستنصر، وعرفه ما من الله تعالى به في هذا اليوم من إرخاخ السعر، وتوفر الناس على الدعاء لأمير المؤمنين، وأن الله - جلت قدريه - فعل ذلك، وحل إسعاد الناس، بحسن نية أمير المؤمنين في رعيته بغير موجب ولا فاعل له، بل بلطف الله تعالى، واتفاق قريبا يسير، وقص عليه الخبر ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن المتجرب الذي يقام بالغيلة فيه اوقد مضرة على المسلمين، وربما اهتط

السعود عن مشترائها فلا يمكن بيعها، حتى تغيرة في الخازن ومثلها.

المثل أيضا ان تتقي متجرا لاكلفة على الناس فيه ويفيد اضعاف فائدة الغلة ولا يخشى عليه من تغير في الخازن ولا انحطاط سعر وهو الخشب والصابون والخشب والصعصاع والعسل وما اشبه ذلك.

فامضي المستنصر له ما رآه، واستمر ذلك ودام الرخاء على الناس. مدة سنين.

ثم ظهر النيل في سنة سبع واربعين، بعد خمس سنين من نظر في الوزارة، ولم يكن مخازن السلطان معد الغلة إلا ما يصرف في جرائب من القصور ومطبخ الخليفة حواشيته لا غير. فورد على الوزير من ذلك ما شغل سره وكثير له فكره. ونزع السعر إلى ثمانية دنانير التليس (7)

الدوار، واشتد الأمر على الناس.

ففتح الله له من التدبير ان نظر في أمير النواحي. وكانت عادة التجار ان يقرضوا المعاملين حين اعسارهم وضيق الحال عليهم في المقام للديوان بما يجب عليهم من الخراج، مالا يتقضون به منهم.
غلاظتهم عند ادراكها ليصيبوا فيها رجحا. فإذا استقرت مبانيتهم حضروا مع المعاملين إلى الديوان وقاموا عنهم للجهش ببما كتب عليهم. فثبت ذلك في روزنامه الجهش بمبلغ الفئة. فإذا أدركت غلاظتهم وصارت في الجرون (8) اكتنالًا التجار وحولوها إلى مخازنهم يردون فيها السعر الغالب. فمنع الوزير من ذلك في هذه السنة. وكتب إلى العمال بسائر النواحي أن يستعرضوا روزنامات الجهشة وبحصرها منها ما قام به التجار عن المعاملين ومبلغ الفئة الذي وقع الابتداع عليه وإن يقوموا للتجار مما رزقو الديوان ويربحوهم في كل دينار هدي دينار. تطلبوا لقلوبهم، وإن ضعفاً ختمهم على المخازن وطالعوا بمبلغ ما يحصل تحت أيديهم فيها.

فلا تحرك ذلك جهز المراكب لحمل الغلال من النواحي، ووعدها في المخازن السلطانية بمدينة مصر، وقرر ثم التليلي وثلاثاء دنانير بعد ما كان يثمانية دنانير، وسلم إلى الخباشين ما بياتاهمه لعمارة الأسواق، ووظف ما تحتاج إليه مصر والقاهرة، فكان ذلك في ثمانية دوار كل يوم. مصر، سبعمائة، والقاهرة ثلاثمائة. فاستمر لهذا التذبب مدة عشرين شهرا حتى أدركت غلة السنة الثانية، فتوسع الناس بها وراز عنهم الغلال، وما كادوا يلبكون لحسن هذا التذبب.

وبلغ ميخائيل متملك الروم (9) ما في مصر من الغلال المنكرو، فرأى لكثرة محبة في الدولة إن يحمل إلى القاهرة مائة ألف فقيض من الغلة وقدم كتبه وعين الغلة والكيل الذي تسوته به عند وصولها، وسيرها إلى انطاكية، وأعد هدية هيئة على العادة وهدية من ماله، فضعف هدية الهيئة. فلما رأى الروم ذلك منه نغفر قلوبهم وظفوا به الليل إلى الإسلام وقلتوه وأقاموا بعده رجلا يعرف بابن سقالروس (10) من أهل انطاكية، وكان عسيرا لجسوجا خبيث الطباع. فقبض على الهديتين وقال: أنا انفق ثمنًا على قتال المسلمين.

وكان الوزير عيون بالقسطنطينية فكتبوا إليه بذلك. فسير مكين الدولة ابن مثلهم إلى اللاذقية في عسكر، فسار اليها وحاصرها.
ونودي في بلاد الشام بالعفو إلى بلاد الروم، فلما اشتد الأمر على أهل اللاذقية بعثوا إلى ابن سقراطوس برسام فيه. فكتب إلى المستنصر، يستعطف ما الذي اوجب ذلك؟ فكتب إليه بأن الذي فعله في نقص ما استقر معه من الهداية وقبضة الهداية اوجب ذلك. فأجاب بأنه يحمل الهداية. فاشترط عليه إفتحال كل من في بلاده من الأسرى. فأجاب بأنه إذا أطلق من لهم في بلاد الإسلام من أسرى الروم، اطلق من عدد من المسلمين. فأجاب بأنه لا يصح التماسه لذلك، فإن من أسر من بلاد الروم تفرقوا في الممالك العراقية والدولة الفاطمية والمغرب واليمن وغير ذلك، ولا حكم للضرورة على جميع المالكاتب حتى يرتجع منها من صار في أيدي أهلها. ولأجل الروم بخلاف ذلك، ومن حصل فيها من المسلمين كان هم هو معتقل في دار واحدة لامكنه الخروج منها إلا بإرادةهم، وبين الحانين فرق كبير. فأجاب إنه يطلق من في بلاده من أسرى المسلمين. فاشترط عليه مع ذلك النزول عمداً مسافر في أيدي الروم من الحصن الإسلامي. فامتنع من ذلك وقال: إذا أسلم إلينا ما صار في أيدي المسلمين من حصن الروم، سلم ما في أيديهم من حصن الروم المسلمين. فشقل الوزير الجبه بجيش آخر وقدم عليه الأمير السعيد ليه الدولة ففتحت اللاذقية. فاجيب ابن سقراطوس بأنه لا يصح أن يسلم إليه ما صار في أيدي المسلمين من الحصن لأنهم قد أثبتوا فيها العارم، وأداول السباستين فلا يصح تسليمه البيهم. فإنه يصير المسلمين لهم نكة. فأجاب بأنه يدفع إليهم ثمن أملائهم وينقلهم إلى بلاد المسلمين. ثم أعجابوا إلى تسليم ما في أيديهم من الحصن الإسلامي.

وكانت العادة جارية بأنه إذا وصلت هدية الروم أن تقوم في بيت المال، وتحمل إليهم هدية قيمتها نحو الثلاثين من هديتهم ليصير للإسلام مزية عليهم بالثلث. فاشترط الوزير على ابن سقراطوس أن تكون قيمة ما يجعل إليهم من الهداية عوضًا عن قيمة هديتهم النصف من ذلك. فأجابوا إليه.
فاشترط الوزير أن يؤدي إليه جزية كل من تضمهم دار البلاط، التي هي دار الملك ومملكة وملكه. فامتنع من ذلك. فثقل الجيش بجيش شالان، فهاولوا في بسلام الروم يقتلون ويحبسون وينهبون، فاشتقت بلية الروم، وبعد ابن سكالوس مكاباتهم بالاندان إلى القيام بالجزية عن دار البلاط، وشرع في تجهيزها في بلاد نيفا وثلاثين ألف دينار، وحمل ذلك إلى أنطاكية. فبلغت صرف الوزير البلاطوري، فأعدت إلى الفيستينينية. وزينت بلاد الزوم لموته وثور فرحهم بما صرف عنهم من خشوعة جانبية.

وافق أن كان بالعراق رجل يعرف بأبي الحارث البساسيери. صار إسباسلاير كبير القدر يبلغ أقطاعه نحو ثلاثين ألف دينار. فوقع بيثة وبين الوزير رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة وزير القائم بأمر الله العباسي في سنة سبع وأربعين وأربعمائة وعندو إلى أن أخرجه من بغداد، فقصد ديار بكر، وكان، المستنصر، وهو بأعمال جلب يرغب في الخدمة ويعرض نفسه ويساهم في الوصول إلى الحضرة، وأنه في ثلاثمائة غلام. فأخذ الوزير الكتاب وقبله أحسن دينار، واستشارك أهل الدولة في الأرنانه. وكلهم أشادا بذلك، وإنه في قدوته ما يوجب مجيء غبره طمعا فيما تائه من الكرامة، وفيه زيادة في عدد رجال الدولة. فلم يوافق على مجيئه وقال: هذا الرجل قد كان أقطاعه بالعراق ما يزيد على ثلاثين ألف دينار. ومعه أولاد مولاه الملك أبي طاهر بن كاليجار وغيرهم من أولاد الملك، وأجلهم أقطاعه ألف وثمانون دينار. فإن أقترحه على مثل ما لههم من الواجب لم يرض، وإن زيده عليه كان نقيباً. وأيضا فإننا لانطبق من عيننا اليوم من الاتراك. فكيف إذا انضاف اليهم مثل هذه العدة؟ والصواب أن يبقى بحيد هو، ونحسن إليه وذقيه لناضبة أعداء الدولة. فإن نقص بذلك كان الدفع للدولة والأسم لها. وإن قصر عنه كان ذلك براءة.

وافق وصول طفر لبك السلجوفي من خراسان بالغز إلى بغداد في هذه السنة. وللوزير بها أعين. فكتبوا إليه بوصوله وأنه مزمع
على المسير من بغداد إلى بلاد الشام ليملكها، لما ملك بغداد. فقلت من ذلك لعظم أمر طغرل يك، وأنه دوخت الملك والملك واجتنبوه عليها وانتشر صهله وكبر في نفسه الملك شأنه، ولم يبق له معاند يخافه. فأرى أن الحيلة إلزيم في مراده من دفعه عن البلاد بالاستعداد لكثر معا معه من السماك، وكتب إليه بهبهنة بقدومه إلى العراق ويبنل له من الخدمة ما يفي على أمله، وإن أرض مصر كلها يحكمه وأنه وإن كان مستخدما للدولة ويدعو اليها، فإنه يعلم كثرة الاختلاف من يجاورها في نسبها واتفاق الكلام ووقوع الاجتماع على الرضى بالخليفة الصالح النسب الصريح الحسب الباشي العباسي، وإن لايفت من الأقرار له بذلك - وعطاها صفة يده على مبايتها وتسليم الدولة إليه، وأنه قد اتصل به ازعام حضرته على الوقاية إلى الشام، وأنه أشفق من تسليمها اليه أن تباها سماكه مع كثرتها وتعجها فتخرجه وتعفي أثارها. فإن رأى اعفاءها من وطء السماك لها ووصول ركابها إليها على وجه الفرصة والنظر إلى دمشق وحسنها، فلها عليها راحتها.

فلما وقف طغرل يك على كتاب البازوري قال: هذا كتاب رجل عاقل، يجب أن يعتمد ما أشار به - وان للسماءك في العبود إلى بلادها، فمسك كل سماك إلى وطنه، وقوم خيامه وضربها على الجانب الغربي، يريد الشام، فكتب عيون الوزير اليه بذلك، فقلت شديدًا وكتب إلى طغرل يك لا تفرتك الأمان، والخدع بأن أسلم يك العادة الدولة وأخون أمانيك لن غذاني، فضله وغمزني حسناته وتحني علي طاعته وموالتئة. فإن كنت تسلم علي ما في يدك لصاحبك من بلاد العراق وإسماعلها، سلمت البيت ما في يد لصاحب، والواجب أن تكون كلمة الإسلام لمجموعة لأين بن الدين، الذي هو أولى بمكانه من غيره. وإن رغبت إلى ما في المانعة والمهادية انتظمت الحال بين دولتين وأسم الناس بيتهما. فإن ابتث إلا الخلاف ونزع بك الهوى إلى العيون الفاسدة والأطماع الكاذبة، فليس لك عندي إلا السيف. فإن شئت فاقت، وإن شئت فسر.
فظاظ ذلك طفر لبك وقال خدعتني هذا الفلاح وسخر مني... وكتب إلى ابراهيم بنال أخيه. رد إلى العسكر مسرعاً فانفذ ابراهيم ليردهم فلم يرجع أحد منهم وقالوا: فينا من بنيه وبين وطنه شهراً وثلاثة وخمسة، وقد سرتنا معه حتى وطى الأعمال وملك البلاد وفتح المدن وإحتوى عليها فاز فيها، ولم نحصل منه إلا على الذهب والنضج والخيبة. وإذا كنا لم نصبه في طول سفرنا خيراً فما عسي أن نؤمله إذا عدنا ؟ ومضوا. هذا وقد بنى البابري عيونه وجواسيسه في عسكر طفر لبك واستفسد أعيانهم وطلبهم وأكثرهم ومواعيدهم، وتوصل إلى رؤية طفر لبك، وإلي أبي نصر منصور والبابري وزيره، وإلى ابراهيم بنال أخيه وصاحب جديه فمالوا إليه وتفاخروا عن طفر لبك، وما كفاه ذلك حتى حصل الخاتم زوج طفر لبك على قتله، فقالت: إما بدي فاكا، ولكنني اتجوزته بغلامتي، وهما حمية عسكره، وكانت عدتهم نحو اثني عشر ألفاً، وفي اعتزالي بهم عنه ضعف لجنيه، واعترالت عن طفر لبك، وكان ذلك سبب الظهير به.

ثم أن طفر لبك بعث في سنة خمسين وأربعمئة إلى سنحار الفين وخمسمئة من الغز إلى البساسيري فقدمها وظلم بها وقتل جميعها وأفلت منهم نحو المائتين فارس. فلم يتقنها بعدها رجال الدولة الفاطمية، وعاد عن بغداد، فقوي البساسي، وكتب جمعه، وقصد أعمال العراق يفتحها بلداً بلداً، والوزير يدعه بما يستعين به على ذلك من المال والراجي والتدبير، إلى أن وصل إلى بغداد ونصح القتال، وقسم عسكره فرقتين، ففرقت تقاتل في الجهاد. واخرى تقاتل من صلاة المغور إلى الفجر، حتى دخلها واقابل يملك محالها وشوارعها إلى أن وصل دار الخلافة وحصرها ونصب عليها القتال من كل جانب وفرق التقاربين في جميع جهاتها. فلمما اشرف عليه اخذها صدق القائم بأمر الله إلى أعلى الدار واستشرف على الناس، واقابل ينادي: يا أهل بغداد! يحضهم على نصرته والدفاع عن حوزته. واستمر من فريش بن بدران وطلب منه الأمام، فأخذته ومنع منه البساسي، وأسلمه الوزير ابن المسلمين، واستولى
البساسيري على دار الخلافة بما فيها وكسر منبر الجامع وقال:

هذا منبر يعلن عليه يبغض آل محمد - وانشأ منبرا آخر وخطب عليه للمستنصر. ثم لف ابن المسلم في جدل ثور وصلة حتى جف عليه فمات. وأقامت الخطابة للمستنصر أربعة جمعة، والقائم

معتقد في قلعة الحديثة عند مهارش نحو عشرة أشهر. وعزم البازوري أن يحمل الى مهارش عشرة آلاف دينار و يستخلص الخليفة من يده ويجمله الى القاهرة على حال جميلة. فذا قرب

منها تلقاه بأهل الدولة احسن لقاء وبالغ في إكرامه وانزله في القصر الغربي وحمل الوالي ما يناسب وأقام له الراتب السنوي في كل يوم وجعل له مائة دينار في كل يوم وجعله يركب في موكب المستنصر بين يديه يحبجه. فذا ركب بين يديه عدة ركبات وانتشر في الأقطار خبر هذا الحال. خلع عليه وعقد له الوزارة الولاية للعراق وكتب عهده

بتعلقه اياه وسيره إليه وأعاده الى ملكته وخلافته من قبلي. فمنعه

حاتد القدر، الذي حل به قبل ادرك ما في نفسه.

وكانت حلب قد تغلب عليها صالح بن مرداد من امراء بني كلاب

في أيام الظاهر لاعزال الله علي بن الحاكم، وكتف أمره. الى

أن ولي الأمر الجيوش أنشى تكين الديروري دمشق وأعمال الشمال فحاربه وقفله. فقام من بعده ابنه شبل الدولة - نصر فصاري

الديروري وقتله أيضا، وملك حلب واستخلف عليها من كلماته رحي

الدولة منجوكتين فأقام بها عدة سنين. فلم ما أطفال الديروري تغلب على

حبل ثمان بن صالح بن مرداد في وزارة الجدرجة. فكتب إليه

بولاته وقرر عليه مالا يحمله في كل سنة. وتمت حالاه على ذلك

إلى أيام الوزير الناصر للدين ابى محمد البازوري، فلم يرض

بذلك. وعلم أنه لا يطيب صرفه، فرجع إلى عادته في أعمال الجهلة

واستعمال الخديعة. وبيضت الله بقاضي مدينة صور، ففسس الأمر

مع ثمان والحكم الجدير في قرر معه وهوه ومنه حتى نزل من

قلعة حلب وسلمها الى والد من قبل المستنصر، وسار من حلب يريد

القاهرة. فلم يبلغ إلى رفح بلغه القبض على البازوري

فقال: والله - اني اموت بحسرة نظرة الى من استلذني من ذلك الملك.
واخرجني بلا رغبة ولا رهبة الا بحسن السياسة. ولو رام ذلك مني لتعترف عليه.

وكان له من النثر المرضية والخلال والأفعال الجميلة والأخلاق الرضية ما يجعل الملوك يذكرونه. منها أنه كانت له ماندة يحضرها كل قاض وفقيه وأديب وكلئ الحدر، فيجتمع عليها قريبا من عشرين نسمة. حدث القاضي عمدة الدولة ابن حميد قال: كنت مجلسا على يساره، فاذا ازدهروا وكثر تضايقهم على الماندة، جذبني إليه حتى يكاد ينحرف عن مجازس. فانكر يوما ونحن مجتمعون، إذ استؤذن على الفقيه ابن عقبة، فلم يدخله. فلماما دخل لم يجد موضعا فيذهني إليه، فلبث صرت إذا سأدت بدي إلى المائدة. لا أرجعها إلى غيرها إلا بكلفة خوفا أن أصبه بها. فبينا أنا كذلك وقد مدت بدي ورجعتها، وهو قد مدبه فلم امته حتى ترجع فأصاب مرفقي جذجوج(1) صدره، فورد علي أمر عظيم من ذلك وتأخرت وقالت الأرض وقالت: قد بسطنا إعظام سيدينا إلى حيث لاستحققه. وأخرجنا إلى سوء الأدب، وله انعمت بنصب ماندة نجتمع عليها بحضرته لكان لنا في ذلك الشرف الأول والفضصر والأسنى، وله ننته إلى هذا الحد في سوء الأدب.

فقال: وما الذي أوجب قولك هذا حتى ذكرت ما ذكرت؟ ولقد نكتت بابراده.

فقال: فاسدنا نسي أذاننا فتغرفر وتعترف بالخطأ فتنكر عليه، وتعترف عن ذلك فتقومنا عليه. فما ندرى بماذا يقتابل احسانك، ولا بادي لسان نشكر تفضلك.

فقال: وما الذي كان حتى تحتاج إلى كل هذا؟ - وافقل يذيني، وانا أقفض، حتى زاد تمكاني باجذابه لي فوق ما كنت عليه اولا، وقام كفتني من صدره، وهو منطلق الوجه ظاهر البصر. وكان قبل ذلك اليوم يسمع جذنيا على الماندة ولا يأكل بسبب أنك كان كثير الصمت قبل الكلام. لانسمع منه إلا لفظ القليل عن الكلام الكثير. فابتذا ذلك اليوم يتحدث بما يستطاع حتى يريل عنى ما اعتري من.
الغم بما كان مني، واقتمت معي خمس عشرة سنة قبل وزارته ملازمًا
له في البيت والصباح، فكنت أرايه في حالته كلها ليلا ونهارا فلا
اراه يبتغير علي منها شيء، ولايتين لي منه فضبه مسن رضي.
فحدثت أبي بذلك فقال: يا بني، اني لم لاؤثر سماه ذلك منك،
فكيف سماع غيري له؟ فلا تحدث به أبدا، وتلطف في تأمل ذلك الي
أن تقف عليه، فانه إذا حدثت به ذسبت إلى غلظ الطبع وتخانة
الحس، والله.

فأقبلت الفقير التأمل له في حالتى غضب ورضاه، شهورا قبل أن
يتبين لي: فسكون اذا رضي أورت وغبتها بحميرة، وانه غضب
أخصري محاجر عينيه. فعرفت أبي بذلك فقال: يا بني، هذا غاية في
سكون النفس وصحة الطبع واعتدال المزاج.

وكانت طبئه قربى من الاعتدال، فإذا احس ميل طبئه عصا
يعهد، اخذ في إصلاحه حتى تعود إلى الاستقامة.
وحثت بعض من كانت تقوم بخدمته من النساء قالت: كنت اتولى
صلاح ما يشريبه من الدواء في كل يوم، وكان لايعطى شربه يوما
واحدا.

وذلك انه كان يشرب السكنجين والورد أسبوعا، ثم يريح نفسه
ثلاثة أيام. ثم يشرب التنفوس الغلي في الشتاء، والنجع في
الصيف، أسبوعا لكل منهما، وشرب ماء البزور أسبوعا، وشرب
ماء البزور ثلاثة أيام، وشرب ماء البزور أسبوعا، ثم
يشرب الدواء الملقوع كلاك، ويريح نفسه بين كل دواين ثلاثة أيام.
ولا يهل بذلك في شربه ولاشته.

وكان ندي الوجه كثير الحبباء لا يكاد يرفع طرفه إلا ضرورة. ولم
يسمع منه قت في سؤال لفظة لا، بل كان اذا سبل فيما يرى اجابة
سماه اليو يقول، نعم بإخفاق من طرفه وخوفه من صوته، فإذا
سماه فيما لايرى الجواب اليو يطرق ولايرفع بصره، وعرف هذا
منه، وكان لايرفع فيه إلا بعد مدة.
وكان كل من يحضر مائدة يسديعي منه الحضور بين يديه ليلبسو عنده ، وكان فيهم من يشرب المسكر ، فإذا حضروا عرف كل من مجلسه الذي تقرر له . وكان كل من لا يشرب النبي يجلس عن يمينه ، ومن يستعمله يجلس عن يساره . وتوضع بين يدي كل منهم الفواكه الورقية والبابسة . وتتفرد من لا يشرب بحالة توضع بين يديه ، ومن يشرب يعمل بين يديه ما يستعمله ، وستارة الغناء مضروبة . فيجلسون بين يديه ، وهو مشغول يوقع ، ومهم يحدثون همسا وإشارة ، التي أن ينقضي أربه من التوافيع ، فيسدد ظهره ويشتظم الحديث فيتحدثون . ويقول معن عن يمينه : قد تجدد اليوم كذا وكذا ، فما عندكم فيه ؟ فيقولون : سعادة حضرة سيدنا تمهد له صواب الآراء ، وقد خصها الله تعالى من ذلك بما لا يهتدى عبدها إليه .

فيقول : يبّ يقل كل منكم ما عنده في ذلك ، ولايقوم في نفس واحد منكم أن ما راه خطا فيمسك عن ذكره ، فربما كان الصواب مقررًا بكل الراي وهو ضالة تصيب من لم تجر عادته بإبعاد الفكرة فيه .

فيصفع أحدهم ويقول : الذي يراه العبد على وجه الخدمة كذا وكذا فلا يزال يسمع من واحد واحد حتى يستكمل الجماعة . ثم يعطف على شماله يقول : قولوا : فيغلطون كفعل الأولين ، وهو يسمع ولا يرد على أحد شيئا ، فلا يصوص المصيب ولايفطئ المخطئ ، وثبت يضرب الآراء ببعضها ببعض حتى يتمضى له الصواب ، ويصبح يرمى فلا يخطئ . وهكذا كانت أفعاله طويله ، لم يستبذ قط برايه ولاينة من المشورة ، بل يقول: المستبد برايه وافق على مباحث الزلزل ، في الاستشارة حل عقول الرجال .

ويهذا العقل تم له ماكان يديره حتى اثر في جميع ما رامه من أطراف الدنيا اثارا بقي ذكرها جذرا طويلا .
ورأى أن يعرف قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات ليقايس
بينهما. فتقدم إلى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاعًا ما يجري في ديوانه، وما عليه من النفقات فعمل ذلك وتسلمه متواليًا في ديوان المجلس وهو زمام الدواوين، فنظم عليه عملًا جماعيًا واختصره أيام (دولته) فجاء ارتفاع الدولة الفي ألف دينار، منهم:

الشام: ألف ألف دينار ونقائصه بارزة ارتفاعًا، ومنهما الريف

وبقية الدولة: ألف ألف دينار، يقف منها عن مغول ويدكر عن موتي وهراب ومفقود أنواع: منهًا الف دينار وتبقي ثمانية الف دينار، ينصرف منها للرجال عن وأجباتهم وكساويهم ثلاثمائة الف دينار، وعن ثمانية ألف دينار، ومنها ألف دينار، وعن نفقات القصور مائتا ألف دينار. وعن عمانات، وما يقام للضيوف الواصلين، من الملوك وغيرهم، مائتا ألف دينار، ويبقى بعد ذلك مائتا ألف دينار حصولها كل سنة إلى بيت المال الصون، فحظي بذلك عن الخليفة، وتمكن منه، وارتفع قدره عنده. وكانت الدولة طول نظره في عرس، لتزويج الفتيات في أيامه وعمارة الأعمال بعدن تببيره واستخدام الكفاة فيها بجدية

وكان المستنصر يحضر عنده في كل يوم جمعة وبيت عنده في ليلة ومسرة، فيحضر إليه من الطرف والطرف والرفائ ما لا يكد يقدر عليه غيره. فاستمر على ذلك ثلاثة سنين. فكثر الحاسد له على ما يتأنى له من السعادة وتعين عليه الإقدار. واستطاع حسابه مدته فابتفقا له الغاوائل ونصرا له الحبال، وركبو عليه الناسب حتى كان هلاكه باغلاق الناس قدرًا واحقرهم، وأدناهم منزلة واضفعهم قدرًا، وهم من أطراف الخدام، وليبين هؤلاء لناس ليعلموا أن الله على كل شيء قادر، وذلك أن اثنين من أطراف المستخدمين، اثنين خادم يعرف بفرح المغري، كان في حاشيته، والآخر خازن في بيته وهو يحمل منزلة غرام يعرف بنا، وصلما له الإبطال ونقموا الأحاديث وزجروا القول ووصفوا انه نقل الأولوان إلى الشام في التوابيت، وفي شمع سبيكه، وأتقى إلى القدس، ولي من الجليل، وأنه قد عش على الهرب إلى بغداد. فصدق

- 285 -
ذلك وقبض عليه بغير ذنب إلا الملك والحسن الذي جرت عادة الملوك به. وإن ملجه بغير علة وحسدهم على تظاهر من ينعمون عليه بما يصير في يديه ليتمجله به، فتكون تلك سبب حسدهم وملجه.

وافقت أن المستنصر النمس من صفي الملك ولد الوزير عمل دعوة يدعوه إليها، فدافع عن ذلك، استعذاما لحضوره عنه. فقام مدة حتى وصل الوزير الناصر للدين على تكلف عملها، فهادهم لذلك وصنع ما يليق إعداده. وتقرر الحال على يوم، فلم تها ذاك حضر صفي الملك إلى أبيه واعمه بإنجاز ما يحتاج إليه، فصار معه إلى الدار بخواصه فرأى ما تكسر عنه كل صفة، من ذلك انه فرش مجلسين بديباج بياض كله وفيه جماعة كبار حمر بنقوش كاجل من الأعدل، وفى كل مجلس ثلاث مرات وود مجلس وسراقيين يعني: سبارةين وحجلتين للصصر - يعني شخانتين - وكل مرتبة ثماني قطع، ثم ذلك خمسة آلاف دينار.

فافل كل من حضر يبالغ في صفته، إلا ابن حميد فانه صسار ساكنا فللحوز الوزير. وطاف المجلس واستعرض كل مسا اعده، وهو يقول: يزارد له هنا كذا، وترك هنا كذا، ثم عدل إلى بيت الطهارة فدخله، وقد أعد في دحلبوه من الفرش والألات والطيب وفي داخله من القواريه والمشومات كل مستحسن.

واستدعى ابن حميد منفردا، وجلس في دحلبوه وقال: يا عمة الملك ما لي لم اسمع تعون على ما قالته الجمعة؟ فاحتل بما لم يقبله الوزير، والزمه أن يصدقه فقال: باستيدنا عندي أحد رآبين: إما أن تأمر بإزالة لهذه الفرش ونصوب غيرها مما هو مستعمل، أو تحمله إلى الخليفة إذا انقضى جلوسه عليه.

قال: وما هو هذا؟ اليس هو مما انعم به وصبار يمن فضله؟ وما قدري حتى تحمل عنه؟ إنما إذا ازالته ونصب غيره، فما كنت لأكسر نفس هذا الصبي. وإن أسرت بإزالته حزن وانكسرت نفسه - وقام
فحضَّر المستنصر واقام يومه في الدار، وأحضر إليه مساعدته من الطرف، وركب آخر النهار وعاد إلى قصره. وحضر خواص الوزير عندئذ على عادتهم. فانفرد بابن حميد وقال له: بإسم الدولة، وله ما أخطأ حزرك فيما قلته بالآسر: منذ دخل الخليفة إلى الدار إلى أن خرج لم يطرف طرفة عن تأمَّل الفُرس، فإذا وجهت طرف نحوه أطراف وتشاغل.

فقال: يا سدي، فإن فات الأمر الأول، فلا يَفوت الثاني.
فقال: والله لافعلت، ولاغنيمت صفي الملك بحمرانهِ إياها.

واتفق أيضاً أن ابن حميد دخل على الوزير في يوم بكرة، وقد قدمت الدابة إلى باب المجلس، فخرج ليركب، وعليه ثوب إسمار اللون مبحَّب السمرة، فدنا منه ليصيح ثيابه لما ركب، وجاء يلامس الثوب، فسار الوزير وعاد. فلما انقضت المائدة قال لابن حميد: قد لحظتك اليوم تتذوَّر الشيب الذي كان عليه. فعجبي من ذلك، فلما وصلت بحضرة مولانا كنت بحيث جرت العادة. فأقبل يشمل الثوب، ولم يزل يزحف من الدست حتى قرب مني فتهافت عليه، ولاحظته وقد شد إلي الثوب ليلمسه، فقلت في نفسي: زال عجبي من عدة الدولة، إذا كان الخليفة على هذه الصفة، وهو ثوب ملمح خراساني.

فقال: الملوكي إذا أنعموا على أحد ممن في دولتهم نعمة وتواهر بها، استحالف الإحسان والاصطناع حسدا وميلا.

وكان الوزير شريف الأخلاق، عالي الهمة، كريم الطباع، وطيب الأكتاف، مستحكم الحلم، واسع الصدر، ندي الوجه، يستقل الكثير ويستنصر كل كبير. فكان رأت مسانده في كل يوم كمواد المالك في الأعيان والولائم، وكان لا يبتاع لطبه من الطيب مازم معرفة، ولا مصدر، وسمر المعرق سبسة أطيار بيدفار، وألصد راحة بيدفار، والمسمن ثلاثة بيدفار، والنافقان. أشان بيدفار، فيعمل المسمن لداره ومن فيها، واما مسانده فلا يقدم عليها إلا الفائقة.
فاتفق حدوث الفلاء في سنة سبع وأربعين وأربعين ومائتان، وصار الخير طرفة من الطرف لقلانه وغلاء السعار من قصصه
النبل، والمستنصر يحضر دار الوزير في كل يوم ثماناء على
عاته، وتقدم إليه المائدة، فيراعي حالها فيجدها على ما يهم
لم يخلت منها شيء، حتى نجاح الفائق، فقال لصاحب
مطبخه: وليك! يكون راتب مائدة الوزير النجاح الفائق ومائدة
بذلك؟

فقال: يا مولانا، ما ذنبي إذا قصر بك أصحاب دواوينك
ومتابعك ولم يطلبوا مائذك ما التماسه منهم؟ والوزير، فلا
بتجاسر وكلاكوه أن (27) يقتترا في شيء مما جرت به العادة في
راتب مائته وغيرها، مع تقدمهم اليه في كل يوم بالزيادة فيها وفي
راتب داره.

وكان الوزير أيضا إذا أعطيه هذا، وإذا انعم على انسان
اسبع، وإذا استعن أحدا رفعه إلى ما تقصر عنه الآمال والأمان.
مع عظيم الصدقة وجزيرة البطل الذي عم به أهل البيت، بما إقامة
له من المشاهرات على مقايدهم، والزارة السكان
المائدة، والقراءة وأهل الدير بالقراءة بما واصلهم به من البر
والكسا، وجري ذلك على بد أبن عصفر أحد الشريف بصر ووكيل
السيدة الوليدة، فكانوا يفتنون أن ذلك من أسماعهم وبرأوا أو من
انعام المستنصر. فلما قتل الوزير افتقرو عنه ما كان يصل اليهم
من بر، فاستنصرت ذلك (الوكيل) وواصلوا الخطاب فيه
وقالوا: قد جفينا من موالدنا ومولداننا وانقطع برهما عنا، فلو
أنكرتما بنا ً! وأكرروا من ذلك على ابن عصفر. فقال لهم:
الذي كنت مرتون ماكان ليجيبكم حتى يبعث الله ناصر دين آخر.
فحينذا باتيك منه ماكان يصلكم به.

فقالوا: نحن التمسنا من موالدنا ومولدانا، ولم نلتمس من
ناصر الدين، فقال: ما كان يجيبكم ذلك إلا من الوزير، فكان
بعثه الله لكم فعسا وبيركم بما كان يبركم به، فعجبوا من ذلك.
وأما تظاهر الغلامان على الوزير حتى تم من القبض عليه ماتم ، لم يشعر مستهل المحرم سنة خمسين وأربعمئة لا وقى قبض عليه فكتب رقعة إلى أبي فرج البابلي ، لوضع تقدسته له ، وبدأ احسن له إليه وانعم عليه ، وانتهى الذي رفعه على جميع أصحاب الدواوين ، واستخلصه دونهم ، وظن أنه يجازيه على منا صنع الليه ، وفيها له فضيلة ظنه ، ونص الرغبة بعده البصلحه : عرفنا يا أبا الفرج ، أطال الله بقاك وأدام عملك ، تغير الروى فيها ، وسوء النية والعولية فان يك هذا الأمر صاحب الياك ، فحافظ الصحبة وارزع واجب الحمره . وان يكن صائرى إلى غيرك فابتغ لنفسك نفقها في الأرض . على انانشير عليك اذا دعيت إليه الا تتأذى عنه ، فإنه اصلح لك واعد علينا ، السلام .

فدع البابلي واستقر في الوزارة بعد البابوري ، ففخجع لمقابلة احسن مصطفى بكل قبيح ، وتكره في مجاساه بما لا ينتبه عنه . وكانت هذه الرقعة أعظم تذوبه عهده ، فكان يقول . يكون من ، وهو على شفاف القبض بنون العظمة ؛ ولا ينكره الا بالسفلة والسباط.

ولم يقعن كونه في الاعتقال بمصر حتى نفاه الي تنديس في صفر هو وأولاده ونسله وحاشيته ، فاعتقل بها . وشرع في التدبير على قتلهم خوفا من الرضى عنه .

فحدث ظهير الدولة منوفي الطرقال قال : كنت في جملة الصلحاء الموكلين على الناصر ثم على البابلي بعده ، فكنت اري من رئاسة الناصرـ على شبيبتهـ وراجحتهـ ، وسكن جاشهـ ، ومن طيش البابلي وخفتهـ وتقصيهـ ، ما أعجب منهـ . وهو أنى ما كنت سوكلا بالناصر . كنت اراه ملازمًا بالعذبة بباب المجلس في القاعة لانتغير مكانهـ ، وكان البابلي يرغب عليه ويراسلله بما يمضى ويوصيناهـ مضبينا اليه بالجلب على فتح الباب والاكثر من فقلاطـ عند الفتح ، لنرعبذ بذلك ، فإنه ما يكثر اليه ولا ينزعج . وإذا دخل
البه تذكر من كتبنا: 

البهر ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينزل في الدنيا وهو ينز
فقال: ومن هو هذا الكلب؟
فقال: الحسن بن علي بن عبد الرحمن البازوري.
فقال: أيها الوزير، أعلم أنتم لم أصرف البازوري عن خدمتكم ولنا في إعادته رغبة. فطب لنفسًا ودع ذكره، فانتamientos من مما تخافنه من جهته.

فقال: والله، إن هذا لعجب فيمن حسن مشابك، يا أمير المؤمنين، عنده، مع قبيح فعله وماه به من فتيل، حتى إن السقية اقامت تدور في قصركم أسبوعاً كاملاً.
(فقال: أيها الوزير، اقامت السقية تدور على في قصركم، أسبوعاً كاملاً.)
قال: نعم.

فأطرق متعجبًا وبقي متفكراً وأمسك. فظن البازالي بإمساك الخليفة أنه راض مما يفعله مع البازوري، خرج، واستدعى طاهرًا كتاب السر وسيري طاقله. فتمى الخبير إلى أم المستنصر.
وقالت: انت يا مولانا أمير البازالي بقتل البازوري؟
فقال: لا.

قالت: قد سير طاهرًا ابن غلام رشيد لقتله.

فاستدعى المستنصر سعيد السعداء واندفع إلى البازالي وقال: قل له: لم نامر بكِ بقتله، فاندفع من بعيد طاهرًا ويعدمه من النغوض. فانقطع سعيد السعداء في الحمام، فاعترض إليه، فقال: لا بيد من الدخول إليك، ودخل وادى الرسالة إليه. فقال:Curve, هوندا، خرج واسير من يعيدّه.

وطول في الحمام، ثم خرج، فانكتب الكتاب ويسبح النجاح، جد طاهر في السير ووصل قِبله إلى تنسيس. فلم يدخل النجاح حتى نفذ الحكم في البازوري، وذلك أن طاهرًا لا وصل دفع كتاب البازالي إلى الأمير جمال الدولة صحيح وإلي تنسيس وفيه. إننا قد سيرنا طاهرًا فيما انت توقف عليه من جهته، فتوثب منه فيه وتحضر معه لانجازه وتحذر من تأخيره من اليوم إلى غد.
فقال: وما الذي وصلت فيه؟
فأخرج تذكرة بخط البابلي فيها: إذا وصلت يا طاهر آذك الله، إلى تدريب، وقد شفقت ولهن من العش، فلا تقبل ريقك.
بقطرة دون أن تحضر حسن بن علي بن عبد الرحمن البايزي إلى دار الخدمة وتمضى حكم السيف فيه. فقد كتبنا إلى الأمير جمال الدولة بمعونتك على ما نستدعه من ذلك، فقدمه ولا تأخير إن شاء الله.

فقال له الوالي: أنت خليفته صاحب الستة، ومرسل من جهة السلطان، والأمر الذي وصلت فيه ممثل. فاضف الحكم فيه.
فقال: بحضورك.
قال: وما معنى حضوري إذا بلغت غرضك فيما وصلت فيه؟
فقال: لابد من حضورك.

وانتقل من أحضر البايزي من الدار التي اعتقل بها، فلم احضر
أجلس على مضمار بباب الدهليز، وطاهر على مقدارته في مصطبة، والчасابة والسعدية خدام الستة وقوق، والاستراح.
قائم. وقال طاهر: يا حسن، يقول لك مولانا: أين أموالك؟
فلم يجيب ولم يرفع طرفه إليه. فقال له: لك ذات الطريقة إليه. فأجاب له: لا يدمع فيكم بن علي بن عبد الرحمن. يقول لك أمير المؤمنين: أين أموالك؟ فلم يجيبه، وراه يرفعه ونظر إلى طاهر وإلي الجماهير القيام وقال لطاهر: يا كلفي بهذا، وهذا مكرون، وأنا أبالي على حديثي، فكان عمري مال، وفيهم في داري. وكتب داعي وذاتؤك المؤيد في الدين في القمارة الفلانية تشهد بنذك مالين هو.

فأشار طاهر إلى الذين معه، فقالوا البايزي وضربت عنقه في الحال. وسوار لوقته عندما، ومعه رأس البايزي إلى القاهرة، فبلغ ذلك المستنصر فاغتم لقتله. وحذف على البابلي حتى صرفة. وكان قتله في ليلة الثامن والعشرين من صفر سنة خمسين.
واربعمان . والقيت جثته على مزبلة إلى أن ورد أمر المستنصر بعد
ثلاثة أيام بتكفيخه وتجهيزه والصلاة عليه . ففسل في مسجد وحنطة
بحنوط كثير وكافور ، وحمل بين العشاءين ومعه المشاهي ودفن . ثم
حضر صقلبي بعد ذلك ومعه الرأس فدفنت معه في القبر .
ولم يتمكن أحد في الدولة المصرية بعد الوزير بعقوب بن كاس
تمكن اليازوري . وحكي أنه حي في صباه فلما زار قبر رسول الله
 صلى الله عليه وسلم نام في الحجرة النبوية . فسقط عليه شع من
الخراز المطح بحائط الحجرة . فأتاه بعض خدام الحجرة وأيقظه
وقال له : إياها الرجل ، إذك ستلي ولاية عظيمة . وقد بشرتك ، ولي
منك الحباء والكرامة .

فسار إلى ما صار حتى إنه سال المستنصر بالله أن يكتب اسمه
على سكة الذهب والفضة فأنزل له في ذلك . وطبعت باسمه نحو شهر
ثم بطلت . وامر المستنصر الا يسر هذا في السدير . وكانت صفة
سكته :

ضربت في دولة آل الهذى
من آل طه والباسين
مستنصر بالله جل اسمه
وعبد الناصر للدين

في سنة كذا

ومن طريق العدل في الكاتب ما وقع له . وهو أن العمالي
بالمالم إدريس ابن المعتلي بالله يحيى بن الناصر علي بن حمود بن
ميمون بن حمود بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله
ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب صاحب الأندلس كتب
إلى المستنصر بالله من مدينة مالقة مكاتبة فيها : » من أمير المؤمنين
العمالي بالله إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله .
فقد عليه بمصر قلة تصوره ومعرفته بأنه لا يجوز أن يكون أمير
المؤمنين في زمان واحد إلا واحداً. ثم ألجلت الضرورة إلى مكتابته
بنحو ما كتب، وكان اليازوري إذ ذلك في الوزارة وتذبير أمور مصر.
فقال: أنا أخلص لكم هذه القضية وأعلقها بمعنى دقيق لا يبين
للمكتاب - وكان صاحب حيل - فكتب إليه. من أمير المؤمنين
الاستنصر بالله معد إلى العالي بالله أمير المؤمنين بمالقة.
الحسن بن عمار الكبلي

(من المقال في المعرفة - مجلة بردو باشا)

الحسن بن عمار بن علي بن أبي الحسن - واسمه محمد بن
الفضل بن يعقوب أمين الدولة أبو محمد الكبلي، أحمد شيوخ كتامة
كان أبوه في خدمة الإمام القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن عبيد
الله المهدى، فيعثه على رجال كتامة إلى تونس في فتنة أبي يزيد
مخلد بن كيابان الزكاري، وقد سبقه إليها مسندوه بن بكر الهواري
من قبل أبي يزيد، ودخلها في عاشر صفر سنة أربع وثلاثين
وثلاثمائة، فقتل وسبى وهدم الدور، وافق عمارا فقاتله وهزمه
عمر وتبعه إلى تونس وقتل كثيرا من أصحابه وأخذ ثلاثة آلاف
جمل تحمل طعاما وغبره، وعاد إلى القائم بالهندية، فأمره أن يقيم
بسوسة. ثم مات القائم، وكان مع ابنه المنصور بالله، أبو الطاهر
أسماعيل حتى مات وقام من بعده ولده المعز أبو تيمم بعد. فسار من
قبل أخيه الحسن بن علي متوالي صالحة على استووا إلى بلاد الروم
وعاد، فخرجت عليه ريح شديدة بالقرب من صالحة فقطعه استووا
بأسره، وغرق القائد في يوم الجمعة لعشر بقين من جمادي الآخرة سنة
خمس وأربعين وثلاثمائة دلفن من الغد بصلابة.

ثم إن الحسن بن علي افتتح في سنة اثنتين وخمسين قلاعاً
بجزيرة صقلية ونزل على قلعة رمطة فحار بها فبطل عليه أمرها
فرجع إلى جزيرة صقلية وترك على رمة ابن أخيه أبو محمد الحسن
ابن عمر صحاب الترجمة، فاقام عليها وطال قامتها. واستغاث
الروم بصحاب القسطنطينية، فوجه إليهم عسكراً في البر وعسكر في
البحر، والتقى ابن عمر مع مقدمة الروم في نصف شوال منها
بنشرمود بسيرة فرمته الله النظرة وقتل قائد الروم صحاب عسكر البر
واعاد فبعثه في يوم الثلاثاء لتسع خلون من شوال سنة تسع
وخمسين (وششماة) على الأسطول إلى مصر. فانتهى إلى
طرابلس. وأعلنتها يوم الخميس لثلاثي من شوال سنة
ستين وثلاثمائة. ثم قدما إلى القاهرة يوم الاثنين رابعmes
سنة إحدى وستين، ثم لما قدم الأسطول في دي القعدة من المغرب
خرج عليه ابن عمار في ذي الحجة وسار إلى تدليس وقتي الأسطول
وتمركز فأخذ منه سبع قطع واسر خمسمائة رجل.
ثم سار في رجب سنة إثنين وستين إلى الحوف على عشرة الاف
فواقع القراقنة.
ومازال بالقاهرة بقية أيام العزيز، ولما احترع العزيز بالله
بمدينة بلبيس استدعى القاضي محمد بن النعمان والحسن بن عمار
هذا وأوصاهما بولده أبي علي المنصور ومات. فأقم في الخلافة بعده
أبو علي ولقب بالحاكم وسار إلى القاهرة وسره إحدى عشرة سنة
وخمسة أشهر. فانفق في المغارة وكتابته وشرطوا أن لا ينظر في
أمورهم إلا ابن عممار. وذلك أنه أعطى لكل واحد من شيوخ كتامة لما
انفق فيه من خمسة آلاف دينار إلى ما دونها، وأعطى شبابهم
على أقدارهم. وكان العزيز قد غضب عليهم لخذلائهم القائد جوهر
في نوبة هفتكين وعرف الوزير يعقوب بن كنسر ذلك فأطاحهم حتى
ضاعوا وساءت حالاتهم وتطارد كثير منهم في الصناعات. فتنهى ابن
عممار ( إلى ) حالهم فاجتمع شيوخ كتامة عند المصري خسارج
القاهرة، وقد خالفوا على الحاكم. فخرج إليه ابن عممار وما زال
بهم حتى أعبرهم إلى القصر وقرر لهم ما أرضوا به وأنفق
 phíهم، وحلف للحاكم ثم حلفهم وحلف عليه الحاكم بأمر الله في يوم
الثالث من شوال سنة ست وثمانين وثلاثمائة. وقلده سيفا من
سيوف العيزز عليه وسلم وحمله على فرس بصرة مسند
ذهب، وكناها، ولقبه « أمين الدولة »، وقال له: « أنت أمين على
دولتي ورجالي »، وقاد بين يديه عدة خيول، وحمل معه خمسين
ثوبا من سائر البيز الريحان. وزنل من القصر إلى داره في موكب
عظيم. وقد تجلى قاضي القضاة محمد بن النعماج بجامع مصر في
خمسة، فاستكتب أبا عبد الله ( 000 ) الموصل واستخفه على
أخذ رقاع الناس وتوقيعاتهم، وازل سائر الناس بالترجيح للترجيح
كل رفيع في طائفته، وقرر لكتابته سبعة أئمة في السنة وانفق فيهم
وحمل رجالاتهم وهجم نحو الألف - على دواب الأصطلح التي
خلفها العزيز، ولم يترك أحدا من الشيوخ حتى حمله على الفرس
والفرسين بالراكب الحسنة من خزائن القصر.

وسير سلمان بن جعفر بن فلاح إلى الشام على عسكر، وخلع
عليه، وقلبه سيف يمنها، وحمله على فرس، وقاد بين يديه أربعة
إفراس بعرايبة، وانعم عليه إنعاماً زائداً، وانفق في المغارة
المسائرين معه، وبعث إليه بخزانة مال على ثمانية وستين بغلافها.
اربعمائة ألف دينار وسبعمائة ألف درهم، وبعث إلى عهدة وأربعين حملًا من السلاح وعشر جماعات عليها الدروع وست قباب بفُرْشها واجلتها ومناطقها وسائر آلاتها، وست جماعات بجنب شة الديباج اللون وثلاثين جمزة بحالة وعشرة أفْرَاس، وثلاثة بغلات بمرابكها، ومنديل يحمله خادم فيه ثياب من ثياب العزيز وسيف من سبوعه.

وصار ابن عمر ينزل ويركز من باب الحجرة التي فيها الحاكم فيظل القصر راكبًا، والزم سائر الناس بالتكبر إلى داره، وكانوا يرحبون على بابه وفي دهاليه، وبابه مغلق. ثم يفتح بعد حين فيدخل الأعيان إلى قاعة الدار ويجلسون على حصيرة، وهو جالس في مجلسه لا يدخل إليه أحد مقدار ساعة. ثم يأتون للأعيان كالقاضي وجوابه كثامة القواد فيدخل أكابرهم. ثم يؤمن لسائر الناس فيزادمون ولا يقدر أحد على الوصول إليه، فمنهم من يومي إلى تقبل الأرض، وهو مع ذلك لا يرد السلام على أحد.

فإذا خرج لا يتمكن من تقبل يده إلا قوم بأعيانهم. وباقي الناس يقبل بعضهم الركاب، وبعضهم يومي إلى تقبل الأرض.

وانفد ما في الأصطلابات من الخيول فانعم على كتبة بالغين وخمسائة فرس، وأخرج للحملان والقود شنقا كثيرا، وحمل من الخيول والبغال والنوق لسلمان بن فلاج زيادة على الف رأس، وباع من الخيول والبغال والنساء والحمير ما يتجاوز الوصف حتى بيعت الناقة بنكهة بناء. وقطع أكثر الوسوم التي كانت تقبل للأولى من الأطعك وغيرهم. وقطع أكثر ما كان من المطابق واقتصر على البعض. وقطع أرباط جمعة من أصحاب الراتب، وفرق كثيرا من جواري القصر على الناس، وكان فيه من الجواري والخضد عشرة آلاف جارية وخادم، فقاع من اختيار البيع واعتق مـن سـنال العتق، كل ذلك طلبا للتوفير.

وحمل إلى سلمان بن فلاج جل رحل العزيز وامتعته، واصطشع احداث المغارة، فكثر عبثهم وامتدت أبدهم إلى أخذ الحرم من

- 298 -
الطرقات، وسبلوا الناس في الشوارع وغيرها. فكثرت شكليات الناس منهم فلم يشكهم. ثم إنه فط في الأمر حتى تعرضوا للعذاب. الأتراك يريدون أخذ ثيابهم. فثار بسبي هذا شر قتل فيه وصدروا المغاربة وعلم من الأتراك. فاجتمع شيوخ الطائفة وصاروا أحزاباً. فقد قاد عمار في نصرة المغاربة، ووقعت الحروب بين الفريقيين، وقتل جمعة منهما. فانتقلت الأسئلة من كل منهما بالقيس في حق الآخر. وأقاموا على المصاف يوم الثلاثاء، بيوم الأربعاء تأسس شعبان فرَك بنهم عمار يوم الخميس بآلة الحرب وفتحت به المغاربة. وجمعت الأتراك، وكانت بينهم وقائع قتل فيها عدة رجال وجرح كثير، وجمعت الروس بينهم allegedly ابني عمار. فانظر ذلك يعرف أنه أخطأ في ركوبه، فعاد إلى داره.

ونزل إليه برجوان ليصلح بينه وبين الأتراك. فعندما دخل إليه برجوان ركب غلمان الأتراك، دار ابن عمر، فعاد بزوجان إلى القصر، وامتنع أبيه النهابية إلى دار ابن عمر، واصطلاحيه، وإلى دار رشأ غلامة. فأخذوا منها ما لا يحصى كثرة. وكان أكثر من نهب المغاربة الذين أصطنع أحداثهم. فسقط في بد ونجا بنفسه إلى داره، بمصر، ليلة الجمعة، ثلاث بقين من شعبان سنة سبع وثمانين، وثلاثة وثلاثة وعزل عن النظر، فكانت مدة أيام نظره أحد عشر شهرًا تحت حبسه. ثم خرج تفضس خمسة أيام. ولزم داره بمصر، سبعة وعشرين يومًا. ثم خرج إليه الأمر بهدوء إلى القاهره، فعاد، وترك داره ليلة الجمعة، خمسة عشرين شهر رمضان. وأقام بهما لا يركب ولا يدخل إليه أحد إلا أتباعه، وحده، ورسب بإطلاق رسمه وجرائمه وهم، وكل ما كان له في أيام نظره من فاكهة وثلج وثياب، ولمبلغ من حين الديوان والحيوان، والفواكة، والتوابل خمسة فئران في كل شهر، وسلة فاكهة في كل يوم بدينار، وعشرة أرطال سهم كل يوم وحص ثلث عن يومين.

فلم يمل عماراً لداره إلى أن أنى له الركوب يوم السبت الخامس من شوال سنة تسعين. فرك إلى القصر، ونزل ووضع نزل الناس
在家里，واصل الركوب إلى يوم الاثنين رابع عشرة، فأخذ عشية إلى القصر وجلس به إلى عشاء الأخرة. ثم اذن له في الانصراف. فعندما قام ثار به جماعة من الأطراف قد أعدوا لقتله فقتلوه واحتزوا رأسه ودفنه موضعه. ثم سأل أهله في نقله إلى تربته، فحمل إليها بالقرافة. وكانت مدة إقامته بعد عزله عن النظر إلى أن قتل ثلاث سنين وشهراً واحداً وثمانية عشر يومًا.
محمد بن حسن الكلي
(من المقفي المقريزي - مجموعة ليدن)

محمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين، أبو عبد الله الصقلي، أحد أمراء صقلية المعروفين ببني أبي الحسين ولد سنة تسعة عشرة وتلائمانة.

وقدم من صقلية إلى المهدية على المعز لدين الله في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة عندما كتب المعز إلى الأمير أبي القاسم أحمد بن الحسن بن علي أن يرحل إلى إفريقية بأهله والمال وجميع مقتنيه يتعلق به، فاستخلف على صقلية يعيش مولى أبيه الحسن بن علي.

وقدم أبو عبد الله هذا إلى مصر مع المعز، وكان أخص الناس به، واقربهم إليه فلم يزل بالقاهرة إلى أن مرض، فعاده المعز في مرضه ومات لمحدود عشرة ليلة قبل أن يدخل جمادي الآخرة سنة ثلاث وستين وتلائمانة. ففصل القاضي النعمان بن محمد وصلى عليه المعز، وفتح تابوته واضعه بيده وهو وابنه الأمير عبد الله بن المعز ودفن في داره بالقاهرة.
وأجاج بن زلو اللمطي (14)

من أهل السوس الاقصي، رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن، وكان المصاحدة يزورونه ويتركون بدعائه. وإذا أصابهم حط استسقوا به، فسمعت الشيخ اباموسى بن عبد العزيز الجزولي يقول: أصاب الناس جدب بنفيس يذهبوا إلى وأجاج بن زلو اللمطي وهو بالسوس. فلما وصلوا قال لهم: ما جاء بكم؟ فقالوا له: قلتمنا وحننا لندعو الله لنا أن يسقينا. فقال لهم: إنما مثلكم كمثل قوم أبطروا جبج نحل فظتنا أن فيه عسلا! ولكن انزلوا عندي فانكم أضياف. فأضافهم ثلاثة أيام. فلما عزموا على الانصرف وجاؤوه لوداعه ليرجعوا إلى بلادهم قال لهم: إياكم أن ترجعوا من طريقكم الأولى التي اتيمي فيها فارجعوا من طريق أخرى لتسكنوا في الغيران والكهوف من الأمطار. فلما انصرفوا عنه أرسل الله عليهم السحاب بالامطار ودامت عليهم الأمطار فلم يصلوا إلى بلادهم إلا بعد ستة أشهر...
رسالة جوابية من الخليفة الحكم المستنصر إلى
الإمبراطور البيزنطي تيوفيل (16)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فقد بلغني كتابك، تذكر فيه الذي كان عليه من مضى منكم لأولئك من المودة الصادقة، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا، وإرسال قرطبوس رسولك إلينا لتجسيد تلك المودة، وترطيب تلك المصادقة. وتسأل أن ينعقد فيما بيننا ويبنك من ذلك ما نمسك به، ونتواصل له، ونبعث رسلا من عندينا إليك، ليعلمك بالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضشت عليه، ودعوت إليه، لتبثب بقدومهم عليه صداقتنا، ونتنم به صداقتنا.

وفهمنا ما نذكره من أمر الخليفة مروان رضي الله عنه وصلى عليه، ومن وشائر قرابتنا منه، وأسبي لما استلب من سلطانه، واستببع من حرمه، واستحل من دمه، وماكان من الفاجر أبي جعفر ثوبه الله، وجراءه على الله، واعتبره به، وانتهائه لحارمه، والله قد أحصى عليه ذلك، فأسهف منه، فهو لا محالة بجازه جزاء سعيه.

ثم الذي ذكرته من فعل الخليفيين ابن مراجل وأبن مارادة أخوه بعده، من إلحادهما في نحلهما، وإساءتهما لسيرتهما، ورغبتهما في رعيهما، وشدة ووطانتهما عليهما، واستحلاهم دماءهم وأموالهما، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم، وأنقاط مدة سلطانهم، وثانى الله برد دولنا، وسلطان إبانا، الذين نباته عنهم الكتب ونطقتهم بهم الرسل، وأوجب لهم الاجتماع، وحازه إليهم الإبرهان، والذي حضشت عليه من الخروج إليهم، وطلب
الأثر منهم، ووعدته من نصرتك لنا، بما ينصر الصدوق صديقه،
ومن يعلم هواه فيه ومودته له، وما عطفت عليه من أمر أبي حفصي،
ومن معه من جالية بلدينا، وغبتهم على ما غلبتوا عليه من بلدك،
وخصوصهم لاين مارده ودخولهم في طاعته، وما ساللت من أهل
الانكار لذلك والأنفة منه، وحكيت من أمراء إفريقيا في نزاعهم عن
ابن ماردة، وخلافهم عليه، واستثنائهم لدولته، وكل ما حكيت من
ذلك وقصصته في كتابك، فقد قرناها وفهمناها.

وأما ما رغبت من مودتنا، وأحببتها من مصادرتنا، وأردت
تجربته وتوصيله والتمسك به وتثقيبه، مما كان عليه أولوك
لأولينا، فقد رغبتنا منك في مثل الذي ذكرته ممّا حرصك على
مواصلتنا، وإن نتمسك من ذلك، بما كان عليه سبحانه، وما لم يزل
من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به، ويتحامسون عليه، ويحفظه
بعض لبعض ويشدون آيديهم به.

وأما ما نذكر من أمر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله، فإن
الله تعالى أحب أن يكرمه بما انتهك من حرمه، ونكل من بيته
ويسوقه إلى رحمته، وأن يشقي بذلك من ركيبه منه، ويخزيه ويعذبه
عليه.

وأما ماكان عليه الفاجر أبو جعفر في تعذيبه العباد، وظلمته
وجراته على الله، وانتهاكه لحارمه، فإن الله قد أخذ بهذته،
وأستركه بغيه، وصيره من عذابه ونكاله، إلى ما لإنقطاع له،
ولاختصمه منه، جزاء بما اجترح، وكذلك حكم الله في أهل
معصيته، وأولى الاجتراه والافتيرة عليه.

وأما ما نذكر من أمر الخليفة ابن ماردة، وحضشت عليه من
الخروج إلى ما قلته وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله،
وزوالسلطان على، وما حضر من وقت رجوع دولتنا، وأزف من حين
ارتجاع سلطاننا، فإذا نرجو في ذلك عادة الله عنا، ونستنجز
موعده إبانا، ونعتري حسن بلانه لدينا بما جمع لنا من طاعة من
قبلنا، من أهل شامنا وانداسنا واجدانا وكورنا وثغورنا، وما لـ
نزل نسمع ونتعترف، أن النقمة تنزل بهم والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بناء وعلى أيدينا، ففيّعت الله دابرهم، ويستأصل شافتهم إن شاء الله تعالى.

وأما ما ذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي، ومن صار معه من أهل بلدها، في خضوعهم لابن ماردة، ودخولهم في طاعته وما سالت من النظر في أمرهم، والانكار لفعلتهم، فإنه لم يمزع إليه منهم إلا سلفهم وسوادهم وفسقتهم وابائهم، وليسوا في بلدها ولا برتبنتها فنغير عليهم، ونكفيك مؤتمنهم، وإنما اضطروا إلى الدخول في الطاعة ابن ماردة، لامتنهم من بلده، ودنو ناحيتهم من ناحيته وله نكن نحسبك تعجز عنهم، ولاتصعب عن نكايتهم، ولاستوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك، وذن تمير مكانهم به من موضوعك وإن الله يحوه وقوته وفضله ومنته رد إلينا سلطاننا بالشرق وما كان تحت أيدينا منه نظرنا في ذلك بما فيه صلاح لنا وآكل واستقامة لطاعتنا وطاعتك، وعرفنا الذي يكون من معونتك على ما سمعك، وحضضت عليه بما يعرفه الصديق لصديقه، وذو الودة لأهل مودته، ولم يضع لك عندها مارعيته من حقنا وقامت فيه من حفظنا.

وقد ابتخلا رسوُلك قرطبوس علينا، وكشفناه على الذي أوصيت به إليها، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه، ووجهنا إلينا بكثابنا مع هذا رسولل من صاحبي من قبلي، فاكتب إليها معهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كنت بـ إليها، والذي يجب عليك من سائر شبرك، ومعتعا عافيك لنتظر فيما بيصرفان به من عندك على حسب ما باتتنا به من عندك إن شاء الله.
رسالة الراهب الفرنسي يشوع ورد الباجي عليها

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى الله

رسالة الراهب من أفرنسة - دمرها الله - الى المقترد

بالله صاحب سرقسطة

الى الصديق الحبيب الذي نؤمله أن يكون خليلاً مقدساً، المقترد

بالله على دولة هذه الدنيا الملك الشريف من الراهب احتر ارهاى،

الراغب في الأطاحة والأيمان بالمسيح يسوع ابن اس سيدنا

لما انتهى اليتى - ابغاوا الأمير العزيز - امرك الرفيق في الدنيا

وبصيرتك في تبين احوالها المتغيرة، رأيت أن نرسلك وندعوك التأثر

الملك الدائم على الملك الزائى الفاني. وإنك قد رأيت كتابنا الينك الذي

راجعت عليه مراجعة نبيلة على حسب نظر أهل الدنيا، ولم تكن

بحسب مطلوبنا من المراجعة الروحانية، ولذلك تراخي زمانى

بمراجعتك إذ توقعنا أن نتكف تعباً لا نحتى به شرها، وحقاً إن

القادر على أن كل الذي اصطفى أولياء قبل خلق العالم، ولم يسبق

في علماً - هلاكم قد آثار قلبك، وأحسن الله للأيمن بالله المسلم كث

وهو الرحمن الرحيم، الغفور، الذي يهديك معرفته. وليس يسعنا أن

نتراري عن الجهاد في تنمية هذه الصلاحة بجمال معونته لتشترى

معنا في ملكته إن أثرت ذلك. لهذا الأمر، أشخصينا الينك ون

اخواننا من بورد بكلا ماما الهيا - على ما يوفقه الله اليه

ويشرحون لديك حقيقة دين الفصيرة، ويقوم عندون معرفة المسيح

سيدنا الذي لاينفي لنا الأيمن بإحد سواء، ولانتري النجاة إلا به
فهو الآله الذي اتخذ حجابا على صورة لنا لينقذنا - بدمه الطاهر - من هولكة ابليس

ولقد كنا - ايا الملك الشريف (نود أن) (۱۷۷) نورد كثيرا من هذا
القول لولا ما نتوطعة من تأكذ بسماعه، وفي ذلك كله برهان اللة
المسيحية، وإبيان جلالتها، وإن الإحاطة بكينهها مما يعجز دون
إدراك الإنسان وملك الله - تعالى - أجل - واحظ من أن يدركه مفهم
الإنسان أو يحصل فيه قلم الكلام الإنسان من آيات الله القادر على
شيء يشرح صدور الأدميين، ويدخل روح العلم في قلوبهم ليتمسكن
الإيمان في نفوسهم

ولما كانت الدنيا - من قبل - معمورة بالضلالة، والعالم مدنسا
بعبادة الأوثان - حسن عند الله القادر في - آخر العهد - أن يعيد
الزمان جديدا - وستدرك الصلاح الذي فات العالم في إدم الوالد
الأول - وذلك أمر قد اهتدي إليه أباوئنا من قبل إبراهيم واسحق
ويعقوب، والأنبياء أفضحوا به من بعدهم - وهو عهد من الله مؤكد
قبل النورا وابن تنزيل النورا أن يكون الالتقاء المقدس معلوما،
وليس هذا مما تختص به مصاحفنا فقط بل هو متضمن في
مصاحف اليهود والمخلوفين لنا ببيان واضح، وأن الشيطان المدين
الذي عرض أهل هذه الدنيا للموت - بجسده لأنه - حاول تغيير هذه
المهمة المقدسة بعد اقفال الحور بين الذين هدوا أهل الأرض بالمولف
وبعد ظهور الشهداء الأصفياء على أبليس بالغليف - الذين هرقوا
دماءهم في أقطار الأرض في ذات الله - وفي سبيل شريعته المقدسة
فلم يستطع أن يغري أهل الدنيا - وجعلهم على ضلالهم القديم
من عبادة الأوثان فشبه على بني اسماعيل في أمير الجحيم الذي
اعترفوا له بالثورة، فسفاق ذلك انسجام كبيرة إلى عذاب الجحيم.
وقد كان فيما سلف من نزوى أبليس وتضليله للعباد مما يلبسه
الذنوب الآلية يوم القيامة من الله سيدنا أشوع المسيح، وقد
ضاعف تلك الذنوب بما أوقف فيه هذه النزل العظيمة.

فاعتبر - ايا الملك الشريف - ولايؤثر شيئا على نجاة نفسك يوم
الحكم والجزاء، فإننا مخلصون في تخدم أمورك، ومسارعون إلى تقديمك بنفوسنا، ومتى قبلت قولنا وعملت برأينا. وتقررت علينا إجابتك الكبير ما ندعوك اليه من قبول كلمة النجاح الذكية التي نعرضها عليك، يا دعوت عنك. فتأمل أيها الحبيب، ما يحدث عليك من عملك به والمسارعة اليه واغتبط بما يدين عليه أخواننا في هذا القطر من الدعاء، وبذل الصدقات الزاكيه عنك، ومائمهم احد راك ولا شاهدك، وانما يتبعه بذلك رغبة في أن يهديك الله إلى مرضاته، والسلام عليك يا أخبار الحبيب، من سيدينا المسيح الذي أنجب الموت، وقهر الشيطان، ورحمة منه وبركة باستثنائه من حبائنا الابليس الذي كنت فيها متروحا اليه الآن، ونسال الله الذي له القدرة والعظمة، الذي من أجله خلق كل شيء، ومن دونه لم يخلق شيا، ان يهديك ويثبت في نفسك ما دعوت اليه، وحضضناك عليه.

وإن لم يظهر لك يا أخبار الحبيب مراجعنا بجوابك على ما تضمنه كتابك لدفاتك الكتب، فأدعو ذلك أخواننا هؤلاء، واطلعهم على سرك وما يتمثل في نفسك، ونحن نتضرع إلى سيدينا ايشوع المسيح أن يتم توالي رعايتك، ويسكفل سلامتك، ويهديك إلى دينه المقدس، ويسعدك بالإيمان الصحيح به امين.
وهو جواب الفقيه القاضي الجليل الفاضل أبي الوليد المباجي – رحمة الله عليه ورضوانه على هذه الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على محمد وعلى اله وسلم

العزة الله والصلاة على رسوله

تصفحت – أيها الراهب – الكتاب الوارد من قبلك ، وماتمتن به من مودتك ، وأظهرته من نصيحتك ، وأبدىته من طويبتك ، فقلت لنا مودتك لما بلغتنا من مكانتك عند أهل ملكك ، وإنصلتنا عن جميل ارادتك ، ونبعتنا – لعمر الله – بصيحتك ، على ما يلزمتنا من ذلك لك ، ولولا ما كنا نعتقد من بعد مستقرك ، وتعظير وصول كتبنا اليك لكننا أخرجنا أن نأتي من ذلك ما يلزم ، ونسلك منه سبيل الأوجب ، ولكننا جنودا بعرض الحق عليك ، وإنصاسه اليك فقد قرر لدينا من وصل من رسلك ، وأهل ملكنا علينا ما تظهره من حرصك على الخير ، ورغبتك في الحق ، مما قوى رجاعنا في قولك له ، وإقبالك عليه ، وإذكاك به ، وإنابتك إليه ، وقد كان ورد علينا قبل هذا – كتابك وما اقترب من من دعوى حالة الحال الذي كان يجب الا يخاطب به من له أقل حس بالاحساس أو يخالط بخاطر من له أدنى فهم من احياء اموات ، وأعظم رفاه ، فأتنا القول وأوليناه الاعراض والصفح ، وجأبناك جواب من يعتقد ما ظهر منك ، وبلغتنا عنك ، من خطرات الغفالة انك أرسلتاه دون تأمل واظهرتها دون تحصيل ولاتحقق ، مع أنه يجوز على ضعفاء المسلمين من ذلك ما يجوز على جماعتهم من تجويز محال وتصحيح ما هو غاية الأبطال ، فقصدين الرفق والثنائيس لك ، وكان ذلك
فاضل ما روجع به من ترجيح عودته، وينظير انثابته وفيتته، فانما يستعمل الإلغاظ لم يتبقح عنده، ويبين اصراره، ولم يرج انقياده، ونحن نرجو ان نرفعك عن هذه المحطة، ونخلصك من هذه الوصمة، بفضل الله وعونه وتأييده ونصره.

ولما تكررت علينا رسانلك ووسائلك تعينت علينا مفاوضتك، بما رضيناها من مسائلك، ومعارضتك فيما اختبرناه من منهجك في النصوص، الذي يجري إليه اهل الفضل، وامراتنا الله به على السنة الرسول، وكفنا عن معارضتك على ما استقبناه من خططك، وسرعتناه من كتبانك، من سبب الرسائل الكرام، والدنياء المعظمن عليهم السلام، وانحرفنا عن ذلك الى ان نحذرك ونتذكرك ونعذرك فيما لم يبلغك علمه، ولم يتحقق لديك حكمه، وتبغا لا في الرفق بك، والتبين لك على منهج الخطاب والرسائل، ولا على طريق البراءيين والدلائل، مساعدة على مذهبك في كتابك، وموافقة لك في مقصودك، فعسأ أن يكون أقرب الى استمالتك، وأبلغ في معارضتك ومعالجتك.

ولنا لنحترمنا بمثلك، ونرفع قدرك عما استفختنه به كتابك من ان عبدي - صلى الله عليه وسلم - ابن لله تعالى، بل هو بشر مخلوق وعبد مشرك لا يبعدد عن دلال الخلق، من الحركة، والسكن، والزوال، والانتقال، والتغير من حال إلى حال، واكل الطعام والموت الذي كتب على جميع الأئم، مما لا يصح على إله قديم، ولا يسكنك عند ذي رأي سليم، ولو جوزنا كونه صلى الله عليه وسلم، مع هذه الصفات، والأحوال الحداث، إلها قديما، لنفسنا ان يكون العالم او شيء مما فيه محدثا مخلوقا لأنه ليس في شيء مما نكرنا من البشر والعالم، وما فيه من الحيوان والجامد من دلالات الحدوث غير ما في عبدي - صلى الله عليه وسلم - وإن الله - تعالى - خلق عبدي - عليه السلام - من غير آب كما خلق ادم - صلى الله عليه وسلم - من تراب، وقد حملت بعبيس ام، ولم تحمل باباد انشى ولا ذكر، فإذا
لم يكن آدم الآية - وهو الأول - بـين مخلوق، فعيسى أولاً لا أن يكون الآية وهو من ذريته آدم وولده، بل هو عبد ملائكة، وإن هذا الواضح لمن جهل معنى الحدوت، ولم يميز الخلاصة من المخلوق.

وأما من نظرة في شيء ماينبر العالم، وأيد بـاعتبار وفهم، فعلامات الحدوت أوضح، ودلائلها أصح من أن يخفى أو تشكل أو يمتزى في أمرها من له من العلم لمني محل وقد ظهر على أدي سائر الرسل - عليه السلام - سائر الآيات الواضحة، والعجزات الباهتة مثلاً ظهر على بدي عيسى - عليه السلام - وأكثر، فلو جاز أن يدعى لعيسى - عليه السلام - بشيء مما ظهر على بديه من إحياء بيت وإبراء إثم وأبرص، بأنه ابن الله - تعالى - لجاز أن يدعى ذلك لأبراهيم لما ظهر على بديه من سلامته من النار بعد أن قذف فيها، ولم ينجح عيسى من عدد يسير من البشر راموا - بزعمهم - صلى عليه وسلم، وإن جاز أن يدعى ذلك لوسو على السلام لما ظهر على بديه من قلب العصا صاحبة وفق البحر، وإن جاز أن يدعى محمد صلى الله عليه وسلم لما ظهر على بديه من انشقاق القمر، وتبني الماء من بين أصابعه، وتمسح الحضى في يده، وحنين الجذع إليه، وغير ذلك من الآيات لكن الآيات لا تقتضي تجويف المخلوق، وإنما مبادأ المكر.

وإذا كان ربنا - تعالى - قدما سبجانه أن يكون محدث أو مخلوق، وكان من وجدته فيه دلائل الحدوت - في الآكل والشرب والزوال والانتقال لا يكون إلا مخلوقا مربويا لم يش إحياء الموتى على بديه أنه إنه معبد وإنما يدل ظهور ذلك على بدي معني النبوة أنه النبي صادق لأن ما فيه من صفات الحدوت لا تحل كونه نبياً.

ولو جاز أن يقال إن عيسى - عليه السلام - هو الخلاصة لما ظهر من ذلك على يده والمفرد بفعله لجاز أن نقول إن آدم وإبراهيم وموسى ومحمد وسائر الأنبياء - عليهم السلام - انفردوا بخلق ما ظهر من ذلك على بديههم، وإن جميعهم من خلقهم وانهم...
لذلك - إلهنا معبودون - فننا خالق إلا الله، ولا معبود سواه، وهؤلاء أنبياء مكرمون، ورسل مؤدبون صدقيهم الله تعالى - سبحانه وتعالى - لا يقدر عليهم غيره، ولا يصح أن يخلق سواه، وأمر الدنيا أحقر وشانها انفر soirée وأنذر من أن يفطر به أبو عقل أو يسكن إلى غروها نو لب، وإنما هي در اختيار واعتبار، وليس بدائر جزاء ولا قرار، فالسعي من عمل فيها وتزود منها إلى در القمام الذي لا ينقطع بل يثاب، حيث ينفرد رينا بالملك، ويسير من طاعة وأفرده بالعبادة وأمن برسله وكتب إلى رضاء في دار النعيم، ويسير من أشرت به وكفر بشيء من كتابه أو أحد من رسله إلى سخطه في دار الحجيم، ونرجو أن الله تعالى - يبنجك بالسلام منها، ويبعدك بالانتقال إلى دين محمد عليه السلام - عنها، وإن الله تعالى - نار قلوب جماعة المسلمين بالسلام، وأعзна به وأكرمها - يبتاع محمد صلى الله عليه وسلم - ورضينا له، وخصينا بالقران الكريم (الذي لا يأتي]!= الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) ({} أفضل الكنب والخانات لها، والحسنات عليها، والصدق لها. تضمن علم الأولين والآخرين، وأثار قلوب المؤمنين بالحق المبين، نحن الله على ما خصنا به، وهدينا له، وماكن لنا نهدي لو لا أهدانا الله({} وليستنا الاجتهاد في النصش لك، والرفق بك، والحرص على أن تكون من جملة هذه الأمة المكرمة، ومن أهل هذه اللالة المنظمة، الناسخة لجميع اللمل، والحاکمة على سائر الفرق، فتفوز برفع العلم، تنجزو من سخطه، وتتنال ثواب يوم الدين، وتخليص من معره، وتسعد في الدنيا بالكون من جملتها، وتحمل بالقرب من نفسنا

وأما ملكت رب العالمين فهو المنفرد به - تعالى - لا ينبغي أن يشرك فيه طائع ولا عاصي، ولا بر ولا فاجر، وإن أردت بذلك أن يكون من طاعة في ملك الله - تعالى - فذلك حال من عصمه، وحال أهل الدنيا، والاخرة، لا يخرج أحد عن ملكه، ولكنها الفاقجه تستعملها في غير مواضعها لأنك لا تعرف مقتضيها، ولعونا أن
الله - يفصله - بيئش لك الهجرة إلينا، والمشول لدينا. فتسمع
الكلام على حقيقته في معاني هذه الألفاظ، وتقميز وجهها
والاستعمالها على ترتيبها، وتسمع الكلام الألهي على الحقيقة، كلام
رب العالمين، تولى حفظه رينا - عز وجل - وعمر السنتنا
وقلوبنا، فلا يمكن أحد تغييره ولا تبديله، ولا صرفه عن وجهه ولا
تحريبه، فلن قرع سمعك منه سورة واحدة، أو أية كاملة، أرجونا
أن يكون ذلك مما ينور قلبك، ويستولي على نفسك، وبعيد بك إلى
الدين الأفضل والسبيل الأمثل (ومن يبتغ في الإسلام دينًا فإن يقبل
منه، وهو في الآخرة من الخاسرين) (3) وقد ورد من تحملك كتبك
فما أورد إلا كلام البشر الذي جرى عادة أهل الضعف بمجرد عند
العجز والفشل، والتبديل والختوء، ومعنا، والاضطراب في الدعاوى والأقوال، وادعيا في أول الأمر من المحل
قريبًا مما أدعى الوارد قبلهما مع تذكيرهما له فما نقل عنك، ثم الت
حالهما إلى مثل ما ألت حاله إليه من تذكرك نفسهما، وذكرك
المعبر عنها فيما نقل عنهما، وترجمه من قولهما.

وعندينا من علم شريككم، واختلاف أخباركم في ملتكم، وما
تورده كل طائفة من شبهكم في الآقان والمواقف ومنازعهم
والناسوت والجوهر وغير ذلك من تنميماتنا، فأنجيلكنا ما يا أبينا
اليهام، يا بسيس من لحيه، يا وبرهما، وعذرا إن قلت من جملهما
وتفصيلهما ما لم ينته إلى أنه أحد من أهل ملتكم، ولا تصل إلى تجربته
وتنبعت معانيه أولاً، ولما وسرك، لكننا كثنا الرفق بهما، والأخفاء
عليهما، والتأنيث لهم، وأنا لمن يقول، وأنا ليدة بهما منهج
خفيفة من الأمر لا تنذر منه نفوهما، ولا تتوجه من سمعه
خواطرهما، لذناد في ذلك باب الله - تعالى - في مثلهما.

وقد رأينا ما في كتابك مما خالفته فيه جميع أهل ملتك فإنه ليس
في فريق النصارى من يقول إن المسيح لا ينفي الآب بإحد
سواء، بل هو الآب بالأب، يا أبنكم وأجبر، والأب لم يتضاد
بالناسوت عنكم، وإنما أتجه به الأبن، فمن لم يؤمن به إبنه.
كفر بالالب، وقد تقدم في كتابك أن المسيح ابن الله، وهدنا نقض لقولك إنه لا ينبغي الإيمان بغير المسيح الذي هو ابن الله.

ولو تبعنا مسنا في كتابك مسنا التنافض، وفساد الوضع، ومساند القبول لما سأسلم منه إلا الدعاء الحقي، لكننا وفقنا الله وإياك - حسنا ذلك متك على ما عهدنا من أهل ملتكي من قلة العلم، والبعد عن مواقف النظرية، وترك المدارة والمحاورة مع تمويهات لا تصح، وتلفيقات لا تنثبت ولا تنصر، وأرجو أن يوفقك الله إرشادنا لك إلى ترك التمويه، والتعلق بالمغالطة والكتب، ويضغط علم الحقائق، وصحيح المفهوم، وأدب المناظرة التي تفضي بك إلى سبيل الانتهاك، والحقائق الواضحة، وقد جرى من كلام الباردين من أصحاب الذين اختبرت وما للذين من هذا النحو ما أتبعنه باتحور والتبديل والانكار له بعد الاقتراب به، ولودينا أن تصبح إلينا فبلغ الفرض من تعليمك، ونتمكن من فهمك، وتبني لك من تحقيق الكلام وتحريره وتقصيته وتوجيهه وتمييز الأثناء ومقتضاها، وإحكام البراءين ومنتهاها، مايزيل كل سخيفة من نفسه، ويظهر من دنسها قلبك، فتعين الحق جلبا واضحا، والدين قوي لأنحا على أن ملك الله تعالى أعظم من أن يهتم به فهم إنسان أو تستوعب صفاته بكلام أو بيان، فمن عظمته - تعالى - وقدره وزعزه، انفراده عن الأشراك والانداد، واستغناؤه عن الصحاحبة والأولاد. ( ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا ذهب كل إله بما خلق ) (112) تقدر بالخلق والانشاع، وكشطاضة، وجيبي، وع لي، وهو كلما، وإتشم مشيئته، وبينها شرائها، ووضوحها من تأملها إلى الحق، وتنكت من خالفها إلى الشرك، ولولا الكلام ما عرف الجائر من المجال، ولا تبين الهدى من الضلال.

وما نحلة ولا ملة إلا وههي تزعم أن نفوذها نيرة بـ
تعلم، منشورة بما تعتقده، وكذلك تقول البراءة الذين يكتبون الرسول، والدهرية الذين يدعون الأزل، والفلسفة الفائتربن بقدم العالم، والثنوية المثبتة لخلق النار والظلام، فما أحد من هذه الفرق إلا وهو يدعي أن نفسه أسكن إلى ما تعتقد، وأوْقَ بِهَا تُنْتَجَ، وأوْقَ دَا نّاء بتَعَمِّمْه مَنْ نَفْعَس مِثْبِتٌ الرسول، ومتبعي الكتب لكن وضع الكلام ونشره، وتمييزه ووصفه يعله الحق وثبِتْه، ويدعو البساط والمحقق، وإن الله تعالى - جعل الدين دار تكليف وفتنة، ليبلونا أين أحسن عملا، وجعل الآخرة دار شُوارب وعُقَّاب لِيُثِيبَنْ المؤمنين الحسنين، وتبني الكافرين المشركين، وجعل من أسباب الفتنة إبليس اللغين، وبعث الناسين بهدوء إلى صرائر مستقيمة (الله يَكُون لِلنَاس عَلَى الْحَجَّة بَعْد الرسل) (22) فهدى بالنبيين من شاء بفضله، وخلذ بابليس اللغين من شاء بعله.

فأول الرسول إلى أهل الأرض هو أدم - عليه السلام - دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولا ولد، وكمال نسبت شريعة، وتقادم عهدها، بعث الله رسوله إلى أهل الأرض بجدها ويؤكدها، وإلى أن يبعث الله تعالى - يُبِينَ نِسَبَه عَبْسٍ - عليه السلام - فدعا قومه إلى عبادة ربٍ ومسالمة وخلافه، فأمامه بيبريس، والعدد القليل الذي لم يطقوه منعه من أراده من أعداد الكافرين المكثفين مازال به من قبله، حتى رفعه الله إليه، واختار له ما لديه، وما قتلوه وما صلى له، ولكن شبه ليهم) (22). وقد بنى دم بزمزم - حرصا على استقامة الناس من الضلال، فما أمن به إلا العبد البيبريس، وقد أمَن سعيه من الأندية، ومن لم يبلغ هذا المبلغ أيء من آمن بعينه، فما إن تعوق محمد عليه السلام - حتى أمن به العبد العظيم الذي استحوذ به البلاد، وتغلب على الأفق، وأظهره الله على الينابيع) (ولو كره المشركين) (22) ثم استفتقه بعده بثر وفاته أصحابه بإفراس، على بعدها عن مكانه، وتمكن سلطانها، وعظم شأنها وقدرها، واستفتقوا بلاد الشام وهي كانت أفضل بلادكم ومكان
شريعتكم، وإليها ينتهي حكم وعبادكم فما صار لئن تزعمون أنه
إلهكم مع بغل دمح إلا أقل ما صار لآرباب الأروى من الشيدين مع
إعاذ الله لهم، وحمايته إياهم، ولو كان عيسى إلها قادراً ما
احتاج إلى ذلك، ولختلهم مؤمنين، وله شاء الله أن لا يعصي ما
خلقه الفلك ولا إبليس العين، ولكن الله تعالى - خلق للجنة
أهلا للجنة بتوفيق الله تعالى - يعملون، وخلق للنار أهلا للنار
بخلان الله يعملون، ولو علم الغيب علسي - على السلام - ما بغل
دمها فيما لا يتم له، ولا حصل له منه شيء، فاعتق - أيها
الرآهبة - فضف ما نست عليه، وفضل ما ندعوك إليه، فمعنى أن
يوقفك الله ويهديك، فتصير بعلم الله بكونك من جملتنا، وفينتما
إلى ملتنا، فقد بلغنا من إرادتك للخير ورغبتك فيه وحرصك عليه ما
حرصنا به على إرشادك ودعايتك ورجونا سرعة أنقيادك وإنباتك
( وما توفقي إلا بالله عليه توفكت ) (50).

ومن أغرب ما تأتي به قولكم إنه بعلم دمهم في خصال
العباد، وكيف يكون للبدين، والذين من الأجناس المحتملة
المخلقة، ولو حرصتم الكلام لزعمتم أنه ند الناسوس دون
اللاديم، وللذمكم أن تقولوا إن المصلوب هو الناسوس دون ابن
الله تعالى - لكنكم حقتم أن إلهكم صلب ومات، وهذه صفة لا
تصبح إلا على محدث مخلوق، لأن الحياة الدنيا لا يصح عنهم.
ولكن جاز هذا عليه ليجوزن عليه أبية - بزعمكم - لأنه على صفة
ابن بل هو عندجة منكم، كيف يكون إلها قديما حيا قادراً لا
يقتل من يجوز علية الموت، وعندما حيائه؟ وكيف لم يذهب عن نفسه
الموت، ولم يقدر على دفعه عنها، واهبه - بزعمكم - عليه ما نكره
في كتابك؟ وإن جاز أن يموت ويكون مع ذلك إلها فلا نمنع على هذا
أن يكون من رأيناه أو سمعنا خبره - قديما - لم يزالوا الله، وإن
كان له أم أو ماتوا ودعتهم وعمرت؟ وهل يصح أن يبلغ منه
هذا 될 من الجهل الواضح، وتوجيه قلب الحقائق، ودعوي
الحال إلا من سقطت مقاهيه واستحمكت جهالته وعميت بشيرته؟
فكيف يكون من هذه حاله يدعو إلى ما هو عليه، وينتب إليه؟ وهل
يمكن أن يكون في المقالات المستحيلة أو المحال المقنولة أشدهم فسادا من هذه التفوقات التي تخلج من بوردها، ولا يكاد يصبح تكليف منهجها ويعتقدها؟ وإن على لا أعتقد أن مثل هذا لا يخفى عليك مع قلة المعرفة، والبعد عن النظر في الآلة لأن هذا ليس مما يدرك بدقق النظر ولا يحتاج فيه إلى تأمل بل هو ممتناع واقع الفقوع أو يدرك ببابه من له أدنى تحصيل، وأظن أن الحامل لك على هذا أحد أمرين: إما أنك لم ترين الشرايع غير ما قد بشئت عليه، فاعتقدت أن سائر الشرايع تجري هذا المجرى في الاستحالة والفساد، فرأيت أن تعمّر على مواجهت عليه سلفك، إذ لم يظهر لك سبيل إلى ماهو أفضل منه، أو رأيت أنك قد تأتي بهذا الحال عند جهال أهل ملك منزلة تكره أن تنحد عنها، وتبعد منها إذا انتقلت إلى الدين الصحيح لعلكم أنك لا تنال درجة أيونهم من منزلة من العلم، فكيف بدرجة أعلامهم وأشمنهم ذنوي التقدم منهم؟

ومن طريق ما تأتون به وتضحكون سامعه منكم قولكم:

"إن عيسى ابن الله - تعالى عن ذلك - وقولون إنه من ولد داود - عليه السلام -وهذا ثابت في إنجيلكم، ومتلو من كتبكم، وتزعمون أن جبريل إذ بشر مريم به قال لها: إنه يكون عند الله عليه، ويكون اسمه يسوع، ويصلى على الله، ويوثره الله على ابن داود، ولا تحملون ذلك على أن داود أبوه من قبل مريم لأنهم لم تكن من ذرية داود، وإنما تحملون عليه أن أبوه من قبل يوسف النجار الذي تزعمون أنه كان زوجاً لرتم، فإذا كان عيسى من ولد داود، وداود عبد مخلوق وجد بعد أن لم يكن، ومات بعد أن حيا، كيف يكون عيسى الابن خالق أبيه وله الخلق؟ وكيف يكون ابن داود المخلوق وأيما لله الخالق؟! وهل هذا إلا جهل بعرفة الابن من الأب، والقدير من الحديث والخلوق من المخلوق؟ ومن بلغ هذا الحد من الهجل لم يصح له اعتقاد شرع، كيف يدعو إليه ويستع عليه؟ ولكن قلة التأمل مع حب الظهره يوجب التنفيس، ويُورث التبلد والتحير، نسأل الله العصمة.

- 813 -

- 317 -
وقد اختالفت فرقكم في الاتحاد الذي سيمتهو التحاما اختلفا لعليه لم تبلغ، ولن كنت لدينا لأرباك في هذا من كلام متقدمى أهل ملكك ثم من تقريع المسلمين على ذلك، وتتبع الحجج لهم وعلىهم بما لم يبلغه أحد منهم قط، ولا مسعناك من غرانيه وجانيه وتلفيقاته وتناقضه وفضائمه واضطراب رواة الأنجيل ما يمّـلا سمك، ويحيش له لب، لكن الكتاب لا يحتلم التطور لا سيما لن لم يرد التأليف وإنما أراد التقريب وخاف تحير من ورد عليه الأكثار بالشرح والتفسير، وما أحد من أهل الليل، واتباع الرسل ممن تقدم عيسى عليه السلام - لا ممن تأخر عنه يقر بأنه وجد الاتحاد الذي تدوعنه في كتب ولا تنزيل، ولا أخبر به نبي ولا رسول. وقد انزل ربي في كتبه الكريم أن عيسى بشر بن بنيا محمد صلى الله عليه وسلم - فإما أن يكون علم هذا عندهم، وإلا فقد كتبه أحبكم ومحوه من أناجيلكم، فقد فرآناها معرية وعلمنا من اختلافها واضطرابها مادنا على أنه قد بحلها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان.

ومن ذلك ما في الأنجيل من رواية متي أنه بين إبراهيم ويوسف الذي تزعمون أنه زوج مريم أنتنان وأربعون ولادة. وفي رواية لوقيا بين إبراهيم والمسيح خمسة وخمسون رجلا ليس فيهم من اسماء الذكر في رواية متي إلا عد يسيرة. ولانا هذه الروايات تنافق في شيء، والإيمان بهما عندهما وايجاب على اختلافهما لأن الأنجيل كتابهم واصيل شرعهم. فكيف يصح كلام الآياتان بمعناي مختلف ولا يتفق، ونبتان ولا يتعارضان. وكتابنا المفهومن يحفظه الصغير والكبر لا يمكنا أحد الزيادة فيه ولا النقصان. والذي قرآنا ممن في أبعد المشرق هو الذي يقرأ به ممن في أبعد المغرب دون زيادة حرف ولا فظة ولا اختلاف في حركة وانقطة.

وأني لعجب أبيها الراهب على مباين القبل عن منه جبل، وقد تم تخفيه عند أهم ملكك، مما يبدو من فجره فغلفته وعدم معرفتك فيما تضمته كتابك من أن إبلس اللعين يقدر أن يضلل من
шеاء انه ان يهديه الى الدين القيم مع قولنا وقولك في كتابك ( إن الله
على كل شيء قدير) (٢٦) 

فأي قدرة له إذا كان قد بنى دمه في نفس شريعة إبراهيم وغيره
من خلقه ، فلم يقدر على إصلاح ما أفسده ، ولا استراحه بما
أجده موجه ، ولا كلامه ، وإبراهيم اللعين لم يبلغ فيما تائه من ذلك
صرف دمه ، ولا تغير حاله ، ولا استراحه ، ولا كلامه ، ولا استراحه
ما كان عليه ؟ إن هذا لما كان يجب أن لا يجوز على أضعف الناس
علما ، وأقلهم فهما . ولكن ليس هذا بأقرب من قولك إن إبراهيم
عمر وssf خيرًا للآلهة يزعمك ، ورقي به على جبل وأراه زهرة الدنيا.
وقال له إن عبدتي ملكتك جميع هذا ، فلم يسم بذل المسيح من
كيد إبراهيم اللعين عاد من شره واستجار من فتنته بضياع أربعين
يوما ، وأربعين ليلة ، فأمسك إبراهيم عنه فهل لم حور هذا على ربه
وأخبر به عنه مسكة أو بقيت بئته وبين التمساك بالحقائق والديانة
لكلها مثلى شئاء ، وأمالك الأرض والسماوات وما بينهما دون شريك
ولائمية ، وكيف يختلف من هذه صنفته بعض خلقه بذلك يفن به ؟ أو
كيف تحمل إبراهيم الأرض أو تظله السماء وهو يخاطب ربه ويدعوه
الي عبادته ؟ وبعد أن ينضب على ذلك ويملك رزية الحياة الدنيا وهي
ملكه ومن خلقه ، وربه يخاف فتنته ويستجري منه بالصمى ؟

وكيف يقول إنه يعاقبه في الآخرة بالذباح الأليم ونار الحجيم وهو
لا يستطيع أن يخاصم نفسه منه ومن فتنته في الدنيا ، وهل قدرته في
الآخرة إلا كقدرته في الدنيا ؟

وكيف تزعم إنه سليم من حيائه إبراهيم وخدوه وهو يخاف على
نفسه ويحتاج الى من يسلمه منه وهكذا النمسان والخسائر
لإبراهيم ، كيف شاء ، والمكح له إذا شاء ، تعالى الله إماما يقول
الطانون علاكبها كبيرا

وإن الله تعالى يسلطه وحكمته ، وعطفه ونعمته ، بعد
م ١١ - ٢٥٩
محمدًا ﷺ صلى الله عليه وسلم ﷺ فتحم به الرسالة وأكمل به النبوة وجعله آخر المسلمين، وبعثه إلى جميع العمال، ففضله بهذه الدرجات الرفيعة، وأبقى شريعته إلى يوم الدين، وأكرمه بهدف النية الطيبة. بعثه على حين فتره من الرسالة، ودفوس من السبل، وجلب بالشراع، وبعد عن معرفة الأديان والمذاهب وقد دخل جميعا التبديل والتغيير، وقد خلفت اليهود وسائر الملائ يسای بن مريم عليه السلام وردت مما جاء به، وأذكرت مـا دعا اليه، واختلفت النصارى بعده على فرق، كلها قد ضللت عن السبيل المستقيم والمنهج القوي، وظهرت من الجهـالات مما تحيله العقول، وعبدت المجوس نيرانها، وأدعوا للصلاحية والأولاد، وجعلوه للآشراك والإنداد فابتغته الله من خير الأمور وهم بنو اسماعيل عليه السلام ثم من خير بنو اسماعيل وهم قريش قطب العرب وأصبحوا السنا واختصها عنصرًا وأرجلها في معاني الدنيا عقولًا، وانتخبها أفهامًا، وانتهاء دهاء، وأعطها غناً، وأكرموا أخلاقًا، وأوجوها أكفاً واطبها أوراقًا، فقد مفردا فيهم يدعوه إلى عبادة الرحمن، وخلع الأثاث وخلع الأثاث، في ذلك القريب والبعيد، والصوفي والصوفي، فأتاهم بالآيات المعجزات التي لا يصح فيها تمويه ولا تسليس، ولا تحبب ولا تحبب، من إشراق القمر بحضرة جميع من الأمين فقد، فمن غاب عنه ومن حضر، ونبع الماء من بين أصابعه في قدح صغير حتى توضأ منه العدد الكثير، وتسبيح الحصى في يده، وحدين الجذع الهب، وإطعام العدد الكثير من الطعام البسيط، وري الجذع العظيم من الماء القليل الذي لا يكفي النفر البسيط، وإبراء العيون بإمرار الدقيق عليها وغير ذلك من المعجزات التي ليستنا أن نتتبعها لعظم ذلك الكتاب وخرجنا عما قدمنا من الاختصار، وقد تتبع ذلك في مقامات جمعة بمعاينة جميع الأمهات، والأخبار بالغيوب على وجه تبليين التكهن والاتيان بقصص الماضين، وذكر الأنباء المتقدمة على حقيقة ما كانوا عليه ﷺ مما لا يبغيه من إفني عمره في تعلم ذلك ومدارسة أهل العلم به ﷺ من غير أن يعلم بمدارسة كتاب ولا مذاكرة أصحح وقد
وأين من آمن مع محمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به فلا بدله من الجنة. وأي من كفر به أو بقي مما جاء به فإنه مخلد في النار. وشرع لنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج وجهاد مـن كـفـر. وصلة الأرحام، ورغب في التوامض والعصيل، والإحسان، والبـنـن، والتсаـاوي في الحق، وإداء الأمانة، والصدقة، والتناصف والتغطية والتعاون على القدر والتقوى، والأخذ بمحاذ الأهل في السر والجهر، وتزهد في الدنيا والتغلب فيها، والتحايل عنها، والانتقاد لها، وحضنـالـى تعلم العلم وأوجـيـه علينا، ونذنبنا الله، والارتحال في طلب، والتحقي لدقيقة، ودفع الشبه المعترضة عليها، والمـعـراضة لها. واعلمنا أن ذلك من أرتفع أوراق شريعتنا، وأفضل ما يصرف إليه همته اولى الفضل منها. نهانا عن المنكر والفحشاء وأتباع الضلال والإهواء، والكفر والخليع، والظلم والمغول، والكذب والبطتان وأخذ من ذلك كله في خاصته بأبلغ غاية من إتباع نفسه في العبادة، وتكلف منها مال يستطع عليها غيره من معاصره واتى بعده، ووقايتها لأصوله بنفسه في الجحور وأوقات الشدائد. واجتناب كل ما هو عن مـن الأمر وقبيل الأحوال، وممدوح الخلاص من حيث لو كان من أمة توارثوا الشرائع من أول الأزمان ثم لم ينتقموا عنها ولا تبدوا بها. بل دونها فيها الدواوين وصنفوا فيها التصنيف والتواليف، وكثير فيها علماؤهم وأمـهـم. وكثير من وراثه لذك عنهم من قسط عمره بقراءة ذلك ودرس كتبها، وملازم عالمائها لقصر عما ظهر منه من صحيح الأحكام، ورفيع الأحوال، والإصلاح في الأحوال، والتصريف والزي والأكل والشرب، والجولس والمشي، والأختلاف والإعطاء، وجميع الحركات والسكنات واللحظات وذك كله مما يشهد عنه من فهم معانيه وتأمل في ذلك مقاسد وعرف وجه الصواب فيها، وأنه من عند الله الذي يوفـى أبنائه، ويرشـد رسـلـه وأولياءه، ويشرع لهم الشرائع التي تشهد بصدقهم صحتها وتبين الحكمة في تفاصيلها وجعلها.
وكان صلى الله عليه وسلم من ذلك - متقلا مـن الدنيا، مؤثرًا غربه بهـا حين تعذرها ووقت الشـح بيسيرها، مطرحا لها، معرضًا عنها حين إقبالها مع عظيم ما فتح عليه منها وبسيط له فيها. بيتها في أهل ملته المستحق لها من غيرهم لم يمنعهم انحرافهم عنه، وتذكيرهم له من ابتئالهم العدل، وانصافهم بالقول والفعل. وكان خظه وحظ أهل وأقاربه من الدنيا وما فتح عليه منها أقل حظ لم يشع هو واختلاقه من طعام ثلاثة أيام متوايلة ولا بسولا ولا بسهم إلا اخشي الثياب، ولاسكن ولاسكنهم إلا دون المسakan، ولايدع محال ولا يقول انه يعلم من الغيب إلا ما علمه الله تعالى، فالسير عن غيره صرف علمه الى الله تعالى، ولايدعه انه يغفر ذنب أحد من أمته، فالسير الدعاء دعا للسائل بالمغفرة، وأعلمنا أنه لايفقر الذنوب إلا الله، ولاينأخذ بها سواء، يجلس العبد، ويزور الضعيف، ويرحم الصغير، ويوفر الكبير.

لو جاز عليه مع ذلك الكني لجائز على موسى وعيسى وسائر الأنبياء، فإنا لنعلم صدقهم، ولديتنا ما جاؤوا به من الحق مما جاءنا به الكانيون والمتيشلون من الباطل والكتب إلا بما ظهر على إديثهم من الآيات البيتان، وماأتى به محمد صلى الله عليه وسلم – أبين وأوضع واتم وأبلغ، ولو جاز لكم أن تقولوا إن ماتى به محمد من جملة التخيل لجائز للدبرية واللبسة والبراهمة والفنونه الذين يكتبون الرسل أن يقولوا: إن جميع ما جاء به موسى وعيسى والرسول الذين كتبهم الرسل أن يقولوا: يعلمون في من ذلك الباب وهو قولهم، وما كتبتم آياتهم ومعجزاتهم، ووجه عليهم تصديقهم لزمكم، وجميع الأمم تصدوق محمد عليه السلام - فما جاء به أبين وآمر وعاست ووترحيم.
فتسعد بشفاعتنا، وتشرب من حوضه، وتسلك الجنة معه، ونحن نسأل الله - تعالى - أن لا يعذبنا عن الطريقة المثلى، ولا يصرفنا عن سبيل الهدى، وأن يستنقذنا من مكان إبليس الذي انت فيهما متردد، ومحببها متعلق، وبخضعها محجر، من تمايذ عليها نال الشقوق، وطول الحسرة في عرفة القيامة، ويوم النذامة، يوم لا يذرع نصبه، ولا يقبل عذر (ويوم بعض الظلم على بنيه) (28) ويقول الكافر بالبيت كتب تراها (30) ولاستنصر يومئذ الأمة (31) النار، فمن أمن وعمل صالحًا فالجنة مأهوم، ومن جعل الله صاحبة أو ولدا فدرك النار مثواه، أعاناه الله منها، وأمامتنا على الإسلام المبعد عنها.

فلا يفرك - أيها الراهن - حظوظك عند أهل ملك، ومكانتك في مكانك، واستجلاف نفوسهم، واستعمال قلوبهم بالفاظ تزخرفها، لا تعلم معانيها، ولا تعرف حقيقة المراد بها، ولا مقتضى القول فيها من قولك: "الجواب الروحاني، والكلام الألهي، وما أشبه ذلك من الفاظ كثيرة وسمعتها فنقلتها إلى غير موضعها، واستعملتها على غير وجهها، فإناك لو سلتك عن مقتضى ذلك لأسلمنك عدم معرفتك إلى العلي والعصر والعجز عن التقدم والتأخر، فإن استعملك لها على غير وجهها دليل على جهلك بها.

فإن قيلت نصحني، وسمعت موضعتي، أخرجناك بعون الله من ظلمة الجهل إلى ذور العلم ومن حيرة الشك إلى تيقن الحق، وأرينك من طريق الاستدلال، وتعتبر البراهين ما يشرح صدرك، وينور قلبك وتعلم به الحقائق، ومعاني هذه الألفاظ التي انت بها موجب ومخطئ في إرادتها على غير وجهها، وتبتين أنها من أصل أبواب الكلام، وأضعف ما يتسلك به نحو الأحلام، وإن أبت إلا الاستكبار والعفو، والإصرار والغلو، والاحتداد والطغيان، والعناد وال SplashScreen، فانك لن تعجز ربك، ولن تجاهد من ذنبك، ولن تبكيك وضلل بك، والكلام بغير علم في الدين كنب وله إفك على رب العالمين (ومن أظلم ممن افترى على الله كنبا أولئك يعرضون على
ربهم ويقول الآشهاد هؤلاء الذين كتبوا على ربيهم الألعنة الله على الظالمين (٢٠)

فلا تؤثر على خلاصة نفسك، وخلاصة من تبعك شينا من عرض النبئا وزخرفها، فإنه لا ينبغيك جهل من اغتر بك فيها يوم الورود على ربك.

وقد اودعنا صاحبكم البارزين علينا سرا وجهرا، وبلاء ووجودًا مما أعزنا الله به من الإسلام، وخصنا به من بين الأنام، واكرمنا به من اتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا نتخذ بيضاء بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون) (٣٢) فقولوا تعالوا ندعم ابناءنا وإناءكم ونساءكم وإذ و بواسطةكم ثم نبتل فنجعل لينة الله على الكاذبين. (٣٢) والله نسأل أن يهديك ويهدي بك من قبلك فـدفون بأجورهم وكون سببا إلى استنفاذهم، فانت فيما بلغنا مطاع فيهم (والأسلام على من اتبع الهدى) (٣٣).

كـمل جواب الفقه الآله الفاضل الأعمي الوليد الباجي - رحمه الله وغفر له ونصر وجهه - بمنه وكرمه وجهوده، إنه ذو رحمة واسعة ورب غفور.
رسالتا المعز لدين الله الفاطمي إلى الامبراطور البيزنطي بشأن كريته وائل كافور الاخشيدي حول الشأن نفسه (43)

فصب من كتاب كتب به المعز (صلو) إلى طاغية الروم في أمر اهل أقرطيش

قال: وكان طاغية الروم قد رغب إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) في الموافقة، وتبيل له على ذلك أموالا. وكانت رغبته إليه في الموافقة مدة طويلة أو أبدية إن وجد ذلك، فرأى الإمام لما أتباعه له أن ذلك خير للإسلام والمسلمين ولم يستمتعوا فيقووا على حسب المشركين، إن أجابهم إلى موجعة خمس سنين.

ثم اتصل به بعد ذلك، وقبل أن تنقضي مدة الموافقة، أنه أرسل المستنقع الذي هو أقرب رجاله درجة إليه واعضهم به في عدة من السفن كثيرة وجيوش ثقيلة حتى ناخ بها على جزيرة أقرطيش، وهما في دعوة بني العباس. فلما حل بهم من ذلك ما لا قوام له به، وعلموا أنه ليس عند بني العباس نهوضة ولا لهم لديهم نصرة، أرسلوا تركيا في رجال من قبلهم مع وجه من وجوههم إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله، يستغاثون به ويسألونه استنقاطهم وغانتهم. فلم يرمضت الله عليه، وإن كانوا تذكروا عنه - إن يجيب رجاءهم عنه، ولا أن يسلمهم للمشركين. فأمر عندما اتصل به خبرهم وقبل أن يصل إليه رسولهم، بالأذنك في الاهبة والعدوة ليكون نفوذ الأساطيل اليهم في أول زمن الامكان. ثم قدم الرسول عليه وادى عنهم مارسلوه به إليه.

فرأى أن ينذل إلى المشرك عهد كما أمر الله (تع) بذلك في كتابه، إن هو أصر على حربهم، وأمر بكتاب في ذلك إليه، واصلا صلوا الكتاب بحببة من بين بديه بكلام ما سمعت أجزا ولا ابلغ منه.
قال فقال بعد أن خبره بين أن يلعغ عن حرب أهل أقرطيس وبين أن ينفذ إليه عهده كاملاً، تألف رسل الله (ص) إلى مشركي العرب عهدهم وأرسل عليهما براءة فقراؤهما في الموسم عليهم ولقوله أصدق القائلين: وأما تخفيف من قوم خيانة فأنذرهم يهود (35).

ثم قال له في كتابه ( عم): ولانزوي أن دعوة أهل أقرطيس قبل اليوم إلى غير إنا وقد اتبنا اليوم البيادا واستغسالا بنا، مما يوجب ك عنادنا تمام الموادية يتركون البدنات وترك اعتراضك فيهم، إن امتناع أهل الباطل من أجل الحق ليس بمزيل حقهم وإن تغلبوا عليه دونهم بل هو لهم بتصبير الله ( تعالى) ياياه اليهود. فأقرطيس وغيرها من جميع الأرض لنا، بما خولنا الله منها وأقامنا له فيها أطعانا منها من عصى، وليس بطاعتهم يجب لنا أن نتمك ولابعستناهم يحذ علينا إن ترك وله كان ذلك لكان الأمر اليهود لا لله ( تعالى) الذي خولنا ولا لنا، إن شاؤوا اعطونا وإن أحموا منا، كلاماً إن ذلك لله الذي لا في السموات وما في الأرض وهو الذي ا.ENET إناكنا وملكنا وإعتمانا، وله كان ذلك للخلق لما وسعتنا قتال من امتنع منهم ولا ردما، مستعدون بالغضب من أبدينا إذا أقرتنا الله على ذلك وقوان.

فإن قلت انت غير ذلك. وانت ترى ما في يديك. ففقد كان رومانس تعجل عليك وعلى أبيك من قبلك، ثم ذار لكما عليه الدائرة. فإن رأيت أن من احتجز شابنا وتعجل عليه فهو له صاحب الحق الذي ملته، فلم يكن لك ولا لابك قيام على رومانس ولا انزاعه صاصار الله من بين يديه. فهذه سبيل أهل الحق عندنا، فإن اعترفت لها فقد انصفت وإن جهلتها فلم يكن جهاد أبها حجة على من عرفها. وعهدنا إن تحابست على حرب من أناب الله فيه نذول الأبد. فانظر لنفسك ولأهل ملكنا إذا مناجزوك وأياهم الحروب بعون الله لنا وتابده، ولا حول ولا قوة إلا به.

وفي مثل ذلك إلى صاحب مصر وقال: واستمع أهل أقرطيس هؤلاء صاحب مصر وهم من أهل دعوته.
تجمعهم دعوة آل عباس، ومراكمهم بخيرات بلدهم وأطمتهما تمير
أهل مصر، وهداياهم تصل إلى عمالها، فتعجز عن نصرتهم. وسال
من ينظر لأمير المؤمنين فيما قبله في أن يكتب الله (صلى الله عليه وسلم)
اغاثتهم واستنقاذهم، وأرسل قوما كانوا منهم قبله ليسألوا أمير
المؤمنين (صلى الله عليه وسلم) ويرغبوه في ذلك. ثم أظهر أنه ينصرهم ورسى
بعض مراكب في البحر لما اتصل به انكار العامة عليه للخلاف عن
نصرتهم.

فكتب أمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) إلى من يقاتلهم بمصر
جوابا عن كتابه إليه بذلك يخبره أنه قد أمر بإخراج الأساطيل واخذ
في عدتها.

وكان فيما كتب به إليه: إن الله سبحانه وتعالى قد خولنا من فضل الله وأمننا من معونته وتائيه فيما نرى أن نحوله وقوته
ونصرناه وأظهارنا على عدونا نكف أيدي الكفرة عما تطاولت عليه
من حرب هذا المصف والابقاء بأهله. وقد انتهى الينا أن أظهرت
الحركة إلى الجهاد وأعداد هؤلاء القوم بمراكب من قبله، وانت
لعمري ذلك أجرد لقربهم منك واتصالهم بك ومرهم بناك وكونهم
واياك في دعوة واحدة. ولو أسلمناهم فيك وقعدنا عنهم لما كان لك
ولا لهم علينا حجة في ذلك، ولكننا أثرنا نصرة أمة جدنا محمد (ص)
ولا رزق لنا بما يملك من نفعه، وانتم من تعلم من تبعت به وعلى مراكب منا، وذلك
على الله وعهد الله وبيتها إن لا تكون معهم إلا سبيل خير، وإن نحلهم
محل رجالنا، ونجعل أيديهم مع نحن وشركهم فيما افاء الله علينا
ونقيمهم في ذلك وغيرهم مكان رجالنا، ونرى مراكب مقام أساطيلنا حتى
يفتح لنا إن شاء الله ثم ننصرها على ذلك أو يكون من أمر
الله وقضاءه ما هو فاعله. فاعلم ذلك وثقيبه منا، ففي تظافر
المسلمين على عدوهم واجتماع كلمتهم اعتزاز لدين الله وكيت لأغداده.
فقد سهلنا لك سبيل، والله على مانقول وكيل.
فإن وثقتك بذلك ورأيت إيثار الجهاد فأعمال على أن تنفذ مراكبنا
مرسى طينة من أرض برقة، لقرب هذا المرسى من جزيرة أقرطيش،
ويكون الاجتماع مع أسطولينا بهذَا المرس مستهل ربيع الآخر
بتوفيق الله وقوته وتأييده ونصره وعونه.

والآ ترى ذلك فقد أبلغنا في المعذرة اليك والنصحية لك، وخرجنا مما
عليك اليك، ونحن بحول الله وتأييده ونصره وعونه مستغفرون عنك
 وعن غيرك، وعلى عزم وبصرة في أنذاك أسطولينا ورجالنا وعدتنا
 وماكونا الله إيها وأقرنا عليه مما نرى بحوله وقوته أنا يبلغ به
 مانؤم اليك بذلك ونصدمه نحوه. فبِلله نستعين، وعليه نستوكل،
 وعلى تأييده نtwor، وهو حسبنا ونعم الوكيل.
رسالة من الخليفة الحافظ الفاطمي إلى روجر المتغلب
على صقلية

( من صبح الأعشى للقلشندجي ج 6 ص 458 – 463 )

من عبد الله ووليه عبد المجيد ابن الميمن الامام الحافظ
أمير المؤمنين إلى الملك بجزيرة صقلية وانكورية وأنطالية وقلورية
وستولو وملف وما انضاف إلى ذلك ، وفقه الله في مقاصده ،
وأرشده الى العمل بطاعته في مصادره وموارده .

سلام على من اتبع الهدى ، وأمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي
لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلح على جده محمد خاتم النبئين وسيد
الرسلين ، صلى الله عليه وعلى الله الطاهرين ، الأنبياء المهديين ،
وسلم تسليما .

اما بعد عرض بحضرة أمير المؤمنين الكتب الواسط من جهلك
ففاض ختامه واجتلي ، وقرىء مضمونه ونثيل ، ووقعت الاصحابة
إلى قصوه ،وحصلت الاحاطة بجماله وتفاصيله ، والإجابة تأتي
على أجمهه ، ولا تخل بشيء من مستودمه .

اما ما افتتحته به من حمد الله تعالى على نعمه ، وتوسيع الفول
فما أولاه من إحسانه وكرمه ، فإن مواقبة الله تعالى وحننه الذي
جعل تواجها اختبار شكر العبد وامتحانه على انه بخانة الأعين وما
تخفي الصدور عليه ، وهو القائل فيمن اثني عليهم ؛ ( أولئك الذين
امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجـجر عظيم (31) لايزال
مضاعفها ومزاداتها من فتية سالفة ذكرها و هو يويل بها كلا من عبيد
بقدر منزلته عنه ، ويخص أصفيه بأي مما ينعم الأهل المبالغ
ووده، والله تبارك وتعالى يمنع أمير المؤمنين وأباه الأئمة الراشدين ما استخدمت المستعمرات الحمد والشكر عند لوازم مستمرة، إذ كانوا أفرديهم دون الخلية أعطاهما الدنيا ثم أعطاهما الأخرى. واختصهم من حبيبه بما لا يحصيه عدد، وخولهم من آله بما لا يقوم بشكره أحد.

وأما ما ذكرته، من افتتاح الجزيرة المعروفة بحرية لما شرحته من عوانها أهلها وعدولهم عن طرق الخيرات وسبله، واجتراهم في الطفيخان على أسباب لايجوز التخفيف عن مثليها واستعمالهم الظلم تمردا، وتماديهم في الغي تباهيا في الباطل، وغلوا باسا من الجزاء لما استطبعوه، فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية، وخلق أن يأخذن الله من منتهه اخذه رابية، كما أنه من كن من أهل السلام وسالك سبيل الاستقامة، ومقبول على صلاح شأبه، وغير متعد للواجب في سره وأعلاقه، تعين أن توفر من الرعاية سهمه، وتجوز من العناية نصيبه وقسمه ويؤمن ما يلقته ويزعجه، ويقصد بما يسره وبيجه، ويصان عن أن يناله مكروه، ويحمى من آذي يلم به ويعفوه.

وأما شكرك لوزيرك الأمير تابيذ الدولة وغضبها عن الملك وفخره نظام الرعية أمير الأمراء، فإن من تهذب بتيزبيك وتخلق بأخلاك وتاأد بتيزبيك لا ينكر منه إصابة الرأسي، ولا يستغل عنده نجح المسامي، وواجب عليه أن يجعل قببه إلا مشوؤ للنصائح، وإن لا يزال عمره بين غد في الخالصة.

وأما المركب العروس ووصول كتاب وكيلها ذاكرا ما اعترفه مقدم أسطوكل من صوته وحمايته، وحفظه ورعايته، وإعادة ما كان أخذ منه قبل المعرفة بانه جار في الديوان الخاص الحافظ، ففعل يعمل عند صدره، ويليق بك أن تنسى إليك ذكره خبرته، ويبل على علم أصحابك برايك وإحكام معاقدة المودة، ويعرب عن إفطار إبرازها كلما قادتم عهدها في ملبس بهجة مستجدة، وهذا الفعل من خلائفك.
الرضية غير مستبديع، وقد نكرت منه عند أمير المؤمنين ماحصل في
أعز مقر وآكرم مستودع، لاجرم أن أوامره خرجت إلي مقدمي
اساطيله المظهرة بما يجنك ثمرة ما غرسته، وبيلي مبارك ثماثل الذي
قدرته علي أقوي أمل أنسهه، وقد نفذه مراسمه بإجراكم على
괄ائل المستمرة في المساحة بما وجب للديوان عما وصل برسمك
علي مراكك، ورسم الأمير تأيد الدولة وزيرك، والرسولين
والواذنين عن حق الورود إلى ثغر الإسكندرية، حمامة الله تعالى، ثم
الي مصر، حرس الله تعالى، وحق الصدور عنها وكل ما يصل من
جهله فعله هذه القضية.

وأما شكرك على الأسرى الذين أمر أمير المؤمنين بإطلاقهم إجابة
لرغبتك ورسوم بتسليمهم إليك محافظة على مراكك، وبإيدينك فأشزعنا
شمارهم أنهم عتقوا شفاعتك وارقوا منك، فذلك من خلال الله على ما
ينطوي عليه من جميل الرأي وكرم النية ومن الشواهد بأنه يوجب
لك مالابنوه لأحد من ملوك النصرانية.

وأما سؤالك الآن في إطلاق من تجد أسره، وإنه ناك أن ذلك مما
بهمك أمره فقد شفعت أمير المؤمنين بالاجابة إليه على ما ألف من
كرم شيمته، وسير إليك مع رسولك من تضمن الأذن ذكر عدته.

وقد علمت ما كان من أمر بهرام ووصوله إلى الدولة الفاطمية، خدل
الله ملكها، شرديا طائرا، قد نبت به أوطانت، وقانته دياره،
لأمات له ولا حال، ولا عشييرة ولا رجال، فقبلتهم أحسن قبول،
وبلغته به الاحسان ما يزيد على السول، وغمرت به الأنسان ما
يقدر عن اقترواحه كل أمل، وجعلته فواضلاً يقلل الطرف بين
الخيل والخول، وكانت أموره كل يوم في نمو وزيادة، وأحواله توفي
على البغية والراداة، إلى أن جرت نوبة اقتشاد التدبير في وقتها أن
عنفته به الوزارة، ونبطت به السفارة، فوسوس له خاطره مما
زخرفه البحر وزنه، وصوره الشيطان وحسن، وأظهر ما ظهرت
امانته ووضعه ألمه وعلامات، فاستدعى قبله وأسرته، وجبسه
وعشيرته بمكاتبات منه سرية، وخطوط عشر عليها بالأرمنية.
فكانوا يصلون أول أول إلى أن اجتمع منهم عشرون ألف رجل من
فارس وراجل، ومن جملتهم أبناء أخيه وغيرهما من أهله، فدخلوه
بالغمر، وحولوه على ما قضى بالاستيحة منه والثور، وقووا
عزمهم فيما يؤدي إلى اضطراب الأحوال وإختلال الأمور، فامتنعت
الحصار المنصرمة مما أساء به سياستهم، وأيوا الصبر على ما
غير به رسمهم وعادتهم، فلما رأى أمير المؤمنين ذلك استغلم
الحالة فيه، وتبنّى أن التفاؤل عنه يرضي بما يعسر استبلاكه
وتلافاه، فكاتب وليه وصفيه الذي ربي في حجر الخلافة، وسما به
استحاقته إلى أعلى درج الإدراة، وحصلت له الرياضة بآكاسبائه
وانتسابه، وغدا النظر في أمر الملكة لا يصلح لغيره ولا يليق إلا به
السيد الأجل الأفضل، وهو يومنئي والآمال العربية، وصدرت
كتب أمير المؤمنين تشعره بهذا الأمر، وتعكته به لما
عبروا الدولة من هذا الخطط، فاجاب دعاءه وليلا نداءه، وقام قيام
مثله ممن أجزل الله حظه من الإيمان، وجعله جل وعز حسنة هذى
الزمان، وخصمه بعناية قوية، وأمره بمواد علوية، وأيده بإعانة
سمادية، تخرج عن الاستطاعة البشرية، فجمع الناس وقام
خطيبا فيهم بأعمالهم على ما يلزمهم عند الله وبحظتهم، ووضحا
لهم ما يخشى على الدولة من الأمر المذكر، فاجتمعوا إليه كلما تطلعهم
يوم الحشر، ونسيج النجوم والأغوار، وامتلاك السهول والأعطار،
وضاقت الأرض على سماتها بالخطاب، وارتست في توجههم لطلب
الذكور الإذاع والوعائق، ولم بيق فضاء إلا وهو يسمع شرقة ولا أحد
الآ، فهو منزعج بقضائه على تأثر ذلك فلان، وكان له الأصلح
بالإضافة إليه كالمشامة في اللون البسيط، كقطرة في البحر
الحيط، وساروا مع السيد الأجل نحوه مسارعين، وعلى الانضباط
عليهم متناغمين، فلما شعر بذلك لم يبق له قرار ولا بالهر
والغفراء، يهجر الماء، ويتوالي المراحل ويرى العروض عبرها، ويعد
السلامة حلما، واستقرت وزارة أمير المؤمنين لهذا السيد الأجل
الأفضل الذي لم تزل فيه راغبة، وله خاطبة، ونحو تولايه بأאיםا
متطلع، والى نظره فيها مبادرة متسرعة، ولم تنفّذ لزينة دستها
 المستبطنية وفي التلهف على تأخر ذلك معيدة مبتدئة، فأخسر في الكفاح قولاً وفعلاً، وعمل في حق الدولة مالاً يجعل له في الوزراء شبيهاً ولا في الملوك العظماء مثالاً. وغدا للملكة الحنيفة حجة وبرهاناً، وأولى الأولياء اعزازاً وتكريماً، والأعداء اذلالاً وأهواناً وصناً، والخلافة عن نفاذ حيلة وتمام غيلة، ومخلة ماركاً، ومخالفة غادرة.

فذلك انتضاهم أمير المؤمنين حسناً باتراً ماضياً الفضرة، واجتياز هماً في المصالح لايطعم جفنه غير الفرثار، وأصطفاء خليلو وظيراً لتساوي بائه وظاهره في الصفاء، واستخلصه لنفسه لفخمه الجماة التي ليست بها من خفاه. وانتظمت الأمور بضفافته في سلوك الوفاق، وعمت الخبرات بوزارته عموم الشمسم، بأنوارها جميع الأفاق، فسعت بنظره الجدود، وتظاهرت ببركاته المباين والسعود، وأصبح غصن العالي ببنته موفر، وعلى الملة من بعين ارائه تمام من مسند الحوادثورث، فأثاره توج على ضياء الصباح، وعزمته تزري بمضاة المهنه الصفاح، ومباشره تفوت شاه النهاء وغابة الامداد. فالله تعالى يحفظ النعمة على الخلافة الحافظة، ويبرز شكره على سبوعها كاففة البرية بكرمه وفضله ومنه وطوله.

ولا امعن بهرام في الهرب وجدت المساعكر المنصورة وراءه في المطلب وضاقت عليه السالك، وتبين أنه في كل وجه بعضها هناك، عاد لمكارم الدولة وعواطفها وسأل آماناً على نفسه من متنفيخا، فشملته الرهمة وكتب له الأمان فعاوته النعمة، واختلت ببرجال المساعكر المنصورة، وصار حظه بعد أن كان منحوساً من الحظوظ الوفيرة، واذا اعتقد الكاتب عما وجه إليه به من الكلام ما أذا تلق من لغة إلى لغة أخرى اضطرب معناه فاختل معناه، ولاسبيماً ان غرس فيه لفظ ليس في إحدى اللغتين، فقد ابان فيه نسب اليه السهو فيه عن وضوح سببه، وقد قبل عذره ولم تتفك يده على التمسك به.

وأما ما سيرته إلى خزانن أمير المؤمنين تحفة وهدية، وانتباهله عن همة بدعاى المجد ملياً، فلأنه وصل وتوصل كل صنف منه متولي الخزانات المختصبة به بعد عرضه على الثبات المعطوف كتابك عليه
موافقته ووقد أجري رسولك في إكرامه وملاحظته على أفضل ما
يعتمد مع ملته بمنزلة من ورد من جهته، وعلى قدر من وصل
رسالته، وقد سير أمير المؤمنين من أمراء دولته، ووجوهه
المؤمنين بحضيرته، الأمير المؤمنين للنصور المنتجب، مجيد
الخلافة، تاج العالي، فخر الملك، موالي الدولة وشجاعها، فأذا
الناجبتين، خالصة أمير المؤمنين، أبا منصور جعفرا الحافظي،
رسولا هذه الإجابة، لما هو معروف من سدادة، وموضوع من
مستتوفر قصده ومستصوب اعتماده، والقى إليه ما يذكره
ويشرحه، وعول عليه فيما يشتهبه به ويوضعه، وأصبحه من
سجاهاء والطائفه ما تضمنه الثبوت الواسع على يده، إبانة لملك
عنده وموقفه منه، ومكانك لديه، وأمير المؤمنين مقطع إلى ورد
كتب متضمنة من سار انبائك وطلب اخبارك ما يسكن إلى معرفته،
ويثب بعلم حقيقته، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.
تعميم صدر عن يوسف بن تاشفين بشأن اتخاذه للقب
امير المسلمين

(من الحلل الموشية ص 29 - 30)

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ وعليه وصحبه وسلم تسليماً

من أمير المسلمين، وناصر الدين، يوسف بن تاشفين

إلى الأشياع والأعيان والكافية والخاصة من أهل الفئلاء، أ Gebäح
الله كرامتهم بتقواه، ووفقهم لما يرضاه
سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

اما بعد: حمداً لله أهل الحمد والشكر، ميسر اليسر، وواهب
النصر، والصلاة على محمد ﷺ وبنور الفرقان والذكر، وأنا
كتبناه اليمين من حضرتانا العلية بمراكش جرسها الله، في متصفح
محرم سنة ست وستين وأربعماث، وأنه لما من الله علينا بالفتح
الجسيم، واسبغ علينا من أنعه الظاهرة والباطنة، ورود التعقيم،
وهدا لنا وهداكم إل شريعة نبينا محمد ﷺ المصلف الكرم، صلى الله
عليه وعلى الله أفضل الصلاة واتم التسليم، رأينا أن نخصص
أنفسنا بهذا الاسم، لنتمتع به عن سائر أمراء القبائل، وهو، أمير
المسلمين وناصر الدين، فمن خاطب الحضرة العلية السامية،
فليخاطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى، والله ولي العبد بمنه
وكرمه، والسلام.
رسالة جوابية من المتوكل على الله بن الافتراض إلى
الفوسيو السادس

(من الحلول الموشية ص 36 - 37)

وقد وصل اليها من عظيم الروم كتاب مدع في الفقيده. وأحكم العزيز القدير، يبره وبرقه، ويجمع تارة وفقر. ويهدد بجنوده الوافرة، وأحواله المفضارة، ولو علم أن الله جنوداً أعز بهم ملة الإسلام، وأظهروا بهم دين نبينا محمد عليه السلام:

"اذلى على المؤمنين أغزة على الكفريين يجاهدون في سبيل الله ولا يخفون لومة لاتامة، بالتقوى يعذرون، وبالنوبة يتضرعون وينصرون، ولذن لعت من نحل الروم بارقة فبانان الله، وليعلم المؤمنين، وليميز الله الخبيث من الطيب، وليعلمن المنافقين."

وأما تقييد المسلمين فيما وهم من أحوالهم، وظهور من اختلالهم، فبالذنبة المركبة، والفرقة المكتوبة، ولو اتفقت كلمنا مع سائرنا من الأماكن، لعلمت أي صاب اتفكنا، كما كانت اياباك، مع آبائنا جمعنا، فلم تزل تذيقهم من الحسام، وضربت الآلام، شعر ما تراء وتسمعه. وأداه المال تطبعه، وبالأساس كانت صفيحة النصر، على سلفك أهداء ابنه اليه، مع النهاين التي كانت تقد في كل عام عليه.

وأما نحن، فإن قلت أعدانا، وعدم من الخلقين استعدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخضوه، ولا صعب نروده، إلا سماوته تشهد بحدته رقاب قومك، وجلالا تبصره في بريك ويومك، والله تعالى وملائكته المسومين، ينقوى عليك، ونستعين، ليس لنا سوى الله.
مطلب، ولا لنا الي غيره مهرب، وما ترصون بنا إلا إحدى الحسينيين (206) : نصر عليكم، ففيها من نعمة ومنه، أو شهادة في سبيل الله، وفيها من جنة، وفي الله العوض مما به هددت، وفرج ببتر ما مددت، وقطع بك فيما اعددت.
رسالة المتوفرة على الله بن الأقطس إلى يوسف بن تاشفين يستند به

(من الحلل الموشهي ص 34 - 35)

لما كان نور الهدى - أيك الله - دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحنت في الصلاح معاك، ووقفت على الجهاد عزائسك، وصحة العلم بانك لدولة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أنت قادر، يجب أن تستدعى لما أعظم الداء، وتستعفى فيما أحفظ بالجزيرة من البلاد.

فقد كانت طوائف العدو تعطف بها عند افراط تسلطها واعتدائها وشدة ظلمها، واستشرائها، تلافتون بالذيل والأمان والهاء، وخرج لها من كل نشوة، وتسترجع بكل ختيرة.

ولم يذل دابها التشط والعناد، ورانيا الالهان والانقياد، حتى نفذ الطابع والتلاذ، واجتى الظاهر والباطن النفي، وأضعف في الآن، وقوى أطماعهم في افتناج المذن، وأضرمت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين استهتم وشغفرهم، ومن أخطاء القتيل منهم، فإنما هم في أبداهم أسارى ورسابا يعتدون عليهم بتنوع الأذى والبلايا، وقد همروا بما أرادوه من التوب، وارشقوا على ما أملوه من التغلب، فتلكه، والآلل، والملأ، أمستو هيكذا بالحق الاكفر، وغيب التوحيد الشرك، وظهر على الإيمان الكفر، ولا يكشف هذه البلية إلا النصر.

الإنساءه لهذا الدين المهتصم، الإحاديما لما استبغي من حمى الحرم؟ وانا لله على ما الحق عبده من دخل، وعزه من نجل، فدانها الرؤية التي ليس فيها عزة، والبلية التي ليس مثلها بلاء.
ومن قبل هذا ما أكن كنت خطأتي، أعزم الله بالنازلة في مدينة قرية (٢٤٣)، أعاد الله للاسلام، وانها مؤمنة للجزيرة بالخلاء، ولن فيها من المسلمين بالخلاء. ثم مازالت ذلك التخلان والتسدير يتزايد، حتى تخلأت القضية، وتضاعفت البلية، وقد حصلت بين العدو مدينة سرية (٤٤٤)، وعلى قلعة تجاوزت حد القلعة في التحسين والامنع، وهي من المدينة كنقطة الدائرة، تشاد كلها من جميع الجهات، دائرة بنواحيها، وسترى في هذه الأرض بها قاصيها، ودانها، وما هو إلا نفس خافق، ورمق زاهق، استولى عليه عدوه، وطاغية متفاقم، ان لم تذكرنا باجماعتكم عجاجالا، وتبادروا ركبائنا ورجالا، وتنغروا نحوها خفافا، وثقلا، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله، فانكم له أثلى، ولا بما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانكم الى معرفته أهدي، وفي كتابي هذا (الذي يحمله الديم) الشاسيخ الفقيه الوعظ (مسائل مجملة) يفصلها ويشرحها، وناستعل على نكت هو بينهما لكم، ويوضحها فإنهما -ما توجه نحوك احتسابا، وتكاف المشقة الاك، طالبا ثوابا - عولط على بديك، ووقت بفضحة بديك، والسلام.
رسالة من الفوينسو السادس إلى المعتمد بن عباد
وجواب المعتمد عليها

(من الحلolving المشوية س ٣٨ - ٤١)

من الكنديطور، ذي المثين، الملك الفاضل، الأندلس بن شانجه،
المعتمد بالله سيد الله أرائه، وصرحه مقصد الرشاد، سلام عليك، من مشيد الملك شرفته الفنان، ونبتبت في ربعه المند، فاعتر
الرحم بعامله، والسيف بساعد حامله، وقد أصررت ما نزل بطلبة
واقطرها، وما سار باهلها حين صارها، فأسلمت أخوانكم،
وعظتم بالدعاء زمانكم، والحزن من أيقظ بآله، قبل الوقع في
الحبلة، ولولا عهد سلف بيننا، نحفظ نماه، ونسعى بنور الوفاء
امامه، لنهدف لنا نحوكم ناهض العزم ورائه، وصول رسول الغزو
ووارده، لكن الذاكر، يقطع الأذار، ولايعجل إلا من يخفف الفوت
فيما يرموه، أو يخشى الغابة على ما يسومه، وقد حملنا الرسالة
اليكم الفرمل الفرسان، وعنه من التسديد الذي يلقى به أمثاله،
وعقل الذي يدير به بلاك ورجاله، مما أوجب استناده فيما يدق
ويحل، وفيما يصلح لافيما يخل وانتعثناه من أراك، والنظر
بعد هذا من وراكم، والسلام عليك، يسعي بعينك، وبين يديك.

ولما وصل هذا الكتاب إلى المعتمد بن عباد، جاوب عنه بخطه من
نظامه ونثره، بما نصبه:

النل تتابا الكرام وديتنا
لك ما ندين به من البساء
سمناك سلما ما أردت وبعد ذا
نزعوك في الإصباق والامساء

- ٣٤١ -
الله اعلى من صلبيك فادرع
لكتبة حطمتك في الهيجاء
سوداء غابت شمسها في غيمها
فجرت مدامعها بفيض دماء
مابيننا الا النزل وفتنة
قدح زناد الصبر في الغماء
فلتقدمنا اذا لقيت استن
زرقا ترى بالوجهة الوجناء
في ابيات كثيرة.

وعدد ذلك : من المنصور بفضل الله، المعتمد على الله، محمد بن
المعتضد بالله، أبي عمرو بن عباد، الى الطاغية الباغية انفنش بن
شانقية، الذي لقب نفسه ملك الملوك، وسماها بذى الملتين، قطع
الله دعواه.

سلام على من اتبع الهدى، اما بعد:
فإنه أول ما نبدا به من دعواه، أنه "نذول الملتين، والمسلمون احق
بها هذا الاسم، لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد، وعظم استعداد،
وجبين الملكة، لاتلتكه قدركم، ولا تعرفه ملتك، وإنما كانت سنة
سعد ابوق من منها مناديك، وأفعلك عن النظر المسديد جميل مباريدك،
فركينا مركب عجز نسخه الكيس، وعاطلناك كؤوس دعة، قلت في
اثنتانها: ليس، ولانستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وان
لتعجب من استعمالك برأي لم تحكم انحازه، ولحبسن اتحذؤه،
واعجبك بصنع وافقتك فيه الأقدار، واغتفرنا بنفسك اسو ا
الالتزام، اما تعلم لنا في العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من
كماة الفرسان، وجيل الانسان، وحماة الشجعان، يوم يلتحي
الجميع، رجال تدعوا الصبر وكرهوا الكبير، تسيل نفوسهم على
حد الشفرات، وتعامهم الدهم في القفاز، يديرون رحي الخنون BR
بحركات العزائم، ويشغفون من خطب الجنون بخواتيم العزائم، قد أعذا لك
ولقومك جلاداً، رتبه الاتفاق، وشفاها حداداً، شحذها الاصفاً، وقد يأتي الحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشرور. نهبت من غفلة طال زمانها، وأيقظت من نومه تجدد أمانتها، ومنى كانت لاسلافك القدمن مع أسلافنا الأكرمين يد صاعدة، أو وقفة متساعدة، إلا أنه تعلم مقداره، وتحقيق مثاره، والذي جراك على طلب ما لا تدركه قول كالحمر: لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر (37) ظذوا المعتقل العقل، والدول لاننتقل، وكان بنينا وبيتك من المسالة، لما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدير أمرهم، ونسال الله سبحانه المغفرة فيما اتى به في أنفسنا وفيهم، من ترك الحزم، وأسلامهم لأعاديهم، والحمد لله الذي جعل عقوبتك توببك وتقرعك، بما ارتدى دونه، وبالله نستعين عليك، وناستبطن في مسيرتنا عليك، والله ننصر دينه الكريم: ولو كره الكافرون، والسلام على من علم الحق فاتبعته واجتب الباطل وخدعه.
رسالتا استصراح من المعتمد بن عباد الي يوسف بن تاشفين وجواب يوسف عليهما

(من الحلول المشتركة ص ۴۵ - ۵۰)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد على الله وصحبه وسلم تسلمهما

إلى حضرتة الإمام أمير المسلمين ، وناصر الدين ، محبى دعوة الخليفة ، الإمام أمير المسلمين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين .

من القائم بعظم اكبارها ، الشاكر لأجلها ، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها ، اللانذ بحرمها ، المنقطع الى سمو مجدها ، المستجير بالله ، وبطلوها ، محمد بن عباد .

سلام الله الكريم يخص الحضرة العليى ، العظيمة السامية ، ورحمة الله وبركاته .

وكتب المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمادي الأولى سنة تسع وسبعين وأربعميات ، وانه ايد الله أمير المسلمين ، ونصر به الدين ، انا نحن العرب في هذا الأندلس ، قد تلفت قبالنا ، وتفقر جمعنا ، وتغيرت أنسابنا ، بقطع المادة عنا من غيرتنا ، فصرنا شعوبنا لاقبائنا ، واشتنا لاقربنا ولاعشارنا ، فقلنا ناصرنا ، وكشر شامتنا ، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين انفعشت ، واناخ علينا بكلكه ، ووطتنا بقدمه ، واسر المسلمين ، وأخذ البلدان والقلاع والحصون ، ونحن اهل هذه الأندلس ليس أحد منا طاقة على نصرة جاره ، ولا أخيه ، ولو كانوا لفعلوا ، الا ان الهوان منهم عن ذلك .
وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الأمال، وأنت أيقك الله، ملك المغرب
ابيضه وأسوده، وسيد حمير، وملكيها الأكبر، وأميرا وزعيمهاء
(49) وزعت بهمتي للك، واستنصرت بالله ثم بك، واستغفري
بحمكم، لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر، وتحموا شريعة الإسلام
وتذروا عن دين محمد عليه الصلاة وسلم، ولجم بذلك عند الله
النواب الكريم، والأجر الجسيم، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم، والسلام الكريم على حضرتكم السامية، ورحمة الله تعالى
وبركاته.

إلى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين، وناصر الدين، ورعيهم
المرابطين، أيب يعقوب بن تاشفين ذور الله به الأفاق، وجميع به
الجيوش والرقب.

من الملك المفضل بنعمة الله، المستجير برحمة الله، العمتسد على
الله، محمد بن عبيد، سلام علي حضرتهجرد أيمنها، واشتهر
امانها، أما بعد:

فإن الله سبحانه، أيده بالاتفاق والانتلاف، وحرم مسلك الشتات
ودعائي الاختلاف، وانعم على عباده، بأمير جديد، وقوم أولي
بأسي شديد، وقد تطول علينا بفعلهم جد، ومسيوع جد، وقد
جعلك رحمته يحبه غيثها ربع الشريعة، وخلقك سلاما إلى الخير
وذريعة، وقد طرأ على الإسلام حادث نسي كل هم، وعطه النكبات
بوقعه وهم، وذلك عدد أظهر في البلاد شتاتا وبين، واختلاف
سببه لم تطرف له في الدعة عين، يقوى ومضفع، ويفتق ونختلف
وتنام متطامنين من أفئزة الزمان، وتناسق الأマン، وقد ابرأ
وأراده، ووعده وأبعده، لمسلم له النابور، والصوامع، والمحارب
والجوامع، ليقيم بها الصلبان، ويستثني بها الرهبان، وما يطميه
استمالته أيانا بالدعة، وأملاه في الرحب والمنععة، استجارا لما
ابطنها، وهاجاما علينا وطنها.

وقد وفد الله لك ملكا شكر الله عليه، جهادك، وقيامك بحقه
واجتهدِ، وَلَكِ نَصِرُ اللَّهِ خِيرًا بَاعثًا، يَبْعِثُكَ إِلَى نَصِرِ مَنَارِهِ،
واقتِبَّاسٍ نُورِهِ وَنَارِهِ، وَعندَكَ مِنْ جَنُودِ اللَّهِ مِنْ يَشْتَريِّلِلْجَنَّةَ بِحِيَانِهِ،
وَيَحْضِرُ الحَرْبُ بَالَاتِهِ، فَإِنْ شَهِدَتْ الْدُّنْيَا فَقَطُوفَ ذَائِنَةٌ، وَجَنَّاتٌ
عَالِمَةً وَعِبَوْنَ أَنَّهَا وَإِنْ أَرَدتِ الْأُخْرَى فَفِجَاهَا لَا يَفْتَرُ، وَجِلَادُ بِحَزٍ
الْغَلَامِ وَبِبَعْرٍ، هَذِهِ الْجَنَّةُ أَدْخُرُهَا اللَّهُ لِظَالِلِ يَا سُيُوفُكَ، وَاِجْمَعَلْ
مَعْرُوفَكَ، سَتَعِنَّ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتَهُ، وَيَكُوْنُ عَلَى الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ
اللَّهُ سَبِيَّانَ، وَهوَ الْأَكْرَمُ الْقَائِلُينَ، نَقَاتِلُوهُمْ يَعْذِبُهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيِّهِ
وَيَخْزَهُمْ وَيَنْصُرَكُمْ عَلَيهِمْ وَيَشْفِي صَدْرَ قَوْمٍ مَّوْمَعَيْنِ (۱۰۱).

وَاللَّهُ يَجْعَلُ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ نَصِرًا وَنُعَمَةَ الْإِسْلاَمِ نَشْكِرًا،
وَرَحْمَةَ اللَّهِ نَتَحْذِرُ ثَبِيْبًا وَنَنْشَرُهَا، وَالْإِسْلاَمِ الْمُوصَولِ الجَزِيلُ عَلَى
أَمِيرِ المُسْلِمِينِ، وَناصِرِ الدِّينِ، وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبِرَكَاتِهِ.
بسم الله الرحمن الرحيم

وسالى الله علي سيدنا محمد وعلى آل وصحبه وسلم تسليما

من أمير المسلمين، وناصر الدين، محبب دعوة أمير المؤمنين.
الي الأمير الأكرم المؤيد بنصر الله، المعتمد على الله، أبي القاسم
ابن عباس، أدام الله كرامته بنقواه، ووفقه لما يرضاه.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فأنه وصل خطابكم الكريم، فوفقنا على ما تضمنه من استدعاء
لنصرتك، وما نكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جبرانك.
فنحن يميناً لشمالك، ومبازرون بنصرتك وحمايتك، وواجب علينا
ذلك من الشرع، وكتاب الله تعالى، وإنه لا يمكنتنا الجواب إلا أن
tسلم لنا الجزيرة الخضراء، تكون لنا، ككي يكون جوازنا الابك على
أيدينا مثى شئنا، فإن رأيت ذلك فأبشر به على نفسك، وابعث الينا
بعقودها، ونحن في اثر خطابك، إن شاء الله، والسلام عليكم
ورحمة الله تعالى وبركاته.

- 347 -
رسالة الفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين ورد يوسف عليها قبل وقوع معركة الزلاقة

(من كتاب أعمال الأعلام للسـعان الدين ابن خليفة
ج 3 ص 239 - 240 )

من أمير النصرانية أنفونش بن فرنارد إلى يوسف بن تاشفين، اما بعد فان ذلك اليوم أمير المسلمين ببلاد المغرب وسسلطانهم، وأهل الأندلس قد ضعفوا عن مقامهم ووضوعيهم. وقد نقلتهم بأخذ الجزية منهم وبالقتل والأسر والذل والفقر. وانا لا اقنع إلا بأخذ البلاد وقد وجب عليك نصرهم لأنهم أهل ملكك. فاما أن تجوز إلي، واما أن ترسل إلي المراكب اجوز اليد، فبان غلبنتي كان ملك الأندلس والمغرب اليد، وأن غلبنتي انقطع مطم الأندلس من نصرك ياهم فأن نفوسي متعلقة بنصرتك لهم. فلما وصل إليه كتابه أمر أن يكتب له على ظهر كتابه: "من أمير المسلمين يوسف إلى أنفونش، اما بعد فان الجوام ما تراه بعيتك لا ما تسمعه بانيك، والسلاطين على من اتبع الهدي، واردف الكاتب بيت أبي الطيب:"

ولا كتب إلا المشرفة والقنا
ولا رسول إلا الخمس العرموى

- 348 -
 رسالة من الفوضوي السادس إلى يوسف بن تاشفين

(حسب رواية صاحب الحلال الموشية ص ٤٢ - ٤٣)

من أمير الملتين أنفسه بن شانة بن فرائدة إلى الأمير يوسف بن تاشفين، أما بعد:

فلا خفاء على ذي عينين أنك أمير المسلمين، بل اللة المسلامة.
كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رسولك
بالأندلس من التخانق، والتواكل، والهمل للرعية، والانضمام إلى
الراحة، وأنا أصومك الخسفة، فأنا نور الدين. وأنا المستنصر،
وأنا الشبان، وأنا الولدان، ولا عرف لك في التخلف عن نصرهم.
إن أمكنك فرصة هذا، وإنكم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى.
فضى على كل واحد منكم قتال عشرة منا، وإن قتلكم في الجنة، وقتلانا في
النار، وإنكم تعتقد أن الله أطفرنا بكم، وأعاننا عليك، ولا تقدر
 الدفاع أو تستطيعون احتفالنا، بل نحن في الافتتاح.
نها الاقفال فلا أدرك آكchain بيني، بل، أمر المتكذبين.
لك، فإن كنت لا تستطيع الجوامع، فما عندك من المراكب.
لأجوز البك، وإنما أقلاكم في أحب البقاء إلى ذلك، فإن غليت، أردت
جنبة البك وتحفة مثل بين ديك، وإن غلبسك كانت لي اليد العليا،
واستكلمت الأمارة، والله يتم الإرادة.

فأمر أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين، أن يكتب اليه على ظهر
كتابه: جوابك يا أنفسه ما تراه لا ما تسمعه، ان شاء الله، وأردف
الكتاب بيبي أبي الطيب المنتبه:

ولا كتب الا المشرفة والقنا
ولا رسل الا الخميس المرموم (٣٩)
رسالتنا بشارة بن نصر الزلاقة من المعتمد بن عبد الله أهل أشبيلية
(من الحلول الموشية ص 63 - 66)

 لما غنى الناس من القتال في الزيادة، تناول ابن عبانة اضطهاد كاذب على عرض الأصبع وكتب فيها سطران: "ألى أبن أبي الرشيد وفقه الله، أعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية أنفسهم. ففتاح الله للمسلمين، وهم على أيديهم المشركون، والحمد لله رب العالمين.
فاعلم بذلك من قبل مأخوننا المسلمين، والله.

وكان ذلك عند الزوال من الجمعة، وعلق الإضطهاد في جناح حمام.
كان احتشمته منه لهذا الحال، فكان الناس باشبيلية اقنظ ما كان في ذلك اليوم، فوصل الحمام من بومه، وقرنت على الناس بمسجد أشبيلية، فعم السرور، وكثر الدعاء.......

وأما كان يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين، أربعين، سنة الله أهمرأ بسر أسبابه، وفتاح لنا الدار، والفرح، وابتكار الفتوح عليه. وعندنا القليل للتواب، الغافل للذنب، والتقينا مع الطاغية البغاء، الذي أجابنا الموت داعي وأخرب التوفيق مساعيه. بعد غدر إباده، وجرى فيه مداد، وكان تواعدنا معه لتلتقي في سواه، فاتى ونفوق يجر نويل مخزاه، والغيب يشهد عليه بما أردنا، وال呼ばれ يعلمنا أنه طاعة من نواه، تفسترنا أنه ابتدأ بالغدر الذي يرده، وتعجل سلوك طريق لا تهديه، وتحقنا أنها مقدمة فتح سبقت، ونواست سعد عقبت، والنسر لا تخفي دلالته، واليمن لا تستهره غلائه، فتندم أخوتنا المسلمون بالنساء، وتصافحوا بالاعتراف والانصاف، وجررت البسانطة.
ذبول الزرد وشكت الشفر فعل الصقيل الغردن و لما أحلول ليل الحرب وأغطش، وغبار ماء يجهلها فأعطب، طلع فجر السعادة فانجح، ونادي من كتاب السلامه: أصيح، أصيح، وعن قريب طالت شمسها تشرق، وتهلك الكافرين وتحرق، وليس دونها حجاب يفتر شعاعها، ويجيب ناعمها، ولا تسامت الرؤوس، وأحدق الرئيس بالرؤوس، ظلنا نرتب الجماجم، وكاننا من أعجب أحلام نائم، ولما صعد المؤذنون أكوا بنتها آيدي الأيدين من هاماتهم وحصدتها بوادر قطعتها بلاماتهم، أعلنوا بكلمة الأخلاص فوق أنان وعو، ماكانت عنه صمت، وأدمغة إنزلها التلمد على ما كانت به هم، وقررت العيون وانشزحت الصدور، وأشرقت الأرض، كلها بهذا الدور، وهذا وفقكم الله فتح الفتح، أذكر بين يدي نجواه، بنصر يعجز عنه الحصر.

وقد كان في أول اللقاء جولة على المسلمين، قضى الله بالشهداء فيها، لإن اهتم باماميها، ثم إنزل سكيتته، فخطبت نصال المسلمين، رقاب الكافرين، فأنكتها عبكرا، صانتها حجالم الغفار، وحجيتها سنور الطوارق عن عيون اليوار، ولا مبره إلا ما نوهو من كرم نفس، جاءت متطوعة، ومستع إلى الخيرات مسرعة فنقفلهم الله انفلا، ووعدهم بالنصر، فآوا لهم.

فتأقوا رحمكم الله هذه النعم بالشكر، كما تلقين الله رب العالمين على نعم أصبتنا فيها، وأمسينا، والله يصلها بالت(token) يرغبوا بالتوفيق والتسبيب، والسلام.

ولما قضى الله بهذا الفتح الجليل، والصنع جميل، اقام المسلمين في جميع أسلوبهم، وضم عدهم مدة أيام، فامتلأت أيديهم بالغنيمة الوافرة، والسبي الكبير، واكتسبت الناس فيها من الات الحرب، والأموال، وسيوف القلقل، ومناطق الذهب والفضة ما أثناهم.

وكان يوما لم يسمع بمثله من يوم البرموع والقاسية، فيقاله من فتح ما كان أعظمه، ويوم كبير ما كان أكبره، يوم الزلقة نبت قدم
الدين بعد زلاتها، وعادت ظلامة الحق إلى اشراقها، نفست مختنق الجزيرة بعض التنفس، واعترَز بها رؤوساء الأنداس، فجزى الله أمير المسلمين، وناصر الدين، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين، أفضل الجزاء، بما بل من أرواح، ومنف من خناق، وصل لنصر هذه الجزيرة من جبل، وتجمع إلى تلبية دعائهن، واستبقاء ذماتها (٥٠)، من حزن وسهول، حتى هزهم على يدّ أعداء الله المشركون. وظهر أمر الله وهم كارهون.
رسالتي بشارة بنصر الزلقة ارسلتى الى اشبيلية

(من النخيرة لابن بسام ق 2 ج 1 ص 241)

كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعز الله الدين، وأظهر المسلمين ، وفتح لهم فضله على يدي مساعان الفتح البين ، بما يسر الله في أمره وسناه ، وقدره سيجانه وقضائه ، ومن هزيمة انغونش بن فرنلند ، أصله الله - إن كان طالح الجهيم . ولا أدعه - إن كان أمهل - العيش الرميم كما قنعه الخزي العظيم ، واتيان القتل على أكابر رجاله وحمايته ، وأخذ النهب في سائر اليوم والليلة المتصلة به إلى جميع محلاته ، وحضور العدود الوافر بين يدي رؤسهم ، ولم يحتز منها إلا ما قرب ، وامتلاء الأيدي مما قبض ونهب ، واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، ويشعرون الله تعالى على ما صنع فيها ، والتتبع ، بعد أثارهم ، وتمادي الطلب من وراء فرارهم ، والذي لا مرية فيه أن الناجي منهم قليل ، والفلت من سيف الهند يسيوف الجوع والبعد مقتول ولم يصبني بحمد الله إلا جرح اشترى ، وعنت رغب حسن المال عندي وزكى ، فلا يشتغل لك بال ، ولا تعودهم فيه غيرما أشرت إليه ، والحمد لله على ماصنع حق حبه ، وهو أهلاً المزيد الذي لا يرجي إلا من عنه.

وكذلك ما كنا عليه قبل مع دم الله انغونش بن فرنلند قصمه الله ، من تطاؤنا واستعلائه ، وتقامنا وانتخاه ، وإن لم نجد لدائه دواء ، ولا لبلائه انقضائه ، ولا مدة الامتناع عن فناء ، فإن سني الله تعالى من استصور أمير المسلمين وناصر الدين ، أبى يعقول يوسف بن تاغشين ، معطي الأحمي - أي الله - ما سنى ، وأدنا من نآي دياره وشدها مزاره ما أدنى فلم أزل أصل ببني وبينه الأسباب ، واستفتح إلى ما كنا أخلي من نصره الأسباب ، إلى أن
ارتفعت الموانئ قبله، وانتهجت السبل القصية له، ثم أجاز - على
بركة الله وعonne - يريش ويري، وصار بعد قدمه يخلق ويفري،
ويتتبع وجه الحزامة كفما اتجهت يستقير، وانا انجبته بوسعي
واسعده على حسب ما يطيقه نرعي، إلى أن صنفنا معثر الحلفاء
ببطيوس - حرسها الله - واتفق رأيناه بعد دشانه على قصد
قورية - حرسها الله - وسمع العدو - لعنه الله - بذلك ففسمد
من محشده الها في جيوش ثملًا لعضا، وتسد الهواء، وتمتع أن
تتق على ما تحت رأيته نكاء، قد تحصنوا بالحديد من قرونهم إلى
أقدامهم، واتخذوا من السلاح ما يزيد في جراتهم وأقدامهم، ولا
أشرف على جنبتها، ولستنا بها، ودنا من أعلامها، ولم يتوجه لنا بعد
ما أردا من النحا، دعاه تعافه إلى مواجهة سبيلنا، وحمله نفجه
وتهوره على السلاسل في مدرج سبيلنا.

وفي فصل منها: فندنا الها بمحالانتنا - نصرهما الله - ثم
اضطربناها بإذاء، وطلتنا عليها براتنا حتى كننا نتركيها بقنائه
- لعنه الله - ما اعت단اه من إصغاره وإخفائه، فأجمع مضطرا
على اللقاء، وقدم بعض اختيبه دهشا في الرقعة التي كانت بيئا على
صرفها من بساطة الفضاء، وقد تيقن أنه إن أخذ المسلمون
مصافهم، وربما في مواقعهم كوافهم، أصطبم عن اخره جمعه،
وجبت أصله وفرعه، فاهتيل فيما قدره غرة، وحمل ولم يكن
بحمد الله - ما استشعره مرة، فشاد المسلمين مشعراهم
المنصور، وأقبلوا عليه وعلى من معه في حال مؤذينة بالظهور و
الوفر، فتوافق قليل المجامع، ونجله جنمان وناسروف
حكمها، ومن الحروف بحدها الفهم ورسحلها، ثم صدق أمير
السلاسل وناصر الدين - أيده الله - الحملة، وصم في جمع لم
يكثر عدد الجماعة، فلم يبعث إدعو لها ان ولوا الأبدار،
واستصرخوا الغرار، وأتبعهم خيل المسلمين - نصرهم الله
بقية اليوم والليلة، تقثلهم في كل غرو ونجد، وتتغشي إرجاحهم على
حالين من كالم، ونقد، ولم يخلص منهم على أيدي المتبين
- اجرهم الله - إلا من سيلهمه البعد، وبأتي على حشاشته الجهد

- 354 -
و أما محلتهم فانتهبت في أول وحلة، وشربت بأسراها في نحلة.
وفي فصل منهما:

ولم يصب بحمد الله من المسلمين - وفرهم الله - على مِنْحِل
المقام، وشدة الاقتحام، كثير، ولا مات من أعلامهم تحت تلك
الجولة إلا عدد قليل، فإن كان آذنونش - لعنه الله - لم يمْت
تحت السيف، بدا فسموت لا محالة إسفا ومكدا، ونحده على
ما يسره من هذا الفتح الجليل وسماه، ومنحنه من هذا الصنع
ا لجميل واولا 6.
رسالة تهنئة من أبي عبيد البكري الى المعتمد بن عباد
بعد نصر الزيامة

( من الذخيرة لأبن بسام ق 2 ج 175)

اطال الله بقاء سيد ومولاي الجليل القدر، الجميل الذكر، ذي الابادي الغر، والنعم الزهر، وهنا معا منى من فتنة ونصر، وأعلاه وقهر، بطابع السعد يا مولاي أبتي، وبيان اليمن عدت، وكشف الحزن عنت، وفي سبيل الظفر سرت، وتبعد البر سعيت، ونجرة العصمة انتيت، وبسهم السدداد رميت وأصمت، صدر عن أكرم المقادس، واشرف المشاوع، وعود يأكل، ما ناله عائد، وأب به وارد، فتوج أضحك منتسب الدهر، وسفرت عن صفحة البشر، وردت مـاضي العمر، واكتب واري الكفر، وهزت أعطان الأماض طربا، وسقت أقدام السرور، نخبا، وثبت أمال الشرك كنباء، وطـوية احـتشاء الطـغية، رهبا، فذكرها زاد الراكب وراحة اللاغب، ومنعة الحاضر، ونقلة المسافر:

بها تنفض الأحلاس في كل منزل
وعتقد أطراف الحبال وتبطلق
شملت النعمة، وجبرت الأمة، وجلت الغمة، وشفت الملة، وبردت الغله، وكشفت الغلة.

كان داء الأشراك سيفك واشتهد
دت شكاية الهدى وكان طبيبا
فغدا الدين جديدا، والإسلام سعيدا، والزمان جميلا، وعمور...
الدين كانا، وكتاب الله حاكما، ودعاء الإنسان منصورة، وعن
ملك قريرة فهنا الله مولانا. وهناتنا هذه النجح البهجة
مطالعا، الشهية مواقعها المشهورة أشارها، المحورية
خبرها، ونصر الله أعلامه ففي البدر تجل وتعقد، وعضده
خسه، فبالقسط يسل ويفهم وأبد مذاهمه في الذكر المثنى
وتلمح، وأهد كتبناه مولانا الله تسرج وتلمج. فكم فلاح خيط
كناها، وطلم كرب جلاها، وميت حق أحياها، وحي باطل أركاء وك
جاجح ضلالة أطفا ناره، ونائف فتنة قلم أطلاره، وملعل اسنت
أر百万 شفارة ومستباح حمرة حمي نمار.
فلله هذه المساوي الكريمة، والمنازع القوية، المثلجة عن
ميمون النقية ومحمود العزيمة، فقد تمثل بها العهد الأول والقرن
الأفضل الذي أخرج الناس بأمان ومن العروج وينهون عن
المذكور، والذي سطع هذا السراج، وانتهى هذا المنهج، فلا زالت
الفرح تتوالى عليه، وصنائع الله تتصل لديه، إفادة من مشاعيه
وإذاعة لحاربه، وإبادة لتناوله، وإن أجمل هذى النعم في
المصدر، وأحقها بالشكر الموقف ما من الله بها سلامة مولاي
التي هي جامعة لعز الدين، وصلة حكمة المسلمين، بعد أن صلى
من الحرب نيرانها، فكان أثبت أركانها، وأصبح أقرائها.
وقفت وما في الموت شك لمواقف
كانك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
وجهلك وضاح وترغك باسم
فلله الحمد والابداع واللهام، وله المنى وعليها مشاعبة الشكر
والدوار، وفازت الكف الكليم، بأعلى قدام المكلوم لدى المقام
الكريم، وإنها له للثالية للأصبع الدامية، في المنزل العالية:
بصارت بالراحة العليا فلم ترها
تنال إلا على جسر من التعب

357
الخطاب الذي بعث به يوسف بن تاشفين إلى أشياخ المغرب حول معركة الزلاقة (نقلة عن روض القرطاس المنسب لابن أبي زرع)

أما بعد حمدا لله تعالى إلى النبي محمد، فأصل العدوان الذي ارتضاه والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل رسوله وأكرم خلفه وإسراهم فإن العدو الكافر عشيره لنهر الله مما قربنا من حماه ووثيقا بإذائه، لنقار الدعوة وخيرناه بين الإسلام والجاهلية والدب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بينه وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الرابع عشر لرجب، وقال: الجمعية عبد المسلمين والنصب عبد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عدنا نحن، فتقدمنا على ذلك، فأضمن الله لهون خلاف ماما شرطناه، وعلمنا أنهم أهل خد哭، وقبض عهد، فأخذناه إبائه الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم، فاستنا الأبناء في سور يوم الجمعة (الحادي) الاثنين عشر من رجب المذكور بأن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين، برى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فانتمت إليه أبطال المسلمين وفسان المجاهدين، فتعشته قبـل أن يتعشـهـا، وتهـبـته قبـل أن يتغداها، وانقضت جيوش المسلمين في جيشهم انضاج العقب على عقيرته، ووثب عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصـدـنا برائتنا السعيدة النصرة، في سائر المشاه المشهورة في جيوش ملتونة نحو الفنـش، فلما ما أبصر النصـارى رايتنا المشتهرة المنتشرة، ونظروا إلى مراكينا المنظمة المفتوحة، وغشيتم فروع الصفاح، واظظتهم سحائر الرمح، ورجلات حواره خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، التحم النصاري بـطاغيتيهم الفنـش، وحملوا على المسلمين حملة متكررة، فقتلهم المرابطون بنية مساعدة...
خلال الصية وهم عالقة، فعصفرت ريح الحرب، ووقفت دم السيوف والرماح بالطمع والضرب، وطاحت المهد، وأقبل سبيل الدماء في هٰوَج، ونزل مـن سماء الله على أوليائه النضر العـنزيز والفرج. ولولى الفنُّش مطعومًا في إحدى ركبته طعنة اقتفتته إحدى ساقية في خرسمانة فارس من مائة وثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل، قادهم الله إلى المصارع والحذف العجاج، وتخلص لعنهم الله إلى جبل هنالك، ونظر التهرب والذينران في محالتهم مـن كل جانب، وهو من أعلى الجبل ينظرها شزرا، لم يجد عنهـا صبرا، ولا يستطيع عنها دفاعًا ولا لها نصرا، فأخذ يدعو بالتبور والويل، ويرجو النجاة في ظلال الليل، وأمير المسلمين بحمد الله قد ثبت في وسط مراقبة المظفرة، تحت ظلال بنوده المنتشرة، منصور الجهاد مدفعو الأعوان، يشكو الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، وقد سرح الغارات في محالتهم تهدم بناها وتسليم نخائرها وأسبابها وترهيره يأوى الدين دمارها ونهبها، والفئش ينظر إليها نظر المغشي عليه، وبعض غيظًا واسفا على أنامل كفيفه، وحين تمته الهزيمة وتتبع الفرار، عاد رؤساء الإنساس المنهمُون نحو بطليوس والغار، وترجعوا حبذًا من الغار، ولم يتبث منهم غير زعم الروؤساء والقواد، أبو القاسم المعتمد بن عباد، فانتى إلى أمير المسلمين وهو مسيض جناحه، وجريح عناء وجراح، فنهانه بالفتح الجميل، والتسع الجليل، وتسليل الفنُّش تحت الظلماء، فأروا لا يهدأ ولا ينام، ومات من الخرسمانة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة. فلم يدخل طبطصة إلا في سنة فارس، وحمد الله على ذلك كثيرًا، وكانت هـذه النعمـة العظيمة، والمائة الجسيمة، يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة.
رسالة يوسف بن تاشفين إلى الزيريين في أفريقية
سنة 479 هـ - 1083

احوال الجواز إلى الأندلس ومعركة الزلاقة (من مخطوطة الأسكوريال رقم 488 - 49 و - 53 ظ) م.

الحمد لله الذي من علينا بالسلام، وفضلنا به محمد نبيه عليه السلام، أحمده حمدًا يوجب المزيد من الانتباه والسبوع من سرايه ونعمانه، كان من قضائه جل ثناؤه وتقدير إسماؤه لما أراد قمع الوردة الطفافة من زناتة وغيرهم في البلاد المغرب سبب لنا اليهود المطلب فقفونا أثارهم وأخلينا منهم ديارهم، وعذابه نفعل بالقوم الظالمين، فقومنا الدين، ومهدينا المسلمون، فصفيت لنا ضمانرهم، وخلاصت إلى الله تعالى نياتهم وسرارهم حتى وصلنا طنجة الركاب، وانقنا برحيله سوء العباد، ففتح الله لنا وينا، وهو خير الفاتحين وأسرع الحاسبين لالله غيره وهو أرحم الراحمين.

ولما بلغنا من استحوار النصاري دمرهم الله على بلال الأندلس ومعاقلها، وإلزام الجُزيرة لرسولهم واستنصال أقاليمها، وإبطالهم البلاد دارا لليخونون عسكروا يخرجون بهم، فيبعد جمعهم، ويفل حدهم، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان، ويسرون النساء والصبيان، فخوضنا على الجواز إلى الأندلس من جميع الأحوار، المرة بعد المرة، واليئا العداش إلى وقت الأقدار، ولم نجد للجواز بابا، ولا باب جول البحر أسبابا، فانضم لنا منهم الرئيس الأجل المعتمد على الله، الملوك بنصر الله أحسن الله في كل الأعمال عونه، وقرر بكل صلاخة عينه، فعزمنا على الغزو وجوزنا للعنو أسوة دا ضارية وسباعا عادية.
وشيبنا وشبنا، بسواقة قوية، وقلوب في سبيل الله نتقاء، قد عبروا الحروب وجريوها، فهي أهمهم وهم بنوهم، يلمرون تلسط الفهد، ويازرون اليهود زيتير الأسود، فشلنا بهم القوارب، يوسعناهم على ظهور المراكب، فخرجنا في مرسى الجزيرة الخضراء من دياره، وفقه الله، ففرعوا الناس من كل أفقهاليهم، ووقفوا من كل قطره اليوم، متعججين من هويتهم محتقرين لزيهم ونغماتهم، لا يروهم منهم حاشا الخيل والبرق، وهم مع ذلك لياطعون إلا بعد جوف الرق ومسح العرق، وقدروا أنهم طعم للสายوف وغرض للتحوف وسد للارماح ونهب السلاح فشكل استقهرهم، والجميع منهم احترسوا، وتبلغ الينا اختيارهم وأقوالهم وتبته الينا أفقالهم، ثم أتبعناهم جيشا بعد جيش بخيل كالفرحول، عليها الكهول، وعد من كل أمر، على أجر يتسابقون إلى اللقاء في الفضاء، تسابق الحين والقضاء، ومع هذا كله فان أهل الأندلس مستبشرن بنصرهم على أدينا وأراها غيهم بسبينا، وعساكرنا تتزيد، وجوازنا يتاك، وكان آخر من جاز لنا ومعنا قطعة من صنهاجة بني عمي، فعصر البحر جينذ للجواز، واضطررت فيه الأمواج، فاستخرنا الباري تعالى جده، وعظم اسمه، إن كننا في جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل عليناها، فما استكمل من كلامه حتى سهل الله المركب وحرم المطلب، فخرجنا من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء الذكورة والنثم شعبنا مع من جاز من عساكرنا، فقفلنا على السير، وكان قد تقدم الينا بالعودة من قبل الألفونسو أمير النصارى رسوله يخاطبنا بهم بالجواز الياز عجذزنا عنه، وفرقننا منه، نتعلم، المراكب وسنموا، إله الشوايا والقوارب ليرد علينا ويعقُّالتنا في صنهاجة، فلم نتفقنا إليه، ولا نuju منا، ووصلنا أدينا بالرئيذ الأجل المعتمد على الله المؤيد بصر الله، واستوطننا منه غاية استنثاق، وبدينا معه على اللحاق بهم، والورود عليهم، ونحن في ذلك كله لما نقل الينا، وورد علينا من رؤساء الأندلس، مستبطنن سريرة المخبتين لابسين كسوة.
الصالحين، وقلوبنا شتى، حتى لحقنا إشبيلية حضرة عمرت
بفقاته، وقد تجمع له من جنوده أعدادا، ومن حشمه وعبده وخيله
ورجله أجناد، فصرنا إلى مدينة بطلس، وأقمنا بها أيام منتظرين
لوقف الروس، من جميع قطاعات الأندلس، فأخبرنا وصح عندنا أن
كل واحد منهم مشتغل مع قطقة كثيرة من النصارى، قد تغلبواهم
على حصولهم، وأنزلوا في بلادهم واضغفوا وشجعواهم على
مرادهم، فحكمنا الله تعالى، ودعونا بليسير الرجال واستنفاذ
العباد، فجعلنا عساكرنا وسرنا إليه، وصرنا إلى قفل قوية من
بلاد المسلمين، صرحها الله، فسمع بنا وقصد قضدنا وورد
ورودنا، واحتل بفナンها نستنفازنا لنا فيعنتنا الله يحضنه على
الإسلام، ودخلنا في مله محمد عليه السلام، أو ضرب الجزية عليه
وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه، كما أمرنا الله تعالى وبين
نا في كتابه، من إعطاء الجزية عن يد، ومهم صاغنون فسأبى
وتمرد، وكفر ونخر وعمل على الاقبال علينا، وحدث في الورود علينا
فلحقنا وبيننا وبيته فراسخ فلما كان بعد ذلك، برسنا عليه
أياما، فلم يبنوا، ففرقنا وقفا، ونحن نخرب الطلاع
اليه، ونتابع الورث عليه، وبيننا على لقائه يوم الخميس لاحذي
عشرة ليلة خلت أربعة سنة تسع وسبعين وأربعين، فلما كان يوم
الجمعية ثانية ورد علينا بكتاب قد ملأت الأفق، وتقليب其所
المحفوظ للأحداث قد استلموا النروج للتكافح، وربطوا سوقهم
الألوح، وطبعون ملائ من الخمور يقرون أن الدائرة علينا
تندور، ونحن في أخيبتنا صبيحة اليوم النذور، كل مناسح
وجمعنا له، فقصد أنعمه شوكة، وأصلحهم عودا، واتجهتهم
عديدا محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله وفرقة الله عمام رؤساء
الأندلس وقطعهم ليقرون عسكرا إلا عسكره، ولازجالا الإ
رجال، ولا عديدا إلا عديده، ودواود مان أصححابنا منها الي
إزاءن، فهبطوا إليه لفيها واحدا، كهبوس السيل، بسباق الخيل
فلما رأهم من كان معه من جنده، وبمن جميع الطبقات، الذين كانوا
بنخرون من قبله الأموال والضياع، استنك كأنهم واضطربم

- 362 -
امسلاهم ودُمِثـَتْ اـيـيـهـمـ، وزنلت اـقـدـامهم وطَـاـرـت
قلوبهم، وصاروا كركب الحمير، فروا يطلبون معقلًا يعتصمون
ولاصلهم إلا الله، ولاهاربا منه الامه، فلحقوا من بطليوس
بالكرمات، لما غانوا من الأمور المفضلات، وأسلموا... ايه الله
وحده في طرف الأخيبة مع عدد كثير من الرجالة والرماة، قد
استسلموا القضاء فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرسان، يعمرون
الكنانس، فجذسهم حينا وجدوا مع من اليم من نكرواهم، وبسطوا
منهم الأرض، ولم يبق من الكل إلا البعض ولجأ في الأخيبة، بعد
أن عاين المدينة، وتخلص الله بنيته في المسلمين وبلغ أميته، بعد
أن وقف وقفة بطل مثلكه، لا أحد يرد عليه، ولا فارس من فرسانه
وعبيده يرجع اليه، لايرى حكما أحد منهم فيهم، ولايهابهم فرسان ثم
قصدت كتبية سوداء كالجلب العظيم أو الليل البيه يمسك داود
وأخبته فجالوا فيها جولانًا، وقتلوا من الخلق اللوانا، واستشهد
الكل بحمد الله، وصاروا إلى رضوان الله، ونحن في ذلك كله
غافلون، حتى ورد علينا وارد، وقصد الينا قاصد، فخجنا من
وراء الشعب، كقطع اللعاب، بجميع من معنا، على الخيل المسومة
العراب، يتساقبن الطعن والضراب، فلما رأوا، وقعت اعتنائهم
علينا طنوا أن الدائرة فينا ولدينا، وان طعم أسبافهم، وألقاء
مساحهم، فكبّرونا وكبير الكل معنا، متبلين نه وحده لا شريك
له، ونهي لنا المتمنين الذي لابد منه ولاماميحة لأحد عننا، وقلنا هذا
أخبر يومنا ممن الديننا فلم يفوتوا شهماء، فحملنا علينا
كالسهام، فثبتت الله اقـدانـا، وقروا افـثـتنا، والملاكية
معنا، والله تعالى ولي التنصر لنا، فولوا هاربين، وفرنا
ذاهلين، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طمعة تلته وضريبة
تنحية، واستخف الرعب أيديهم، فطعنهم بالمسمار دون الوجزر
بالعبر، وضاقت بهم الأرض، بما رجح حتى أن هامهم لا يريد غير
شي الا ظنه رجلاً، وفتسكت فيهـم السـِبيـف، على رغم
الأنوف، فو الله لقد كانت تقع على الدروع فتفرصها، وعلى البضائع
فتبريها، وزرقوهوا الرجالة منا على خيلهم الرماح، فشـكُوهـم بهـا
فرمحت بهم، فما كنت ترى منهم فارسا إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار، الكل يحضر عنانه، كان معقله بعقالة، ونحن راكبون على الجواء، النهار منcharmي، الصصون، السابق اللائق المعد للحقائق وما لنا إلا مه جرابان فيه سيفان وبيتنا الثالث على أن يحدث من حادث، فصاواروا في الأرض مجددين، مويتي مفررين، وقد تراجع الناس بعد الفرار، وأمنوا من العثور، وتضايقروا مع عسر كنا وغيرهم، يقطعون رؤوسهم، وينقلونها بإزاء الحالات حتى على كالجبال الراسيات، عدة لاقدر، ومد لا يحجز، والتجارب فيها، والأيدي متحاورة بطبونهم، واستصلنا كأعكرهم، وحلنا دون اباطلهم وأمانهم، وما رك بقابل عما يعمل الظلال، وانتقع من عسكرهم نحو الأف جراؤ أو أقليم، والانفونش فيه، على ماليخرا، قد أتخنو جراحًا بإزاء محالاتهم، يزدادون الظلال، للهروب في المقام، ووالله لقد كان الفرسان والجند يدخلون محلاتهم، ويضرون في أخيبتهم، وينتهبون أزودتهم، وهنم ينظرون شزرا نظر التيوس إلى شفار الجزارين إلى أن جن الليل، وآخى سد وله، ولوا هاربين، وأسلموا رحابهم صاغرين، فكم من دلال على البقاء ساقطة، وخيال على النقاي رائضة. ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراح أو أريد، وأما البغال والحمر فكثر من ذلك، وأما الثياب والاتساع فناهيك، وال사رة بأوطية الحرير، والثياب والأوبار عند لله لا يكلون ممن الاتفاق، ولايسمون مؤشرات الفروق وفروق، وهمها حيث رحلوا لقشعهم فصحتنا ضمان تنا، وخلاصنا للمعتمد على الله نياننا وسارا، نرجعنا بحمد الله غانمين منصورين، ولم يستشهد منا إلا الفرقة التي قدر الله عليها بذلك، وقامنا أن الكل منهم هناك لقلة معرفتهم ونبيثتهم بقتل النصارى، وترامهم للشهادة، قد الرب أرواحهم، وكرم منا وضريحهم، وجعل الجنة ميعدا بيننا وبينهم، وفقنا من أكابرنا نحو عشرين رجلاً من انضمت نجده في المغرب، وانقلب خير منقلب، ولحقنا
اشبيلية حضرته عمرت ببقائه، وأقامنا عنداه ايااماً، ورفعنا عنه مودعين لاتوبيع قاطع، ولايمتنا منه مني حسب مكانه، ولحقنا الجزيرة الخضراء، ونحن نريد أشياء أسال اساهمها وإنجازها، وان يسهل المراد ويفوقنا للسداد، ومتى تنفس منهم منتنفس، أو رجع الي أحدهم نفس، يذكرون مالقوا، ويتذاكرهم ماناً بقوا، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون، واملي لهم إن كيدي متين، (٦٥)حتى لايبقى على أديم الأرض منهم حي، ولايحس منهم انس، والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخطى وأعطي، وهذا كله منا منه علينا لمنا منا عليه، وصلى الله على محمد خاتم النبؤين وقائد الفخر المحجلين إلى جنات الله العليم، والله الطيبين وسلم تسليماً، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.
رسالة من يوسف بن تاشفين إلى المستعين بإبن يوسف بن هود صاحب الثغر الأعلى

(من الحلول المنشورة ص ۷۵)

من أمير المسلمين، وناصر الدين يوسف بن تاشفين، إلى المستعين بإبنه أحمد بن هود، أقدم الله تأييده من حضرته مراياك، حيث ايات شرفك، وسائر سلفك، وحنين نحن الله بجميع المحامد، ونستهديه أحسن اللواء، ونساله أن الفوانيس، وأنجح المقصد، ونصلي على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم صفاء أوليائه، وخصائص أنبيائيه، وأمَّنا الذي عندها، أيك الله - لجانبك الكريم، وحرك الطامي، ومجدك الصميم، وجمالك المعلوم فوع صريح، وعَقد في ذات اللهد تعالى صحيح، وورينا نشأة السيدة والنبلة والنباهة والفضل. أبو مروان عبد الملك، ابن ولادة وتبنيها، وابنها ولادا، وتقربا زاد الله به عينك قِرَة، ونفسك مسيرة، ومع خاصتك الوزيران: أبو الأسحاق، وأبو عامر، أكرمهما الله بفضله، وكلا وفوداه حق نصبهما، وأتمناهما بره من بهمن، وأدرى اليها كتابه الجليل الخطير المقبول المثير، فوقعنا منه، على وجه شخيصهما، واختصيفنا في تفصيل جملتهما إلى خليصهما، فاقتينا اليهما مراجعة في ذلك ما لقدنه، وسفرناهما عن وجه قصدنا فيه حتى استتبناه، وجعلتهما الفوضى، وجماعة الإنتاج، في سلك ما يرضي الله تعالى والامتداد، إن شاء الله تعالى، والسلام.
رسالة البابا غريغور السابع إلى صاحب قلعة بني حمام
( عن تاريخ المغرب الدبلوماسي لعبد الهادي التميمي ج 5 ص 194 - 195 )
من عن الراهب غريغور وخدام عياد الله إلى الناصر ملك موريتانيا من إقليم ستيف بإفريقيا، تجية وبركة بابوية.
لقد تفضلت فخامتكم بالكتابة إلينا في هذه السنة طالبين منا أن نرسم كاهناً وذلك حسب القوانين التي تقترضنا عليها المسيحية. فباركنا اختيار الأسقف سراً لأن طلبكم هذا كان صادقاً. وبعثتم لنا في نفس الوقت بهدايا كما أنكم أحراراً لبيتكم أمير الرسل ووجبا لنا قد حوررتهم الأسرى المسيحيين ووعدتم أيضاً بالعفو عن الآخرين الذين قد يكونون عندكم.
إن الله خلق كل شيء، والذي بدونه لانستطيع شيئاً، قد الحكم الطيبة وهياكم لهذا العمل النبيل.
إن الله العلي القدير الذي يحب السلام لكل الناس ولابد أن يملك أحداً لا شيء يحب إليه تعالى أكثر من حبنا لبعضنا بعد جينا له سبحانه وكذلك من التمنى في هذا المبدأ: عامل غبر بما تحب.
فبيني لنا أن نمارس فضيلة الحبة هذه أكثر من عينانا من الشعوب فنحن جميعاً على وجه مختلف، نعبد إليها واحدة، وإننا كل يوم نسبيح بحمده ونجل فيه خلق العصور ورب العالمين.
فعندما اختبرنا شرفاء مدينة روما بالصنع الذي الهيمك الله إياه قد أعجبوا بسمو قلبعكم وأذاعوا مديحكم، وإن أثينين من بينهم هما
اللذان يشاركاننا الأكل والشراب عادة، البيرك وسنسون، وقد تربينا معنا في قصر روما منذ كانا في سن الراهقة.

وهم يوندان بعمق، إن يربطنا معكم صداقة ومودة، وسيكونان سعيدين بإرضائكم في هذه البلاد. سيضيعان لكم ببعض رجاءهم ليبرهنوا لكم على مدى تقدير أسيادهم لخبرتكم ولعظيمكم وليظهروا لكم رغبتيهم في خدمتكم هنا.

وإذنا نوصي جلالتكم بهم، نطلب منكم أن تكونوا لهم الحب والوفاء، مثل الحب والتغاني الذي منصرفه دانما به وباي أمير يعينكم. إن الله العلي القدير يعلم أن عبادته تلهم الصداقة التي محضناكم بها.

وكمن نتمنى لكم السلام والسكون في هذه الدنيا وفي الآخرة، وإننا نتوسل إليه تعالى من أعمق قلوبنا أن لايأخذكم إليه إلا بعد عمر طويل، إلى صدر ونعيم سيدينا إبراهيم عليه السلام.
رسالة يوسف بن تاشفين إلى صاحب قلعة بني حماد
يرقعه فيها على تعامله مع البابوية
(من النخيرة لابن بسام في ٢ ج ٢٣ ص ٢٥٧)

ورد كتابك الذي انذرتنا من وادي مني منصرفك من الوجهة التي استظهرت عليها ب=YESادك، وأخفقت فيها بطارفك وتلالك، وأخفقت من مطلكك ومرادك، ووقعنا على معاناه، وعرفنا المصرح به والمشار إليه فيه، ووجدناك تتجني وتشترب على من سن لم يستوجب التثريب، وتجعل سيئك حسننا، ومندرك معرفنا، وخطاك صوابًا بينا، وتفقي نفسك بفلم الخصام، وتوبيها الحجة البالغة في جميع الأحكام، ولم تتأول أن وراء كل حجة أدلتها ما يتبقيها، وإزاء كل دعوى أفرتها ما ينقضها، وقلاء كل شكوك مسحتها، مما يوضعها، ولولا استنكار الجدل، وأجتنا ترد الفيل والقال، لننصصنا فصول ما يبطله، ويخجل من ينجله، حتى لا يدفع لمسحته دافع ولا ينبو عن قبول أدلهه راء ولا سامع، ولا يختلف اعتقافا به دان ولاشاسع.

وفي فصل منها: ونشدك الله الذي صانع السماء والأرض، إلا بأمره. لم نكن عندما نزع الشيطان بنك ربي ابن أبي عبد الله محمد ابن يوسف رحمه الله، وتفاقم الشتان، قد تتوفرنا على ما كان بالحال من إفلاط، وتأخرنا إما كانت النصبة تستقدم من بدار أو سباق، ولم تعد الجهة حق إمدادها، ولا أكثرنا فوق ما كان يلزم من جماهير أعداؤها، ولا علينا عن جهاد المشركين، ولا أقبلنا إلا على ما يحوز حرب المسلمين، رجاء أن نشوء استبصار، أو يقع إفصار، وإذ أتى خلال ذلك تحتفل وتحسد، وتقوم بحمية وتقعد.
وتبرق غضبا وترعد ، وتستديع ذُبان العرب وصعاليكهم من مبتدأ ومقترب ، فتعطيهم ما في خزانك جزافا ، وتنفق عليهم من كنزه أولئك إسرافا ، ومنح أهل العشارات مهن وأهل المهن الأفا كل ذلك تعبض بهم ، وتعتمد على تعصبهم لك وتالبهم ، وتعتقد أنهم جنتك من الخائن وحماك دون المقاتلين ، وتذهب عما في الغيب من أحكام العزيز القدير ، ونحن أثناء مفاعيل ، وخلال مما عقدت وحللت ، نؤمن العدو - قصمه الله - فنجبه ونكافحه ، ونقضه وشامته ، ونبغيه من اقتراه ونرفعه بهما وتعقيبة في عقر داره إلى أن استجمعت أخيرا واستجتست وترجعت إلى عرفانك وأجهشت ولولا ما أدرك الذي تمده ، وشارفوا إلى أن يستنفدتوه ، ما أدرك لك شكوكا ، ولزانوك ضفنا على إبالة بلواك ، وإنك لم تدوا منهم بسم ، ومستريح إلى غم ، فبلغت معهم ما بلغت ، وارغت بهم ما أرغت ، واستقبلتنا بما أثر عن العدو ولقد أخذناه بمختقه ، وأتيتنا اشتماط وهز الهذي على عققه ، واشبى على انقطاع نمانه ورقمه ، ففرحت عنه كريمة لم تظنه تندفع ، ونهجته له منها وجه مخلص لم يحسبون ينتهج ، والخليج وجهه لأذى المسلمين ببئنه وبيده وبسطت فيه وده وكانت في جامعة نصره عما يريده ، ولو أن صاحب رومة المشتغل معهربعاء الكرر والشرك المنتجل مما ينحل من كلمة الزور والافق يكون مكانك جوارنا ، وصاقب كما صاقبت قاصية دارنا ، ما اتى من نصره فوق ما أتى ولاتولى من انشباله ، والصي في استقلاله ، إلا بعض ما توليت ، ولا أتاني على المسلمين من ضاربه إلا بدون ما ائحري ، ولا بفاحهم خبالا بأكثر مما يفتيه .

وما في تلك الجزيرة - عصمه الله - من صالح ولاطلاع إلا ما يعرضك على الله تعالى ويرفع إليه طليقة وغلوره بالشكوى ، وكل ما سفك من دم ، وانتنهك من محرم واستهلك من ذم ، فأليك منسوب ، وعليك محصب ، وفي صحفتك مكتوب وموضوع الجزء غدا وإنك لقرب فانظر ما أنجح أثرك ، وأربع متجرك ، وأصبح موريك ومصريرك . . .
عهد من الخليفة العباسي القائم بأمر الله ليوسف بن تاشفين

وهذه نسخة الرسالة البرمجة بعد البسمة الشريفة (76)؛ هذا ما عهد به عبد الله ووليه، عبد الله القائم بأمر الله أمير المؤمنين، إلى فلان حين انتهى إليه ما هو عليه من إدراع جساب بشير الرشاد، في الإصدار والإبراز، واتباع سنن من أبدي وأعداء، فيما بجمع خير العاجلة والمعدة: والتخصص بمحمد الأندلس والمذاهب، مما يستدام منه أصناف الآلاء والواهب والتحلي في السماوات الكامل، بما فاز فيه امتثال الغزلي من الجمال والكامل، واتضح ما هو متشبث به من صحة الدين والدعي، والمواصبة في اكتساب رضا الله تعالى على ما هو أقوى الأظهر، والمعين: في ضمن ما طوى عليه ضلعه. وأدام لهجه به وولوعه: من موالاة لأمير المؤمنين فين الله تعالى بها، ويرجى النجاة من كل مخوف باستحكار، مساعيها: ومشاعر لدوليته ساوى فيها بين ما أظهر وآسر، وأمل في اجتناء شعرها كل ما ابهج وسر، فولاه الصلاة

بأعمال المغرب، والمآه، بالأحداث، والخراج، والضياع، والجهذة والصدقات، والجواوي، وسائر وضع الجباب، والعرض، والطاب، والنقبة في الأولياء، والظلم، وأسواق الرقيق، والببر في دور tartış، والحسبة، بدليل كذا وكذا، سكونا إلى استفلاه بأعهبو ما استكشفاه أيام، واستقباله النعماء في ذلك ما ينثر ذكره ويطيب ربله وثيقة بكونه للصداقة، وما أفياء الطاعة الإمامية مستندا، وتورثه علي مايزيده بحضره أمير المؤمنين حظوة ترد باع الخطوب عنه قصيرا، وتبد مقاصده من التوقيع بما يصحب له في كل حالة، ومملا بما في اصطعاع من مصلحة تستنبر

- 872 -
اهلتها، وتستنير من شبه الفي شواعدها وادلتها، والله تعالى يصل
مرامي أمير المؤمنين بالاصابة ويعينه على ما يقر كل أمر في حقه
ويجله نصابه، ويحسن له الخطرة في كل ما يغدو له مرضي، وطائفة
الاجتهاد في فعله منضيا وما توقيف أمير المؤمنين إلا بالله عليه
يتولى وإليه ينتبه.

وأمره باعتماد تقوى الله تعالى في الإعلان والإسرار، وباعتقاد
الواجب من الاذعان بغضها والاقرار، وأن يؤوي منها إلى امتع
المعاقل واحصنتها، ويلوي عنان الهدى فيها إلى أجمل المقصاد
واحسنها، ويجعلها عمله يوم تعدد الأنصار، وتتشخص
الأبصار، ليجتنب من ثمرها ما يقيه مصارع الخجل، ويجتلي من
مطالعها ما يؤمنه من طوائف الوجل، ويرد بها من رضا الله تعالى
اصفي المشارب ويجد فيها من ضوابط المنى أنفس المواهب، فإنها
ابقي الزاد، وأدعى في كل أمر إلى وري الزناد، وقد خص الله بها
المؤمنين من عباده، وحضور مننه على ما هو أفضل عدة المرء
وعتاده، فال قال تعالى: ( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا
تومتن إلا وانت مسلمون ) (89).

وأمره أن يأتى بكتاب الله تعالى مستضيقاً بعصابه، مستضيقة
لسلطة الغي بالوقف عند محظوره ومباحه، ويقصد الاستبصار
بمواعظه وحكمه والاستدرار لصبب التشويف في الرجوع إلى مثقفه
ومحكمه، ويجعله أميراً على هواه مطاعاً وسميره لا يرى أن يكشف
عنقه قناعاً، لببا إلى النجاة من كل ما يخفف آثاره وسببلاً إلى
الفسد في اليوم الذي يسفر عن فصل الحساب لثامه، ويتحقق موقع
الحذ في إماة دشره، وصلة يومه في التأمل باسمه، فإنه يبدعي
طريق الرشد لكل مبديه في العمل به معيد: ( وإنه له كثاب عزيز لا
يأتيه البطل من بين يديه ولا من خلفه تنزل من حكيم حميد) (90)
وأمره أن يحثنا على المسؤولات قطعاً مما بشروطها
وحدها، وما طلبه من نجوع التشوه في إداء فروعها
حقوقها، ومن سارا إليها في أوقاتها بنية عائفة مناهل الكر
وأمره بالسعي في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة. وفي الأعياد إلى المصلات الاضاحية، بعد أن ينتمون في عامراتها، وإعداد الكسوة لها، بما يؤدي إلى كمال حلاها، ويحظى من حسن الذكر بأعنب الموارد واحلاها، ويوعز بالاستثمار من الكربور فيهما والقوام، وترتيب المصائب العائدة على شمل جمالها بالاتساق والانظام، فإنها بثت الله تعالى التي تتلى بها أبائه. وعلي فيها أعلام الشرع ورياضته. وأن يقوم الدعوة على منابعها لأمير المؤمنين، أدا الله تعالى به الإهانة واحسن عن سلامة الدعاء، ثم لنفسه جاريا في ذلك على مئل من مثله، وسالكا منه أقوم مسائل الامتهام وسببه. وقد بين الله تعالى ما في عمارته من دلالات الإيمان، والفوز بما يعنى من سخط الله تعالى أوقث الأمان في قوله سبحانه: (إنما يعمر مساجد الله من أمين بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة واتسنى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى اولئك أن يكونوا من المهتدين) (31) وقال في الحديث على السعي إلى الجيوش التي نذكر فيها اسمه، ويشير عليها مدار الإسلام ورسمه يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) (32)

وأمره أن يعتمد في إخراج الزكاة ما أمر الله تعالى به، وهدى منه ارشد فعل واصوله، ويقوم بذلك القيام الذي يحيط به جميل
الذكر، وجزيل الأجر، ويشهد برزقاء المغفرس وطيب النجر، ويقصد في أداء الواجب منه ما يصل الحساب في التوقيف ببيومه، ويطلق الآنسة بحمدك ويكفنا عن لومه، متجنبا من إخلال بما نص عليه في هذا الباب، أو إهمال فيه ما يليق بذي الديانة وأولي الألباب، ومتوخيا في السماحة إليه ما يطهر بـه من الأذى، ويتوفر به حسن الأخذة عنه بين الناس، فقد جعل الله تعالى الزكاة من الفروض التي لا سبيل إلى الحيد عنها، ولا سبيل في الفوز أوق منها، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم باخذها من أمنه، وأبان على كونها ممّا يجتنب كل مغروب فيه ممّا شربته، ووصل له في ذلك بما يوجب فضل المسابقة إلى قبوله: لما فيه من الحظ الكامل في استنارة غرره وحججوعه، في قوله سبحانه: (خذ من عوامهم صدقته تزكيهم بها وصل عليهم إن صلائاك سكن لهم والله سميع عليم) (73).

وأمره أن يهبب من الذ散 خلاله، ويصل باقاتاً في الخير أفعاله، ويمتدع من تلبية داعي الهوى المضلل، ويتبع سنن المتفيء باللدى المستحل، ويقبض يده عن كل محرم توثق أشركه وتورق غوايثه، وتؤذن بسوء المتقلب شواهده ودلاله، ويجعل له من نهاره رقيباً على نفسه يصيبها عن مراتب الفي وشطراته، وامتناء يصد عن مساربه الائم ومساربه، فإنها لا تزال إمارة بالسوء لإن لم تقد إلى جهد الرشد، وتتقم لها سوق من الوعظ فيها أقصى الغاية والأمر فناسه من اضحى لها عند سورة الغربة وإراعة، وانشأ عليها بلوم يغفو معه عن كل ما يسخط الله تعالى نازعاً، وان ينزيه عن النهي لما هوهه مرتقب والأمر بما هو له مجتنب أذ كان ذلك بالجنة خالياً وبين الأمر وبين مقصد هديه حسناً قـال الله تعالى: (اتمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وانتم تتلون الكتب أفساً) (تعظلون) (43).

وأمر أن يضفَّي على مـن قبله مـن أولياء أمير المؤمنين وجنده، أصناف جلالي الاحسان وبروده، وبخصمهم من جـزيل
حبانه بما يصلون منه إلى أبعد المدى ويملكون به نواحي الأمال ويدركون قواعي منى، ويميز من أدي واجبه في الطاعة وفرضه وأبدى صفاتهم في الفناء بين يديه بمزيد من الاشتغال يرهاق بصيرة كل منهم في التوفر في ما واقفه، ووصل بإذنه في التقرب إليه سابقه، ويدعو المقصور إلى الاستبصار في اعتبار ما يلحق فيه رتبة من فازت في الحظوة قدحها، وفانت الوصف غره في الزلقة واوضاحه، لمجره في الاغتناء إoblin التممة، كما انتهج بها مسترتشدا، وطالباً ضوال الراوي التاقب ومنذدباً وقد بين الله فضل المشورة التي جعلها لقاها، وفي حنانش الشكوك مصياها، حيث أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بها، وبعده منها على أسد الأفعال واصوبها، فقال تعالى: (وشاورهم في الأمر فإنما عزمت فتوكل على الله) (۷۶).

وأمره أن يعدل في الرعايا قله، ويحملهم من الأمان هضابه وقلله، ويمتحنهم من الاشتغال، ما يحسن به أمورهم من الاحتفال ويحين به طيب الذكر بحسب ما اكتسب من رضي الأنجاء والأخلاص، ويضفي على المسلم منهم والمعاد من ظل راعيه ما يسار فيه بين القويم ودمعه، ويلحق النتيج بهم بالطريق: ليكون الكل واعدين في كنف الصون، راجعين إلى الله تعالى في إمدادهم بالتوفيق وحسن الطاعة والعمل. وأن ينظر في مسالهم نظراً ينصر الحق فيه، ويذكر علم العمل في مطرية، ويتصرف معه بعضهم من بعض، وينصب به بهم من اهتمامه أحسن قسم وحظ، مديناً لهما في ذلك جانبه، ومبيناً ما يظل به كاسب الأجر وجالبه، ويزيل عنهما ما شرعه ظللة الفناء تلك الأفعال، ويديل من تلك الحال باستثناء ما يوطنه كواهل الأمال، جامعاً لهما بين البيل والبركان، قال الله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والأحسان وإيابع ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والابغى يعظكم تعلاك) (۷۶).}

وأمره بأن يكون بالمعروف أمراً، وعن المنكر زاجرًا، والله تعالى
في إحياء الحق وإماتة الباطل متاجراً، وأن يشد من الساعين في ذلك والداعين إليه، ويعد القيام بهذه الحال من أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى يوم القدر عليه، وتقدم بتعطيل ما في أعماله من المخالفين وتحذيرها، وإزالة أثارها ومحوها، فإنها معاون في المحاربين أهلها، ومن مشارب العاصي نافلها، وقد استأست على غير التقوى مبانيها، وأخلاص من كل ما يرضي الله تعالى مغانيها، وقد أبان الله تعالى عن فضل الطائفة التي ظللك بالعروف أمة وعن المفكر ناجية، وضمنت بما تزوى فيه عن مقاصد الخبر ذاته لايلة، فقالت: (أ كنت خير أمة اخترعت للناس تأمورون بالمعروف وتنهبون من المنكر وتؤمنون بالله) (37).

وأمره أن يرتب لحماية الطرقات من يجمع إلى الصرامنة والشهامة، سلك محاج الرشاد والاستقامة، وجعل التعطف عن ذميم المرائع شاهدوا بتوافق الله إياه، واعتقده عليه بما تحمده مغبته وعلاقاه، ويأمر بحفظ الساحة، واحتشاقهم بالحراكة السبعة، الشاملة، وحماية القوافل واردة وصادرة، واعتمادها بما تُقفو به إلى السلمة، مفيدة صائرة: التحرس الدائم مما يبيه.

ويريقها، والأموال مما يقصد فيه سبيل الأضواء وطريقها، وأن يخفهم نتائج التقصير، ويعرفهم مناهج التتبع، وأن عليهم ركبًا يلاحظون أمرهم ويوضحونها، ليكون ذلك داعياً إلى النجوت والتحرز، واعتماد الإيث إلى جانب الصحة والتحيز، ويوجيه لهم من بعد ما يكفي أمثالهم مثله، ويفك أيديهم عن الامتلاء إلى ما يسهم، فإن أخف أحدهم بما حد له، أو منج بالسوء عمله جزاء، بسبب ذلك وموجيه، قال الله تعالى: (من يعمل سوءًا يجزه) (38)، وأمره أن يتقدم إلى نوابه في الأعمال بوضع الرصد على من يجتزه بها، من العبد الابن والاستطمار عليهم بحسب العدل والعتسق، واستسلام ماكثتهم التي فصلوا عنها، ومواطنهم التي بعدوا منها، فذاقوا وضحت أحوالهم، وتباد واخرجت الشكوك في بابهم وزالت، أعادوهم إلى موالاتهم، أباوا أم شاءوا، وأن يقصدا انشاد الضوال، ويجتهدوا منـ
وامره ان يختار للنظر في المعاقون والاجلاء من يرجع الى دين يحميه من مهابي الزلل والصلف عن مد اليد الى أسباب المطاعم وكلف بما تعود على ما كانا كلف إيابا بصلاح شرق المطالع ومعرفة بما وكل الية كافية وافية ولم يجب الاستزادة له ما حيلة الف.apache:/www.apache/.apache.org/ موعزي اليهم بالتشمير في طلب الدعا ، من جميع الأوامر والاقطار ، وحضم موارد العمار في بضائيهم والمضار ، لأن يمضوا فيهم خيط الله بحسب مقاصدهم في الضلال وتجري أمرهم على قانون الشرع المثير في حداث الظلم ممتعين ان يرقبوا من لا يرقب الله تعالى في فعله ، ويجبانو الصواب بقبول الشفاعة فيمن شهدت أثما بذكم سببه : إذا وقع الاضطراب في شك في الغي قناعه ، وظاهر مساوعه إبائاة من إجابة داعي الرشد وامتناعه ، اقيم حد الله تعالى فيه من غير تبد للواجب ، ولا عبر من ملابس السلاكين للجد اللاحض (بصلى الله عليه وصحب) حقد الله فانلكهم الظلمون ) (20)

وامره ان يوعز الى أصحاب المعاقون بأن يشدو من القضية والحكام ، ويجدوا في إجراء امورهم على أوق شروط الضبط والإقحام ، ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ أحكامهم وإمضاؤها، والمدارة إلى حد مطالب التشمير في ذلك وانضاجها ، والصرف على امتلتهم في إحصار الخصوم اذا امتعوا ، وسوفهم الى الواجب اذا زاغوا عنه وانحرفوا ، وان يتقون بإمداد عمال الخراج بما يؤدي الى قوة أيديهم في استفاء مال المخلف واجبائه ، واعتماد ما
ينصر الحقوق في مطابقة وأثنائه، إذ كان في ذلك من الصلاح الجامع وكف المضار وحسم المطامع، ما المعونه عليه واجبة، وللتكفيف مقارنة مصاحبة. قال الله تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى) ولاتتعاونوا على الجهل والعدول واتقوا الله أن الله شديد العقاب (41).

وأمره بغض من تضمه الحرب الصبر والمجمد، والجزاء، وتأمل أحوالهم في الموارد والمناصب والرجل الغير من متولي الشرطة في نظر صورة كل منهم والسبب في حسبه والتفاني من ذلك على ما يعرف به صحة الأمر من لبسه، فمن الفقيه منهم للذنوب النافع، وعن سنن الصواب منحرفًا، ترك بحاله، وكف بإطلالة اعتقاله عن مجاله في مبادئ ضلاله، وان وجد منهم من وجب عليه الحد، أقام فيه حسب ما يقضي الحق، ومن اعترضت في باباه شبهة تجوز استفاط ذلك عنه، ودراه، اعتمد الحاقل في ذلك بمنين اتصل إليه صوب الاحسان ورد، ودراه من لم يكن له جرب وتضهر صحة شاهده ودليله، قدم الأمر في إطلاقه وتخليه سبيله، وان عدا لأحدهم سعي في الفساد واضح وبان، وغوى به في محاربة الحق وخطى قول ما امر الله تعالى به في كتابه حيث يقول: (إمما جزء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصليوا أو تقطع أذنيهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا وهم في الآخرة عذاب عظيم) (42).

وأمره باختيار المرتب للعرض والعطاء، والتفقه في الأولياء من ذوي الحقوق والنصب، والمشهورين في الخاصة، وتساوي العلن، والسرية، ومن تحل بالانتماء جيدة، واعتقاد بطرفيه في الرشاد تليده، وكان بما يصدق عليه، بما في الكتابة نابلا مخلاسا وإن بتقدم إليه بضبط على الرجال وشبوات الخيول، وإن يقص في كل وقت من تجديد العرض ما يشهد بالاحتفاظ بالمناوات الأهداب والذبول، فإذا وضع وجه الإطلاق، وسلم مال الاستحقاق، كانت المعرفة على قدر المنازل في التقديم والتأخير، ويحسب الجراد التي تدل على الصغير من ذلك والكبر، ومن طرق أحمدهما ما هو محتاج على خلقه، أعاد على بيت المال من رزقه بقدر قسطه وحقه، وإن يلزمهم
أهداف جياد الخيول وخيار الشباك، وباختيهم من ذلك بأوضح ما
نهج المرء الطريق في وسلك. فإن أخل أحدهم ما يلبسه البروز في يوم
العرض، أو قصر في القيام بالواجب عليه الفرض، حاضب به ذلك
من الثابت بمسمه، والطريق بمسمه، تتباهى على تلال في
الفارط، وتضببوا في البعد عن مقام المخلقي الغالب، إذ كان في
قوتهم وكمال غضبهم أرهاب الأعداء والأضراد والأعمال، قال الله
تعالى: (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل شهوب)
به عدو الله وعدوكم) (۷۳)

وأمره باختبار عمال الخراج، والضياع، والأعشاب،
والجهدة والصدقات، والجوالي وأن يكونوا محتضنين من
الأمانة والكفاية بما يقع الاشتراع في علمه، ومنتصفين من ملابس
العفة ما تحمد العواقب في ضمه، وتميزين بما يغنيهم عن الأفكار
بنتاجه الانتظام والاعتبار، ويغلبهم بالاستمرار على السكن النجاح
لهم من مواقف التنصل والاعتدار. وأن يأمر عمال الخراج بجباية
الأموال، على أجمل الوجه والأحوال، سالكين في ذلك جدًا
وسطًا، يحمي من مقام من ضعف في الاستخراج أوسطًا، وإن
يتقدم إلى الناظرين في الضياع بشوفية العمارة حقها والزراعة
حدها، والوقوف من حفظ الفئات المحالة على ما يقتضي فيه أشد
المذاهب وأسدها، متحركين من أمر ينسبون فيه العجز
والخيانة، فكل من الحاليين مجز في وضوح أهل الفساد ومخل
والإجهادية يقصص الصحت في القبض والقبض وحفظ النقد
ومن التدابير والتدابير، أداء للأمانة في ذلك، واهتداء في إلى
أقوم المساك، والمعنى الصدقات بأخذ القراص من مواساة
المسلمين السائمة دون العامة والجزي في ذلك على السنة الكاسبة
لحمة الوفاق الكاملة، متجنحين من أخذ حفل الإبل وأكلة
الراعي، وعقول الأمواج المحدودة على سائر الأساليب
والدواعي، فإذا استوفيت على الحدود من حقهما، أخرجت في
المنصوص عليه من وجهها وسبيها، وإلى جهاة جماجم أهل الدماء
بأخذ الجزية منهم في كل سنة، على قدرات ذات أبديهم في الضيق
والسعة، وحسب العادة المألوفة المتبعية، ممتنعين من مطالبة
النسوان ومن لم يبلغ الحلم من الرجال ومن على سمعه على
الاكتساب، وتبث من الرهبان، ومن قد فقره واضح الدليل، والبرهان،
وفاء بالعهد المسؤول، وتلقية لامير الله تعالى بالقبول حيث يقول: (7)
واضعا بالعهد إن العهد كان مسؤولا) (27.

وأمره أن يرد أمر الظلم وأسواق الرقيق ودور الضرب والطير،
والحسبة إلى من عضد بالظلم الورع، وانتظم له سأل الهدي
واجتمع: فكان ذا معرفة بما يحرم ويحل، وبيضة يتقا بها من
عوارض الشرب، ويستظل، فإن يكون النظر في ذلك مضاهيا للحكم
ملامسا، ولن يقوم به إلا من لا إرادة عادلا له في فعله لإماما.
وإن ينتمي إلى من يطي المظالم بتسهيل الأذى للخصم في الدخول
عليه، وتمكن كل منهم من استياء الحجة بين يديه، والتوصيل
إلى فصل ما بينهم بحسب ما يقود الحق إليه، وإن يقصده فيما وقع
الخلف منبه فيه، والكشف الذي يقوم به ومسطوه، فإن وضع له
الحق انفذه وقطع به، والإرهاق إلى مجالس القضاء لإمضاء ذلك
على مقتدى الشرع وموجه إلى المرشد في أسواق الرقيق بالتحفظ
فيما يرتاع وبباع، وأن يستعمل في ذلك الاتهام للفسن الجميل
والإباح: ليؤمن اختلاط الحر بالعبد، وتحرر الأحباب من القذح
والعروف من الغضب، في ضمن حفظ الأموال، والمنع من مزج
الحرام بالحلال، والولاية العامية بتصنيفية، عين الدرهم والدينار
من الغش والانذال، وصول السكك من الداخلة الإغريقية لها
بجال من الأحوال متحذرين من الاغترار بما ربما وضع الفساد
فيه عند الاعتبار، ومأمون التجار المخصوصين بالإيراد من كل قول
مخالف للإياض في الصحة والمراد، ومعتمدين إجراء الأمر فيما يطبع
على القانون بمدينة السلام، من غير خلاف لمستقر القاعدة في ذلك
ومثفق النظام، وأي أن يثبت ذكر أمير المؤمنين، وولى عهده في المسلمين
على ما يضرب من الصفح في، ومسارعة في ذلك إلى الأفضل
مابادير اليه المرة وسعى، والمستخدمين في الطبي بحاجة لحوار
المناسج والأشراح عليها، وأخذ الصناع بالتجويد على العادة التي يجب الانتهاء إليها، وبأثبات اسم أمير المؤمنين على سمايسم من الكلسا والفوشوش والأعلام والبنود، جرباً في ذلك على المسند المرضي والمطحوض والمناوج المحوج ولي من يراعي الحسبة الشرفية بالكشف عن أحوال العوام في الأسواق، والانتهاء في ذلك إلى ما ينتهي به من شمل الصلاح إلى الانتظام والاتساق، فإن يقتدم الإمام بما يوجب من تعديل ما يختص بهم من المكاملة والموازين، وحملها على قانون الصحة الواضحة الدلالات والبراهين، فإن يقصد تبصيرهم موضوع الحظ في الاستقالة، ويجذبهم مواقع الانتقام الذي لاتفيد فيه استباق الاستقاف والاستقالة، فإن عرف من أحد منهم أقداماً على إدغال فيما يزن أو يكل، قول من الناس بما هو الطريق إلى ارتداؤه والسبيل قال الله تعالى: (ويل للضفاحين الذين إذا أكثروا على الناس يستوفون وإذا كازوهم أو وزنهم يخسرون) (76).

وأدرى أن يعرف قدر النعمة التي ضفت عليه برودها، وله جيدة عقودها، وزفته منه إلى أوق أطفالتها، وفتح بجزيل القسم من جميع اكتافها وارجائها، وإن يقابلها بالخلاص في الطاعة يساوي فيه بين ما يبدي ويسكر، ويسعى في الخدمة يوفي كل مجاز ومبش ويدا أمام ماهيجها بأخذ البيعة لأمير المؤمنين، ولقيه على نفسه ومعله، وكافة الأحكام والرعايا في بلده، عن نية صممت من الكر والقهر، ووقف للتوقيف بما ضمت من خذلان مبغي وحسرة الهدى، ويتبع ذلك بالحقوق في كل خدمة ترضي، والوقوف عند الآوار الأمامية في كل ما يؤدي إلىوافق، ويفض، وأن يحمي إلى حضرة أمير المؤمنين من الفني، والفنانين ما أوجبته الله تعالى، وفرضه، من غير تأخير ما يجب تقديمه من ذلك ولا تستغر منه فيما يقتضى التلاقي والاستدراك: لبامر أمير المؤمنين بصرفه في سبيله المشار إليها، ووجهه النصوص عليها، قال الله تعالى: (واعموا إنما غنتم من شيء فإن الله خمسة للرسول ولذي القرى والشيام والمفسدين وابن السبيل) (77).
ثم إن أمير المؤمنين آثر أن يضع له من الأحسان، ما يقتضيه مقاله لديه من وجهته النظرية والمكان، وشرمه بما يرفل من حاله في حلل الجمال، وكفل له علاؤه ببلوغ منتهى الأمال وأباوه بما أولاهم مهما تقتصر عن الوصول إليه الأقدام، وتعجز عن حل عرائه الآيام، ولقيبه بكذا، وإن له في تكديمه عن حضرته، وتأهله من ذلك ما يتجاوز قدر أميته: إناءه به على من هو في مساجته من الأقران طالع، وإضافة للتلمذة في ذلك إلى ما اقترب به فيما هو لشمل الفخر عنه جامع، وانده لواء بيويه إلى الطاعة إبني الاعتق، ويجوي به من العز مانواره وافية الأشراف.

فقلت باقلان هذه الصنعة الغرّاء، والمنحة التي اكتسبت زنتاك الآراء: بالاستبشار التام، والاعتراف فيها يسبغ الطول والانعام: واسرع ذكر ذلك عند كل أحد، وأنشأ في الإبادة عنه إلى ابعد أعد، واعتمد مكانة حضرة أمير المؤمنين متسمية، ومن عداه متلقيا متكنيا: وتوفّر على شكر تصدق به صوب الزيد، وتنسيق به إلحاق الطريق من الأحسان بالتلبي، والله تعالى يقول: (لتن شكرتم لازيدكم) (77).

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، والحجة لك وعليك: قد اوضع لك (فيه) الصواب، وأنت به الجوامع الصغاب: وحبك منه بهوته كفلته بخيري البده والمتفرع، وفيها الدنيا بسباق الضمام، والمعاد: وضمنه من مواضع ما هدى به إلى كل ما الجني ثمان، وغدا محظيا بما تروق أوضاحه في الجذور غرره: ولم يبال فيه كتملا يكسب الفاخر النامسي، ويجعل ذكرك زينة الحفل والنداء: وتقدماً شيء عما خصصت به من النحس المشترقة اللاتي، وأكراماً يبقى صيحته على تفضي الأيام والليالي، وتصبراً يشي من فلقات القول والعمل ويرتقي البهق من بانواره إلى دفع أنين من دواعي، والثراء والبلوى، فاصغ إلى ما حواجه، أصفاء الفائز بتألق الحظج، وتبت فحواه، الناسك بفضل الحث على الهدى والحذاء، وكن لأؤمر أمير المؤمنين فيه محتذياً، ومن تتجاوز محدوده في مطواريه.

- 382 -
محتمياً، وبمواعظه الصادقة معتبراً في العمل بما قاله الحق مستبصراً، تفز بالغذام الأكبر وبالسلامة في المورد والمصدر، وأليك واعتماد ما تدمن فيه مكاسبك، فإن لك بين يدي الله تعالى موقفاً ينافقك فيه وصاحبك.

واعلم أن أمير المؤمنين قد قلبه جسيماً وجول جزيلًا عظيماً، فلا تنسي نصيبك من الله تعالى غداً، وتتجعل لسلطان الهوى المضل على يداً، وإن خففي عليك السوابق في بعضها انت بصدده، أو اعترض فيه من الشبه ما يحول بينك وبين طريق الرشاد وجده؛ فطالع حضرة أمير المؤمنين به، واستند الله في ذلك بأسد رأي واصبه، يبدلك من الشك يقيناً، ويبعد لك ما يغدو لكل خير ضميناً: إن شاء الله تعالى.
نص المذكرة التي رفعها ابن العربي إلى الخليفة المستهير بالله العباسي (487 هـ - 1094 م) يلتمس تقليداً خلاقياً ليوسف بن تاشفين، والرد الخلاقي مع رد الوزير ابن جهير (78) 

الخادم بالأذنه، تقبلها الله، ابن العربي الأندلسي.

بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلي:

اسعد الله الدنيا وأهلها بدوام أنوار المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستهيرية، وضائع محددة ولااري المسلمين أمدها بغزائب مجد تبدها حوادث أيام تمثل صعابها، ومستانف سعود تحرس جنابها، ولازالت الأيام التي هي لأيامها غمر، وفي كل لحظة للدهر تماثل، وفي الملح غنائم، والحمد لله الذي جعل للمواقف المقدسة النبوية الإمامية المستهيرية شرائع السواد، وخصها بالمعظم المطول بالانتماء، كأمحر من كابر إلى أعلى خندف فهي أعلاها عمادا، وأورها في مواقف الفضل زنادا، أورة الرسالة، وجرودها الخلاقي، إليها ينزع هايم، ومنها اخنت الكبارم، مفسخاً شهد لها الكتب من المنزل، ووعد بخليدها مخبزاً عن الوجي في الله وعقبه النبي المرسل قد أمت بخصمة الله من الغير، وتحققها أخريها على سن، أولها في هيئة البشر بحسن السير، أزعمتا الله الشكر على مامن به من توفيقنا للتمسك بعنايا الوثيقة، والاهتمام بهداها إلي واضح الطريق، فهم في الدين امتنا ويوم الدين وسلتنا، استعملنا الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدي إلى مرضاه وتراضائهم، انتحر الموفق الهادي لأرب غيره.
 وإن الخادم بالأدعية المتقبلة للمواقف المقدسة النبووية الإسلامية
المستظهرية، اللهما الله منها لا يسمع في أمر بموجب
الشرع أن بعدها الأمام العامل من أركان الدين، ومما يتعين ما
يتحتم من رعاية الأمانة هاجر إلى ذلك بنفسه وباينه المسترق القن
من أقصى المغارب، معتقدا أن عمه فضل السلم والرغبة، واحتمال
برد الهواء وظما الهوامر، وأقتحم دون ذلك مسار بنغلت فيهما
القلوب الحناجر، ولم يبته بحرا يخز ولا فجر يغمر، بل يتسبب في ذلك
أثره، ويرجو أن يقرب الله يوم الجوهرة عسرها، يل أن أنهى هو وابنه
الي مدينة السلام، لإزالت محروسة من غير عاصمة لمن متشا ليه
من مهتممي الأمان.

ولم يزل الخادم بالأدعية المتقبلة بحؤول الله يتموسل
بهره، وبثرك بخلو علانيته، ويبسال تشريفة
رقاعة، بملاحظتها، والنبر من انقباضها، غمجة في الحظ
الجسيم، إلى أن وصل إلى الجام السام، وخدم البساط
العالى، زاده الله تشريفة، وئظيفا، وأنهى أغراض فادته ومقاصر
إرادته، فنفتء الأوامر الشريفة آدام الله سموها، وتشريفها
واضفت على الجميع سائر سلطانها، وكذف احسانها بقبول وسائله
والحاج مطالبه، واهتمام الإحسان عليه.

ولما بسط له في الأمل، كان هو وابنه في مجمال الكرامة
والجلال، بدأ يعرض ما هو عليه ناصر الدين، وجامع كلامة
المسلمين، القائد بدعوة مولانا أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى
ابناء الطاهرين، الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفيق المتحرك
بالجهاد، المجتهز إلى المسلمين بالاستناد، فقمة
الفساد، قام بدعوة الإمامة العباسية والناس اشباك، وقد غلب عليهم
قوم دعوا إلى أنفسهم ليسوا من الرهط الكرم، ولم ير شعبية
الطاهر الصميم، فنبه جميع من كان في أفق قيامة بدعوة الإمامة
العباسية، وقاتل من نفوساً منذ أربعين عاماً يا أن صار
جميع من في جهة المغامرة على سمعتها، وامتيدادها له.
طاعة، وأجتمعت بحمد الله على دعوته الموفقة للجماعة، في خضاب
الأن للخلافة، بسط الله شأنها، وأعلى منازها على أكثر من الفي
منبر وخمسمائة منبر، فإن طاعته، ضاءعفها الله من أول بلاد الله
ال阿富汗، استلص الله شافتهم، ودمر جملتهم إلى آخر بلاد
السويس مما يلي بلاد الله غائبة وهي بلاد معدن الذهب، والمسافة
بين الحدين الذكورين مسيرة خمسة أشهر، وله وقائع في جميع
أصناف الشرك من الأفرنج وغيرهم قد فلقت غزبهم وقلت حزبهم
والمثف جموعه حضرهم، وهـو موسمه التمر على
مجادلتهم، ومضياً قتتهم في كل أفق وعلى كل الطرق وقد أصرع
كثر من المعاقل التي استنادها الروم من أمر المسلمين وسبب
اهله قبل حصول تلك الجهات في حكم سلطانه وكانت ثغور المسلمين
بها مستضادة، وقد أعادها جده بحمد الله إلى أولها، واحتمرت
لحزمة المسلمين والإسلام، وعز سلطانه، وهذا دابه وهجيراه
الذي لا يعمل له سواه.

وعده جيوشه إذا جمعها لحركته ستون ألف فارس، وكان أمره
مواصلة حماية دين المسلمين، وأقبله على مجازدة المشركون، إلا
أن الحائز المانع دون ذلك لاتفاه، ولم يزل محافظا على ماهو عليه
من إقامة الدعوة السعيدة، الاعتراف بجعل النعم الوفادة العديدة
بفضل الله. ولقد وصل إلى ديار المشرق في هذا العام قاض من
قضاء المغرب يعرف بابن القاسم، وذكره من حلال هذا الأمير ما يؤكد
ما نكره، ويؤيد ما شرحته، وإنماؤ القاضي الذكور ذلك
بمكبه، وصل الله تشييرها وتعظيمها، وذكر لي أن الروم على شفا
جرف من تضييقه عليهم، وحناءره لهم، وقد تكرر أعلام الخادم
بذلك ما تلزمه من طاعة أولي الأمر لاسيما هذا الأمير، وقد خص
بفضل من ها الدين المثنى، والعدل المستثنين، وطاعة
الإمام، وابداً جهاده بالحاربة على أظهار دعوته، وجمع المسلمين
على طاعته، والارتباط بحماية ثغور المسلمين، وهو، ومن
يقسم بالسوية، ويدع في الرعية ووالله ما في طاعته مع سعتها دان
منه، ولاتناء عنه من البلاد ما يجري فيه علي أحد من المسلمين رسم
هذه حقيقة حالة ، والله يعلم أنى ما أسبت ولا أفوت ، بل لعل
اغفلت أو قصرت ، ولولا أن أمر المؤمنين المستظهر بسليمة
الله عليه وعلى أبابا الطاهرين ، الطول العميم في الأمر ، وشرفه
بقبول تأمله ، وفي الإشارة إليه بما يقتوي أمره ، وشتد
أزره ، و يؤد سلطانه ، وعلي شأنه ، مجرد لله على السن الكريع
الطول العميم ، فوالله ما في الأنهار ولا في شعب النصاوة الأولى من
يجوز في الولاء وصحة الانتهاء سبقه ، ولا يلبس من التصيحة
طريقه ، والله يمنحه من الخلافة المقدسة بنية على الطرق النبوية ما
يصل فيه ويقوي إيمه وشدد عضده بمنه وطوله .
وضراعة الخادم بالأذاعة المتقلبة لنفسه ولابنـه المسترق الفن بعد
الامتنان بإباحة الصدر لهما إلى الوطن ، فقد بعده عن سبعة أعوام
وأقام في الجناب المخصب الظليل والكذيف الرحب المأهول عدة
عامين ، يستران النعم الحافلة جملًا بعد جمل ، ويكدران في
الشارب الجماع العذبة علا بعد نهل ، فله الهمام الشرعية التي
مسحت على شكايتها من عداون الأيام بدي شيم الكرام ، فازاحت
عنهم جميع الشكالات والأنام وهذه نبذة من الصنانين المشكورة
وبلدًا من جزء الأجر عبقة بأرج النهر ، وأن الشرك لنقل في جبانتها
ويقصر عن انزر لازمها لأنها ضمت حياة نفسيين وأشرت فيدوي
رسامين ، فكانها قد أجبت ضعف الوأ ، ونشرت إسالة المستودعين
في الثرى ومن أحيائها الواحدة (فكأنما أحيها الناس جميعًا) (87) عند
الله تعالى كفاؤها ما أولاد مولانا الإمام المستظهر بسليمة المؤمنين
صلوات الله عليه وعلى أبابا الكرميين من جمل الفعل وجزيل من
تأهله في سبيل الفضل ، والخادم العابر الغلب هو وعقبه بالحالة
الناضجة والطاعة الخالصة صدر في جمالة الحامدين ويعين أن
لا يكون مقصراً عن درجة السامعين ويضع في وسعه وصول الملوك

- 387 -
ابنه عين التشريف السامى، لازال القدامى والكرام، تيجنا على قسماتهم، العز والكرامة عنوانا لبعيد حيث جنوا إلى البهاء، ذكرهما، والليبر والكرامة قدراهم، وظهر مزية وفندتهم ورعاية هجرتهم، وثبت لهما من الفماخرا ما يبهر عليه البكر المواز، ويتداخل له الحسود المكابر. وبقي للشريعة على مر الأيام، ويضرع أن يتضمن التشريف العزيز بشعوت اسمه في الديوان التشريف ضاعف الله علله ونعمه بما خص به والملك أسر من الكرامات والنعمة، وانه متي وفد هو أو ابنه الملك كان للوافد منهم تجديدا على مر الأيام مؤكدا مخالدا، حسب العادة الكريمة له وسلفه الأكرمين رضي الله عنهم انهم متي انعموا بنعمة، أو خصوا بكرامة ومنة ثبت مؤبدة، وجدت مخلدة، لرميت بال أمر العالي، والتشراف السامي فيهما جميع مyen يردان عليه في كل الأفاق من جميع الأطواق وامتثالا بعد لهم وان الأكرام واحتمالا على مثالي، بجنوبهم من التنويه والإعتام، وإن ذلك يرثه الخلف من عن السلف، وتكون لنا مزية التشريف بالوصول إلى مهار العز المأمون، لا عدم الله مولانا الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى أباه المنتسبين مبرة تتضاعف بها العالى، وسعيدة تحرز أسن الأساني، وكفاءة يستمد بها حرية الأيام والليالي، فذلك بيد، وغير معجزة، وهو المنعم الجواب، وكل خير من طوله مستفاد، لا كريك له، ولا توفيق إلا به والحمد لله حق حمد، وصلواته على سيد المسلمين رسوله وعبده وعلى الله الطيبين، وعشرته المنتسبين الرشدين، أباء أمير المؤمنين صلوات الله عليها أجمعين إلى يوم الدين، ( وحسبي الله ونعم الوكيل ) (٠٨١).
رد الخلافة

فراجعه عنه على ظهره بتوقيع عزيز اعد أسطرة سبعة وثلاثون
سطرا بخط فسيح كتابي مليج بين السطر الأول منه والثاني منه
العلامة العزيزة بخط أمير المؤمنين بالقللم الغليظ بمداد ممسك
المستظهر بالله.

عرفت هذه القصة بمفاوض العزو العصمة، وموقعة الإمامية الطورة
المكرمة، زاد الله في جلالها وسماع نفللالها، فخرجت الراضم
الشريفة بأن ذلك الولي الذي أضحى بحب الاستخلاص معتصمًا
والشريفه ملتهما، وألي اداء فروضه مسابقا، وكل فعل فيما هو
بصدده التوفيق مساوقا، لأربية في اعتقاده، ولاشكن في تقليده من
الولاء، طويل نجده، إذ كان من غذا بالدين تمسكه، وفي الزيداء
عنده مسلكه، حقيقة بأن يستنب صلاح النظام على يده، و يستشهد
من يومه حسن العقبي في غد، وأفضل مانحه، عليه ومن
الاجتهاد دار رحاه، جهاد من يليه من الكفار، وإثيان ما يقضي عليهم
بالاجتياح والبشار، اتباعا لقوله تعالى: ( الذين بذلتم من
الكافر ) (42) فهذا هو الواجب اعتماده، فيقوم به الشرع
عمده، وأن يذل يمل من في حملته من الأحاديث على الطاعة
الأمامية التي هي العروة الوثقى والذغخر الباق، واستقراء قبوله
 تعالى والعمل به، والبشار إلى التثبت بسمه ( يا أيها الذين آمنوا
اطبعوا الله واطبعوا الرسول، وأولي الأمر منكم ). (43)

ولكن دابه الجهاد فيما يكسب عند الله تعالى الزلف، يمنحه
من رضاه الاسم الأكمل الأحق، يدوم تجد كل نفس مما عملت من
خير محضا ومت عملت من سوء توجد لو أن بينهما وبيته امدا
بعداً، (44) وان يختص رافعها وولد بالإفراز الذي يضف عليه
برده، ويصفي لهدا ورده، لب phó عليه من المهاجرة جمل الأثر
وينول أمرهما فيما يرجع أنهما إلى استقامة النظام ومضم النشر.
فليقابل الأمر الأسنى في ذلك بامتنال واحترام مطاع المثال إن شاء الله. وكتب في رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمئة.
من الوزير الأجل السيد الأعدل، عميد الدولة بهذه اللالة، شرف الأمة، ولي النعمة خليصة أمير المؤمنين محمد بن محمد بن جهير إلى أمير المسلمين ومناصر الدين القرار بدعوة أمير المؤمنين، أركي الرغائب بأرض الغرب، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، أطال الله بقائه ومدتله، وضاعف بسطته، وكبت أعدائه، وحاسدته، أمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابي من حضرة مولانا أمير المؤمنين، أبي العباس، المستظهر بالله، أدم الله أيامها، وأوضاع أعلامها، وأعز أنصارها، وعلى منارها، الأحوال مستقيمة بإقبال دولته، منتظمة ببسم تذبحه وسبايسته، تجري على أفضل ما عودها الله تعالى من نفاذ الأمور، ومضاتها، وانبساط السلطان وإعلانها، ونحن مقاتلون نعمته بالشكر، والاعتراف، مستديمون مديها بالعدل، والانضمام، متحفون إجابة رغبتنا في توفيق أولياء مولانا الخلاصين، وأهل الطاعة من كافة المسلمين لما يقرب من طاعته، ويزوع شكر نعمته السبعة عليهم بولايتها، فقد استخفف عليهم عند أكرم مستخلف وعطف عليهم بولايتها أفضل مستعطف، فأصبح وقد أطاعته الأمة العاصية وأمكنتها الغائب فنذل الصعب ورقب الشهاب، وقرب النازد، وأرضي الجامع، وقوم البدن وأصلحقام الحق عامرة بدثورها، ومشاربه صافية بعد ركودها وبقضاء الخير نافقة بعد كسادها وأحوال الأمة صالحة بعد فسادها، مبتهجًا فيما أتاه الله مصلحة أخراه، غير ناس نصيبه من دنياه، طامحا بطرقه إلى أعلى الدرجات، في قرره، أخذ بفضل الاقبال في حالته، فلباس القوى شعاره، والعمل الصالح دناره، نهاره مقسم بين تلاوة القرآن وإقامة إحسان، وغوث مكروب، وفك عار محروم، وسد ثغر، وصلاح أمر، وتدبير شرق وغرب، وبر وبجر، فأعين الرعية قائمة بشهداته، وأنفس البرية مسترحة
باجتهاده، ولا جرم أن الله يصلح بإله وحسم ماله تصديقا لما قال
جل جلاله: ( يا أيها الذين آمنوا اتبعوا الله وقولوا قولا سديدا)
يصلك لعمالمكم ويجفر لكم نعوكم ومن هذه الأخلاء الطاهرة ونطق
القرآن بأمانته الباهرة فإن الله تماثل ( وعد الله الذين آمنوا منكم
واعلون الصالحين ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من
قبلهم ولم يكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم
أمنا بعدونا لابشرون بي شيئا) (37) فالحمد لله الذي أنجز لأمير
المؤمنين ما وعده وحقق له التمكن وأيده وأمن السبل بخلافته
وأقام الحق بإمامته، وسره له من أوليائه من تنفذ بطاعته أوامره
وؤزره على فعل الخبرات وباشره وذيع رحمته ودعوته، وظاهر
سعودة وكلمه، وينتهي إلى ما فرض سبحانه عليه من طاعة ولاة
الأمر المقتربة بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم إذ يقول
 تعالى: ( يا أيها الذين آمنوا أطعاء الله وأطيعوا الرسول وأولي
الأمر منكم) (57). استنادا نعم الله التي لاتحيد، واستمادا من
عوارفه التي لانتهد، وما كان الأمير أطلا الله بقائه، وأدام تمكينه
ورفعته وسموه وسلطته، وكتب عدوه وحسدته من صبح عهد
خولص عند ولايته ولزوم طاعته لأمير المؤمنين والعزوف عن أعدائه
وإظهار العدل في الرعية، فخرا بارائه وتمسكا بما أمر الله تعالى به
من مجاهرة أعدائه وتحريض عساكر الإسلام على مفاجئه عدوهم
وبنبل نفوسهم ومشاركته لهم في نعمهم وبسهم، وما فتح الله لأمير
المؤمنين على يده من ثغور الإسلام بجزيرة الأندلس وما جاورها مما
كان العدو قد تغلب عليه واستباحه، واستنال شافته واجتاحه عند
اختلاف الخوارج بها وتبان مقاصدهم وعبادتهم عن الواجب في
مصادرهم ومواردهم، أنهيت إلى المواقف المقدسة العليما الشريفة
النبوية الاستدزية زاد الله في جلالها وامتداد ظلاله هذه الجملة
فخرج من الشكر للأمير أطلا الله بقاءه واعاله واحمد طرانقه
وحسن سبره وجمال مقاصده ودعاء مشاربته على جهاد دعو
المسلمين وتصديق ما جاء به عن سيد المسلمين، لا يزال اهل الغرب
على الحق ظاهرين وذائكون عقائدهم في خلوص الدين واقترار مذهبهم على صحة الدين، على يد الشيخ الفقيه أبي محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي وابن القاضي أبي إكرام محمد أباد الله عزتهما ما يردهم يغفر وتاريج به سطور الدفاتر وتنعى به جدود العواشر، ولقد بلغ هذا الفقيه وولده في اثنتي عشرة على الأمير وأطنابا في وصف ما عمتده من لزوم قوائم المعاني والانصاف ومجلوبة طريق العسف والاعتداف، ولم كن راينا في هذه الطائفة التي تأخذ في الحدود الشرعية بقولها وتسوقي في السياسة السلطانية برائها جميلة، وتميزنا بالبر لم أنسلنا فيه الطرق القوية وجنودنا إلى معرفة بصدق العزيزة، شكرنا لأمير المؤمنين أطر الله بقاءه، اقتداء بهذه الطائفة ورجعلها إلى قولهم في الحال، اخذنا بارأى المواقف المقدسة زادها الله مضاءا وامتثالا لقصدها، وكذلك هذا الفقيه وولده المقدم نكرهنا مما شاهدها من خلاصها وحسن هديهما بما بقتضي تقبلهما وأناها، فرأيناها واعدتمنا برهما إكرامهما وأصدرا هذه الجولة القاضية باحلاح الأمير محجة المنيف على استحقاقه الإجلال والتشريف نظرا لمقالهما وإحسانهما، وتعلتنا عليهما وأمنتنا، فليمتد الأمير أطل الله بقاءه مصالح أمورهما، وليتروخ ما معند باستقامة شؤونهما ولايومهما ضمن موقع النزية عن ولبدهما صفقة الإقبال بمه، ولعبذلك تقوى الله فيما يجري من الأمور على يديه ولياقبة تعالى فيما فرض من احوال الرعية إليه، وليعلم أن المصير والرجوع إليه ويطلع بإخباره وما احتاج إلى علم من بجهته إلى شاء الله، وكتب في عشر من رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمائة والخمسين لله ووجود وصلواته على سيدنا محمد نبيه وسلمه وحبستنا الله ونعم الوكيل.
الخطاب الذي وجهه ابن عربى إلى حجة الإسلام
الإمام الغزالي ورد الغزالي عليه، مع رسالة بعث بها
الغزالي إلى يوسف بن تاشفين

قال ابن العربي:

وكان من أشهر من لقينا من العلماء في الألفاظ، ومن سارت
بذكره الألقاق، لطول باعه في العلم، وربه نزاعه، الإمام أبو حامد
ابن محمد الطوسي الغزائي، فاستدعينا منه فتاوت وكتبنا، اختصرت
لفظ الفتى لوقت ضاقت عن تقييدها، لكن أنه كان معيناً وهو
في علم الإمام مانكر في وصف خلال أمير المسلمين وناصر الدين أبي
يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربين الأندلس والعدوة، وما
أوضحنا به من إعزاز الدين، والذب عن المسلمين وهو حميري
النسب وقبله المرابطين، قد وقفوا انفسهم على الجهاد، وقد كانت
جزيرة الأندلس قد تملكتها من تاريخ أبداء الفتى سنة إربعشانة.

مرة ثوار تسرووا على البلاد وضعف أهلها عن مدافعتها، وتلقبوا
بألقاب الخلافاء، وخطبوا أنفسهم، وضربوا النقواد باسمائهم
وأثروا الفتى بينهم لرغبته كل واحد منهم في الاستيلاء على
صاحبه، واستناوبا الفساق من الأرقاء، والصنايع الطلفاء، في
محاربة بعضهم ببعض، واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقل كل واحد
منهم أنه احق من صاحبه، وعند ذنبه، شوكة المسلمين، وحينما
انكشف للنصارى ضعف المسلمين، وعلموا الداخل والخارج إلى
بلاد المسلمين. طلبو المعاقل وآخذوا بالحرب كثيرا منا من غير
مؤونة ولامشقة. ثم نجى الباقى من المسلمين إلى المرابطين
واستمرروهم فلباهم أمير المسلمين ووصل إلى البحر، فاستوقف
بعض الروسية وفاء للمشركين، وحذقا على المسلمين في
استدعائهم له، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس فمنهجه الله النصر.
والجم الكفار السيف ثم عارض الجوائز في العام الثالث من هذا الفتح، فتهيجه العدو، وتحصن منه، ولم يخرجه للقاءه، فتسلل إليه، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء، واستولى على من قد عز من الروساء عن البلاد والمغول، وتقبلا طائفة من روؤساء الثغر الشرقي من جزيرة الأندلس، حالفوا النصارى، وصاروا معهم إلقاء، ودعاه أمير المسلمين إلى الجهاد، والدخول في بيعة الجمهور، فقالوا لا إجبار إلا مع إمام من فش الرأي، ولست به، أو مع ناديه عن إمام وما انت ذلك، فقال أنا خادم الإمام العباسي، فقالوا له أظهر لنا تقديمه إليك، فقال، أوليس الخطبة في جميع البلاد؟ وياذا فتتح للحلف؟ وإذا ظهر بهم كيف الحكم في أمثالهم، وهل على مسلم حريص في قتالهم؟ وهل على الإمام العباسي أن يبعث له بشور يتضمن تقديمه له على جهادهم، فإنهم إذا خرجوا عليه بان الأمير خادمه وهو يخطب له على أكثر من الفي منبر، وتضرب السكينة، بسبمه إلى غير ذلك، ومتى وصف نفسه قال: لست مستبدا، وإنما أنا خادم الموليين المستقر، وهذا أشهر من أن ينكر بالتحية، وأظهر من أن يجده بالتركيبة.

فلالشخ العين بالأجل الزائد الأوحد أبي حامد الأجر، واعم الشكر في الانعام بالزلاقة في هذا السؤال، إن شاء الله، فاجابة الإمام الغزالي رضوان الله عليه:

لقد سمعت من لسانه وهو الوثيق به الذي يستغني عن غيره، وعن طبقة من ثقة المغرب القضاء وغيرهم، من سيرة هذا الإمام أكثر اللهو في الأمراء أمثاله، مما أوجب الدعاء لامثاله. أصاب الحق في إظهار الشعور الامامي المستظهر، حرس الله على المستظهرين. من علاته، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على أقطار المسلمين في مشارق الأرض، وتحملهم، تعزيع من مواربهم بالدعاء للامام الحق، وإن لم يكن قد بلغهم صريح التقليد من الإمام أو تأخر عنهم ذلك لعائق. وإذا نادى الملك المستولي.
بشعار الخلافة العباسية، وجب على كل الرجال والرؤساء الادعاء والاتقياء، ولزمهم السمع والطاعة وعليهم أن يتغدون أن طاعته هي طاعة الإمام، ومخالفته مخالفته الإمام وكل من تمرد واستعصى وسلم في الطاعة، فحكمه حكم الباغي، وقد قال الله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين افتتلا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلاها التي تبغي حتى تفغل إلى أمر الله) (89) والفترة إلى أمر الله، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاية الإمام الحق لتنصب إلى الخلافة العباسية فكل متمرد على الحق فإنه مروّد بالسيف إلى الحق، فبقي على الأمير وأُشيّعه قتل هؤلاء المتمردين عن طاعته، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين أولياءه، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله فمن أعظم القرى قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية.

ومهما تركوا المخالفة، وجب الكف عنهم، وإذا قاتلوا، لم يَجّ كل يؤتى مديهم، ولا ينفف على جريحهم بل مهما سقطت شوكتهم وانهزموا، وجب الكف عنهم اعتنى عن المسلمين ومن دون النصارى الذين لا يلقى لهم عهد من التشاغل بالقتل والسلمن. وأما ما يظهر به من أموالهم، فمرورد عليهم أو على ورثهم، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القرى مهارة لأبناهم فيها، وحكمهم بالجملة في البغاء على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة، المستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة، حكم الباغي على نائب الإمام.

فإنما تأخر عنه صريح التقليل للاعتراض العوائق المنعورة من وصول المنشور بالتقليل فهو نائب بحكم قرينة الحال، إن يجب على الإمام المصري أن يذكر لكل إمام عدل استولي على قصر من أقطار الأرض، في أن يخبط عليه، ويأدا بشعاره، وحجمل الخلق على العدل والنصفة، ولا ينبغي أن يتقلب بالإمام توقف في الرضا بذلك والأنف فيه.

وإن توقف في كتابه المنشور، فالكاتب قد يعوق عن إذنها.  

-396-
وايصالها المعانز، وأما الأحزن والرضى بعدما ظهر حلال الأمير في العدل والسياسة وابتعاد المصلحة للفوضي والتعتيم، فلا رخصة في تركه وقد ظهر حلال هذا الأمير بالاستفادة ضعوها لا يشك فيه وإن لم يكن عن إيصال الكتاب وإنشائه عائق، وكانت هذه الفتنة لانطفئي إلا بأن يصل إليه صريح الأحزن والتقليد بمنشور مقرر بما جرت العادة بمعظمه في تقليد الأمراء، فيجب على حضرته الخلافة بل إن ذلك، فإن الإمام الحق عاقبة أهل الإسلام، ولا يجعل له أن يتحرك في أقطار الأرض فتنة ثانية إلا ويسعي في إطفائها بكل سعي. قال عمر رضي الله عنه: "لا تركت جربوا على ضفة الغرارات لم تطل بالهناء، فانام المسؤول عنها يوم القيامة." وقال سليمان بن عبد الملك يوما وقفت احديه به الناس: "أقد كثر الناس؟" فقال عمر بين عبد العزيز: "خصصاًك يا أمير المؤمنين". يعني إن كل مسؤول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فهم أو إهانته، فلا خصص في التوقف عن إطفاء الفتنة في قرية تحوى عشرة. فكيف في أقاليم وإقليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق، ويعن منعه منافق الفتوحات القدسية الإسلامية الاستطورية حرس الله جلاله الصغير بها. ونحن نعلم أن لا يستفتيج التوقف على إطفاء هذه الفتنة إلا العثور ظاهر وجب على أهل الغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة إلا ذلك، فإن المسافة إذا بعدت وخيلها المارقون عن ربيعة الحق، لم يبعد أن يقضي الرأي الشريف صيانة الأؤامر الشريفة عن ان تعدلها أوأعين أحداء الدولة فضلا عن ايديهم.

واما من يستفتيج التوقف فيها عن غير عن التقليد لأمير قد ظهرت شوكته وعرفت سياسته، وتناولت الألسن بعدله، ولم يعرف في هذا القطر من يجري مغير. ويدفع في هذا الحال مسرد، فهذا اعتقاد فاسد في حضرة الخلافة حأشها من أن تصل إلى قصر، أو تقتفيه في نصية أهل العدل التمسكين بخدعتها، والمعتصمين بعورتها، القائمين في أقطار الأرض بإفاذة شعاعها، وأواسوها المعلومة بقرائن الأحوال، فهذا حكم كل أمير عادل في أقطار الأرض وحكم من بغى عليه، والله أعلم.
رسالة الغزالي إلى يوسف بن تاشفين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيد المرسلين وسائر النبيين وعلى الله وإتقان
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لبيوم من سلطان عادل خير من عبادة سبعين سنة... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سبعة يظلون الله بظله يوم لاتظل إلا ظله".

وعد الإمام العادل أولهم، ونحن نرجو أن يكون الأمير جامع كلمة الإسلام وناصر الدين ظهير أمير المؤمنين من المستسلمين بظل عرشه يوم لاتظل إلا ظله فإنه منصب لاينتال إلا بالعدل في السلطنة، وقد أتاه الله السلطان وزينه بالعدل والإحسان ولقد استطاعت في الأفاق محامد سيره ومحاسن خلقه على الأجال حتى ورد الشيخ الفقهي الوجيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربي الأندلسي الشبيلي حرس الله توفقه فأورد من شرح ذلك وتكشفه ما عثر به ارتجاء العراق، فإنه لما وصل إلى مدينة السلام وحضرته الخلافة لم يزل ينطوي في ذكر ما كان عليه المسلمون في جزيرة الأندلس من الذل والصفر والحب والاستضمار بسبب استيلاء أهل الشرك وامتداد أيديهم إلى الإسلام بالسبع والقتل والنهب وتحقيقهم إلى اهتمام أهل الإسلام بما حدث بينهم من تفرق الكلمة واختلاف آراء الشوار المحاولين للاستبداد بالإمارة، وتقاتلهم على ذلك حتى اختطف من بينهم حماة الرجال بطول القتال والمحاربة والمنافسة، وافضى الأمر بهم إلى الاستنجاد بالنصر على الانتقام إلى أن وظفوه ببيضة الإسلام، وكشفوا إليه الأمر حتى أشرفت عليهم التهمات والأغوار فتردوا عليهم الجزاء وزجرهم شر الجزاء، وما استتفدوا من عوام الأموال اخذوا في نهب المناهل وتحصيل المعاقل.
وكانت منصبه في غزارة العلم ورصانة العقل ومهارة الدين تفضي التصديق له في روايته، والقبول لكل ما يورده من صدق كلمته، وما انضافه من هذه الفضائل إلى خضرة الخلافة اعج الله انصارها.
وقع ذلك موقع الإحماد، ثم ذكر مع ذلك توقف طائفة من الشوارب الباقين في شرق الأندلس عن مشايع الأمير ناصر الدين ومساندته، وأنهم حالفوا النصارى واستجدوا بهم فأعلن المسلمون بدلهم عليهم والثدر منهم ليبوت عليهم أو ليقطعن شافتهم.

وكتب هذا الشيخ سؤالًا على سبيل الاستفتاء، وافتقت فيه بما اقتضاه الحق وأوجب الدين واعجالي المسير إلى سفر الحجاج وتركه مشربًا عن ساق الجذد في طلب خطاب شريف من حضرمة الخلافة يتضمن شكر صناع الأمير ناصر الدين في حمايته لثقور المسلمين ويشمل على تسليم جميع بلاد المغرب إليه ليكون رئيسهم ورؤوسهم تحت طاعته، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين ابن عم سيد المسلمين، وتعين جهاده على كافة المسلمين، ولم يبالغ أحد في بث مناقب قوم مبالغة الشيخ الفقهي أبي محمد في بث مناقب الأمير وشامته المرابطين، ولقد شاع دعاوته في المشاهد الكريمة بركة حرسها الله لحضرة الأمير وجماعة المرابطين، ولم يقعه ما فعله لنفسه إلى أن كلف جميع من رجا بركة دعائهم الدعاء في تلك المشاهد الكريمة، والمناسب العظيمة واعان بالنداء لأمير بلده الأمير الإجلي أبي محمد سير بن أبي بكر، وفقه الله تعالى وذكر من فضله وحسن سيرته وتعلقه بالمسالمين ورفع جميع النواحي عنهم ما جهر به إلى النقوس. ولقد دعي الشيخ الفقهي إلى المقام بغداد على البر والكرمة والتواصل باسمب بشرفة من حضرة الخلافة فأبى الزروج إلى ذلك الظل يلازمه للجهاد، مع الأمراء وفقهم الله تعالى ولو اقام لفاز بالحظ الأوق من التنوير والإكرام، وما احترم مثاله بأن يؤوي حظه من الاحترام وولده الشيخ الإمام أبو بكر قد أحرز من العلم في وقت تردد مالي محرم مع طول الامد، وذلك لما خص به من نقاية الذهن، وذكاء الحس واتقاد الفرحة، وما مخرج من العراق إلا وهو مستقبل بنفسه حانز منصب السبق بين إفرانيه، ومشاعر هذا الوالد والولد من بالإكرام في الوطن، وقد تميز بمهارة التوفيق من الأعيان في الغربة، والله يحفظ من حفظهما ويرعى من رعاهم فرعونًا، امثالهما من أدب الدين المعينة على أمير المسلمين.
وقد قال المحسنون: فليستوص من ظفر بهم منهم خيراً، وكم دخل قبلهما العراق ودخل بعدهما من تلك البلاد النائية وما يذكر محاسنهم ولا يدفع مساويهم. وقد انتهى الشيخ الفقيه من ذلك إلى مالا يمكن أن يلحق شناوة فضلاً عن أن يزاد عليه والله تعالى بعمر بهما اوطانهما ويبصل شانهما ويوفق الأمير ناصر المسلمين ليتوسل إلى الله تعالى في القيادة بأكرام أهل العلم فهي أعظم وسيلة عند رب العساليين. ونسأل الله أن يخلد ملك الأمير ويؤده تخفياً لاينقطع أبد الزمان، ولعل القلوب تنفر عن هذا الدعاء وتستمطر تلك العبادات التأييد والبقاء، وليس كذلك فإن ملك الدنيا إذا تزين بالعدل فهو شبكة الأخيرة، فالسلطان العادل إذا انتقل من الدنيا انتقل ملك سرير إلى سرير أعظم منه ومن ملك إلى ملك وارفع منه (وأما رأيت ملكاً شم رأيت نعماً وما كان كبيراً) (٣٠ مهماً في عدل في الرعية والنصفة في القضية فقد خلد ملك وآيد سلطانه)، وقد وفر له بحمد الله ومنه. والحمد لله رب العالمين وصلوات على سيدها محمد خاتم النبيين وله اجمعين.
رسالة من الإمام الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملك

إلى يوسف بن تاشفين (61)

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن الوليد الطرطوشي إلى الأمير أبي يعقوب بن تاشفين

سلام عليك

اما بعد، فلأتي أحمد الله الليك الذي لا إله إلا هو، وأشكرك لديك كثيراً كما هو أهله، وأنا طالب وجهك ما إن أخذت به نجوت من عظيم ما ركبته إن شاء الله تعالى، ولأحاول ولا أحوال إلا بالله العلي العظيم، وحسننا الله ونعم الوكيل.

قال الله سبحانه وتعالى: "يادواود إذا جعلناك خليفة في الأرض فأخذك

بين الناس بالحق، (22)" إلى قوله: يوم الحساب. قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: "تعلمون من الخليفة الذي يقضي بكتاب الله، ويشق عالى الرعية شفقة الرجل على أهله.

وقال سبحانه وتعالى: "الذين إن مكناهم في الأرض اقدموا

الصلاة وأتوا الزكاة وأموا بالمعلوم ونهوا عن المكروه (32)". فعلى مكناهم الله في الأرض، وأنا الله سلطان، ولم يفعل ما أمر الله تعالى به في هذه الآية، خلفنا أن لا يكون من أهله، لأن الله تعالى وصف هذه الآمة، إذا فتح الله تعالى عليهم الأرض وأهل عدوهم، بإقامة الصلاة وأيام الزكاة، وأمر بالمعلوم ونهي عن المنكر.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من أحد يلي عملاً- أو

قال: سلطانًا إلا اهتز به الاصطلاح حين يركبه حتى يزول كل عظم عن
حقق فإن كان محسننا نجا وإن كان مسبنا هوى سبعين خريفاً،
فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ومن يرغب في
العمل بعد هذا قال له أبو ذر رضي الله عنه من سلاب الله انله
واعصر خده.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من واليلي
رعية من المسلمين فيموت وهو غاضب لهم الله تعالى على
الجناية وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس عمه
ما قال له أمرني على امارة فقال له رسول الله صلى الله عليه
وسلم يا عباس يا عم رسول الله نفسل تحبها خير من امارة
لاكتشيفها إن الامارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن
لا تكون أميرا فافعل.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا كلكم راع
وكلكم مسؤول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته ومسؤول عن
رعائه والامرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهي مسؤولة
عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه ألا كلكم
راع ووكلكم مسؤول عن رعيته ولقد بلغ هذا من نفوس الصحابة
والخلفاء الراشدين والأئمة المهتمين مبلغًا ذهبت له عقولهم وطاشئت
حلومهم فروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر ب الطريق مكة
فابصر راعيا يرعى بمكان جدب فناداه أبا راع قد رأيت مكانا هو
أخص من مكانك فالحق به ثم قال كل راع مسؤول عن رعيته.

وقال علي رأيت عمر بن الخطاب يغدو على قتله فقال إلى أبم:
فقال: بغير من أبل الصدقة قد نانوا أطبه فقلت أن ذئب الخلفاء
بعدك يا أمير المؤمنين فقال لا تعني يا أبا الحسن فوالذي بعث
محمد بالبيعة لو أن سلالة ذهب بنشاط الفرائس لأجد بها حسرة
يوم القيامة إلا إنه لاحمرة لوال ضيع المسلمين.

يا أبا يعقوب لقد بلبت بأمر لو حملته السموم لانفسطرت ولو
حملته النجوم لانكرت ولو حملته الأرض والجبال لتزلزلت.
وتفقدت، إنك حملت الأمانة التي عرضت (على السماوات والأرض والجبال فابين أن يحملنها وأشغفون منها) (41).

فروى أن أدم صلوات الله عليه، لما استخلفه الله تعالى في الأرض على زيته وما فيها من الأعماق، وعهد الله عهداً أمره فيها ونهى، فقام فيها بأمر الله سبحانه إلى أن حضرته الوفاة، فسأل الله سبحانه أن يعلمه من استخلفه ويعقله من الأمانة ما قلله، فأمر أن يعرض ذلك على السماوات بالشرط الذي أخذ عليه من الثواب إن اطاع، ومن العقاب إن عصا، فابين أن يقبله شفقاً من عقابه، ثم أمره أن يعرضه على الجبال والأرض فابينه أيضاً، ثم أمره أن يعرضه على ولده فقبله ولده على شرط أن له الشعور إن اطاع، والعقاب إن عصا، فوحي الله تعالى على مسأله إلى قبول ذلك فقال: وحملها الإنسان إنه كان ظلوا جهولاً (42) بعقابه وما تقدله لربه وكان الغرض تخيراً لا إجابة.

فروى أن عمر بن عبد العزيز لما أفضت اليه الخلافة، سمعوا في منزله يقأع علباً، فسألك عن البكاء فقال: إن عمر خير جواريه، وقال: قد نزل بي أمر شغلني عنك، فمن احبت أن اعتقته ومن احبت أن أمسكها لم يكن لهانصب مني، قال: فبكي بكأساً منه، ثم دعا أ疑难 المسلمين في زمانه، وعليهم في وقته: سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب ورجاء بن حبعة، فقال لهم: ها قد أتبت بهذا الأمر فأغفرونا علي، فعقد الخلافة بلاء، وأنت ونظرآك تعودون هذا البلاء نعمه، فقال له سالم بن عبد الله: يا أمير المؤمنين، إن أردت النجاة من عذابها فصم عن الدنيا، وليكن افطارك فيها اللوت، وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين لك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم ولدك، فوقع أباك وأرحم أخاك وتحنن على ولدك، وقل له رجاء بن حبعة: إن أردت النجاة من عذاب الله أحب للمسلمين ما تحب لنفسك، وأكره لهم ما نكره لنفسك، ثم ماتي شئت.

وأنا لأخاف عليك اشد الخوف، فاتق الله يا ابا يعقب في امة
محمد الله، فإن لك مع الله تعالى موقفا يسنائلك فيه عنهم شخصا، شخصا ذكرنا وانثى، صغيرا وكبيرا، حرا وعبدا، مسلمًا ونميا، فاعد لجناك القام كلاما، ولذلك السؤال جوابا، فانئذى نفسي بعده إن ذلك (لحق مثل ما أنتم كنتم تنطقون) (٦٦).

روى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما منكم من أحد إلا ويلك بن به ليس بينه وبينه ترحمان، ولا ترزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسال عن خمسة: عن عمله فيما أفتاناه، وعن ثوابه فيما أبلاه، وعن ماله من ما اكتسبه فيما أنفقه، وماذا عمل بما علم.

أعلم يا أبا يعقوب أنه لا يزني فرج في ولايةك ومندي سلطانك وطول عمرك إلا كنت المسؤول عنه والمرتهن بحريرته، وكذلك لا يشرب فيها نقطة مسكر إلا وانت المسؤول عنها، لا يشرب فيها عرض ألمى المسلم إلا وانت المطالب به، ولا يتعامل فيها بالرب إلا وانت المأخوذ به، وكذلك سائر المظالم، وكل حرمة أنتى دمت من حرمت الله تعالى فعنه تغلبك، لأنك قاهر على تغييرها، فأما ما خفي من ذلك ولم يكن يظهر المسلمون فانتي بما إن شاء الله تعالى، إلا ترى إلى عمر بن الخطاب كيف اتفق أن يطلبه الله ببعير من إبل الصدقة، وأنا هو البسعر للمسلمين، فركب على بعيده وجعل يطلبه بنفسه، ولا ذكر لك عند الله تعالى أن تقول: لم يبلغني فاذاك إذا احتجبت عن المسلمين كيف تعلمه وترى، قال الله تعالى: كانوا لا يتناهن عن منكر فعلوه لبس مما كانوا يفعلون (٧٧) من تركهم الالتزام، وأنا قال له سفيح عليه، هذا من الأحكام والنظراء، فما ذاك بين الولاة والأمراء، قال الله سبحانه: يا ويلنا ما لهذا الكتب لايفاد صغرى ولا كبيرة إلا أحصأها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولايظلم بك أبدا (٨٨) جاء في التفسير: الصغرى التبسم، وكبرى الضحك.

ولقد بلغني أن عبد الله العمري لما حج لقتي يهارون الرشيد في الطواف فقال: يا هارون فنظر إليه الرشيد فعرفه فقال: لبيك يا
عما هو، فقال: كم ترى هنا من خلق؟ قال: لا يحسبه إلا الله تعالى، قال: فأعلم إيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصته نفسه وانت وحدك تسأل عنهم كلهم، فانظر كيف تكون، ففي كهارون الرشيد بكاء شديدة فجعلوا يعطيه منديلا يمسح به دموعه، قال له: والله يا هارون أن الرجل ليس في مال نفسه فيسحق الحجر عليه، كيف يسحق في مال المسلمين؟

ولا يدخل طاروس اليماني على سليمان بن عبد الملك قال: يا أمير المؤمنين هل تدري من أشد الناس عذابا يوم القيامة؟ قال سليمان: قل فقال: أشد الناس عذابا يوم القيامة، من أشرك الله في ملكه فجار في حكمه، فاستلقى سليمان بن عبد الملك على سريره باكيا حتى قام عنه جاسؤه.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إن الملك إذا ملك زده الله في ماله، ورغب في مال غيره، وأشرب قلبه الاشتفاق عن الفجر، فهوا يضغط على القليل، ويجسده على الكثير، حتى إذا قضى الله نحبه حاسبه باشد حسابه واقل عفوه.

فاحذر يا أبا يعقوب أن ترد على جنة عرضها السموات والأرض، فلا يكون لك فيها موقف قدم، عانانا الله واباك من هذا الموقف، ولقد بلغني يا أبا يعقوب أنك احتاجت إلى المسلمين بالحجازة والطين، واتخذت دونهم حجابا، وان طاب الحاجة لبئس يومه بابك، فما بلقاك، كنت لا تسمع قول الله عز وجل: «ما هذا الرسول بآكل الطعام وهمي في الأسواق؟» قال الحسن: والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تغلق دونه الحجاب، ولا يغفي عليه بالجفان ولا يرايح عليه بها، ولكنه كان باردًا، من أراد أن يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبه، وكان يجلس بالأرض ويوضع طعامه في الأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويرفع عليه عبده، ويلعى أصابعه، وكان يقول: من رغب عن سنتي فليس مني، قال الحسن: فما أكثر الراغبين عن سنتي التاركين لها.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ د رته ويشي في
الأسوأ ، ويتفق عالم رعيته ، وكان يعس ليا في سكك المدينة مع
عبد الرحمن بن عوف وغيره من الصحابة رضي الله عنهم يحفظون
وروات المسلمين فرولي عنه أنه استعمل سعد بن أبي وقاص على
الكوفة ، فبلغه أن سعدا اتخذ قسرا وجعل عليه بابا ، وقال انقطع
التصويت ، فأرسل إليه محمد بن حسلمة وقال : إذا رأيت سعدا
فاحرق عليه بابه ، فأحرق الكوفة واخرج زنده واستوري ناره ثم أحرق
الباب ، فجعل سعد يعتذر وحلف بالله ما قال ، فقال له محمد بن
حسن : تفعل ما أمرت به وتوري عنك القول .

يا أبا بعقوب ! لقد بلغني أنيك است أنها على المسلمين بالحظ
الوافر من حطام الدنيا وزخرفها ، فسألت الناعم ، واكتت اللين ،
وتمتعت بلذاتها وشجاعاتها كأنك لم تسمع قول الله عز وجل "ذهبوا
طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتع بها" (100) أو لم تسمعه سبحانه
يقول لنبي الله صلى الله عليه وسلم "نلتمن نعينك إلى ما متعنا به
أزوجا منهم زهور الحياة الدنيا لشفتهم فيه" (101) .

وقد روت عاشية رضي الله عنها قالت : لقد كان يمسر علينا
الشهرين والثلاثة ، ما توجد في بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم
نار ، قبل ما كان عيشكم ؟ قالت : الأسوأ دان ، الدمر والماء .

وقد روي أن فاطمة رضي الله عنها قالت : خبرت من شعير فجئت
منه بكرسة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا
بفاطمة ؟ فقال : رغيب خزته يا رسول الله ، ولم تطلب نفسك أن
أكله حتى أبكي بهذه الكرسة ، فقال : أما أنه أول طعام دخل جوف
ابيك منذ ثلاثة أيام ، هذا لو شركوك في خفض العيش إن مبتز عنه ،
لأن الله تعالى أخذ على الآثأ مثل ما روي عن يوسف صلى الله
عليه وسلم أنه كان يأكل الشعير ، ويطعم الأشجار ، ويطعم
المسلمين الحوازي ؛ وكان يجوع نفسه ، فقال له : أتجوع وبيك
خزائن الأرض ؟ فقال : أنا أخف أن أشرب فانسي الجائعين .
وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما أفضلت يب الخلافة
قال : إنى أنزلت نفسي في مال الله سبحانهه بمنزلة ولي البتيم ، إن
استغنتني استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، وروى عنه أنه قال: أخبركم بما يحي لي من مال الله سبحانه. استحل مني حلي Troll، عله القبظ، وما أوح لي إلا عظيم. وقوتي وقوت عيلالي، كأني رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقراءهم. ثم أنا يعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم، فأكيف والقراه ببابك بضائعون ودرو الحجاج يتردون، وأهل الديون والفرام في السجون محبوسون، وأموال المسلمين تحت بديك. وفي قيضك، أما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من ترك مالا فلورته، ومن ترك كلا فعلينا، أما سمعت قول الله تعالى:
(إنما الصدقات للقرءان والمساكين) (2:293) إلى قوله الغافرين
يا أبا يعقوب! إن قد كبرت السن وانحلت القوى، واصب في الرأس شيبة، ارتحلت الدنيا مدبرة، وجهاء الآخرين مقبلا، وحن الفراق، والقاف الساق بالساق، ووجهت سكينة الموت بالحق، فالبار البراء على حياة لاموت فيها وشبيب لأهمر معه، وصحة لا تقدم فيها. قال الله تعالى: ولاتحسن الذين قتلا في سبيل الله امولا بإياء عنهم برزقون) (16:67) إلى قوله: ومن فضله.
يروي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما أصيب أخوانكم يوم أحد، جعل الله أروااحهم في أجواف طر خضر ترد أنهر الجنة، ونالون من شارها وتصرف من الجنة حيث شاءوا، وتواو إلى قناديل من ذهب تحت العرش، فلمما رأوا طيب مقبلهم ومعهم ومشاربهم، وراوا ما أعده الله لهم من الكرامة، قالوا: يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه من التعب، وما صنعوا لله، يا كي يرغبوا في الجهاد ولا يذكروا عنه. فقال الله تعالى: أنا مخبر عنكم، ومبلغ أخوانكم، ففرحوا بذلك واستبشروا، فأنزل الله تعالى ولاتحسن الذين قتلا في سبيل الله امولا بإياء عنهم برزقون) (16:67) إلى قوله: الفوز العظيم، فما ظنك بتجارة الله مشترىها يوشك والله أن لا يبتور.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القادم لا يفتر من صلة ولا صيام حتى يرجع".

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «شكفل الله من جاءه في سبيل الله لا يخرج منه بيته إلا الجهاد في سبيل الله وتصديق كلمته أن يدخله الله الجنة أو يرده إلى مسكته الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنوة».

وقال: "لا أرى أثقي لأحبيت أن لا تختلف عن سبحة تخرج في سبيل الله، ولكنني لأجده ما أعمله عليه، ويشق عليه أن يختلفوا بعيدًا، والذي نفي بيده لوددت أن أقايت في سبيل الله فأقابل ثم أحيا فاقتلى، ثم أحياء فاقتلى، والذي نفي بيده لا يكمل أحد في سبيل الله، والله أعلم فمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يغفده ما اللون لون الدم والريح ريح المسك».

وقال ابن مالك: "استشهد عمي يوم أحد وكان قد غبا عن بدر فقال رسول الله: "إني أشهد الله قتال المشركين لربين ما أصنع، فإنما كان يوم أحد قال: إن لأجده ريح الجنة من دون أحد، قال: فما استطعت يا رسول الله ما أصنع لفجأة بدعاً ومضاعين ضرية بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بالنبل، ومتلك به المشركين فنزل فيه وفي إمتثال: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما يبادلوا تبديلًا)".

وأعلم يا أبا يا يعقوب أن الله تعالى فرض الجهاد على كافة المسلمين ولا يبرده جور جائر، ولافسق فاسق إلى أن تقوم الساعة، قال الله تعالى: "قاتلو الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إلى قوله: "صاغرون"، فلم يخرص لهذه الأمة في ترك جهاد عدوهم إلا
باعطاء الجزية أو كلمة الإسلام، وهذه الآية نسخت كل آية في كتاب
الله تعالى تضمن أعراض عن المشركين، وروى أبو بكر الصديق
رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما ترك
قوم الجهاد إلا عمهم العذاب».

فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من غفور بلاد الأندلس، لأنك
أقرب الملوك إليها، وعندك الكراع والسلاح ولامة الحرب والتهدا
وجيوب المسلمين وحماية البيضة طالبون لك، وكذلك كل ممن
بتواجك وجنابات أعمالك من المجاهدين والمقاتلين وأولي البطش
والقوة، وانت في حرج من تضييع من في غفور أرض الأندلس
من جماعة المسلمين والحرب والنزاع أعلاك تتاسب بين سائر اليها
وممارض المغت من أرض الحاجز من حمامة المسلمين ومجاهديهم حتى
استفتقراها وبثوا فيها كلمة الإسلام وشهدت التوحيد، فكيف بمبن
تناسخها ويجاروها.

يا أبا يعقوب! إذا أردت الظهر بالعدو، فعليك بالعدل في الرعية،
فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إن وفداً من الوفود قد
عليه بالفتوح فقال له عمر: مثي لقيتم عدوكم؟ فقال: من أول النهار.
قال: فمثي أنهموا؟ فقال: من آخر النهار، فقال عمر: إنه الله
وإنما الله راجعون، وقام الشرك للإيمن من أول النهار حتى اعتدل
النهار، والله إن كان هذا إلا عن ذنب أحد تعميمه عدلي أو أحدثته
بعدكم، وقد استعملت يعلى بن أمية على اليمن استنصر لكم
بصالحه.

وكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى جدته بالشام، وإنما يؤدي
العشرة الاف وأكثر، إذا أتوا، من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من
الذنوب».

ومما احتفظ به، وهو خير لك من طلاع الأرض ذهباً، لو انفقته
في سبيل الله، حديث رواه الأئمة الثقيلة عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم فروى مسلم في كتابه الصحيح (نقل العدال عن العدل).
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لاتزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى يأتي أمير الله، والله أعلم هل أرادكم رسول الله صلى الله عليه وسلم معرّض الرافضين أو أراد بذلك جمعة أهل المغرب، وما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البذع والأحداث في الدين والأعمال لآثار السلف الصالح رضي الله عنهم، وإننا لنجو أن تكون أولى مصابات ينهون عن الفساد في الأرض.

ولقد كنا في الأرض المقدسة جبر الله مصابًا ترى علينا إخبارك وما قمت به من أداء فريضة الله تعالى في جهاز عدوه، وأعزاز دينه وكلمه، وكان من هناك من العلماء والفقهاء وحماسة الدين والعبادة والزمان والندفعين إلى الله تعالى يدعوون الله سبحانه في نصراك وتاتيك وفتح على يدك، فلما كنت تستنصر بجند أهل الأرض فقد كنا نستنصر بجند أهل السماء، حتى قدم علينا الأرض المقدسة، الفقيه أبو محمد عبد الله بن العربي وابنه الفقهاء الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله فذكرنا من سيرتك في جهاز العدو أهلك الله تعالى في تلك الأندية والمحافل والخلق والمجالس، وصرتك على مكافحة العدو ومصاباتك، وأعزازك لدين واهل الله، والعلم وحملته، مازاد المسلمين بصيرة الدعاء لك، وحسن الأعتقاد فيك، حتى تنمنى أن تجاوز الكفر معك، وتكثر سواء المسلمين بحلك، نسأل الله تعالى الذي يهب الجزل من فضله أن يهيبنا يا أيها الشهادتان في سبيله، ثم أليه سبحانه نضرع أن يبرك الحق حفا فتتبعه، والباطال باطلًا فتجتثبه، فصلاح الرعية صلاح الراعي.

الفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي من صحبنا أعواما
يدرس العلم ويعماره، بلوناه وخبيرنا، وهو ممن جمع العلم ووعاء، ثم تحقق به وراءه، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه، ونظرائه، ثم رحل إلى العراق فنظر العلماء، وصوب الفقهاء.
وجمع من مذاهب العلم عيونها، وكتب من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى صحيحه وثابتته، والله تعالى يبَّنَي الحكمة من
يضاء، وهو وارد عليك بما يسرك، فاشهد عليه يديك، واحفظ فيه.
وفي أمثال وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام، قال الله سبحانه:
وهو أجل القائلين: "وإذا جاءك الذين يؤمنون بأيامنا فقل سلام عليك."
(111)
والحمد لله رب العالمين، وسلام عليك ورحمة الله تعالى.
وبركاته، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ﷺ نام تلاميذ النبيين وأهل الطيبين الظاهرين، وسلم وشرف وكرم، وأفضل وأعظم.

- 412 -
الحواشي والهوامش
الفصل الأول

من أجل دور السوريين قبل الإسلام في بلاد الشرق الأقصى وغيرها، انظر كتاب: "ثقافة السريان في القرن الوسطي"، ترجمة شريف إبراهيم، دار النشر 1990

ينوي الكتاب الشهير عن العدالة، 1878-1880 حيث عدة

1. بين عبد الكريم (11-12).
2. تاريخ خليفة 1878-
3. بين عبد الكريم (11-12).
4. تاريخ خليفة 1878-
5. بين عبد الكريم (11-12).

الغربي عبر التاريخ 1880-
6. بين عبد الكريم (11-12).
7. تاريخ خليفة 1878-
8. بين عبد الكريم (11-12).
9. تاريخ خليفة 1878-
10. بين عبد الكريم (11-12).
11. تاريخ خليفة 1878-
12. بين عبد الكريم (11-12).
13. تاريخ خليفة 1878-
14. بين عبد الكريم (11-12).
15. تاريخ خليفة 1878-
16. بين عبد الكريم (11-12).
17. تاريخ خليفة 1878-
18. بين عبد الكريم (11-12).
19. تاريخ خليفة 1878-
20. بين عبد الكريم (11-12).
21. تاريخ خليفة 1878-
22. بين عبد الكريم (11-12).
23. تاريخ خليفة 1878-
24. بين عبد الكريم (11-12).
25. تاريخ خليفة 1878-
26. بين عبد الكريم (11-12).
27. تاريخ خليفة 1878-
28. بين عبد الكريم (11-12).
29. تاريخ خليفة 1878-
30. بين عبد الكريم (11-12).
31. تاريخ خليفة 1878-
32. بين عبد الكريم (11-12).
33. تاريخ خليفة 1878-
34. بين عبد الكريم (11-12).
35. تاريخ خليفة 1878-
36. بين عبد الكريم (11-12).
37. تاريخ خليفة 1878-
38. بين عبد الكريم (11-12).
39. تاريخ خليفة 1878-
40. بين عبد الكريم (11-12).
41. تاريخ خليفة 1878-
42. بين عبد الكريم (11-12).
43. تاريخ خليفة 1878-
44. بين عبد الكريم (11-12).
45. تاريخ خليفة 1878-
46. بين عبد الكريم (11-12).
47. تاريخ خليفة 1878-
48. بين عبد الكريم (11-12).
49. تاريخ خليفة 1878-
50. بين عبد الكريم (11-12).
51. تاريخ خليفة 1878-
52. بين عبد الكريم (11-12).
53. تاريخ خليفة 1878-
54. بين عبد الكريم (11-12).
55. تاريخ خليفة 1878-
56. بين عبد الكريم (11-12).
57. تاريخ خليفة 1878-
58. بين عبد الكريم (11-12).
59. تاريخ خليفة 1878-
60. بين عبد الكريم (11-12).
61. تاريخ خليفة 1878-
62. بين عبد الكريم (11-12).
63. تاريخ خليفة 1878-
64. بين عبد الكريم (11-12).
65. تاريخ خليفة 1878-
66. بين عبد الكريم (11-12).
67. تاريخ خليفة 1878-
68. بين عبد الكريم (11-12).
69. تاريخ خليفة 1878-
70. بين عبد الكريم (11-12).
71. تاريخ خليفة 1878-
72. بين عبد الكريم (11-12).
73. تاريخ خليفة 1878-
74. بين عبد الكريم (11-12).
75. تاريخ خليفة 1878-
76. بين عبد الكريم (11-12).
77. تاريخ خليفة 1878-
78. بين عبد الكريم (11-12).
79. تاريخ خليفة 1878-
80. بين عبد الكريم (11-12).
81. تاريخ خليفة 1878-
82. بين عبد الكريم (11-12).
83. تاريخ خليفة 1878-
84. بين عبد الكريم (11-12).
85. تاريخ خليفة 1878-
86. بين عبد الكريم (11-12).
87. تاريخ خليفة 1878-
88. بين عبد الكريم (11-12).
89. تاريخ خليفة 1878-
90. بين عبد الكريم (11-12).
91. تاريخ خليفة 1878-
92. بين عبد الكريم (11-12).
93. تاريخ خليفة 1878-
94. بين عبد الكريم (11-12).
95. تاريخ خليفة 1878-
96. بين عبد الكريم (11-12).
97. تاريخ خليفة 1878-
98. بين عبد الكريم (11-12).
99. تاريخ خليفة 1878-
100. بين عبد الكريم (11-12).
101. تاريخ خليفة 1878-
102. بين عبد الكريم (11-12).
103. تاريخ خليفة 1878-
104. بين عبد الكريم (11-12).
105. تاريخ خليفة 1878-
106. بين عبد الكريم (11-12).
107. تاريخ خليفة 1878-
108. بين عبد الكريم (11-12).
109. تاريخ خليفة 1878-
110. بين عبد الكريم (11-12).
111. تاريخ خليفة 1878-
112. بين عبد الكريم (11-12).
113. تاريخ خليفة 1878-
114. بين عبد الكريم (11-12).
115. تاريخ خليفة 1878-
116. بين عبد الكريم (11-12).
117. تاريخ خليفة 1878-
118. بين عبد الكريم (11-12).
119. تاريخ خليفة 1878-
120. بين عبد الكريم (11-12).
121. تاريخ خليفة 1878-
122. بين عبد الكريم (11-12).
123. تاريخ خليفة 1878-
124. بين عبد الكريم (11-12).
125. تاريخ خليفة 1878-
126. بين عبد الكريم (11-12).
127. تاريخ خليفة 1878-
128. بين عبد الكريم (11-12).
129. تاريخ خليفة 1878-
130. بين عبد الكريم (11-12).
131. تاريخ خليفة 1878-
132. بين عبد الكريم (11-12).
133. تاريخ خليفة 1878-
134. بين عبد الكريم (11-12).
135. تاريخ خليفة 1878-
136. بين عبد الكريم (11-12).
137. تاريخ خليفة 1878-
138. بين عبد الكريم (11-12).
139. تاريخ خليفة 1878-
140. بين عبد الكريم (11-12).
141. تاريخ خليفة 1878-
142. بين عبد الكريم (11-12).
143. تاريخ خليفة 1878-
144. بين عبد الكريم (11-12).
145. تاريخ خليفة 1878-
146. بين عبد الكريم (11-12).
147. تاريخ خليفة 1878-
148. بين عبد الكريم (11-12).
149. تاريخ خليفة 1878-
150. بين عبد الكريم (11-12).
151. تاريخ خليفة 1878-
152. بين عبد الكريم (11-12).
153. تاريخ خليفة 1878-
154. بين عبد الكريم (11-12).
155. تاريخ خليفة 1878-
156. بين عبد الكريم (11-12).
157. تاريخ خليفة 1878-
158. بين عبد الكريم (11-12).
159. تاريخ خليفة 1878-
160. بين عبد الكريم (11-12).
161. تاريخ خليفة 1878-
162. بين عبد الكريم (11-12).
163. تاريخ خليفة 1878-
164. بين عبد الكريم (11-12).
165. تاريخ خليفة 1878-
166. بين عبد الكريم (11-12).
167. تاريخ خليفة 1878-
168. بين عبد الكريم (11-12).
169. تاريخ خليفة 1878-
170. بين عبد الكريم (11-12).
171. تاريخ خليفة 1878-
172. بين عبد الكريم (11-12).
173. تاريخ خليفة 1878-
174. بين عبد الكريم (11-12).
175. تاريخ خليفة 1878-
176. بين عبد الكريم (11-12).
177. تاريخ خليفة 1878-
178. بين عبد الكريم (11-12).
179. تاريخ خليفة 1878-
180. بين عبد الكريم (11-12).
القرآن الكريم

البليد

القرآن الكريم

البليد

القرآن الكريم

لا يوجد نص يمكن قراءته بشكل طبيعي من الصورة المقدمة.


الفصل الثاني

1- ترتيب المنابر وتقييم المسالك للقاهرة عياض - نشر دار الحياة بيروت 4 ص 702.
4- مقال عبدال kodar رياضي عن أبي عمران الفلجومي - مقال البيئة. البحث نفسه ص 77. ومن أجل وضع قاع في أيام أبي عمران انتظار الآثين الطرب في روض القرطاس المنسرم لأبي أبي زرع - ط الرياض 1973 ص 118 - 119.
5- اهتم بهذا الموضوع عدد كبير من المؤرخين العرب والمسلمين وكان مدار أبحاث عدد كبير من المستشرقين والعرب في مصر، انظر من ذلك: تاريخ ابن خليفة - ط بيروت 1982 ج 4 ص 130 - 132. ابن خليفة - أعمال الإعلام (نشر erklärt التحق في هيئة أبحاث تاريخ المغرب في العصر الوسيط - الدار البيضاء 1964) ص 76 - 77. عبد الواحد المرازقي - المغرب في تلخيص أخبار المغرب، ط القاهرة 1989 ص 224 - 225.
7- روض القرطاس ص 147.
8- بويثات فاس الكبرى ص 45.
9- بويثات فاس الكبرى ص 8.
10- مجوهر الدلال الموهبة في تذكر أخبار المرازقي - ط الدار البيضاء 1978 ص 27.
12- القاهرة (طبعة الاستقامة) ج 8 ص 74.
13- القاهرة (طبعة الاستقامة) ج 8 ص 45.
14- القاهرة إلى رجلان التفسير الكمال - ط الرياض 1958 ص 66.
15- بويثات فاس ص 28.
16- روض القرطاس ص 127.
17- روض القرطاس ص 124.
18- روض القرطاس ص 124.
19- روض القرطاس ص 122.
20- روض القرطاس ص 125.
22- في كتاب يروى المفتي بإسمة ممتدة حول الحياة في الأزمة احسن استغلالها.
وعبرها أخونج حسن حسن عبد الوداع في كتابه أوراق.

- 416 -
33 - ابن خلدون ص 374
34 - وصف القرطاس ص 135 - 161
35 - وصف القرطاس ص 136
36 - وصف القرطاس ص 137
37 - نظر محمد عبد الله شهيرة - المراقبون - القافرة 1969 ص 15 - 16
38 - الجيب الحضاري - المغرب الإسلامي - الحياة الاجتماعية والاقتصادية - تونس 1978
39 - الكريدي الأوربي - نزعة المتشائكة في التحرر الإفريقي - القافرة 1978 - مكتبة الثقافة
40 - البكيصي ص 237. الجاهلية من 164 إلى 270. الاستعصم للناصر ج 2 - 3
41 - عبد الوهاب بن حسن - قبائل المغرب - ط الأبيض 1968 ص 238 - 235
42 - نزعة المتشائكة 1 ص 244 - 275
43 - البركي ص 142 - 166
44 - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهراني - كتابه الهجراء في الأرض في دورية العهد الفرنسي
45 - دعوة الله 1968 ص 189
46 - أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهراني - دوره في دورة العهد الفرنسي
47 - سباعي القرتاس ص 237 - 270. الجاهلية من 164 إلى 270. الاستعصم للناصر ج 2 - 3
48 - البركي ص 142 - 166
49 - وصف القرطاس ص 137. الأعمال العامة ص 248
50 - وصف القرطاس ص 137
51 - البركي ص 142 - 166
52 - البركي ص 142 - 167
53 - الفيلسوف الإسلامي 1968 ص 238 - 235
54 - البركي ص 142 - 167
55 - النحاس 1968 ص 238 - 235
56 - البركي ص 142 - 167
57 - النحاس 1968 ص 238 - 235
58 - المراقبون - القافرة 1969 ص 15 - 16
59 - محمد أسحل - مفهوميات - فاس 1977 ص 56 - 54. رجب محمد عبد
الحمّام - دولة لين صالح في شام - ط. القاهرة 1992 ص 100 - 101. محمد عبد
جوليان ج. 2 ص 106 - 108.
138 - روص القرطاس ص 135.
149 - روض القرطاس ص 135. ابن عزيز ح. 4 ص 12. الحل الوشية ص 25.
150 - روض القرطاس ص 135. ابن خلدون ج. 6 ص 377. أعمال الأعلام ص 233.
الاستقصاء ج. 2 ص 37. العباس بن إبراهيم - الأعلام عن حل مسراخ وأعمال مسن.
الإعلام - ط. الر백 1974 ص 1 ص 204.
51 - المسكنات المغربية ص 257 - 258. فرحان بكر بن عمر في منطقة تسكانى في ولاية
टुम्पका التي كانت تعرف باسم الولاية التاسعة في موريتانيا.
52 - الكمال لابن الأثير ج. 8 ص 71. نهاية الأرب ج. 24 ص 24.
الفصل الثالث

1. نزهة المشتاق 1 ص 236. روض القرطاس 1 ص 132. الحال المرشية 1 ص 24.
2. وفيات الأساتذة لابن خلكان – ط. القاهرة 1 ص 131. 2 ص 365.
4. الحلال المرشية 1 ص 16 – 17.
5. الحلال المرشية 1 ص 16 – 23.
6. روض القرطاس 1 ص 138 – 139.
7. مراكز من الناس إلى فجر العمر البعيد – من مشاهير جامعة الفناي عياض – ط. ابن الربيع 1 ص 15 – 16 (بحث الدكتور أحمد الشواقي) وص 71 – 86 (بحث الدكتور الكريم المصري مولاي إبراهيم).
8. وفيات الأعيان 7 ص 363 – 366
9. مراكز من الناس إلى آخر العمر البعيد 1 ص 72 – 73.
10. وفيات الأعيان 7 ص 74 – 77.
11. وفيات الأعيان 7 ص 77 – 83.
12. تاريخ ابن خلدون 6 ص 441.
15. البكري 1 ص 141.
16. روض القرطاس 1 ص 141.
17. روض القرطاس 1 ص 143 – 149.
18. الحلال المرشية 1 ص 25.
21. روض القرطاس 1 ص 141. البيان الغربي 1 ص 41.
22. الحلال المرشية 1 ص 28 – 32. روض القرطاس 1 ص 142.
23. روض القرطاس 1 ص 142.
24. روض القرطاس 1 ص 142.
25. البيان الغربي 1 ص 41.
27. – الاستقصاح 2.
28. – استقالة الأعلام للهبن ابن الخضير 1 ص 59.
30. – ابن بسام في 4 ح 1. ط. القاهرة 1945 من 40.

419
916

31 - ابن عازري ج 2 ص 257 - 260.
32 - ابن عازري ج 2 ص 265.
33 - ابن عازري ج 2 ص 275.
34 - ابن عازري ج 2 ص 281 - 282.
35 - ابن عازري ج 2 ص 283 - 284.
36 - ابن عازري ج 2 ص 285 - 286.
37 - ابن عازري ج 2 ص 287 - 288.
39 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
40 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
41 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
42 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
43 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
44 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
45 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
46 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
47 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
48 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
49 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
50 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
51 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
52 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
53 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
54 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
55 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
56 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
57 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
58 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
59 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
60 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
61 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
62 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
63 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
64 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
65 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
66 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
67 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
68 - ذكرات الأمير عبد الله ص 18.
الحال المرضية ص 47 - 53
الحال المرضية ص 47 - 52
الحال المرضية ص 38 - 40
الحال المرضية ص 31 - 32
الحال المرضية ص 22 - 23
الحال المرضية ص 21 - 22
الحال المرضية ص 14 - 15
الحال المرضية ص 13 - 14
الحال المرضية ص 4 - 6
الحال المرضية ص 5 - 7
الحال المرضية ص 8 - 10
الحال المرضية ص 11 - 13
الحال المرضية ص 1 - 3

الحال المرضية ص 51 - 52

الحال المرضية ص 51 - 52

الحال المرضية ص 53 - 55

الحال المرضية ص 56 - 58

الحال المرضية ص 59 - 61

الحال المرضية ص 62 - 64

الحال المرضية ص 65 - 67

الحال المرضية ص 68 - 70

الحال المرضية ص 71 - 73

الحال المرضية ص 74 - 76

الحال المرضية ص 77 - 79

الحال المرضية ص 80 - 82

الحال المرضية ص 83 - 85

الحال المرضية ص 86 - 88

الحال المرضية ص 89 - 91

الحال المرضية ص 92 - 94

الحال المرضية ص 95 - 97

الحال المرضية ص 98 - 100

الحال المرضية ص 101 - 103

الحال المرضية ص 104 - 106

الحال المرضية ص 107 - 109

الحال المرضية ص 110 - 112

الحال المرضية ص 113 - 115

الحال المرضية ص 116 - 118

الحال المرضية ص 119 - 121

الحال المرضية ص 122 - 124

الحال المرضية ص 125 - 127

الحال المرضية ص 128 - 130

الحال المرضية ص 131 - 133

الحال المرضية ص 134 - 136

الحال المرضية ص 137 - 139

الحال المرضية ص 140 - 142

الحال المرضية ص 143 - 145

الحال المرضية ص 146 - 148

الحال المرضية ص 149 - 151

الحال المرضية ص 152 - 154

الحال المرضية ص 155 - 157

الحال المرضية ص 158 - 160

الحال المرضية ص 161 - 163

الحال المرضية ص 164 - 166

الحال المرضية ص 167 - 169

الحال المرضية ص 170 - 172

الحال المرضية ص 173 - 175

الحال المرضية ص 176 - 178

الحال المرضية ص 179 - 181

الحال المرضية ص 182 - 184

الحال المرضية ص 185 - 187

الحال المرضية ص 188 - 190

الحال المرضية ص 191 - 193

الحال المرضية ص 194 - 196

الحال المرضية ص 197 - 199

الحال المرضية ص 200 - 202

الحال المرضية ص 203 - 205

الحال المرضية ص 206 - 208

الحال المرضية ص 209 - 211

الحال المرضية ص 212 - 214

الحال المرضية ص 215 - 217

الحال المرضية ص 218 - 220

الحال المرضية ص 221 - 223

الحال المرضية ص 224 - 226

الحال المرضية ص 227 - 229

الحال المرضية ص 230 - 232

الحال المرضية ص 233 - 235

الحال المرضية ص 236 - 238

الحال المرضية ص 239 - 241

الحال المرضية ص 242 - 244

الحال المرضية ص 245 - 247

الحال المرضية ص 248 - 250

الحال المرضية ص 251 - 253

الحال المرضية ص 254 - 256

الحال المرضية ص 257 - 259

الحال المرضية ص 260 - 262

الحال المرضية ص 263 - 265

الحال المرضية ص 266 - 268

الحال المرضية ص 269 - 271

الحال المرضية ص 272 - 274

الحال المرضية ص 275 - 277

الحال المرضية ص 278 - 280

الحال المرضية ص 281 - 283

الحال المرضية ص 284 - 286

الحال المرضية ص 287 - 289

الحال المرضية ص 290 - 292

الحال المرضية ص 293 - 295

الحال المرضية ص 296 - 298

الحال المرضية ص 299 - 301

الحال المرضية ص 302 - 304

الحال المرضية ص 305 - 307

الحال المرضية ص 308 - 310

الحال المرضية ص 311 - 313

الحال المرضية ص 314 - 316

الحال المرضية ص 317 - 319

الحال المرضية ص 320 - 322

الحال المرضية ص 323 - 325

الحال المرضية ص 326 - 328

الحال المرضية ص 329 - 331

الحال المرضية ص 332 - 334

الحال المرضية ص 335 - 337

الحال المرضية ص 338 - 340

الحال المرضية ص 341 - 343

الحال المرضية ص 344 - 346

الحال المرضية ص 347 - 349

الحال المرضية ص 350 - 352

الحال المرضية ص 353 - 355

الحال المرضية ص 356 - 358

الحال المرضية ص 359 - 361

الحال المرضية ص 362 - 364

الحال المرضية ص 365 - 367

الحال المرضية ص 368 - 370

الحال المرضية ص 371 - 373

الحال المرضية ص 374 - 376

الحال المرضية ص 377 - 379

الحال المرضية ص 380 - 382

الحال المرضية ص 383 - 385

الحال المرضية ص 386 - 388

الحال المرضية ص 389 - 391

الحال المرضية ص 392 - 394

الحال المرضية ص 395 - 397

الحال المرضية ص 398 - 400

الحال المرضية ص 401 - 403

الحال المرضية ص 404 - 406

الحال المرضية ص 407 - 409

الحال المرضية ص 410 - 412

الحال المرضية ص 413 - 415

الحال المرضية ص 416 - 418

الحال المرضية ص 419 - 421
الفصل الرابع

1 - مذكرات الأمير عبد الله ص ص 107
2 - الحلال الورشية ص 67
3 - الحلال الورشية ص 67
4 - الحلال الورشية ص 67
5 - روض القرطاس ص 152
6 - الحلال الورشية ص 67
7 - مذكرات الأمير عبد الله ص 108
8 - روض القرطاس ص 152
9 - الحلال الورشية ص 67
10 - مذكرات الأمير عبد الله ص 109 - 111
11 - مذكرات الأمير عبد الله ص 116 - 129
12 - المجمع ص 138 - 149
13 - مذكرات الأمير عبد الله ص 129
14 - مذكرات الأمير عبد الله ص 116 - 121
15 - المؤنس في إخبار إفريقيا وتحويس لاين أبي نجار - ط. تونس 1967 ص 108
16 - الحلال الورشية ص 71
17 - سورة الأسراء - الآية 81
18 - سورة الأسراء - الآية 81
19 - مذكرات الأمير عبد الله ص 149 - 150
20 - مذكرات الأمير عبد الله ص 149 - 150
21 - مذكرات الأمير عبد الله ص 150 - 151
22 - مذكرات الأمير عبد الله ص 151 - 162
23 - مذكرات الأمير عبد الله ص 162 - 175
24 - مذكرات الأمير عبد الله ص 165 - 175
25 - مذكرات الأمير عبد الله ص 165 - 175
26 - مذكرات الأمير عبد الله ص 165 - 175
27 - المجمع ص 149
28 - مذكرات الأمير عبد الله ص 179
29 - مذكرات الأمير عبد الله ص 149 - 150 - 171. المعجم ص 268 - 278
30 - روض القرطاس ص 152 - 155
31 - مذكرات الأمير عبد الله ص 171
32 - مذكرات الأمير عبد الله ص 171
33 - مذكرات الأمير عبد الله ص 171
34 - روض القرطاس ص 152 - 155
الآن الإعدادات كلياً ولاية مغربية.

44 - الحمل الموتية 57 - 56
43 - العجب 163 - 164
42 - العجب 163 - 164
41 - الحمل الموتية 57 - 56
40 - الحمل الموتية 57 - 56
39 - الحمل الموتية 57 - 56
38 - الحمل الموتية 57 - 56
37 - الحمل الموتية 57 - 56
36 - الحمل الموتية 57 - 56
35 - مذكرات الأمير عبد الله 172

- 919 -
الفصل الخامس

1 - انظر كتاب التاريخ عند العرب - ط. دمشق 1974 ص 160 - 188.
4 - المسلمون في جزيرة هاوار لأحمد توفيق المدنى - ط. الجزائر 1365 هـ ص 57 - 59.
5 - جمع الترجمة الاستاذ حسن عبد الواحد عدنان جيدة حول هذا الموضوع في كتابه أوراق في الدراسات.
6 - يعيش النفوذ للمالكية - ط. بيروت 1983 ج 1 ص 264 - 273.
7 - المقال - الفيض 62 ص 45 - 55.
8 - الكتاتب الفيض 62 ص 45 - 55.
9 - الكتب الثقافية ص 44 - 55.
10 - التأريخ الثقافي ص 44 - 55.
11 - أعمال الأعلام 3 ص 103 - 121.
12 - الأعمال الثقافي ص 165 - 173.
13 - ترجمة لهم عند العرب في صقلية ص 31 - 55.
16 - التحية والتجارة في عهد البحر المتوسط لرغم بادر - ط. طرابلس - ترجمة عربية.
17 - درس تأريخ جزيرة البليار بفضل دٌد في كتاب جدٌد الأندلس المنهج للدكتور عصام سالم.
18 - مقالات ابن خلدون ص 484 - 490.
19 - مقالات ابن خلدون ص 484 - 490.
20 - الدولة الإغريقية - ط. بيروت 1908 ص 158.
21 - الكتاتب الفيض ص 104 - 126.

- 424 -
22  - الكتبي ص 165 - 172
23  - كتابي تاريخ العرب والإسلام - ط بيروت 1976 ص 466.
24  - روض القرطاس ص 47
25  - الجنة السبعة - ط القاهرة 1973 ج 1 ص 45
26  - الكتبي ص 183 - 184.
27  - الأدب والروم لفازيليف - ترجمة عربية - ط القاهرة ص 55 - الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية لاسمت غنيم - ط جدة 1977 ص 42 - 43
28  - العرب والروم ص 75 غنيم ص 43
29  - العرب والروم ص 8 - 46 غنيم ص 40
30  - فازيليف ص 30 - 61 غنيم ص 49 - 57
31  - غنيم ص 194 - 206.
32  - مقدمة ابن خلدون ص 650 - 654.
حواشي الملاحق

1 - سورة محمد - الآية : 35.
2 - عبد الرحمن بن عبد الغني المخزافي، ونسبة المصادر المسيحية، كريستو بالوس.
3 - كنا بالله، والصحيح، عبد الله.
4 - زيد ماين الحاصلين من نهاية الآب للدروبي، 24، ص 257.
5 - انحنى امام مسلم عليه.
6 - بدأ سلم بالبلد، انظر تعاظم الخلافة، ص 199.
7 - اثنايس كيل للتمبيحر، 190، 158، أو ثمانية ويبت، 8.
8 - بدأ الخلافة.
9 - في ميخائيل الخامس (1044 - 1054).
10 - جاء بعد ميخائيل الخامس قسطنطين التاسع (1044 - 1054).

الإمبراطورية الهجرية المزية.
11 - الجوهر هو المسرح، القاموس.
12 - زيد ماين الحاصلين من تعاظم الخلافة، ص 240.
13 - زيد ماين الحاصلين من تعاظم الخلافة، ص 241.
14 - خبر من كتاب التشريعة الثاني، ص 66 - 67.
15 - نقل عن كتاب الإسلام في المغرب والأندلس لبيكي بروفيسال، ص 115 - 118.
16 - خبر من كتاب رسائل النادية، ص 243، وابن الوليد سليمان، بن دخيف.
(403 هـ - 1013 م.) كان أعمى علماء المكاتب في الأندلس، واعتقامهم ناجا في مصر، له ترجمة
 جديدة في تاريخ يد بحث لابن عساكر.
17 - زيارة اقتصاداً السابق.
18 - سورة فصلت - الآية : 42.
19 - سورة الأعراف - الآية : 43.
20 - سورة آل عمران - الآية : 58.
21 - سورة المؤمنين - الآية : 51.
22 - سورة الناس - الآية : 165.
23 - سورة الناس - الآية : 166.
24 - سورة التوبة - الآية : 33.
26 - سورة القرآن - الآية : 40.
27 - سورة الأسرار - الآية : 27.
28 - سورة الفرقان - الآية : 50.
29 - سورة التوبة - الآية : 18.
30 - سورة هود - الآية : 18.
31 - سورة آل عمران - الآية : 64.
32 - سورة آل عمران - الآية : 61.
33 - سورة طه - الآية : 47.
14 - من كتاب المهارس والمساواة للقاتلي النعمان ص 447 - 446.
13 - سورة الأنفال - الآية 58.
12 - سورة الحج - الآية 2.
11 - سورة البقرة - الآية 54.
10 - سورة آل عمران - الآية 166.
9 - سورة الأنفال - الآية 37.
8 - سورة الطور - الآية 111.
7 - سورة المعرفة - الآية 44.
6 - من القرآن الكريم.
5 - من القرآن الكريم.
4 - من القرآن الكريم.
3 - من القرآن الكريم.
2 - من القرآن الكريم.
1 - من القرآن الكريم.

الترجمة عند الفارابي:
المقال الفارغ على العصر، وبقاليه في إصلاح المشرفة.
هذه، وكلاهما نرو من إندوند الجزائر ضمن به الحاسنة من المسلمين.
32 - سورة النور - الآية 42.
31 - من القرآن الكريم.
30 - من القرآن الكريم.
29 - من القرآن الكريم.
28 - من القرآن الكريم.
27 - من القرآن الكريم.
26 - من القرآن الكريم.
25 - من القرآن الكريم.
24 - من القرآن الكريم.
23 - من القرآن الكريم.
22 - من القرآن الكريم.
21 - من القرآن الكريم.
20 - من القرآن الكريم.
19 - من القرآن الكريم.
18 - من القرآن الكريم.
17 - من القرآن الكريم.
16 - من القرآن الكريم.
15 - من القرآن الكريم.
14 - من القرآن الكريم.
13 - من القرآن الكريم.
12 - من القرآن الكريم.
11 - من القرآن الكريم.
10 - من القرآن الكريم.
9 - من القرآن الكريم.
8 - من القرآن الكريم.
7 - من القرآن الكريم.
6 - من القرآن الكريم.
5 - من القرآن الكريم.
4 - من القرآن الكريم.
3 - من القرآن الكريم.
2 - من القرآن الكريم.
1 - من القرآن الكريم.

الترجمة عند الفارابي:
المقال الفارغ على العصر، وبقاليه في إصلاح المشرفة.
هذه، وكلاهما نرو من إندوند الجزائر ضمن به الحاسنة من المسلمين.
32 - سورة النور - الآية 42.
31 - من القرآن الكريم.
30 - من القرآن الكريم.
29 - من القرآن الكريم.
28 - من القرآن الكريم.
27 - من القرآن الكريم.
26 - من القرآن الكريم.
25 - من القرآن الكريم.
24 - من القرآن الكريم.
23 - من القرآن الكريم.
22 - من القرآن الكريم.
21 - من القرآن الكريم.
20 - من القرآن الكريم.
19 - من القرآن الكريم.
18 - من القرآن الكريم.
17 - من القرآن الكريم.
16 - من القرآن الكريم.
15 - من القرآن الكريم.
14 - من القرآن الكريم.
13 - من القرآن الكريم.
12 - من القرآن الكريم.
11 - من القرآن الكريم.
10 - من القرآن الكريم.
9 - من القرآن الكريم.
8 - من القرآن الكريم.
7 - من القرآن الكريم.
6 - من القرآن الكريم.
5 - من القرآن الكريم.
4 - من القرآن الكريم.
3 - من القرآن الكريم.
2 - من القرآن الكريم.
1 - من القرآن الكريم.
110 - سورة انعام – الآية 168
123 - سورة SCP – الآية 98
132 - سورة SCP – الآية 86
239 - سورة SCP – الآية 70
249 - سورة SCP – الآية 71
330 - سورة SCP – الآية 72
273 - سورة SCP – الآية 72
344 - سورة SCP – الآية 75
1 - سورة SCP – الآية 76
7 - سورة SCP – الآية 77
8 - سورة SCP – الآية 78
20 - نقل عن مخطوط الخزازنة العامة بالرضا رقم 1020
22 - سورة SCP – الآية 79
32 - سورة SCP – الآية 80
81 - كتا بالأسفل ولا وجه لها
82 - سورة SCP – الآية 83
143 - سورة SCP – الآية 84
9 - سورة SCP – الآية 85
8 - سورة SCP – الآية 86
50 - سورة SCP – الآية 87
69 - سورة SCP – الآية 88
190 - نقل عن مخطوط الرباطي نفسه رقم 1020
196 - سورة SCP – الآية 89
200 - سورة SCP – الآية 90
210 - نقل عن مخطوط الرباطي نفسه رقم 1020
216 - سورة SCP – الآية 91
226 - سورة SCP – الآية 92
41 - سورة SCP – الآية 93
272 - سورة SCP – الآية 94
270 - سورة SCP – الآية 95
232 - سورة SCP – الآية 96
79 - سورة SCP – الآية 97
1 - سورة SCP – الآية 98
8 - سورة SCP – الآية 99
22 - سورة SCP – الآية 100
131 - سورة SCP – الآية 101
132 - سورة SCP – الآية 102
64 - سورة SCP – الآية 103
29 - سورة SCP – الآية 104
19 - سورة SCP – الآية 105
1 - سورة SCP – الآية 106
111 - سورة SCP – الآية 107
108 - سورة المطففين - الآية 180
109 - سورة الأحزاب - الآية 33
110 - سورة التوبة - الآية 29
111 - سورة الأعまさに - الآية 54
جريمة بأهم المصادر والمراجع

المصادر:

ابن الآبار: أبو عيسى الله محمد بن عبد الله
(ت 58 هـ/1320 م).
كتاب التكلفة. القاهرة 1936 م.
المجلة المصرية، جزءان، تحقيق د. حسين مولى.
القاهرة 1962 م.
المعجم في أصحاب القضاة، أبي علي الصدفي.
القاهرة 1387 هـ/1967 م.
ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت 635 هـ /1237 م).

الكامل في التاريخ، بيروت 1386 هـ/1966 م.
ابن الأحمص (اسماعيل) بيوتات فاس الكبرى، الرباط 1972 م.
ابن أبي اصبع: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 2، 1299 هـ/1882 م.

الصفهاني:
خرية القصر وجرينة العصر، قسم المغرب والأندلس.
تحقيق محمد المرزوقي، محمد العمراني المطولي، الجيلاني.
الحاج يحيى، تونس 1371 م.
امجي ميشيل:
المكتبة العربية الصقلية، ليزغ 1875 م.
الركيبي: عبد الله بن عبد العزيز المروي (ت 487 هـ /1094 م).
المغرب في ذكرى بلاد الأفريقية والغرب (نشره دي سلبن وهو مأخوذ من كتاب المسالك والممالك، الجزائر 1911 م.).
ابن بسام: أبو الحسن الشنطريني (ت 543 هـ / 1147 م).
- النخيرة في معاصر البادية. تحقيق إحسان عباس.
- بيروت 1399 هـ / 1979 م.
- ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578 هـ / 1183 م).
- القصة في تاريخ ابنة الأندلس، التأليف المصري للثليث والذمار.
- البيدق: أبو بر الصنهاجي (القرن السادس الميلادي).
- إخبار المهندي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين. تصحيح وترجمة لافي بروفنسال باريس 1928 م.
- الانتهاء.
- ديوان الأعمى الشنطري، تحقيق إحسان عباس.
- بيروت 1963 م.
- ابن تغري بردي.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة 1935 م.
- جان وجيروم طارو.
- أزهر البساتين في إخبار الأندلس والمغرب، ترجمة أحمد بلاو.
- فرنيغ ومحمد الفاسي.
- الرابط 1349 هـ.
- ابن جبير: محمد بن أحمد الأندلسي.
- ت 114 هـ / 1217 م.
- رحلة ابن جبير: القاهرة 1955 م.
- الجزائر: أبو الحسن علي.
- زهرة الآس في بناة مسيحية فاس، نشر الفريد بيل.
- الجزائر 1923 م.
- ابن الحداد الأندلسي.
- ديوان ابن الحداد الأندلسي. تحقيق يوسف علي طويل.
- بيروت 1990 م.
- الحموي (ياقوت الحموي: ت 626 هـ / 1229 م).

-431-
- معجم البلدان - دار صادر بيروت.
المحمدي - أبو عبد الله محمد بن فتحوح بن عبد الله (ت 488 هـ / 510 م).
- جذوة المقتبس في ذكر وفاة الأندلس - تحقيق محمد بن تاويت الطنخي - القاهرة 1372 هـ / 1952 م.
الجميري: (عبد المنعم السبتي - توفي أواخر القرن التاسع الهجري).
- الروض المختار في أخبار الأطياف - تحقيق إحسان عباس - بيروت 1975 م.
- صفة جزيرة الأندلس - تحقيق ليفي بروفسال - القاهرة 1962 م.
ابن حوقل,
- صورة الأرض - لبنان 1928 م.
ابن خاتمان: أبو نصر الفتحي محمد القبسي الإشبيلي (ت 535 هـ / 1134 م).
- قلائد العقاب في محاكمة الأعيان - في طبعتين - الطبعة الأولى صدرت بالقاهرة 1/132 هـ الطبعة الثانية تصحيح عبد سليمان الحرايري 1377 هـ.
ابن الخطيب: لسان الدين محمد بن عبد الله (ت 764 ق / 1376 م).
- أعمال الاعلام فينبع قبل الاحترام من ملك الإسلام.
نشر منه الجزء الخاص بتاريخ الأندلس في بيروت 1956 م - تحقيق ليفي بروفسال - وبعنوان "تاريخ إسبانيا الإسلامية". ونشر الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية، في الدار البيضاء عام 1964 م، تحقيق أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني،
- الإحاطة في أخبار غرناطة - تحقيق محمد عبد الله عنان - القاهرة 1393 هـ / 1973 م.
- رقم الحال في نظام الدول - تونس 1317 هـ.
ابن خفاجة: تحقيق السـيد مصطفى غازي،
الاسكندرية 1960 م.
(ت 828 هـ/ 1425 م).
 ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد
العبر وديوان المبتدأ والخبر، 1961 م، طبعته بيروت
1959 م.
ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد
(ت 681 هـ/ 1282 م).
ـ وفيات الأعيان وأذباء الزمان، تحقيق محيي الدين عبـد
الحميد.
القاهرة 1950 م، طبعته أخرى تحقيق إحسان عباس،
بيروت 1968 م.
ابن أبي دينار: محمد بن أبي القاسم العريني القيرواني
(أواخر القرن الحادي عشر الهجري).
ـ المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق محمد شـمام،
تونس 1967 م.
ابن دراج胜利:
ـ ديوان ابن دراج القيرواني، نشر مـحمد مـكي،
دمشق 1961 م.
ابن أبي زرع الفاسي:
ـ الأندلس المطرب بروح القدر في أخبار ملوك الغـرب
وتاريخ مدينة فاس، الرباط 1974 م.
الزجل: 
~ امثال العموان في الأندلس، تحقيق محمد بن شريفة، فاس
المغرب 1971 م.
الزركشي: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوؤل (القرن
التاسع عشر).
~ تاريخ الدولتين الوقتية والهفصية، تحقيق محمد مـاضور،
تونس 1966 م.
ابن زيدان:
- العز والصولا في معالم نظام الدولة - نشر عبد الوهاب بن منصور. الرباط 1961 م.
- الزيري: (الامير عبد الله بن بلاقين الزييري).
- مذكرات الأمير عبد الله، المسمى بكتاب التبيان. تحقيق ليفي بروفتالس. مصر 1955 م.
- رسائل اندسية. تحقيق د. فوزي عيسى. كلية الآداب جامعة الاسكندرية 1989 م.
- رسائل ومقامات اندسية. تحقيق د. فوزي سعد عيسى.

ابن رشد:

ابن سعد المغربي:
- بسط الأرض بالطول والعرض. تحقيق خوان قيرنيط. خيبيس. تطوان 1958 م.
- المغرب في حلي المغرب. جزآن، القاهرة. 1953 م.
- السلاوي: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت 1351 ه/1897 م).
- الاستقصاء لأخبر دار المغرب الإقصي، الدار البيضاء 1954 م.

ابن صاحب الصلاة: عبد الملك (596 ه/1102 م).
- تاريخ الماء بالإمامة على المستضعفين، السفر الثاني، تحقيق عبد الله التازي.

الضبي: إبراهيم أحمد بن يحيى القرطبي (ت 596 ه/ 1202 م)
بغية الملمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. دار الكتب العربي 1967 م.

الطرстоحي: أبو بكر (ت 520 هـ/ 1125 م).

الحوارث والبدايات. تحقيق محمد الطالبي.

تونس 1959 م.

سرائ الملوك. تحقيق جعفر البياني. لندن.

العاملي:


ابن عبد ربه:

القصيدة. تحقيق محمد سعيد العريان.

القاهرة 1953 م.

ابن عبد الفتاح:

معين الأحكام على القضايا والأحكام. تحقيق محمد بن قاسم ابن عياش، بيروت 1988 م.

ابن عبدون: محمد بن أحمد التجيبي:

ثلاث رسائل أندلسية في أداب الحسبة والمحاسب. تحقيق ليفي بروفساكي، المعهد العلمي للأبحاث الشرقية.

القاهرة 1955 م.

طابع عناني: أبو العباس أحمد بن محمد (كان حيا 712 هـ/ 1312 م).

البيان الغرب في أخبار الأندلس والغرب. قطعة تتعلق بتاريخ المراقبين نشرها ويلي ميراندا في مجلة هسيبرس 1961 م.

البيان المغرب في أخبار أخبار ملوكي الأندلس والغرب.

القسم الثالث. علي بن شهاب إبراهيم هريس، مهندس.

تاريغته: محمد إبراهيم الكتاني، تطوان 1960 م.

ابن العربي: أبو بكر (ت بفاس 542 هـ/ 1148 م).

العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي (ص). تحقيق محمد النيب الخطيب.

القاهرة 1371 م.
الغنية . فهـرـست شـ خـيوخ القـلاـضي
عياض ۱۴۴۶-۵۵۱ ه/ 1۱۴۹-۱۹۳۳ م
تحقيق مـهـر جـبـر، دار البـشـرة الإسلاميـ.
بيروت ۱۴۸۲ ه/ 1۹۶۲ م
ابن قرمان : بيوان ابن قرمان . فـ كور نـطيـ، المعهد
العربي للثقافة ، مدريد ۱۹۸۰ م
القرشي :
- معالم القرية في حكم الحساسية . تحقيق محمد محمدـ شعبان . صـبيح حمد – عـيـسـى الطـيعيـ، الهيئة العامة المصرية
للكتاب سنة ۱۹۷۶ م
- نظم الجمـان في أخبار الزمان . تحقيق مـحـمـود مـعـكي،
الرباط ۱۹۶۴ م، بـيروت ۱۹۹۰ م
القفزلي :
- أخبار العلماء بأخبار الحكام، القاهرة ۱۳۲۶ ه
ابن الفلانسي :
- تـأـريـخ دـمشـقـ. تـحـقـيـق دـ. سـمـهـهـيل زكار
دمشق ۱۴۰۳ ه/ ۱۹۸۳ م
ابن الكردوس :
- كتاب الاكتفاء في أخبار الخلافة - الأقسم الخاص بالاندلس، 
نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي ، مدريد ۱۹۷۱ م
لـقي بروتـسال :
- مجموع رسائل موحدة من إنشاء كتاب الدولة الـمؤنـمية
الرباط ۱۹۴۱ م
الماوري : أـبـو الحسن علي بـن محمد البصري البغدادي
۱۴۵۰ ه/ ۱۹۳۷ م
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية . تصـحيح الغـسانـي،
القاهرة ۱۹۰۹ م
- تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك.
- تحقيق رضوان السيد. بيروت 1987 م.
- المجلة:
  - كتاب التيسير في أحكام التسعير. تحقيق موسى لقبال.
  - الجزائر 1982 م.
- المراكشي: ابن عبد الملك (ت 703 هـ / 1304 م).
- النيل والتكملة لكتابي الموصل والصلاة. السفرن الرابع.
- والخامس. تحقيق الدكتور إحسان عباس. بيروت 1964 م.
- المراكشي: عبد الواحد (كان حيا في الرابع من القرن السادس الهجري). (التwine عشر ميلادي).
- المعبج في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعيد العربيان.
- ومحمد العربي العلمي. القاهرة 1949 م.
- مقيش: نزهة الأنوار في عجبات التدويرخ والأخبار.
- تحقيق علي الزواوي. محمد محفوظ. بيروت 1988 م.
- المقرّر: شهاب الدين أبو العباسي أحمد بن محمد التلمساني.
  - ت 1041 هـ (1631 م).
- دفع الطيب من غصن الأندلس نسبياً وذكر ونهره لسان الدين بن الخطيب. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت.
- زهار الرياض في أخبار القاضي عياض. تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب. المحمدية 1980 م.
- الكثائري.
- جذوة الاتفاق في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس.
  - الرباط 1973 م.
- الملوزي (عبد العزيز) نظم السلاوك في الأذنية والخاضفة.
  - الرباط 1963.
- مؤلف مجهول.
- الخلال الموفية في ذكر الأخبار المراكشية. تحقيق د. سهيل زكريا.
- عبّد القادير زمامتة. الدار البيضاء 1979 هـ / 1399 م.
مؤلف مجهول:
- النخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية الجزائر 1920 م.
- مؤلف مجهول.
- كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس تحقيق أميروزيو وينتي ميراندا، مدريد 1965 م.
- مؤلف مجهول:
- مفاخر البربر تحقيق ليفي بروفيسال، الرباط 1934 م.
- النبهاني:
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والقيادة القاهرة.
- النويري: شهاب (ت 732 هـ / 1332 م).
- نهاية الأرب في فنون الأدب دار الكتب القاهرة.
- الوشريسي:
- المعترن المغرب والأمم المغرب عن فتاوى الاهال الفريقي والأندلس والغرب نشر وزارة الأوقاف المملكة المغربية 1401 هـ / 1981 م.
- المراجع:
- إبراهيم المدفيفي محمود بنوزيري وعلاقاته السياسية بالقوى الإسلامية في حوض البحر المتوسط القاهرة 1989.
- أحمد أمين. ظهر الإسلام القاهرة 1953 م.
- أرسلان (شكيب) الحل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية جزآن القاهرة 1936 م.
- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسوسيرا ويطاليا وجزر البحر المتوسط القاهرة (عيسى البابي الحكيم وشركاه).
- ارشيبالد لويس. القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط.
- ترجمة محمد أحمد عبد الله:
- أرنست كولن. الفن الإسلامي ترجمة أحمد موسى بيروت 1966 م.
القاهرة 1936 م
إسحاق ولفنسون. موسى بن ميمون: القاهرة 1936 م
اعراب (مصعب) 1487 هـ / 1987 م
بيروت

القاهرة 1940 - 1941 م
الصيغي، الشرطة في النظام الإسلامي والقوي: دار العلوم، القاهرة

القاهرة 1990 م
طرابلس 1399 هـ / 1979 م
البنتوني (محمد لبيب) رحلة الأندلس، ترجمة محمود عبد العزيز، القاهرة

القاهرة 1958 م
الاعلي، فؤاد: خـوان الصـفا الـجمـعـية، والأخلاقية، بغداد

بيروت (فارس) الأوضاع الداخلية للأندلس وعائلاتها بالغرب في ظل المراقبين، رسالة ماجستير، دمشق.

القاهرة 1987 م
جزان 1402 هـ / 1987 م
التليدي، المطرب في مشهد، أولاء الغناء، طنجة 1987 م

القاهرة 1976 م
الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، بيروت

القاهرة 1967 م
حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج4

القاهرة 1982 م
حسين، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المراقبين دولة علي ابن يوسف المراقبي، الأسكندرية

القاهرة 1981 هـ / 1991 م
حمادة، الوثائق السياسية والإدارية، بيروت

بيروت

القاهرة 1988 هـ / 1408 م
النندش، أضواء جنودة على المراقبين، بيروت 1991 م

القاهرة 1988 م
النندش، الأندلس في نهاية المراقبين ومستهل الموحدين، عصر الطواخب الثامن، دار الغرب الإسلامي.

بيروت 1408 هـ / 1988 م

زيديج (جوزيف) الافتتاحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا. بيروت 1984.

زغلول. محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس. بيروت 1973 م.

زكار. التأثيرات العثمانية والأندلس. دمشق 1401 هـ/1981 م.

سالم (سحر عبد العزيز سالم). مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري. كلية الآداب جامعة الأسكندرية 1990.


شرارة (عبداللطيف) أبو الوليد بابن زيدون، بيروت 1988 م.

الشكارة. الأدب الأندلسي. بيروت 1972 م.

الشيخ (محمد محمد موسى). دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمازيغ في الأندلس حتى أواخر القرن العشرين. الأسكندرية 1990.

طرخان المسلمون في أوروبا العصور الوسطى. القاهرة 1966 م.

العباشي. دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. الأسكندرية 1968 م.

العباشي. الصراعات في إسبانيا، مدريد 1373 هـ/1953 م.

العباشي. صور وبحوث من التأريخ الإسلامي. القاهرة 1953 م.

علام. دولة الموحدين بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي. القاهرة 1971 م.
عنان. أنديان. الكتاب العشرون 1988 م.
عنان. عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ودور
العصر الثالث ممكـن كنتـاب دولة الابـسـلام في الأندلس.
القاهرة 1383 هـ / 1964 م.
عنان. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنصرمين. العصر
الرابع ممكـن كنتـاب دولة الابـسـلام في الأندلس.
القاهرة 1386 هـ / 1967 م.
غニيم (إِسـسَمِمَتْ) الامپراتورـيه البيزنطية وكريت
الإسلامية - جدة 1977.
فازلييف - العرب والروم، القاهرة (دار الفكر العربي).
قريه (صالح بن) المسكونات المغربية، الجزائر 1986.
كول (ماك) الروايات التاريخية عن تأسـس سجمالاسة
وغانه، الدار البيضاء (دار الثقافة).
لقبال (موسى) الحسية المهدية في بلاد المغرب. نشأتها
وتطورها، الجزائر 1981.
محمود (حسـن أحمد مـحمد) قيام دولة المرابطـين.
القاهرة 1957 م.
محمود (منى حـسن) المسلمون في الأندلس وعائلتهـ
بالفرنجة. القاهرة 1986.
مؤنس (حسـن) تاريخ الجغرافـية والجغرافيين في
الأندلس. القاهرة 1987 م.
المحترف

3 - توطئة
5 - الفصل الأول - الغرب والاندلس من الفتح حتى العصر المرابطي
8 - فتح الغرب
21 - فتح الأندلس والتوسع في أوربة
33 - عصر الزلاقة
58 - عصر الأتراك الأندلسيين
61 - عبد الرحمن الداخل
73 - هشام الرضا
75 - الحكم الرشيق
80 - عبد الرحمن الثاني
84 - من الأمارة إلى الخلافة
95 - عبد الرحمن الثالث والخلافة
100 - الحكم الثاني
102 - هشام الثاني والإستداري العامري
107 - الفصل الثاني - قيام حركة المرابطين
137 - الفصل الثالث - يوسف بن تآشين وقيام دولة المرابطين بالغرب والجوار الأول للإسلام

186 - الفصل الرابع - يوسف بن تآشين وتوحيد الأندلس وراثة دولة الطوان
209 - الفصل الخامس - العرب والصراع للسيطرة على البحر المتوسط
218 - ملاحظات الكتاب
246 - أسس الفوات
249 - جرحاً الاتصليحي
252 - محمد بن محمد الكلبي
255 - محمد بن يوسف الكلبي (تاج الدولة)
256 - جهور الخلافة
259 - الحسن بن علي - الوزير البازوري
295 - الحسن بن عمرو الكلبي
301 - محمد بن حسن الكلبي
320 - واجه س راه
323 - رحلة عوامية من الخليفة الحكم المستنصر على الامبراطور البّريطي تورنيل
336 - رسالة الراعي يشروع خد الناحي عليها
426 - رسالة عز الدين الله الفاطمي على الامبراطور البريطي بشأن كريت والي كافور
الخشيدي حول الشام نفسه
427 - رسالة من الخلافة لحاكم الفاطمي إلى رؤية انتفخ على صقلية
436 - تعليم صدر عن يوسف بن تآشين بشأن اتخاذه لقب أمير المسلمين
477 - رسالة عوامية من الدومني إلى الله من الألفات إلى الفوهة السادس
439 - رسالة تدكر إلى الله بن الألفات إلى يوسف بن تآشين يستعد به